وليام إيتون
حياة الجنرال الراحل

حرب السنوات الأربع (1801-1805)

تشارلز برنتيس

ترجمة آلية

مراجعة وتحرير

توفيق عياد الشقروني

2025م

LIBYAN WORD BRIDGE Translation

الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية

سلسلة الأعمال المترجمة (9)

ترجمة آلية

ويليام إيتون

حياة الجنرال الراحل

حرب السنوات الأربع (1801-1805)

تشارلز برنتيس

ترجمة آلية

مراجعة وتحرير

توفيق عياد الشقروني

2025م

LIBYAN
WORD
BRIDGE
Translation

الجمعية
الليبية
للدراسات
الأمازيغية

عنوان الكتاب: ويليام إيتون حياة الجنرال الراحل
المُحرر: تشارلز برنتيس
ترجمة الية: توفيق عيّاد الشقروني
الناشر:الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية/ مؤسسة Libyan Word Bridge
السنة 2025م
سلسلة الأعمال المترجمة (9)
التصميم والإخراج: الناشر
جميع الحقوق محفوظة للناشر
يسمح بنسخ أو استنساخ أو تصوير أو تسجيل أي جزء من هذا الكتاب لأغراض علمية وبحثية فقط، بشرط الإشارة إلى المصدر. ويمنع منعًا باتًا استخدام أي جزء من هذا الكتاب لأغراض تجارية، إلا بعد الحصول على موافقة خطية مسبقة من الناشر.
LIBYAN WORD BRIDGE Translation

الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية

إهداء

إلى مُعَلِّمي الأوَّل

أخي

خالد عياد الشقروني

فهرس المحتويات

تقديم الطبعة العربية

تصدير المترجم

يُوثق هذا الكتاب مسيرة «ويليام إيتون»، الضابط والدبلوماسي الأمريكي وأحد الفاعلين الرئيسيين في السياسة الخارجية الأمريكية تجاه حوض البحر الأبيض المتوسط في مطلع القرن التاسع عشر. تكمن القيمة الجوهرية لهذا العمل في كونه تقريراً تاريخياً شاملاً يوثق أولى المواجهات العسكرية الكبرى بين الولايات المتحدة الأمريكية و«إيالة طرابلس» خلال «حرب السنوات الأربع» (1801-1805)، وهي الحرب التي اندلعت إثر نزاع حول نظام الإتاوات البحرية مع حاكم طرابلس آنذاك «يوسف باشا القره مانلي».

صدرت النسخة الأصلية لهذا الكتاب عام 1813 بإشراف المحرر «تشارلز برنتيس»، الذي تولى جمع وتبويب أرشيف حافل من المراسلات الرسمية واليوميات الحربية التي كُتبت في قلب الأحداث. ويقدم النص للقارئ تفاصيل دقيقة حول التوترات الدبلوماسية التي سبقت الصراع، وصولاً إلى الحملة العسكرية التي قادها إيتون براً من الإسكندرية عبر الصحراء الليبية، محالفاً «أحمد باشا القره مانلي» في مسعاه لاسترداد عرشه في طرابلس من أخيه يوسف باشا. ويختتم الكتاب بتقديم البعد الثقافي لتلك الحقبة من خلال قصيدة الشاعر «جون بيربونت» التي خلدت ذكرى إيتون في الوجدان الأمريكي المعاصر له.

وفي هذه النسخة العربية، واجهنا تحدي التشظي في التقارير والمراسلات التي وردت في الأصل بشكل غير متسلسل أحياناً؛ لذا، اتخذنا قراراً بإعادة تبويب وترتيب بعض/عدد من التقارير وفق تسلسلها الزمني. ويهدف هذا

النهج إلى منح القارئ والباحث تسلسلاً منطقياً للأحداث التاريخية، وضمان ترابط السرد بين الخطط العسكرية والمفاوضات السياسية، بما يحقق وحدة الموضوع وسلاسة التتبع. إن تقديم هذا العمل للمكتبة العربية هو محاولة لتوفير مصدر أولي يقرأ أحداث تلك الحقبة من وجهة نظر أمريكية معاصرة لها.

توفيق عيّاد الشقروني
25 ديسمبر 2025
السراج - طرابلس

حياة الجنرال الراحل ويليام إيتون
مُستقاةٌ في معظمها من مراسلاته ومخطوطاته

مكتب كاتب المقاطعة.

في اليوم السادس عشر من أبريل لسنة ألف وثماني مئة وثلاث عشرة من الميلاد، وفي السابعة والثلاثين لاستقلال الولايات المتحدة الأمريكية، أودع السيد إبنيزر ميريام من مقاطعة ماساتشوستس بهذا المكتب سجلَّ كتابٍ يدّعي ملكيته، وجاء عنوانه على النحو الآتي:

«حياة الجنرال الراحل ويليام إيتون؛ ضابط عمل في جيش الولايات المتحدة، وقنصل لدى إيالة تونس بسواحل البربر، وقائد للجيوش التي زحفت من مصر عبر صحراء برقة عام 1805 فاستولت على درنة، وهو ما أفضى إلى عقد معاهدة السلام بين الولايات المتحدة وإيالة طرابلس. والكتابُ مستقىً في معظمه من مراسلاته ورسائله الأخرى.»

وقد أودع الكتابُ استنادًا إلى قانونٍ أصدره كونغرس الولايات المتحدة، وهو القانون المعنون «في شأن تشجيع العلوم بتأمين نسخ من الخرائط والرسوم والكتب لمؤلفيها ومالكيها في المدد المحددة فيه»، وكذلك استنادًا إلى القانون المكمِّل له، والذي يوسّع نطاق هذه الفوائد ليشمل فنون التصميم والنقش والحفر في الرسوم التاريخية وغيرها من المطبوعات.

ويليام إس. شو
كاتب دائرة ماساتشوستس

مقدمة المُحرر

توفي الجنرال إيتون في الأول من يونيو لسنة 1811. وما لبث أن أبدى نفرٌ من السادة، ممن كانوا يقدّرون مواهبه وخدماته حقَّ قدرها، رغبةً في إصدار سيرةٍ تاريخيةٍ لحياته، إيمانًا منهم بأن مخطوطاته الوافرة تحوي مادةً غنية، بالاختيار الحكيم، يمكن أن تُشكّل سردًا لأبرز أحداثه التي تستحق الخلود. وفي الوقت ذاته، كانوا يرجون أن يحقق الكتابُ رواجًا يغطي تكاليف نشره، وربما جنى ربحٍ يسهم في تعليم أطفاله الأيتام.

وفي هذا السياق، عرض الرائد آموس بين من وودستوك (بكونيتيكت)، زوج أخت الجنرال، أن يتحمل تبعات النشر، إذ كان يحفه إخلاصٌ للأسرة وحرصٌ على خدمتها. ولما كان يثق بحكمي -ربما مبالغةً في ذلك- ويلتمس مني ملاءمتي لهذه المهمة، كلّفني السيدُ بين باختيار المادة والإشراف على العمل.

وإذ كنتُ قد التزمتُ بقضاء الشتاء التالي في مدينة واشنطن، ولم يكن لدي متسع من الوقت لإنجاز العمل، فقد أُرجئ الأمر إلى الربيع التالي. ثم أخرَّ تأخُّرُ ورق الطباعةِ البدءَ بالعمل حتى أواخر خريف العام الماضي. وليس هذا التأخيرُ بالذي يُخلُّ بقيمة الكتاب أو يُؤثّر في رواجه إن هو أفاد القارئ أو أمتعَه. وإنما سقتُ هذه التفاصيل ليعرف القارئُ سببَ هذا التأخير في صدور كتابٍ أُعلن عنه من قبل.

لم يزل الجنرال إيتون يدوّن مذكراته اليومية في معظم أيام حياته، ويحتفظ بنسخ من رسائله الرسمية والخاصة، حتى إن اثني عشر مجلدًا بحجم هذا لن تضمنها جميعًا. فكان من شاقِّ العملِ أن أنقّبَ في هذه الكومة الهائلة من الأوراق، فأختارَ أطرافَها وأسوقَها في سردٍ تاريخيٍّ بقلمه يعرض حياته وأهم معاملاته. ولعل القارئَ يجدُ في الكتاب ما يرى أن حذفه كان أولى، ويجد ما يستصغر شأنه. وإرضاءُ الجميعِ غايةٌ لا تُنال. وما أنا إلا مجتهدٌ اجتهدتُ بحكمي المحدود، فأرجو أن لا يُوجَّه النقدُ إلى نيتي الصادقة، بل إلى عملي.

ولعجلي عن مراجعة المسودات، قد يعتري الكتابَ بعضُ السقطات المطبعية، وإن كنتُ أرجو ألا تكون جسيمة.

وقد كنتُ عزمتُ أول الأمر على تقسيم الكتاب إلى فصول، ولكن لما رأيتُ في ذلك تقسيمًا اعتباطيًا لا فائدةَ منه، آثرتُ أن أتركه ينساب مع التواريخ والأحداث كما أملتها وقائعُها.

وكان يُخطَّط لإدراج أسماء المشتركين، غير أن استحالة جمع قوائمهم في الوقت المناسب دعتني إلى الاستغناء عن ذلك، إذ لا يُعدُّ أمرًا ذا بالٍ يستحق معه تأخيرُ صدور الكتاب.

المُحرِّر،

تشالز برنتيس،

بروكفيلد،

في 12 أبريل سنة 1813.

حياة الجنرال ويليام إيتون

مع مختارات من مراسلاته وكتاباته الأخرى

السيرةُ التي يُميلُها هوى الصداقة، أو يُشوّهُها عداءٌ مُسبقٌ؛ فتُقدِّمُ الفضائلَ في ألوانٍ زاهيةٍ، أو تعرضُ عيوبَ العظماء بعينِ الشماتة؛ إلا سيرةً تنتهك حرمةَ الحقيقة، وتُخيّبُ أملَ الفضولِ النزيه، وتفتحُ البابَ للشكِ والتحريف. وللجمهورِ على مَنْ ينتحلُ سردَ شخصيةِ الفقيدِ حقٌّ مشروعٌ؛ فهو يطالبُ بصورةٍ أمينةٍ يرسمُها قلمُ الحق. وأما المبدأُ القديم Nil de mortuis nisi bonum (اذكروا محاسن موتاكم)، فلم يُقصد به التاريخُ ولا السيرة، وإلا لَمَحَقَ التمسكُ به قيمتَهما معًا. ولن يكون تصويرُ شخصيةِ فردٍ وسردُ أفعاله نافعًا للقارئ، إن اقتصر على إظهارِ السماتِ المحبوبةِ والمآثرِ الباهرة. فلا بد من إبراز نقاط الضعف والانحراف عن الواجب، كما لا بد من إظهار الفضائل والمناقب؛ لِتُجتَنَبَ الأولى ويُقتدى بالأخرى.

وُلِدَ ويليام إيتون، موضوعُ هذه المذكرات، في وودستوك بكونيتيكت، في 23 فبراير 1764. وهو الابن الثاني للسيد ناثانيال والسيدة سارة إيتون. توفي والده في 23 نوفمبر 1804، ووالدته باقية على قيد الحياة. وكان أبوه رجلاً بسيطًا من الفلاحين، يعيل أسرته بكدِّ يديه، ويزيد دخلهَ بالتدريس في فصول الشتاء نحوًا من عشرين عامًا، إذ كان موفورَ المهارةِ في ذلك. وقد رُزِقَ من البنين ثلاثة عشر، ثمانية منهم على قيد الحياة.

وبدا على ويليام منذ حداثته قوةُ عقلٍ وطباعٌ فريدة. فكان يُبغضُ العملَ الشاقَّ، ولا يجد متعته إلا في الكتاب والقلم والبندقية. تعلم على يد أبيه القراءةَ والكتابة، ونال في الحساب نصيبًا وافرًا. وإذا ما أُكره على العمل في الحقل أو الغابة، أخفى كتابًا في جيبه أو خبّأه بين الشجر، ليترك عمله وينصرف إلى قراءته كلما غفلت عنه عين الرقيب، أو أتاحت له فترةٌ من الراحة.

وفي العاشرة من عمره، انتقل به والداه إلى مانسفيلد. وكانت روحه في تلك المدينة جريئةً مُقامِرةً، كادت به التهوراتُ أن تُودي بحياته مرارًا. ففي أحد أيام الأحد، إذ كان عائدًا من الكنيسة، تسلق شجرةَ كرزٍ على قارعة

الطريق، فسقط عنها وخلعت كتفه. ومن شدةُ الارتجاجِ الذي أصابه أفقده الوعي أيامًا، ولم يَعُد إليه إلا في صبيحة يوم الأربعاء التالي، حين سأله جارٌله -وكان دبّاغًا يجلس إلى جانب سريره -: هل تحب الكرز؟ فأجاب: «وهل تحب أنت الجلود؟».

وفي السادسة عشرة من عمره، وبلا علم من والديه أو استئذانٍ، هرب من بيته والتحق بالجيش، حيث أقام فيه أكثرمن عامٍ في خدمة الرائد ديني من قوات كونيتيكت.

ولم يلبث أن اعتلت صحته، فأُذن له بالعودة إلى كونيتيكت، ولكنه أصيب في طريقه بعرجٍ شديدٍ حال بينه وبين المسير، وقد بقي على يومين من مانسفيلد. فأوى إلى منزل مزارعٍ يعيل نفسه بإصلاح الكراسي القديمة. وبعد ثلاثة أسابيع، جاءه أبوه وقد علم بمكانه ليأخذه، وعرض للمزارع تعويضًا عن إقامته، فأبى المزارع قائلاً: إن ما قدمه من إصلاح للكراسي، وما أفاد به أطفاله من علمٍ، كانا له خيرَمكافأة، وسيكون سعيدًا بإبقائه عنده أطول، لمجرد ما يجده في صحبته من متعة.

غيرأن ويليام لم يطل به المقام في البيت؛ فما أن استعاد صحته حتى عاد إلى الجيش، حيث بقي حتى الأول من أبريل 1783، حين أُحيل على التقاعد برتبة رقيب بعد أن رُقّي قبل ذلك.

أقام مع والديه حتى سبتمبر1784، ثم شرع في دراسة اللغة اللاتينية على يد القس نوت من فرانكلين، وفي الشتاء التالي بدأ بدراسة اليونانية.

وفي صيف عام 1785، تأثرت نفسه تأثرًا بالغًا بالانطباعات الدينية، فقُبل رسميًا عضوًا في كنيسة تلك البلدة.

وفي أكتوبرمن العام نفسه، قصد هانوفر(نيو هامبشاير) وقُبل طالبًا في السنة الأولى بكلية دارتموث، مع إذنٍ بالغياب خلال فصل الشتاء. وكان هذا الإذن يُمنح كثيرًا للطلاب الفقراء، على أمل أن يواصلوا دراستهم مع عملهم بالتدريس لسدِّ حاجتهم، ثم يعودوا لصفوفهم. إلا أن إيتون، لبعض الصعوبات التي واجهها في أهله، وإفراغه جلَّ وقته للتدريس، لم يستفد من قبوله الأول عام 1785، فقُبل مرة أخرى في مايو 1787.

وفي نوفمبر 1785، بدأ يُدرّس في مدرسة بأبرشية ويندهام المعروفة

باسم «اسكتلندا»، ويُكرس جزءًا من وقته لدراسته الجامعية تحت إشراف القس كوغزويل. بقي هناك حتى الأول من يونيو 1786، ثم عاد إلى والديه في مانسفيلد، فكان يعمل في المزرعة بعض الوقت، ويُكرس الباقي لمتابعة دراسته تحت إشراف القس ولش من مانسفيلد، رجلٍ كان يكنُّ له أسمى درجات الاحترام.

وفي نوفمبر، عاد إلى مدرسته في ويندهام، وبقي فيها حتى مارس 1787.

وفي مايو 1787، انطلق سيرًا على الأقدام من مانسفيلد ليعيد قبوله في كلية دارتموث، معلقًا على كتفه عصا تحمل صرته التي فيها غيار من الكتان وبعض الحلي التي رجا بيعها في طريقه، وبجيبه بستار واحد من النقود. وحين بلغ نورثفيلد، نفد ما معه من مال، فانهارت عزيمته وأسلمت عيناه للدموع ساعاتٍ. غير أنه استعاد قلبه، وعرض دبابيسه وإبره للبيع، وبتوفيق من الله وعون من المخلصين، تمكن من بلوغ هانوفر. وبعد أن قدّم رسالة توصية من القس نوت إلى الرئيس ويلوك، عامله ذلك السيد بإكرامٍ بالغ، وبعد اجتيازه الامتحان، انضم إلى صف السنة الأولى، الذي كان حينها في ربعه الأخير.

أخذ يُدرّس في مدرسة بوندسور (فيرمونت)، وفي الرابع من يوليو، شارك في تمثيلية أعدّها طلاب الكلية.

وإذ أدرك ضرورة بذل الجهد لإعالة نفسه طوال مسيرته الأكاديمية، سعى في دراسته بأقصى ما يطيق، ليحافظ على مكانته ويتيح لنفسه وقتًا كافيًا للتدريس. فالإفراط في الجهد أضنى صحته، وأصيب بحمى هزال. نصحه الطبيب بتعليق دراسته، فلم يمتثل إلا حين أجبره المرض. فب رحلة إلى وندسور، والعناية بصحته هناك، وتركه للدراسة، استعاد قوته تدريجيًا.

وفي نوفمبر، بدأ يُدرّس في مدرسة بتلك المدينة، ويُكرس كل أوقات فراغه لمطالعة دروسه، وكان يُواصل السهر حتى يُنذره الفجرُ بالنوم. بقي هناك حتى مايو 1789، ثم عاد إلى صفه.

وفي سبتمبر، استأنف مدرسته في وندسور، واستمر فيها حتى مايو 1790، حيث بقي حتى أُغلقت التمارين الجامعية لصف السنة النهائية. وبعد رحلة إلى كونيتيكت، عاد إلى هانوفر، فنال درجة البكالوريوس في الآداب، وفي حفل التخرج يوم 20 أغسطس، وقد أدى مع زميله ويليام جاكسون حوارًا

شعريًا. [لا أجد أثرًا لهذا العمل بين أوراقه.]وفي ديسمبر التالي، افتتح مرة أخرى مدرسة في وندسور، واستمر فيها حتى أغسطس 1791، عندما ترك مهنة التدريس. وفي أكتوبر، عُيِّن كاتبًا لمجلس نواب ولاية فيرمونت.

وفي الشتاء التالي، زار كونيتيكت، وفي أثناء رحلته التقى بأخيه السيد كالفين إيتون المقيم حينها في بريمفيلد (ماساتشوستس). كما تجددت معرفته بأسرة الأونرابل تيموثي دانيلسون من تلك المدينة، وهو رجل واسع الثقافة تقلّد عدة مناصب مدنية وعسكرية سامية ويحظى بتقدير بالغ. وقد توفي الجنرال دانيلسون وترك خلفه أرملة في الخامسة والعشرين من عمرها، كانت هي التي تجددت معرفة إيتون بها.

وفي مارس 1792، ورد إليه إعلام رسمي بتعيينه نقيبًا في جيش الولايات المتحدة، فقبل المنصب. وكان لوساطة الأونرابل ستيفن آر. برادلي، وهو الذي يشغل منذ سنوات عديدة مقعدَ ولاية فيرمونت في مجلس الشيوخ الأمريكي، أثرٌ كبير في هذا التعيين، إن لم تكن السبب فيه.

التزامًا بأوامر وزارة الحرب، سار في مايو إلى بينينغتون (فيرمونت)، فتولى قيادة المجندين الذين كان قد جمعهم ملازمه تشارلز هايد، وشرع هو نفسه في مهمة التجنيد.

وفي يوليو، نال الدرجات الثلاث الأولى في الماسونية في محفل «نجمة الشمال» بمانشستر.

ولما فرَّ بعض جنوده، أسرع النقيب إيتون في مطاردتهم، سلك طريقه إلى ويندهام (كونيتيكت) بينما وجّه رقيبًا إلى وندسور (فيرمونت). وبعد أن قضى فترة وجيزة في بريمفيلد، تزوج في يونيون (كونيتيكت) في 31 أغسطس بالسيدة إليزا دانيلسون، ثم غادر من فوره إلى وندسور، حيث وجد رقيبه قد ألقى القبض على الفارين.

وبعد أن صدرت إليه الأوامر بالتحرك، سار في سبتمبر بسريته إلى ألباني، ثم إلى نيويورك وفيلادلفيا. وهناك انضمت إليه قوات أخرى، ثم أُمر بالتوجه إلى بيتسبرغ.

ووصلت القوات إلى بيتسبرغ في 28 أكتوبر، وفيها تعرف على الجنرال واين. وبعد فترة وجيزة، أبحرت القوات في نهر أوهايو، حتى انضمت إلى

الجيش في ليجونفيل.

وفي مارس 1793، وقع خلاف بين النقيب إيتون ومساعد القائد العام بالنيابة. وبما أن هذا الحادث يكشف عن كثير من طبعه الحاد وحسمه، سأرويه على لسانه:

(الأحد، 17 مارس - استعراض عام للجيش.)

نتيجة نقص الضباط الميدانيين، توليتُ قيادة العمود الأيسر للجيش. وخلال المناورات، أمر الجنرال عمودي، الذي كنتُ قد شكلته في خطين أمامي لتغطية أي هجوم من الأمام، وأن يستدير على اليسار ويدور إلى اليمين ليصبح على الجناح. فأصبح فصيل الجناح والموسيقى في الوسط، والوسط على الجناحين، والصف الخلفي في المقدمة.

ولما توقف إطلاق النار، أمر مساعد القائد العام بالنيابة باستئناف المسير، والعودة بنفس الترتيب الذي سرنا به إلى الميدان، وهو مسيرة عكسية من اليمين. فأمرتُ فورًا الجناحين والوسط بالمسيرة العكسية من اليسار، وهي الطريقة الوحيدة الممكنة لإعادتهما إلى ترتيبهما الصحيح. فرآني مساعد القائد العام، وهو لا يعلم موضع العمود، فألغى أمري وأمرني بالمسيرة العكسية من اليمين. وكنتُ على صواب تام، وواثقًا أنني أُعيد العمود إلى الموضع الذي كان يريده هو نفسه، فمضيتُ في سيري. فلما أوصلتُ مقدمة العمود إلى مكانها الصحيح، التقاني في الطريق ب. بتلر مساعد القائد العام، وبحضور الجنرال، اتهمني بعصيان أمر صريح. فقلتُ له: إني لم أفعل، بل كنتُ على صواب. فدار بيننا كلام حاد وإن كان وجيزًا. فهددني بأنه سيجعلني نادمًا على فعلي، فتحدَّيته أن يفعل ذلك. فاستشاط غضبًا، وتقدم نحوي على صهوة جواده وبيده سيفه مسلول. فاستقبلته في منتصف الطريق بحربتي مشهورة نحوه.

فأبصر الجنرال الموقف، وقال بصرامة: هذا ليس مكانًا للجدال، وأمرنا بمواصلة المسير، فأطعتُ في الحال. ولما عاد الفيلق إلى الساحة الرئيسية وتفرقوا، كتبتُ إلى ب.بتلر أُحاجُّه.

ليجونفيل، 17 مارس، الساعة الخامسة مساءً.

سيدي،

[متى وجب أن أُفهم، فسأُفهم.]

إيتون.

إلى مساعد القائد العام بالنيابة

فأوصل صديقي النقيب سلو هذه المذكرة، فما كان من ب. بتلر إلا أن تعهد بشرفه أني سأسمع جوابه.

وجاءني صباح اليوم التالي جوابه الآتي:

18 مارس، 1793.

سيدي،

بلغتني مذكرتك على يد النقيب سلو. لقد كنتُ قد أعددتُ ردًا بالأمس، فمن الممكن الرد على رسالة غامضة كهذه. ولكني حين راجعتُها صباح اليوم، وخشيتُ أن يسيء ذوو النوايا السيئة تفسيرها، رأيتُ أن أقدم لك الاقتراح الآتي أولاً: بما أنني قد شعرتُ بإهانة بالغة من سلوكك بالأمس، فعلينا أن نغتنم فرصة للتوضيح العلني بحضور السادة الذين كانوا تحت قيادتك في العمود، وينبغي لهم أن يعلموا ما حدث وأسبابه.

فإن لم يكن هذا التوضيح مرضيًا، فستُبلَّغ بنواياي الأخرى. وإن شئت، فحدد المكان وأعلمني به.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام،

ب. بتلر.

إلى النقيب وليم إيتون.

فأجبته على الفور:

مساء الاثنين، 18 مارس.

سيدي،

يسعدني أن ألتقي بك بصحبة سادة عمودي. تفضل، سيدي، بتحديد الزمان والمكان.

إيتون.

إلى النقيب بتلر، مساعد القائد العام بالنيابة.

فكان رده ما يلي:

18 مارس، 1793.

بعد أن بلغتني موافقتك، حددتُ كوخ النقيب برايس مكانًا للاجتماع. سأحاول الحضور هناك خلال ساعة.

الاثنين، الساعة 6:30 مساءً.

إلى النقيب إيتون.

وعلى أثر ذلك، التقينا. وقد افتتحتُ كلامي للسادة الحاضرين، مبينًا أنني جئتُ استجابةً لطلب النقيب بتلر الذي دعاهم، وأنني أنتظر منه أن يعرض عليهم وجهة نظره في الأمر. ففعل، وطرحوا عددًا من الأسئلة، ثم انسحبنا. وما لبثوا أن استدعونا، وأصدروا حكمهم التالي:

«لقد قضى المحكمون، لتسوية الخلاف بين النقيبين بتلر وإيتون، أنه مهما يكن النقيب إيتون مخطئًا في البداية، فإن النقيب بتلر كان مخطئًا بالقدر نفسه، إن لم يكن أكثر، فيما تلا. وبما أن سوء الطالع قد جمع بينهما في الخطأ، فمن الواجب عليهما أن يتناسا هذا الأمر. وتجديد علاقة الصداقة بينهما.

بنجامين برايس، نقيب، الفيلق الرابع.

رئيس المحكمين.

18 مارس، 1793.»

وافق النقيب ب. بتلر على هذا الرأي ومدَّ إليَّ يده. وإذ كنتُ ممن يضحي برأيه الخاص من أجل أصدقائه، قبلتُ يده.

وفي الخامس من مايو، بلغ الجيشُ سينسيناتي. ووصف إيتونُ نهر أوهايو وضفافه وصفًا بليغًا، جاء فيه:

في الأيام الثلاثة الأخيرة من رحلتنا النهرية، إذ كانت حراسة المؤخرة قد أُنيطت بي، أُتيحت لي فرصةٌ ثمينةٌ أتأنى فيها في سيري وأُطلق عينيَّ كيفما شئتُ، ما دمتُ في حدود الأوامر. فما رأت عيناي من قبلُ مثل هذه العظمة في الطبيعة البكر. إن وصف ضفاف نهر أوهايو ليعجز عن الإحاطة بجمالها، وما هو إلا صدى باهت لروعتها. وما زالت الجغرافيا عاجزة عن إنصاف هذا الموضع. فلم أرَ على امتداد مئتي ميلٍ تلةً واحدةً غير صالحة للزراعة. ما تراه العين إلا وادٍ خصبًا تتخلله تلالٌ لطيفة الارتفاع. ودلَّ على خصب التربة كثافةُ النبات ونماؤه السريع وضخامةُ أشجارها. وتبلغ أشجارُ الجميز والدردار

والزان والحور والجوز والجوز البقان والقيقب من الضخامة حدًا لا يُصدق. وفي هذا الفصل المبكر، كانت الأشجار قد اكتملت أوراقها. واكتسى الوادي عشبٌ يبلغ ارتفاعه قدمين تقريبًا.

«كثيرًا ما كنتُ أخترق تلك الغياض متقدّمًا برفقة جنديين من حراسي، أحدهما كنديٌ نشيط، فأجدني وقد قطعت مسيرة تقارب ميلين أو ثلاثة من غير أن أشعر بابتعادي عن القارب، بينما تبقى الأرض على خصبها لا يتغيّر. وكانت جولاتي كلّها في الضفة الهندية من النهر، حيث تتكاثف آثار الغزلان والدببة والجاموس وبصمات الأقدام الهندية، غير أنّي لم ألمح من تلك الحيوانات شيئًا، إذ يبدو أنّ صخب الجيش نفّرها بعيدًا عن الشاطئ.

ومع ذلك، يظلّ النهر أعجبَ من ضفافه؛ فما رأيت نهرًا أشدّ تقلّبًا منه. ويُصدّق المرء حين يسمع أنّ مياهه قد تعلو في مواسم الفيضان عشرة أقدام أو خمسة عشر في ليلة واحدة، ثم تنحسر في أيام معدودات. ويجري بتيار سريع يبلغ خمسة أميال في الساعة عند الفيضان، فلا تقوى السفن الكبيرة، وإن هبّت مع التيار، على الصعود فيه قط. وتشقّ القوارب ذات القاع المسطّح طريقها عكس التيار بالجدف، غير أنّ ذلك يستنزف من الجهد ما يستنزف. ولستُ ممّن يطيب لهم السفر فيه صعودًا.»

في أغسطس، مَثَلَ ملازم يُدعى ماكنريان أمام محكمةٍ عسكرية بعد أن وجّه الجنرال سانت كلير جملةً من التهم إليه، فدانته المحكمة وعزلته من الخدمة. ودون إيتون أسماء أعضاء تلك المحكمة وما آل إليه مصيرهم بعد مدة يسيرة كما يأتي:

العميد توماس بوسي رئيسًا — استقال ثم مات.

الرائدان د. — استقالا ثم ماتا.

هـ. — أهلكه الخمر.

النقيب ب. — مات بسببه.

ب. — مات.

إيتون — في تونس؟

ب. — أرداه الخمر.

م. — مات.

ف. — مات.

ب. — مات.

ج. — أهلكه الخمر.

كامبل — قُتل.

ويغترّ المرء إذا رأى طيش الآخرين ورذائلهم، متيقنًا أنه أبعدُ ما يكون عن مصائرهم، غير أنّ الذنب إذا تواتر على العين واعتادته النفس، بدأ بالتساهل، ثم رقّ له القلب حتى يمدّ إليه صاحبه ذراعه ويعانقه.

وظلّ النقيب إيتون في الجيش الغربي إلى فبراير 1794، حين نال إجازة قصيرة. وخلال خدمته، شارك في غير مناوشة وسرية استطلاع، وأسهم في بناء حصن «ريكفري».

وتأتي اللمحات التي رسمها لشخصية الجنرال واين، وقد كتبها نحو عام 1795، على الصورة الآتية:

رجلٌ قوي البنية، شديد العزيمة، دؤوب لا يعرف الكلل، صارم مثابر، ثابت الرأي، نزيه القضاء. ليس بالسهل المأخذ، لكنه يجزل المكافأة لصاحب الاستحقاق. صخرةٌ تحطمت عليها أمواج الافتراء والحقد التي رمتها بها نفوس حسود، وبقي راسخًا لا يتزعزع. وككل من يطلب مجد الحرب، يقبل بالمداهنة إلى حدّ ما. ويصطبر على التعب والمشقة صبرًا يكاد يندر في رجل في مثل سنه. رأيته في زمهرير شتاء 1794 ينام على الأرض كجنوده، ويدور على معسكره في الرابعة فجرًا كحارس يقظ. أخلاقه صارمة قد تنفّر، غير أن قلبه مشرع لأرقّ المشاعر. وإذا حمي وطيس القتال بدا في عنصره، ولا يكون في هيئة أكمل من حاله حين يقود الهجوم. إن اسمه في ميدان القتال، أو في أرض العدو، خيرٌ من لواءٍ كامل من جندٍ لا يضبطون أنفسهم.

وبعد أسابيع معدودة قضاها في فيلادلفيا، عاد إلى بريمفيلد. وفي يونيو، وبناء على طلب مكتب الحرب، انتقل إلى سبرينغفيلد ليتولى شؤون التجنيد، فعرض عليه وزير الحرب أن يستمر في هذه المهمة أو يعود إلى الجيش في الغرب. فلبث فيها حتى أكتوبر 1795، حين صدرت إليه الأوامر بالتحرك إلى جورجيا. وصل مع قوّاته إلى فيلادلفيا، وفي الأول من ديسمبر أبحر إلى جورجيا. وفي ليلة الثالث عشر هبّت عاصفة هوجاء من مطر وبرد ورعد وبرق، فكتب إلى

السيدة إيتون يصفها في مقطعٍ نثريٍّ شاعري يصوّر المشهد كما يلي:

((عوى الريحُ في حبال الصواري عويلاً أجشّ، نذيرَ عاصفةٍ هوجاء.. وتجهّم أديمُ السماء بكتلِ الظلام، كأنما العناصرُ في جوفها تخوضُ حربَ الفناء.

هاجَ اليمُّ وتلاطمت أمواجُه، تدفعُ أمامها جحافلَ الشرر، ممتطيةً صهوةَ الريح الغضوب. حتى المحيط.. ذلك الجبّارُ المثقلُ بأحزانه، انكمشَ تحتَ سطوةِ القبةِ القاتمة، يزفرُ من أعماقِه أنينَ الوجع، باحثاً عن خلاصٍ ضائع.

وانهمرَ الغيثُ ناراً وبرداً، ينسكبُ في مساربَ ملتوية، بينما مزَّقت البروقُ الزرقاءُ عباءةَ الليل، مُحيلةً حلكةَ الدجى نهاراً يستعر، لتكشفَ للعينِ هولَ المصير..

قمةٌ إثرَ قمة تتفجرُ من مدافعِ السماءِ الملتهبة، ولا شيءَ يلوحُ في الأفق.. سوى الفزع.

ومع ذلك ظلت السفينة تهوي تحت الموج ثم تقفز فوقه، مندفعةً في العاصفة، تتلقّى مسّ البرق على ظهرها العريض، ثم تغيب مرة أخرى تحت الزبد المتكسر. وبقي البحّار الصلب والجندي الصامد يتخبطان بين الغرق، وقد علّمت الوحشية نفسيهما يأسًا ساكنًا، بينما احتمل العقل السويُّ الأخطار بصبره. وتعالت صيحات النساء المرتجفات، وصرخات الأطفال المذعورين، تبثّ خوفًا موحدًا، وارتفعت من كل نفس توسلاتٌ مرعوبة، كأن الخالق قد نسي لطفه.

واشتدّت الظلمة، وغطسنا في ترقّب رهيب، وسيطر الذهول على الأرواح حتى كاد الأمل يندثر. ثم ما لبثت نفحة رحيمة من قَدَرٍ أرقّ أن هبّت، فدفعت ببخار البرق عبر الفضاء، وأسكتت هدير الرعد المتباعد، وكبحت غضب البحر الهائج. عندئذ نهضت العقول الخاضعة من يأسها، ورفعت القلوب المفعمة بالامتنان ثناءها إلى غفران السماءِ)).

بحلول السادس والعشرين، حطّ رحاله في «سافانا»، ليواصل المسير حتى بلغ «سانت ماريز» في الثلاثين من الشهر ذاته. وهناك، رفع تقريره إلى قائد الموقع، المقدم «هنري غايثر»، ليتسلم بعدها زمام قيادة مفرزة قوامها

مائة وستون جندياً من فيرجينيا -كانت بإمرة النقيب تينسلي- ليربو عديد القوة في تلك المحطة على الثلاثمائة رجل.

وقد وقع الاختيار عليه لتشييد حصن في «كوليرين» المطلة على نهر سانت ماريز، فبادر النقيب «إيتون» إلى التنفيذ، ورغم تحفظه الشديد على طبيعة الأرض؛ إذ كانت منخفضة، وتغمرها المستنقعات، ويفسد هواءها الركود. وقد أطلق على التحصين اسم «حصن بيكرينغ»، معلقاً بتهكم مبطن: «لم أفعل ذلك سخريةً من صاحب الاسم، ولا رغبةً مني في تخليد ذكراه وسط مستنقع».

وفي غضون شهر مايو، وفد ثلاثة مفوضين من الولايات المتحدة عُهد إليهم بإبرام معاهدة مع قبائل «الكريك» الهندية، التي طالما أنهكت حدود جورجيا بغاراتها المتكررة، وقد كُللت مساعيهم بتوقيع المعاهدة أواخر يونيو. كانت الغاية من القوة المرابطة في سانت ماريز مزدوجة: إنشاء مركز تجاري، وتأسيس قوة عسكرية لردع الهنود أو اعتقالهم عند الضرورة، فضلاً عن كبح تعنت الإسبان الذين عُرفوا بسوء المعاملة، وضبط تجاوزات سكان جورجيا تجاه جيرانهم في فلوريدا. وقد تحقق الشق الأول المتعلق بالهنود إلى حد كبير بفضل تلك المعاهدة.

غير أن بذور الشقاق ظلت كامنة لأشهر بين النقيب إيتون والعقيد غايثر وبعض الضباط، حتى تفاقم الأمر باعتقال إيتون في أغسطس ومثوله أمام محكمة عسكرية. ولما كان العقيد «بور» قد استمات -إبان محاكمته في ريتشموند- في محاولة نسف مصداقية إيتون والطعن في أهليته مستنداً إلى تلك التهم القديمة، ولتبديد أي ظنون قد تساور الأصدقاء، وجب استعراض بعض التفاصيل. وتأتي الرسالة التالية -رغم طولها- بعيدة كل البعد عن الإملال؛ إذ تكشف بوضوح عن براعته في المرافعة، وفصاحة قلمه، وهي رسالة كان قد وجهها إلى وزير الحرب.

حصن بيكرينغ، 18 سبتمبر 1796.

«سيدي،

تحت وطأة ما أتكبده من أذى، أجدني مضطراً لمخاطبتكم في شأنٍ لا يقلُّ إيلاماً لي، بقدر ما أنا موقنٌ بأنه لن يلقى ترحيباً لديكم.

منذ وصولي وتعرفي الأول بقائد القوات الفيدرالية في جورجيا، وجدتُ نفسي غرضاً لإهماله المتعمد والمغرض في آن. ورغم أن أصدقائي يعزون ذلك إلى طبيعة القيادة التي أُوكلت إليّ، إلا أنني أرجّح أن لبغضه جذوراً أخرى. فقد رفعتُ إليه تقريراً من «سافانا» بتاريخ السادس والعشرين من ديسمبر، وتلاه آخر من «سانت ماريز» في الثلاثين منه، مُرفقاً بنسخة من تعليماتكم. وحين وافانا هنا في فبراير، بسطتُ أمامه كافة الترتيبات التي أنجزتها، أو تلك التي كنت أعتزم الشروع فيها.

تظاهر بدايةً باستحسان تلك التدابير، بل وتنازل ليتفضّل بالثناء على جهودي؛ غير أن القناع سرعان ما سقط، لأجد نفسي ممزقاً بين عداوته وبين نداء الواجب. واصلت استشارته، لكن أوامره -إلا فيما ندر- كانت تأتيني شفهياً. ولما ألفيتُ ذاكرته تخونه مراراً، تجرأتُ على الاعتراض على هذا النمط من الانضباط العسكري، ولكن دون طائل. بل إن امتثالي لتلك الأوامر الشفهية أورثني التوبيخ تارةً، والاتهام المباشر بالتقصير تارةً أخرى. وهذه التهمة، بمعية تهمٍ أُخر، سأتجاسر على إرفاقها بهذه الرسالة طيَّ نسخة من دفاعي. ولا شك أن وقائع المحكمة ستُرفع إلى مكتب الحرب وفقاً للقانون، ومن خلالها سيتبيّن ما إذا كانت الملاحقة القضائية نابعة من دوافع للصالح العام، أم مآرب خفية.

ومهما كان أثر القيادة الموكلة إليّ في إثارة حفيظة القائد، فإن ثمة أسباباً أخرى أكثر جلاءً، أودّ أن أطرح بعضها. فالرجل يمتلك أراضٍ ضمن «مشتريات يازو»؛ وإبان وصوله ولقائنا الأول، عرض عليّ صفقة تتضمن -على ما أذكر- 500,000 فدان مقابل 35,000 دولار، غافلاً عن إحاطتي المسبقة ببطلان سند الملكية. وأعترف أنني جاريتُه في عرضه لأختبر مدى نزاهته، لكنني في الختام أعرضتُ عن الصفقة برمتها، منتقداً بصراحة الكيفية التي استُحصلت بها تلك المنح، ومؤكداً في الوقت ذاته أنني لن أدين بالفضل لرجل يمنحني فرصة للمضاربة استغلالاً لجهل السذج، وعلى حساب العدالة.

علاوة على ذلك، فإنه يمتلك -أو يمالئ من يمتلكون- مساحات شاسعة من الأراضي المتاخمة لهذا الموقع. ولم أتردد في انتقاد تلك الرؤى النفعية التي لا بد أنها كانت الحافز وراء توصية المالك بهذا الموقع ليكون مركزاً عسكرياً أو

مقراً لمصنع تجاري. وتلك كانت فحوى تقاريري إلى مكتب الحرب؛ الأمر الذي صبَّ الزيت على نار عدائه المستعر أصلاً لاجتثاثي. ومع ذلك، فقد تناولت هذا الأمر بصدقٍ وتجرد؛ فشخصية أي رجل لن تحرف بوصلة مشاعري عما أؤمن أنه حقٌّ للحقيقة وواجبٌ عليّ.

لم يكن ينبغي أبداً تأسيس موقعٍ هاهنا؛ فامتداد الأراضي المستنقعية والمنخفضة، التي تأسر المياه فوق أديمها، واختلاط المواد النباتية المتساقطة أو تلك التي تلفظها التربة، كل ذلك يُشبع الهواء بأبخرة سامة تفتك بالصحة. إنها أرضٌ لا تغسلها الأمطار؛ إذ يذهب جلُّ ما يسقط من ماء أدراج التبخر، مخلفاً رطوبةً خانقة في الجو. ويشهد على ذلك تلك السحب التي تتلبد فور غياب الشمس، والأسراب المهولة من البعوض والحشرات التي تملأ الفضاء، والضفادع الصغيرة التي تتسلل حتى إلى مخادع المنازل، فضلاً عن ميل المعادن السريع للتآكل، وشحوب الوجوه واعتلال أبدان السكان الذين يقطنون المرتفعات والتلال المنخفضة.

وأستحضر هنا أن هذه الملحوظات قد تركت وقعاً عميقاً في نفوس السيد «كلايمر» والجنرال «بيكنز»، اللذين شرفاني بزيارة مستوطنة مجاورة في يونيو المنصرم. هذه الأبخرة الخبيثة، المشبعة دوماً في الهواء بدرجة أو بأخرى، وإن لم تكن سامةً لدرجة إحداث أوبئة فورية، إلا أنها تنهش الجسد البشري بصمت، لتُظهر آثارها الوخيمة في وقت وجيز. فالوجوه القادمة من المناخات الشمالية أو الجبلية، والتي كانت تفيض نضارةً وعافية، ما إن تمكث بضعة أشهر في هذه الأرض الوبيئة، حتى يكسوها الشحوب ويدبّ الوهن في أوصالها. وهذا ما تجلى بوضوح في القوات التي رافقتني من الشمال، وفي المواطنين الذين وفدوا من المقاطعات العليا لهذه الولايات الجنوبية.

الساحل صحي، نعم؛ لكنني أجرؤ على الجزم -حتى لو كلفني ذلك سمعتي التي عُلقت عليها آمال عراض- بأنه لا يوجد سوى موقع عسكري واحد مؤهل من مصب هذا النهر إلى منبعه، ألا وهو «تلة التجار». وللتدليل على صحة هذا الرأي، أحيلكم إلى شهادة الجنرال «بيكنز» والعقيد «هوكينز»، اللذين تشرفت باستطلاع الموقع معهما، ومع الأخير قمنا بمسح كامل امتداد البلاد حتى خط الهنود.

لقد هُمِسَ بأن لي مصلحةً في ذكر «تلة التجار»؛ وها أنا ذا أعلن رسمياً أنني لم أمتلك قط، ولا أنوي أن أمتلك، شبراً واحداً من أرضٍ في ولاية جورجيا. ولو كان الأمر خلاف ذلك، وكان الهمس صحيحاً، لظلت تقاريري ثابتةً على صخرة الحقيقة. إن المزاعم التي سِيقت لتزكية هذا الموقع كانت مغلفةً بأطماع المضاربة. فلا أعتقد أن المناطق المجاورة يمكن أن تُستوطن بنجاح؛ فالأطفال المولودون هنا نادراً ما يبلغون الحلم، وما إن يُفطموا حتى يكتسوا بذلك الشحوب المميت، وينسلّون بصمتٍ نحو القبور.

أما القلة من السكان المتناثرين تحت أشجار الصنوبر، فإما استدرجهم حلم الثراء الزائف، أو فرّوا من سوط القانون، أو من اضطهاد التعصب الديني. والحق أنه في هذه اللحظة، يقبع سطح الأرض في هذا الجوار لأميال مديدة -باستثناء مرتفعات نادرة- غارقاً تحت المياه. ولا يسعني إلا أن أعدّ التضحية بالأرواح البشرية وسعادتها قرباناً لمصلحة فردية، ضرباً من الإهدار الذي لا يغتفر.» ملاحظات من هذا النوع وضعتني كهدف لتحالف هائل. ظروف أخرى، مقترنة بهذه، مالت إلى تسريع العاصفة: بعضها موضح في دفاعي. لقد قلت مرارًا وتكرارًا إنني أعتقد أن السيد برايس شخص غير مناسب للعمل على رأس المصنع التجاري. إن كآبة طباعه، التي تتجلى بوضوح في ملامحه، والتي تظهر في جميع مناسبات أقل حيرة، أعتقد أنها كانت، وقد أثارت، اشمئزاز العديد من الهنود والتجار. من هذا الظرف، دعوت مرارًا وتكرارًا كل من الهنود والتجار إلى مقر إقامتي واستضفتهم، الذين كانوا غير راضين عن سلوك الوكيل. هؤلاء الناس يريدون الكثير من الاهتمام، وهم غيورون من الإهمال مثل الناس في الأوساط الراقية من الحياة. لقد درست أنهم لا ينبغي أن يتخيلوا أي شيء من هذا القبيل مني. وبهذه الوسائل، وجدتهم يزدادون تعلقًا بي وبالقوات، التي يسمونها رجال الجنرال واشنطن. إذا لم أقدم لبلدي خدمة بهذه التضحيات الصغيرة، فقد درست على الأقل أن أفعل ذلك. ولكن كما لا يمكن رؤية أي شيء بلونه الحقيقي بعين يملؤها الصفراء، كذلك لم يكن هذا السلوك مني. إن اهتمامي الخاص بهؤلاء الناس تم تفسيره على أنه تدخل في قسم التجارة؛ والاستياء الذي أثاره هذا وأشياء أخرى، مذكورة فيما بعد، في الوكيل، أضاف مساعدًا للتحالف.

عند إشارة إلى ما كان يجري، طلبت مرتين، برسالة، من القائد محكمة تحقيق؛ ومرارًا وتكرارًا بطلب شفهي. طلبي الأول كتابيًا أهمله تمامًا؛ أما طلبي الأخير فقد أجاب عليه بشكل غامض وتجنبه. وطلباتي الشفهية كانت دائمًا تؤجل؛ ومن ثم لم أرسوى أن إبعادي عن القيادة يمكن أن يحقق هدف الحلفاء، وتصالحت مع هذا الاحتمال. في الخامس من أغسطس، تلقيت رسالة من القائد، أقتبس منها: "ستقوم بإعداد كشف بجميع المخزونات العامة التي تلقيتها في فيلادلفيا، قبل إبحارك إلى جورجيا: وكذلك جميع الذخائر والمخزونات العامة من أي نوع كانت والتي تلقيتها منذ وصولك إلى جورجيا، مع الإشارة إلى جميع الإصدارات والنفقات؛ والشهر الذي وقعت فيه على المستخلصات، ومبلغ كل مستخلص؛ وتسليم ذلك إلى الرائد فريمان، بعد يومين من استلامك لهذه الرسالة."

نفذت هذا الأمر بأكبر قدر من الدقة التي سمح بها الوقت المحدد. في السابع، تلقيت ما يلي من الرائد فريمان: "أود أن أبلغكم أنه امتثالاً لأوامر المقدم القائد غايثر، الضابط القائد للقوات الفيدرالية في جورجيا، بتاريخ حصن إس. تاماني، في الثالث من هذا الشهر، أتولى هذا اليوم قيادة القوات في الحامية في هذا الموقع. فيما يلي مقتطف من الأمر المذكور، 'أطلب منكم عند وصولكم إلى كوليرين أن تتولوا قيادة القوات في ذلك الموقع' لذلك ستقومون بتوجيه، إلخ."

تم تعزيز هذا الأمر من المقدم بأمره الشفهي بأنه، إذا رفضت تسليم القيادة، يجب على الرائد أن يضعني في الأغلال يا له من شعور عالٍ بالامتياز العسكري من هذا، ومع ذلك، تم إقناعه بالعدول عن رأيه بحجة الرائد؛ ولم يتم إبلاغي بذلك إلا بعد محاكمتي.

سلمت القيادة وفقًا للأمر أعلاه؛ وفي السابع عشر، تلقيت من يد ضابط اليوم، أمر اعتقال بخط يد وتوقيع العقيد غايثر، يحتوي على التهم، التي أود أن أنسخها بترتيبها في الدفاع التالي.

أيها السادة،

لو كنت قادرًا على المداهنة، واعتقدت أنكم متقبلون للسحر، لما وضعت نفسي، في هذه المناسبة، وراء درع الذنب هذا؛ لأنني لا أقف هنا

لأطلب معروفًا، بل لأطالب بالعدالة. أعتقد أن صراحتكم ستقاس بالأخيرة، وعزمكم سيكون صلبًا ضد الأولى، وفهمكم سيكون موضوعًا على برج مراقبة الحقيقة، لتوجيه قراركم؛ في نفس الوقت الذي سيطبع فيه التصحيح على أي ظلال غير لائقة، أو تلوينات، قد تدفعني المصلحة التي أشعر بها في ذلك القرار إلى إلقائها على العملية.

أنا مقتنع بأن المحكمة قد سئمت بالفعل من التحقيق الممل في التهم الموجهة إلي، ولن أثقل عليكم بصبركم أكثر، لو لم أعتبره التزامًا مستحقًا لسمعتي.

بعض الملاحظات على الأدلة أمامكم، المطبقة على التهم، ستقدم دفاعي.

أولاً. أنا متهم بـ "المضاربة على رجالي بالنانكين في أوقات مختلفة؛ وأشياء أخرى."

أعتقد أنكم ستجدون أنني لم أتعامل قط إلا في حالة واحدة مع رجال سريتي بالنانكين؛ وأنني، بموافقة جماعية وطوعية من السرية، زودتهم بزي موحد من معاطف النانكين القصيرة؛ وأنهم وافقوا على استلامها بأي سعر أقل من دولارين وخمسين سنتًا؛ وأنه، عند التسوية، تم فرض دولارين فقط على كل معطف. لا شك أن أفضل دليل يمكن أن تسمح به طبيعة القضية، قد تم تقديمه من جانب الولايات المتحدة لإثبات هذه التهمة؛ ومع ذلك، على حساب ستقوم به المحكمة، يرتكز السؤال، ما إذا كنت في هذا البند قد قصدت الاستفادة من التزويد الذي قمت به لسريتي. لم يظهر أي شيء يثبت أن السعر كان غير معقول. شهد سالير، وهو رئيس الخياطين، أن مثل هذه المعاطف في فيلادلفيا، ستكلف ثلاثة دولارات، أو على الأقل دولارين وثلاثة أرباع. بأقل سعر إذن، يوفر الرجال خمسة وسبعين سنتًا من مضاربتي. الوكيل، السيد برايس، يبدو أنه باع قطعة واحدة من النانكين للنقيب نيكولز بدولار وخمسة وعشرين سنتًا، وقال إن هذا هو السعر الذي دفعه في فيلادلفيا. قد يكون هذا صحيحًا. ولكن هل كان الوكيل، السيد برايس، تحت القسم عندما أدلى بهذا التصريح؟ هل ستقبل هذه المحكمة الملاحظة العابرة لرجل خارج المحكمة، وليس تحت القسم، كمعيار لتحديد السعر الحالي للنانكين في فيلادلفيا، وحتى عندما لا يتم اعتبار وقت الشراء؟ لا يمكن

قبول دليل من هذا النوع على أي مبدأ يظهر من شهادة الشهود أن القطع القليلة التي باعها السيد برايس هنا، باستثناء هذه القطعة الواحدة، بيعت بدولار ونصف—وقد تم إحضارها في نفس سفينة الولايات المتحدة مع تلك المعنية، وبيعها من قبل رجل في خدمة ودفع الحكومة—بلا شك لن يضارب عليها. تم بيع النانكين في سانت ماريز، طوال هذا الموسم، على ما أعتقد، بدولار وخمسة وسبعين سنتًا. وأبلغ الدكتور غيلاسبي المحكمة أنه طُلب منه دولار وخمسين سنتًا للنانكين في مدينة نيويورك. من المعروف أن البضائع من هذا النوع أرخص في تلك العاصمة منها في فيلادلفيا—في وقت مبكر، أبلغت المحكمة أن تلك النانكين تم توفيرها لي من قبل خياط تاجر في فيلادلفيا. لم آخذ فاتورة؛ ولا أتذكر السعر الدقيق الذي دفعته، لكنني أعتقد أنه كان حوالي دولار ونصف. بالإضافة إلى الخياطة، والربط، والتشطيبات الأخرى، التي تم أخذها في الحسبان، يجب حساب الإعاشة التي كان يحصل عليها الخياطون يوميًا في عائلتي بالإضافة إلى حصصهم. أعترف أنه ليس في وسعي إجراء حساب دقيق للكسر؛ ولكن من تقدير تم إجراؤه من قبلي ومن قبل السيد ماكغال، أمين الدفع، تم استنتاج أن دولارين هو سعر معقول لتحديد سعر المعاطف. لقد تم إبلاغي مسبقًا من قبل الخياطين بالسعر الذي دفعوه مقابل الربط والتشطيبات الأخرى، كما شهد سالير، وقمت بحساباتي وفقًا لذلك. إن الرضا العام للرجال يثبت أنهم لا يشعرون بأي ضرر؛ وثبت أن إجراء استلامهم ودفع ثمنهم لم يكن إلزاميًا. كان مناخ وفصل السنة، أسبابي للتوصية بالزي الموحد. لقد استشرت سابقًا المقدم القائد، وأبلغته بالسعر، حوالي دولارين ونصف أو دولارين؛ ووافق على الخطة. إذا تم إنصافي، فسوف يتم تطبيق تفسير أكثر إيجابية على سلوكي في هذا الشأن، وسيتبين أن الإنسانية وليس الجشع هي التي دفعتني إلى هذا الإجراء. أعتقد بصدق أنه إذا تم أخذ كل ما يجب في الحسبان، فإنني لم أوفر نفقاتي. أنا متأكد من أنه سيتطلب عينًا مجهرية لحساب ربحي. لا يظهر أي دليل، حتى لو كان افتراضيًا، لإثبات هذه التهمة؛ إذا تم المخاطرة بالتخمين في هذه المسألة، فسيذهب لصالح الدفاع، لأن هذه هي مبادئ القانون والحق الفردي.

أما "الأشياء الأخرى"، المذكورة في التهمة، فيبدو أنها كانت تهدف إلى

شراكة مع مواطن في التسوية مع القوات. صحيح أنني بعت للسيد هامبتون ثمانين قطعة من النانكين، اشتريتها في مزاد علني، بربح 25 في المائة؛ لكن ليس صحيحًا أنني كنت مهتمًا بشكل مباشر أو غير مباشر بالربح الذي سيحققه في بيعها بالتجزئة، أو أنه كانت لدي أدنى فكرة عن شراء أي من القوات لها. كان دافعه للشراء، كما أخبرني، هو تزويد أهل الريف الذين سيحضرون المعاهدة. لم يكن لدى القوات في ذلك الوقت أي أموال، ولم يكن هناك أي احتمال فوري لدفع أي شيء لهم. من المعروف أن رواتبهم كانت متأخرة ثمانية أشهر قبل أن يتلقوها عن شهري نوفمبر وديسمبر 1795، وأنه لم يتم إعطاء أي أمر بالتعداد لهذين الشهرين حتى العاشر من يونيو من العام الحالي.

هذا الظرف، بالإضافة إلى الجودة الرديئة للأرز، الذي استُبدل بالخبز، جعل وضع القوات مزعجًا للغاية. وأعطيت سريتي تصريحًا بالتجارة مع السيد هامبتون. وكانت ضروراتهم هي التي أنتجت هذا. وكانت احتياجاتهم تمنحهم الحجة لذلك التساهل. ولقد أملت عليّ الإنسانية الاستجابة لتوسلاتهم المتكررة، معتبرةً ذلك حقاً لهم واجباً عليّ أداؤه، وقد امتثلتُ لذلك وفق ضوابط وشروطٍ بيّنتها للمحكمة بوضوح. فقد كان السكر والدبس من المواد التي هم في مسيس الحاجة إليها لتحسين طعامهم الرديء من الأرز. ولم يكن أحدٌ منهم مُجبراً على اقتناء شيء؛ بل كانوا مخيّرين تماماً في أخذِ ما يشاؤون، سواء كانت القيمة زهيدة أو تزيد قليلاً، بشرط ألا تتجاوز أربعة دولارات، أي ما يعادل راتب شهرٍ واحد. أما إذا اختاروا شراء قماش النانكين، فلم تكن لي في ذلك مصلحة شخصية تُذكر، تماماً كما لو أنهم اشتروا سماداً. وهل كانت مضاربة على رجالي أن أبيع لمواطن النانكين الذي لم أكن بحاجة إليه، بربح معتدل؟ إنها قضية جديدة وصعبة، إذا لم يُسمح لرجل، لأنه يرتدي معطفًا متعدد الألوان، في تعاملاته مع المواطنين، بالامتيازات العادية للمواطن لو كان أي منا مستعدًا لبيع حصان ركوبه، فهل سنشعر بأننا مقيدون بفاتورة بيعنا لتحديد السعر الدقيق؟ لا أظن ذلك إن الأدلة المقدمة لإظهار شراكتي مع السيد هامبتون متعارضة تمامًا مع الهدف، لدرجة أنني أعتقد أنه لا حاجة لإنفاق أي تعليق عليها.

لا أعتقد، أيها السادة، أنكم ستجدون أنني "ضاربت على رجالي بالنانكين

في أوقات مختلفة؛ وأشياء أخرى.

أترك الشق الأول من هذه التهمة لتقديركم أيها السادة، لتبحثوه كما ترونه مناسباً؛ مكتفياً بالإشارة إلى أن السبب وراء الشق الثاني منها كان نتيجة حتمية للظرف الذي أدى إلى الأول. وكلي أمل أن يُقبل هذا التوضيح كحجة دامغة وكافية لتبرير الأسلوب الذي انتهجته لسداد متأخرات المكافأة لثلة من رجال سريتي.

ولقد اطلعت المحكمة الموقرة على كشف الحساب التفصيلي لتلك المواد، وتقدير أسعارها كما توقعتُ أن تُحسب عليّ، وكما سُلّمت بالفعل للجنود.

للدفع بفترة وجيزة- على نسخة من الرسوم كما قُيّدت في سجلات الوكيل. وعند إعادة احتساب القيمة (إذ لم تكن القيود مطابقة لتوقعاتي)، تبيّن لي وجود رصيد مستحق للجنود قدره واحد وعشرون سنتاً وكسور السنت، لصالح أولئك الذين استلموا المواد المدرجة في الفاتورة المعروضة أمام المحكمة. وعليه، بادرتُ فوراً بإعلام الرجال بهذا الرصيد، وتعهدتُ بدفعه. وحين شراء حليات قبعاتهم، أُخبرالبعض بأن رصيد مكافأتهم المتبقي سيُحسب سداداً لجزء من تلك التكاليف بقدرما يغطيه؛ غيرأنه لم تتم أي تسوية نهائية مع السرية بخصوص هذا الحساب. أما من اقترضتُ مبلغاً نقدياً لسداد متأخرات مكافآتهم -وكانوا عدداً كبيراً- فلم يتبقّ لهم أي رصيد مستحق؛ لذا أخبرتهم بأنني أتوقع تخصيص مخصصات مالية لبدل القش المستحق لهم، وأن تكلفة الحليات ستُخصم من ذلك المبلغ حال إقراره.

وهنا تجدرالإشارة إلى أن (الروم) قد قُدّربالسعرالوارد في الفاتورة، على اعتبارأنه سيتم استرجاعه. وكما يتضح من شهادات عديدة، فإن المشروب ذاته، الذي حُسب عليّ في القيود بدولاروأربعة وثلاثين سنتاً، قد بيع لاحقاً بالتجزئة لجنود هذه الحامية بدولارين للغالون وسواء اعتبرنا هذا مضاربة على حساب جنود الولايات المتحدة، أو أن الوكيل يجني الفائدة لنفسه، أو تساؤلنا عما إذا كانت حسابات المصنع تُقدّم بناءً على القيود الدفترية أم المبيعات الفعلية.. فتلك كلها تساؤلات قد تشكّل مادة دسمة لتحقيق مستقبلي.

أخيراً، لم تُدرج كافة الخيوط في الحساب لعدم تقييدها في دفتر الوكيل، رغم ما تثبته شهادات الرجال من أنهم قد استلموها فعلاً.

لقد كانت طريقة الدفع هذه هي الخيار الأمثل، بل وفي الحقيقة، السبيل الوحيد الذي اهتديت إليه. وقد قبلها الرجال طواعية، وأجزم أنهم كانوا في غاية الرضا حتى قبل أن أُطلعهم على وجود رصيد متبقٍ لهم. وكثيرٌ منهم مَثُلَ أمام هذه المحكمة، وأقرّوا جميعاً برضاهم التام، باستثناء السيد (ميكين)، الذي توهم أنه لم يستوفِ حصته من الروم بدقة. وربما خانه النسيان في ذلك؛ فهو رجلٌ تُعهَد منه مثل هذه الهفوات. ولو أنني تقاعست عن دفع المكافأة، لكنت بلا شك قد وقعت في ورطة لا تقل سوءاً، وربما واجهتُ عداءً أشد ضراوة مما ألقاه الآن بسبب التدابير التي اتخذتها لتلافي ذلك. ولو كان دافعي المضاربة أو التكسب، فهل يُعقل أن أبادر بإبلاغ رجالي بوجود رصيد لهم، في حين أنني أعلم رضاهم المسبق، ولم يكن لدي أدنى سبب لتوقع فتح أي تحقيق في هذا الشأن؟

بل على النقيض من الربح، فقد تكبدتُ خسارة قدرها اثني عشر دولاراً جراء النقص في محتويات البراميل التي اقترضتها. وبناءً على ما تقدم، كلي ثقة بأن المحكمة ستكون مطمئنة، وبعد تمحيص دقيق للأدلة المقدمة بشأن هذه التهمة، ستخلصون إلى أن مسلكي كان مبرراً ومشروعاً.

«ثالثاً: تُوجَّه إليّ تهمة ‹بيع ذرة من الممتلكات العامة، وتقليص حصة الخيول العامة إلى مكيالين فقط يومياً.

لقد عُرضت أمام المحكمة بوضوح تام الضرورةُ القصوى التي ألجأت إلى هذا البديل عن الخبز، وطريقةُ نقله الشاقة على ظهور الرجال تحت وطأة المطر، والحالةُ المتردية التي كان عليها عند تخزينه. كما ثبُت بالدليل القاطع أنه كان عرضةً للتلف السريع حينما اقترحتُ على القائد تلك الطريقة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الممتلكات. ولو أنني آثرت الصمت وتركته يفسد -على افتراض أنه ملك للولايات المتحدة- لكنتُ عرضةً للاعتقال والمحاكمة بموجب المادة الخامسة من القسم الثاني عشر من قواعد وأحكام الحرب.

إزاء هذه المعضلة، انصرفتُ للبحث عن تدابير لحمايته؛ فلم يُجدِ التقليب ولا التعريض للشمس نفعاً يُذكر، وبات من المرجح أن يتلف بين

يديّ. لذا، خلصتُ إلى أن الحكمة تقتضي تصريف أكبر كمية ممكنة منه للمواطنين في الجوار، الذين كانوا يرزحون تحت ضائقة شديدة في توفير الخبز. وحين أقررتُ للمحكمة ببيع ذرة عامة، لم أقصد بذلك الإقرار بعلمي المسبق بملكيتها للولايات المتحدة، ولا بأنني تصرفت دون تخويل؛ وهذا ما أوضحته للمحكمة في اليوم التالي.

لقد كنت في حيرة من أمري: هل أنا مسؤول أمام الولايات المتحدة، أم أمام ولاية بعينها؟ وهل تصرفت بصفتي الرسمية أم الخاصة؟ وكم رددتُ هذه الشكوك مراراً على مسامع السادة. وحتى لحظة الاستماع لشهادة النقيب (راندولف)، وإبرازه وثائق معينة من وكيل المقاول السابق (ويليام جونسون)، كنت أميل للاعتقاد بأن الذرة ملك لولاية جورجيا. وأعي تماماً أن هذا الجهل لا يعفيني من المساءلة، لكنه أربكني في كيفية التسوية، وتركني جاهلاً بما إذا كان عليّ قيد مبالغ على الولايات المتحدة أم إضافة أرصدة لصالحها.

ولو كانت نواياي تنطوي على احتيال أو مضاربة، فهل يُعقل أن أستشير المقدم القائد في الأمر؟ أو أن أنفذ العملية عبر مسؤول الإمداد بالإنابة (Quartermaster) بهذه الطريقة العلنية والمكشوفة؟ ولو لم يرَ المقدم القائد في هذا الإجراء تدبيراً اقتصادياً رشيداً، فهل كان ليمنحه موافقته؟ وأخيراً، لو كان دافعي المصلحة الشخصية، فهل يُعقل أن أقترض ذرةً بضمانتي الخاصة لاستبدال الذرة التالفة التي تم التخلص منها، وذلك لتزويد الخيول المستحقة للعلف بذرة ذات جودة أفضل؟

لم يصل إلى علمي بيع أكثر من خمسة وعشرين بوشلاً (مكيالاً) حتى لحظة انعقاد هذه المحاكمة. ومقابل واحد وعشرين بوشلاً منها، تسلمت ثورين وبقرة وعجلاً بعمر سنتين؛ وقد بيعت هذه الماشية للمقاول وصُرفت كإعاشة للقوات، محققةً صافياً قدره ثلاثة وعشرون أو أربعة وعشرون دولاراً. وقد تسلمت هذا المبلغ لتغطية ثمن الذرة المباعة أو لاستبدالها. أما البوشلات الأربعة التي بيعت قبل أن يشتد تلف الذرة، فقد تسلمت مقابلها ستة دولارات؛ ليكون المبلغ الإجمالي المحصل حوالي ثلاثين دولاراً.

وفي المقابل، دفعتُ ثمن تسعة عشر بوشلاً من الذرة التي اقترضتها بسعر 1.85 دولار للبوشل. وقد صُرف ستة عشر بوشلاً منها للخيول العامة، وثلاثة

لخيول مسؤول الرواتب (Paymaster). وعند إجراء التسوية مع الدكتور غيلاسبي ومسؤول الرواتب مقابل دقيق شهر كامل، تبيّن أن في ذمتي لهما ستة بوشلات، وقد قمتُ بسداد هذا العجز بنفس السعر المذكور.

وعليه، يكون حساب الربح والخسارة من بيع الذرة كالتالي:

المقبوضات: ثمن 25 بوشلاً مباعة = 30.00 دولاراً.

المدفوعات: تكلفة استبدال 19 بوشلاً = 31.87 دولاراً.

(أي أن النتيجة خسارة وليست ربحاً).

أما المبيعات التي يُسأل عنها الملازم (طومسون)، فتقدر بستة بوشلات، وهو مسؤول عن سدادها عند الطلب. وفيما يخص باقي المائة بوشل، فقد وُزعت؛ جزء منها كحصص للقوات، والباقي كعلف للخيول العامة.

لطالما واجهنا صعوبة في معرفة الآلية الصحيحة للتسوية، وكانت آرائي دوماً واضحة وصريحة بشأن الأسس الموضوعية لهذه المعاملات. وإن مسلكي هذا قد نال مسبقاً موافقة سلطة عليا؛ ولا أجد تفسيراً لإدراج هذا البند كتهمة ضدي إلا إذا عزونا ذلك إلى نسيان الشيخوخة الواهنة.

وختاماً، ليس صحيحاً ما أُشيع من أنني خصصت للخيول العامة كمية تقل عن أربعة كوارتات (مكيالين كبيرين)؛ وكلي ثقة بأن المحكمة ستنصفني وتبرئ ساحتي في هذا الشأن.

رابعاً: تُوجِّه إليّ تهمة ‹عصيان الأوامر›.

تشير هذه التهمة إلى أمر القائد الصادر بتاريخ الثامن من مايو المنصرم، بشأن تبادل بعض الجنود. لم أكن حينها مكلفاً بضبط شؤون السرية بشكل مباشر؛ إلا أنني حرصت على التشاور ومناقشة الضابط القائد حول التفسير الأمثل لذلك الأمر، وقد خلصتُ إلى أن مصطلح ‹تبادل› (Exchange) لا يمكن أن يشمل الجنود الذين انضموا إليّ عبر النقل. وما عزز لديّ هذا الاستنتاج هو إشارة القائد نفسه بأن ‹الرجال الذين رافقوني من فيلادلفيا يجب أن يبقوا في سريتي›، فضلاً عن توجيهه العام بضرورة الحفاظ على سريتي وسرية النقيب تينسلي مكتملتي العدد. كما جاء الأمر الصادر في العاشر من يونيو، والمتعلق بتعداد القوات، ليدعم هذا التفسير.

ولو أننا توسعنا في تفسير الأمر وأعدنا الرجال الذين نُقلوا، ألم أكن

لأتعرض للاعتقال بتهمة تجاوز النص الحرفي للأمر؟ لم يبدُ لي أن هناك غاية محددة تكتنفها الضبابية في ذلك التوجيه، وإن كانت ثمة غاية قد أُسيء فهمها، أو قصر تفسيري عن إدراكها، فقد كان بالإمكان تدارك ذلك عبر أمر توضيحي آخر أو بأي وسيلة أخرى. وأنا على يقين بأنه كان سيتم التصحيح اللازم؛ لا سيما وأن تنفيذ الأمر قد أُوكل لضابط (السيد واتسون) لم تكن دقته واجتهاده يوماً موضع شك. وقد شهد السيد واتسون أمام المحكمة بأنه قد تم الامتثال للأمر، وأن مسألة التسوية لم تتضح إلا الآن أمامكم.

وإذا ارتأت المحكمة تفسيراً آخر لمصطلح ‹تبادل› يغاير ما طبقناه، فإنني آمل أن تنصفني وتصدق بأن التفسير الذي اعتمدناه كان نابعاً من فهمي الخاص، وبعد التشاور مع ضباط سريتي؛ وبالتالي، ألتمس تبرئتي من هذه التهمة.

خامساً: أنا متهم بـ ‹إطلاق سراح العريف بيلينغز من الحجز -الذي اتهمه أحد الرقباء بالتسبب في تحرير الجندي جون هيرلونيس، من سرية النقيب بينكني، بالعنف- وبتمزيق ورقة الاتهام بطريقة تنم عن قلة الاحترام والازدراء›.

(هنا يتوقف النص عند بداية الرد على التهمة الخامسة).»

«إن العريف بيلينغز لم يُطلق سراحه كلياً من الحجز منذ لحظة اعتقاله التي أفضت إلى هذه التهمة؛ بل ظل قيد الاحتجاز بناءً على تهمة رفعها ضابط مختص، إلى أن تسلمتُ مذكرة توقيف (Warrant/Commitment) من القاضي المدني، وحصلت على إذنه بنقل السجين. هذه هي الحقائق التي تؤيدها الأدلة. ولتسويغ عملية النقل، أبرزتُ للمحكمة شهادة القاضي، فضلاً عن إفادته الخطية التي تثبت الأوامر التي أصدرها لي.

أما دوافع النقل، فكانت كالتالي: تملّك السجين رعبٌ شديد جراء ظروف احتجازه وما تردد حوله من ملاحظات تشي بأن إدانته في المحاكمة أمرٌ مفروغ منه؛ مما أثار لدينا مخاوف جدية من أن يدفعه اليأس إلى الفرار. وكنتُ أرى أن إجراءات أمن الحصن لن تكون كافية لمنعه إن هو عقد العزم على ذلك، لا سيما وقد شهدنا حالات هروب مؤكدة من قبل، وواحدة تلت هذه الحادثة.

وفي ظل هذه الظروف، ومع ما عُرف عن السجين من مثابرة وعناد، لم

تكن مخاوفي واهية. لذا، افترضت أن منحه نوعاً من التطمين بأن جريمته قد لا تصل عقوبتها إلى الإعدام سيخفف من ذعره، وأن وضعه تحت الإقامة الجبرية في مسكني، بحراسة جنديين يراقبانه عن كثب على مدار الساعة، كان تدبيراً أكثر حكمة لجعله يتقبل احتجازه ويضمن مثوله أمام العدالة. ورغم أن مكان احتجازه الجديد لم يكن -بحد ذاته- أكثر تحصيناً من غرفة الحراسة (السجن)، إلا أنني اعتبرت وجود الحارسين كافياً.

ولو أنني اتخذت هذه التدابير باجتهادي الشخصي البحت، لكان مسلكي مبرراً قانوناً؛ إذ إن بيلينغزلم يكن سجين الولايات المتحدة (سجيناً فيدرالياً)، بل سجين ولاية جورجيا، كما يثبت أمر الإيداع. ورغم أن احتجازه بدأ بتهمة عسكرية، إلا أن مذكرة القاضي المدني قد نسخت تلك السلطة وحلت محلها. وبما أن السجين قد أُودع في عهدتي بصفتي القائد للحامية، فإن طريقة احتجازه تخضع لتقديري؛ ولو فشلتُ في تأمينه، لكانت المساءلة أمام القانون المدني.

تلك هي قناعاتي المستندة إلى القانون. ومع ذلك، فقد بينت للمحكمة أن تصرفي كان امتثالاً لتعليمات القاضي المدني الذي أصدر أمر الإيداع؛ وقد أثبتت النتائج صواب قرارنا، فلم يهرب السجين، بل أُعيد إلى غرفة الحراسة فور الطلب. فما الضرر الذي وقع إذن؟ وما مبرر هذه الضجة المفتعلة؟

أما فيما يخص تهمة الازدراء المتمثلة في تمزيق ورقة الاتهام الأصلية، فلا أرى أنها ترقى لمستوى يستحق التعليق.

سادساً: أواجه تهمة ‹الاحتيال غير المشروع على القوات الواقعة تحت إمرتي، وسلبهم حصصهم الغذائية المستحقة، وتخزينها في مخازن التموين دون احتسابها لصالحهم›.

لقد أقررتُ سلفاً بإيداع ما يربو على ألف حصة من الدقيق -وهي متأخرات مستحقة للقوات- في المخازن العامة، والاحتفاظ بها كضمان (رهن) في مواجهة مطالبة كان المتعهد يعتزم إثارتها بشأن كمية مماثلة من الدقيق الفاسد والمحكوم بإتلافه، والذي استهلكته القوات أو أتلفته. وهذا الإقرار، كما تؤكد الأدلة، يمثل سرداً أميناً للوقائع. وكان حرياً بتوضيح مقتضب كهذا أن يُشبع أي عقلٍ ينشد الإنصاف؛ بيد أن الواقعة وفّرت ذريعةً سانحة

لتلفيق تهمة، وقد استُغلت أيما استغلال.

لقد سُخِّرت الجهود لإثبات هذه التهمة عبر وسائل غير مسبوقة، تتسم بالغرابة والغموض. فقد قُدمت لهذه المحكمة وثيقة تحاكي ‹سند الاستحقاق› بحوالي ألفي حصة، موقعة من طرف ثالث ودون علمي، ساقها المُخبر (الواشي) كحصن منيع للإدانة، ظاناً أن البراءة ذاتها ستعجز عن اختراقه إن هذا السند هو وليد الاغتيال المعنوي وكيف تم الحصول عليه؟ خلسةً وبالمخادعة وممَّن؟ ليس مني، بل من رقيب غافل لا يساوره شك ولأي غرض؟ ليس لاسترداد حق أصيل للجندي، بل لاختلاق حق وهمي يُستخدم لتجريم الضابط وهل عُرض عليّ من قبل؟ كلا؛ لم يحدث ذلك إلا حين أيقن الشخص المؤتمن عليه بخبث الغاية منه وكيف قُدم إذن؟ في السر، مع إيحاء خبيث بأن ألوث يديّ بتمزيقه.

هل كانت تلك محاولة ماكرة لاستثارة انفعالي الفطري وتوريطي؟ أم كانت رغبة فردية في إحباط المكاسب المرجوة من وراء هذا السند؟ يظل ذلك لغزاً محيراً لي ولكن السند قد أُتلف بالفعل وبواسطة من؟ ليس بيدي، بل بيد الشخص الذي استحوذ عليه، وضد رغبتي وتوجيهاتي ثم ما لبث أن ظهر أمام المحكمة سند آخر يماثل الأول في كل تفاصيله وماذا تمخض عن هذا الدليل؟ لم يكشف إلا عن مكر وخديعة في التدبير، وغباء مستحكم لدى المؤلف، وعن أقصى درجات الإثم البادية على محياه.

تلك انتقادات تفرض نفسها عند تناول هذا الموضوع. ولكن، ورغم هذا المشهد التهويلي، وهذا المسخ المشوّه الناتج عن حمل غير شرعي؛ فقد أثبتت الحقائق المجردة أن إقراري السابق قد غطى كل ما يتصل بهذه التهمة بصدق، وأكدت بما لا يدع مجالاً للشك أن مسلكي لم يكن احتيالياً قط، بل كان عين الإنصاف.

لقد استهلكت القوات الدقيق الفاسد بشكل عشوائي، وكان ذلك في الوقت الذي استحقت فيه حصصهم من الدقيق الجيد. وقد تم ذلك الاستهلاك بناءً على مشورتي، إذ لم يخطر ببالي أن يُحسب أي رصيد لصالح المتعهد (المقاول) مقابل مؤن من هذا النوع الرديء. غير أنه فور وصوله، طالب بالتعويض عن الدقيق الفاسد الذي استُهلك بتوجيه مني؛ مُصراً

على أن قرار الحكم بفساده لم يخولني حق إتلافه أو السماح بذلك، ومعلناً عزمه على استرداد القيمة مني، إما عبر خصم من المستحقات (/Stoppage Abstract) أو برفع دعوى تعدٍ (Trespass) مدنية.

رفضتُ الخيار الأول، فقرر هو المضي في الثاني. وقد ساورتني الشكوك حول احتمالية كسبه للدعوى ضدي. ونظراً لأن القوات كانت حينها تتمتع بوفرة في المؤن، فقد ارتأيت أن العدالة والحكمة تقتضيان الاحتفاظ بالدقيق الجيد -الذي استحقته القوات خلال فترة استهلاكهم للفاسد- وتخزينه في المستودعات العامة، ريثما يُبت في هذا النزاع، أو يصرف المتعهد النظر عن دعواه؛ على أن يتم التوزيع لاحقاً دون الالتفات لمسألة الدقيق الفاسد المستهلك.

هذه الحقائق قد تأكدت بما لا يدع مجالاً للشك. فهل يُشمُّ من هذا رائحة احتيال؟ ألا يميل هذا المسلك إلى النزاهة والتحوط؟ إذا كان المتعهد قد تكبد خسارة يمكنه قانوناً المطالبة بالتعويض عنها، فمن المسؤول عن تلك الأضرار سوى من ارتكب الهدر وانتفع به (أي الجنود).

لو أنني استوليت على هذا الدقيق المحتجز لمنفعتي الشخصية، لكان لهذه التهمة وجاهتها؛ ولكن، وبما أنه ظل منذ لحظة تخزينه ملكية متنازعاً عليها، فإنه يتجلى لأي عقل منصف أن مسألة الحقوق المعلقة هي التي أوقفت توزيعه. فلو وزعته قبل حسم النزاع، لكان من الجلي أنني سأواجه دعوى قضائية بتهمة التعدي على ممتلكات المتعهد، وحينها، أين كان سيكون المفر؟ وهكذا، وجدت نفسي بين مطرقة المساءلة المدنية وسندان الاعتقال العسكري كيفما تصرفت؛ ولا ريب أن الحماسة المفرطة لخصومي في ذلك الوقت ما كانت لتفوت فرصة كهذه للإيقاع بي.

وحتى لو نظرنا إلى هذه المعاملة من أسوأ زواياها، فلا يمكن بحال استنتاج الاحتيال منها. فمصطلح ‹الاحتيال› يعني الاستحواذ بالخديعة والاستيلاء الظالم على ممتلكات الغير للمنفعة الشخصية. فهل انطوى فعلي على أي خداع؟ وهل كان هناك استيلاء غير مشروع؟ على النقيض تماماً، ألم تُجرَ الأمور في وضح النهار؟ ألم أعلن دوماً الحقائق كما تتكشف الآن أمامكم؟ ألم يتم التحفظ على الممتلكات بأقصى درجات العناية؟ إنه لَلَيٌّ غريب لعنق

الحقيقة وتشويه للمصطلحات أن تُوصم هذه المعاملة بالظلم أو الاحتيال.

إنني على ثقة تامة بأن المحكمة ستقتنع بما تقدم، وستدرك أنه مهما بدت ذريعة هذه التهمة معقولة في ظاهرها، فإنني بريء من أي نية لإلحاق الضرر بفرد أو بالمال العام؛ بل كنت أسعى جاهداً، وبقدر ما أوتيت من وسيلة، لإنصاف الطرفين.

وبعد أن فرغت من تعليقاتي على مجريات هذه الدعوى، ألتمس من المحكمة الموقرة السماح لي بإبداء بعض الملاحظات التي يمليها سياق هذه الملاحقة القضائية، والظروف المحيطة التي ربما تكون قد أفضت إليها.

أما عن تأثير حصولي على توجيه خاص من وزير الحرب في إثارة حفيظة ذوي الرتب العليا، فأترك تقدير ذلك لمن هم أدرى بطبائع الرجال الذين يشغلون المناصب الرفيعة. ولكن، إن كان لهذا الظرف دور، فإن ظروفاً أخرى تضافرت لتسهيل التدابير التي اتُّخذت ضدي تأثراً به.

فحين وصلت إلى سانت ماريز، وجدت بين قوات فرجينيا عدداً من المرضى يفتقرون لأي رعاية طبية. ولما كان مساعد الجراح مرافقاً لنا على متن السفينة، فقد أوصى بنقل هؤلاء المرضى معنا. وبناءً على ذلك، أمرت بصعودهم؛ مما اضطر ضباط الصف للتنازل عن أماكن مبيتهم (بين الطوابق) لصالح المرضى. وفي مساء الأول من يناير، هطل مطر مزعج، وحين صعدت إلى السطح في العاشرة ليلاً، هالني منظر ضباط الصف وهم يتلحفون بطانياتهم تحت المطر الغزير. وبموافقة ربان السفينة، أمرتهم بالدخول إلى المقصورة (الكابينة) ليتخذوا أماكن للنوم فوق صناديق الأمتعة والخيول والطاولات؛ وهي خطوة أملتها دواعي الإنسانية البحتة. ولما استمرت العاصفة في اليوم والليلة التاليين، أعدت إدخالهم للمقصورة.

غير أن هذا الإجراء أثار حفيظة السيد (برايس)، وكيل التجارة مع الهنود، الذي كان يشغل غرفة خاصة طوال الرحلة ولم يتأثر منامه في الليلة السابقة. وعند بزوغ فجر اليوم التالي، وبينما هو يغادر غرفته متجهاً نحو مساعده والحداد اللذين كانا يشغلان حيزاً في المقصورة، أطلق بعض التعليقات الفجة والمسيئة حول الترتيب الذي اتخذته، ظاناً أنني كنت نائماً. لكنني واجهته بالحقيقة، وحاولت تطييب خاطره متذرعاً بالجانب الإنساني

للموقف، وملاحظاً أنه إذا كان لأي من السادة الحق في التذمر، فهما النقيب (نيكول) والدكتور (غيلاسبي) اللذان ناما في المقصورة العامة، وليس هو الذي نعم بالراحة في غرفته الخاصة؛ وأن ضباط الصف دخلوا للنوم بعد خلوده للفراش وغادروا قبل استيقاظه، معرباً عن أملي ألا يكون مجرد مشهد بطانية جندي قد عكر صفوه.

شعر هو بالإهانة، وشعرت أنا بالاستياء. ودار بيننا جدال ظننت أنه دُفن في طي النسيان؛ ولكن منذ تلك اللحظة، صرت هدفاً لحملة اضطهاد انتقامية من جانبه، وبأساليب يترفع عنها كل ذي عقل حروضميرحي. فقد عُثر على مسودة تهم اعتقالي هذه في غرفته الخاصة، وبخط يده، كما اكتُشف ذلك صدفة وأُبلغت به في صباح اليوم التالي لإرسال البرقيات السرية. ولذا، أعتقد أنني محقٌ في اتهام هذا الـ (ياغو) -ياغو عطيل- بأنه المدبر الرئيسي لكل الشرور التي حيكت ضدي.

وفي سانت ماريز، أطلعني النقيب (تينسلي) والملازم (أليسون) على قرار تعيين أصدره النقيب للملازم كمساعد (Adjutant)، فأبديت احترامي للقرار بقدر ما تسمح به صلاحياتي، منبهاً في الوقت ذاته إلى أن تعيين طاقم الفوج ليس من اختصاص قادة الفصائل. وكانت أوامر وزير الحرب تقضي بإبقاء أقدم ضابط صف في سانت ماريز، فحددت الرتبةُ هذه المهمة للملازم (أليسون). وبعد وصولي بفترة وجيزة، كلفت ملازماً مبتدئاً، بالقيام بمهام المساعد المؤقت. وعند وصول العقيد (غايثر)، عرضت عليه كل الترتيبات التي أنجزتها أو اعتزمتها، وذكرت له التعيين الأول (تعيين أليسون)، كما أوصيت بضابط الصف الأخير لمنصب مسؤول الإمداد. إلا أنني جوبهت بجواب قاطع: ‹لن يتم إجراء أي تعيينات في تلك المناصب›. وجاء أمر التعداد الأول في 10 يونيو ليؤكد ذلك الرفض. وهكذا بقيت الأمور على حالها، لكن الملازم (أليسون) بدا ساخطاً، واستمر على سخطه. وإلى أي مدى أذكت خيبة الأمل هذه مشاعر هذا ‹المُخبر› ضدي، فهذا ما يمكن استنتاجه.

من هذه الأسباب وغيرها، تكشّف لي منذ أمد بعيد ميلٌ لدى هذا ‹التحالف الثلاثي› لإيقاعي في الحرج. ومن خلال الإجراءات المعروضة أمامكم أيها السادة، ستتمكنون من استجلاء ما إذا كانت شكوكي في محلها، وما إذا

كان المحرك لهذه الملاحقة هو الحقيقة أم الحقد، وهل هي وليدة الوطنية أم نتاج دوافع أقل شرفاً.

بأي وجه حق يجرؤ خصمي على اتهامي بمضاربة تافهة بنصف سنت، وهو الذي كان عند وصولي لهذه الولاية مستعداً لبيعي أراضٍ بقيمة خمسة وثلاثين ألف دولار، وهو يعلم يقيناً أن سنداتها محل نزاع، بل ويعتقد ببطلانها لكونها استُحصلت بالاحتيال والفساد؟ لو أنني جاريتُه حينها في تلك الصفقة، وحصلت منه على ائتمان بنصف المبلغ، لكان لديّ كل السبب للاعتقال بأنني سأكون اليوم في موضع الحظوة والدلال لديه. ولكن لسوء حظي، سخرت من حلم المضاربة ذاك، ونددت بمنح (يازو) المشبوهة. ومن هنا تفجر ينبوع جديد للاستياء؛ ما لبث أن تأجج برفضِي الانصياع لأوامر شفهية، وجدت أنها تتبخر من الذاكرة بنفس سهولة صدورها.

لقد دفعني إلى هذا الرفض قناعتي بقصور الذاكرة البشرية؛ ولكن ما حدث هنا كان خيانة متعمدة، وليست مجرد نسيان. وإذا ما أبديت تذمري للسادة الضباط من إرباك هذا النمط من القيادة، عُدّ ذلك تطاولاً على المقامات. وللمفارقة، فقد وبختُ توبيخاً غير مباشر مرتين لامتثالي لتلك الأوامر الشفهية، وفي إحدى المرات، ولنفس ‹الجريمة› (الامتثال)، أُضيف بندٌ في تهم اعتقالي.

لقد أدركت منذ زمن بعيد مدى إصرار هذا الرجل، ذي الرتبة العالية، على التضحية بسمعتي ومستقبلي قرباناً على مذبح المحسوبية والمحاباة.

لأنني لم أغمز كما غمز، وابتسم عندما ابتسم، ووافقت على الافتراء الذي يعاني منه معظم الرجال من طبعه الحاقد، وانحنيت كعبد عندما تنازل عن جلدي، فقد اقتنع بأن هذه التضحية، التافهة لرجل في رتبتي، كانت ضرورية لمزاجه. هل يمكنني أن أصمت عن هذا الموضوع؟ هل يمكن للاحترام الذي أشعر به لوجود هذه المحكمة، هل يمكن لخضوع مذل لنزوات الضعف والاستبداد، أن يحصر إصاباتي في علاج التوسل الخاضع "ليس لدي ما يكفي من صبر العبيد لأتبع كعب أحد المقربين وأتلقف ابتساماته؛ لأتحمل مزحة سيئة تُلقى في وجهي، وأشكر السيد الذي يظلمني على فضله." أنا أُجل الفضيلة والمكانة؛ لكن تلك النتيجة العرضية التي يربطها الحظ الأعمى

بنقيض هذه الصفات، لا تحصل مني على شيء سوى ما هو مستحق للرتبة، وليس للرجل.

إن التفسير المحرف الذي وُضع على جميع إجراءاتي، وعدم الاهتمام بطلبي المتكرر لطريقة أكثر إنسانية، ومع ذلك مناسبة، للتحقيق في الحقائق، يثبت الطابع الانتقامي لهذه الملاحقة، ونية مبيتة لاغتيال سمعتي.

كم من المرات تبدلت فيها ساحات المعركة، واتُخذت مواقع جديدة منذ أن ضُرب الحصار على سمعتي وكم من المتاريس نُصبت ثم أُخليت في صمت لقد دُسّ الجواسيس داخل سريتي، بل وحتى في كنف عائلتي، بحثاً عن أي ثغرة واستُدعي ضباط من فرشهم في جوف الليل لاستجوابهم حول وقائع جرت في وضح النهار بساحة الحصن، وبمشورة ضباط الحامية، وبأمر مباشر من خصمي ولستُ بعدُ على يقين من أنهم لم يستخدموا الحيل لتقويض ثباتي عبر استثارة انفعالي الفطري (وخير شاهد على ذلك دسيسة السند المذكور آنفاً).

ورغم ذلك، وبدلاً من كشف سلسلة من الجرائم كما توعدت تلك الحملة الشعواء، تجلى بكل وضوح ذلك السعي المحموم للتشبث بأي قشة يمكن تحريفها إلى شبهة جرمية. حتى مصائبي الشخصية نُبشت وعُرضت للمراجعة، ليس بدافع الشفقة، بل تلصصاً على أي غموض يمكن تشويهه ليغدو جريمة. لو كان خلاص الأمة مرهوناً بسقوطي، لوجدت عذراً لهذه الملاحقة الفريدة؛ أما وأن الغاية لم تكن سوى إشباع ضغينة شخصية، فإن الوسائل المستخدمة، والمثابرة المرصودة، تستحق وصفاً آخر.

ماذا عساه يكون المآل الأخير لرجل أقنع نفسه بالسعي لاستخراج تهمة ‹المضاربة› من تدابير هو من أوصى بها، وتهمة ‹الاحتيال› من إجراءات اقتصادية كانت حقاً للجمهور والعدالة؟ من ذا الذي تعمى بصيرته عن رؤية أن دوافع أخرى -غير الصالح العام- هي محرك هذه الحملة؟ ومن ذا الذي لا يخجل من هذا القناع السخيف من النفاق الذي يتدثر به الحقد؟ إنه الحسد وقد تقمص شكل الضمير ومع ذلك، فقد يفعل التحريف فعله. ومهما كان السبب، فأنا أشعر بوطأة ما عانيت؛ فكل هفوات حياتي قد ضُخمت بخيال غيور مبدع، ونُثرت في مهب الريح لتلطيخ شرفي. ولو كان خصمي يطرب

للفضائل طربه للرذائل، لاستطاع أن يجمع من مذكراتي هنا وهناك قطرات من ندى الإحسان والإنسانية لتعطير أنفاس افترائه الكريهة؛ لكنها، وللأسف، خاصية العنكبوت الفريدة: أن يستخلص السم من نفس الزهرة التي يجني منها النحل العسل.

حين يُتهم المرء بسوء المسلك، فإن تلك النشوة الخفية التي يجدها البشر في مصائب أقرانهم تدفعهم غريزياً لتصديق البهتان؛ وتتكفل الألسنة بإذاعته. ومع وجود من يستسيغون الأخبار السيئة -وهم كثر- يُقبل أدنى افتراض كدليل قاطع، ويُصدّق كل سوء. وكما قيل: ‹تمرر أعتى المغالطات على العقول حين تخدم ميولاً مسبقة›. أما الصالحون، فيصدقون السوء وعياً منهم بضعف الطبيعة البشرية. وهكذا، ما إن يقطر سم الافتراء من لسان خبيث، حتى يلقى قبولاً عاماً؛ ويدفع الخوف من الاتهام بالذنب الجميعَ إلى تجنب الضحية، خشية أن يُحسبوا شركاء له. وبهذا، تقاسي الشخصية المستهدفة من همس الحقد الخفي ما تقاسيه من الإدانة العلنية؛ فالعار الملتصق بالجريمة ينهش الشرف فعلياً، ولا تزيد الإدانة القضائية شيئاً سوى ألم العقوبة. من هنا، يغدو الأبرياء عرضة للمعاناة كالمذنبين، وتكفي إيماءة صامتة لاغتيال السمعة. وحين يتضافر الكره مع الرغبة في الأذى، وتُستدعى السلطة لتعزيز الهجوم، فإن سم الافتراء يُمرر بمرارة الاضطهاد. هذا ما أشعر به بكل جوارحي.

أي حقد هذا، الذي لا يرتوي إلا بدماري، يمكنه أن يتصور -ولو في الخيال- أنني قد ظلمت جندياً؟ طوال هذه المحاكمة المملة، لم يتقدم شخص واحد، ولا حتى روح واحدة، لتبدي سخطها عليّ، ولم يوافق أحد على تبني هذه الفكرة. ورغم ذلك، شُهِّر بي زوراً بأنني انحدرت لإيذاء جنودي هل يوجد جندي حيّ خدم معي يمكن إقناعه بقول هذا؟ هل وقف أمامي يوماً جندي مريض، أو جائع، أو ذو حاجة، ورُدّ خائباً دون غوث؟ لا، لا يوجد؛ أما الأموات، فلو نطقوا، لشهدوا بأن أيادي الإحسان التي مددتها لهم كانت توازي حياتهم. وهل من معارفي من يجرؤ على القول بأن البخل قد طبع فعلاً واحداً من أفعالي؟ أم أنهم سيقولون إن الإفراط في النقيض كان خطيئة حياتي؟ لقد كان مطبخي دوماً مشفى ومأوى للجندي العليل والمحتاج، ومقري نزلاً

للغريب. وبكل صدق أعلن: أنه خلال ثماني سنوات من الخدمة العسكرية، تقاضيت في خمس منها راتب ومكافآت نقيب، وفي جزء منها مكافآت رائد لواء، لم أدخر جنيهاً واحداً ومع ذلك، لم أعش بترف ولم أنغمس في الإفراط.

إذن، لا يمكن أن يكون سبب اتهامي بالاحتيال هو ثروة متضخمة، ولا حياة البذخ، ولا شكاوى المظلومين فما السبب إذن؟ إنه مجرد أمنية حاقدة بأن أكون كذلك وللتدليل على صحة هذا الاستنتاج أيها السادة، أحيلكم إلى وقائع المحاكمة.

إن التحيز الذي خلقه التقرير الأولي لدى المحكمة كان سيقلقني، لولا يقيني بأن الانطباعات المسبقة لدى أعضائها ستتلاشى أمام سطوة الحقائق. فالحقيقة حين تخرج من مكمنها، تكشف الزيف، وتعيد الملامح التي شوهها الحسد والحقد إلى طبيعتها.

ولكني أيها السادة قد أطلت، وأنتم في عجلة. أعلم أنكم تدركون أنكم هنا للفصل بالقانون والعدالة بيني وبين الولايات المتحدة، في تهم تمس سمعتي ومستقبل عائلتي. وأشعر أنه حتى لو طُبق أشد التفسيرات قسوة على سلوكي، فسيحتاج الأمر إلى عين ساحر لاستخلاص الجرم منه.

كلي إيمان بأن حكمكم سيكون نزيهاً ومجرداً، وأن المجاملات والأهواء لن تجد لها سبيلاً إلى مداولاتكم؛ وأنكم بتمحيص الحقيقة ستدركون أن الاقتصاد لا المضاربة، والإنسانية لا ازدراء القانون، والعدالة لا الاحتيال، هي التي أملت ذلك السلوك الذي وُصم بالإجرام.

بكل ثقة، أودع قضيتي بين يدي نزاهتكم.

ويليام إيتون،

نقيب في المشاة.

في السابع من هذا الشهر، رُفعت وقائع المحاكمة إلى القائد في سانت ماريز. وقد أسرّلي رجل قانوني هناك، بأن القائد -ساخطاً على قرار التبرئة- قرر رفع الأمر إلى فخامة الرئيس دون اتخاذ إجراء (المصادقة عليه). وتصديقاً لذلك، تلقى الرائد (فريمان) اليوم أمراً بحل المحكمة، دون ذكر للقرار. ولهذه «العدالة العرضية»، كنت سأشكره، لولا أنه فرض عليّ البقاء حبيس جدران الحصن. لم أكن أظن أنه سيجرؤ على إظهار تلك الوقائع في أي مكان يأمل أن

يري فيه وجهه مجدداً. لقد دُبر كل شيء بدقة لإحباط سعادتي. ومن العبث التذرع بالواجب أو الصالح العام لتبرير هذه المعاملة؛ فالواجب لا يستعين بالباطل، والصالح العام يترفع عن الدناءة. لكنني لست الضحية الوحيدة لسوط استبداده؛ فمزاجه هو معيار التقدير، وسلطته توزع المحاباة على المقربين. ويبدو أنه لا يكتفي بحصر نفوذه في الأفراد، بل أخشى أن تحريفه للحقائق قد وأد التفاهم الذي كاد أن يلتئم بين الولايات المتحدة وجورجيا.

أي عاقل يصدق أن الجنرال (جاكسون)، الذي أبحر لتوقيع المعاهدة بمركب شراعي ومعه عشرون متطوعاً فقط، كان يخطط للاستيلاء على قيادة هذا الموقع؟ كل من يعرف الجنرال يدرك أن فكره العسكري أرفع من هذه المحاولات الصبيانية. ومع ذلك، امتلك القائد البراعة لإقناع مفوضي الولايات المتحدة بهذه الفرية. والعواقب نُشرت في الصحف، ونخشى مما هو آت. ولكن، تم إرواء غليل ضغينة قديمة. هذه الأمور، وإن تدثرت بعباءة «الفيدرالية»، تبدو لي واهية جداً.

قد تُعتبر صراحتي هذه تجاوزاً؛ فأنا أعلم أن الضابط هنا عليه أن يحبس أفكاره -كما شخصه- داخل أسوار موقعه، وألا يفكر إلا من خلال عقل القائد. لكنني لستُ من تلك الطينة، ولم أؤمن يوماً بأن بزة الجندي يجب أن تخنق نور العقل أو تكبل حرية الرأي. وإذا فُسرت حريتي هذه كعدم احترام، فلتحملوا ذلك على محمل المبادئ التي التزمت بها: أن الرتبة لا تمنح حقوقاً تتجاوز الواجب، وأن الاحترام هو استحقاق للجدارة لا للرتبة، وألا شيء يبرر للرجل أن يحجب وجه الحقيقة خضوعاً لمزاج آخر.

لقد قيل همساً بين السيدين الأكثر تضرراً من تقاريري: «يجب أن نتخلص من إيتون هذا» وها أنا ذا أقف شبه وحيد، لكنني ثابت. لقد عُرض على الملازم (أليسون) -أداة المؤامرة- خمسمائة فدان من الأراضي كرشوة للثقة. الخطة أُحكمت، والسرية حُفظت، ولم يُدخر جهد لتنفيذ هذا «المشروع الوطني» لكنني ما زلت قائماً، وسأظل، حتى يحار أعدائي ويخجل الجمهور من انحطاط مبادئهم.

لستُ متمسكاً بمنصبي في زمن السلم، وكنت سأطلب التسريح لولا خشيتي أن يُفسر انسحابي في هذه الأزمة كفرار. همي الوحيد أن أغادر الخدمة

كجندي شريف. وبهذه الصفة خدمت، ومستعد للخدمة متى دعت الحاجة. ولكن لا تدعوا الحقد والمضاربة يحطمان حياةً كُرست للواجب.

أتوسل العفو عن هذا الإطالة؛ ولكن، يا سيدي الموقر، لمن غيرك أبث شكواي؟ إذا كانت ثقتكم فيّ قد تزعزعت، فهذا يؤلمني. وإذا كان للباطل سطوة، فالنتيجة واحدة. لدي حقائق تهم الجمهور سأكشفها في حينها، وحين تُزال القيود عني، ستظهر للعيان من هم رعاة الفساد، ومن هم السائرون على درب الحقيقة.»

أطلب أن تُعاد إلي قيادتي، التي انتُزعت مني بغيًا وعنفًا. شرفي مرهون بأن تكون عيني مثبتة على الإجراءات العامة دون اعتبار لمشاعر الأفراد. وعندما يتم التأكد من الحقائق ويُزال الحجاب عن أعين الجمهور، حتى تتحقق العدالة، سأطلب حينها إذنًا بالتقاعد من خدمة لا يستطيع فيها رجل نزيه أن يكتسب ندوبًا أخرى سوى من سهام أولئك القتلة المظلمين والمميتين، الحسد والأنانية.

مع فائق الاحترام،

أتشرف بأن أبقى،

سيدي،

خادمكم الأكثر طاعة، والمتواضع جدًا،

ويليام إيتون،

نقيب في المشاة.

إلى الأونرابل تيموثي بيكرينغ،

وزير وزارة الخارجية،

فيلادلفيا.

بسبب تفصيل إحدى هذه التهم، حُكم على إيتون بالإيقاف عن القيادة لمدة شهرين. وأنها لم تكن ذات طبيعة إجرامية خطيرة، يظهر من المقتطفات التالية من رسائل كتبها الملازم طومسون، أحد أعضاء المحكمة العسكرية:

يبدو أن عقيدنا القائد، وهو أعزب عجوز جاهل، فاسق، عديم المبادئ، مستعد للتضحية بأنقى الشخصيات لإرضاء حقد روحه.

لقد كان يجمع المواد منذ فترة طويلة لتحقيق تدمير النقيب ديكنسون،

وهو رجل جدير بالاحترام، ويحمل ندوبًا من الوطنية، اكتسبها في النضال من أجل الحرية الأمريكية، أكثر ربما من أي رجل آخر في الولايات المتحدة. كنت عضوًا في المحكمة العسكرية التي حاكمت النقيب ديكنسون. في هذه المحكمة، جعلني افتقار العقيد للمعرفة، وافتقاره للصدق، أفقد احترامي له؛ وفي رأيي، فقد حقه فيه، من كل رجل نزيه.

كان هدفه التالي هو النقيب إيتون، الذي أُثيرت غيرة العقيد وحسده ضده، من ظرف أن النقيب كان له قيادة خاصة في كوليرين، حيث يجب أن يكون المركز التجاري.

كما كانت دقة النقيب إيتون، في تقديم معلومات عن وضع هذه الحدود، مصدر مرارة آخر؛ حيث أنه في السابق، نادرًا ما كانت هناك أي تقارير من هذا النوع، غير مغلفة بالمحاباة. لا بد أن العقيد غايثر قد تخيل، بشكل طبيعي، أن هذا قد يرقى إلى مستوى انعكاس عليه. لا بد أن هذه كانت فكرته: لأنه أمر النقيب إيتون بعدم تقديم أي تقارير، على الرغم من أن وزير الحرب قد أعطى تعليمات بأن يفعل ذلك. لعدد من الأسباب، افترض العقيد وحلفاؤه أن التضحية به كانت ضرورية لسمعتهم: فقد سُمع الحزب يقول، "يجب أن نتخلص من إيتون هذا"

تم القبض على النقيب إيتون، على الرغم من أنه قدم مرتين طلبًا كتابيًا لمحكمة تحقيق، ومرة واحدة شفهيًا. كان هذا حقه القانوني، وكان هذا سيوفر الكثير من المتاعب؛ حيث كان سيقنع كل عقل غير متحيز، بأن تداول التقارير لا أساس له؛ ويظهر أنها أثيرت فقط من رغبة في وجود سبب للجرم.

لم يكن من المقرر إجراء تحقيق. تكونت المحكمة العسكرية من خمسة أعضاء؛ رائد واحد كان عدوه اللدود، كما هو الحال مع كل شخص صريح؛ نقيبان، أحدهما كان يطمح إلى قيادته؛ والآخر، على الرغم من أنه يُنظر إليه عمومًا على أنه رجل نزيه، إلا أنه لا يعرف شيئًا عن القانون وطبيعة الأدلة، وربما كان منغمسًا في المؤامرة، مثل المدعي. كانوا جميعًا أدنى رتبة من النقيب إيتون، باستثناء الرئيس. كان الملازم ماكول هو الشخص الوحيد الذي بدا لي غير متحيز. كنت عضوًا في المحكمة بنفسي؛ وعلى الرغم من أن قسمي يمنعني من ذكر رأي أي عضو معين، فيما يتعلق بالقرار، إلا أنه ليس انتهاكًا أن أقول

إنه كانت هناك محاباة واضحة للغاية؛ وأنه تم اكتشاف المزيد من القلق والجهد لإعطاء الأشياء الصحيحة والنزيهة تلوينات أضدادها، بدلاً من أن يكون للحقيقة تأثيرها.

كانت هذه المحاكمة مملة. استمرت أكثر من أسبوعين: وبعد أن قيل كل شيء؛ وبعد كل ما تم جمعه لمدة خمسة أشهر تقريبًا، من خلال تدقيق الأعداء المحيطين، ومن خلال الجواسيس الذين أُرسلوا إلى سريته وعائلته؛ إلى ماذا وصل الأمر؟ وصل إلى—ما لا يحق لي قوله، لكوني عضوًا في المحكمة، وبما أن الحكم لم تتم الموافقة عليه بعد من قبل العقيد القائد.

يظهر أيضًا من عريضة جون ف. راندولف وتسعة وعشرين آخرين من أرباب الأسر الذين يعيشون في جوار كوليرين، موجهة إلى وزارة الحرب، أن النقيب إيتون قد نال رضا الجوار بشكل كبير من خلال كبح جنوده عن النهب، حيث أن أصحاب العريضة، بعد إبعاده، يشتكون من السلوك الشنيع للجنود ورضوخ الضباط، ويصلون من أجل إعادة إيتون إلى القيادة.

أُرسلت إجراءات المحكمة العسكرية إلى غايثر، الذي كان من واجبه البت فيها. وبما أن هدفه لم يتحقق، فبدلاً من البت في الحكم، أمر بحبس إيتون داخل أسوار حصن بيكرينغ، حيث حُبس لأكثر من شهر، وأرسل إجراءات المحكمة العسكرية إلى وزير الحرب، وأمر إيتون بالتوجه إلى مقر الحكومة بعد هذا الحبس الطويل.

عند وصوله إلى فيلادلفيا في ديسمبر، قدم النقيب إيتون نفسه إلى وزير الحرب، راغبًا في معرفة وضعه آنذاك. أبلغه الوزير بأن الحكم لم يتم تأكيده، وأن وضعه لم يتغير.

في يناير 1797، عاد إيتون إلى بريمفيلد، حيث بقي حتى الصيف التالي، عندما توجه إلى فيلادلفيا نتيجة لأوامر تحرك عامة.

في يوليو، كُلف بمهمة سرية من وزير الخارجية لتنفيذ الأوامر التي ستصدرها لجنة من الكونغرس منعقدة للحصول على معلومات تتعلق بمؤامرة ويليام بلونت. وتلقى أوامر ومذكرة بالتوجه إلى نيويورك، واعتقال الدكتور نيكولاس روماين ومصادرة أوراقه. تم تنفيذ هذه المهمة على الفور. غادر إيتون فيلادلفيا صباح العاشر من يوليو، وأمن روماين وأوراقه قبل

الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي، وأحضره إلى فيلادلفيا الساعة الثانية بعد الظهر من يوم الثاني عشر.

عند عودته إلى فيلادلفيا، عُين قنصلاً لمدينة ومملكة تونس.

خلال نفس الشهر، كُلف برسائل للسيد جيري، الذي كان حينها في كامبريدج، وكان على وشك الإبحار إلى فرنسا؛ وقد تم تسليمها وفقًا لعنوانها.

قضى إيتون الخريف في بريمفيلد؛ والشتاء في رحلة إلى أوهايو؛ ومنها عاد إلى بريمفيلد في مارس 1798؛ حيث بقي معظم وقته حتى 15 نوفمبر، عندما، بعد تلقيه معلومات من وزير الخارجية بأن السفن المتجهة إلى الجزائر كانت جاهزة للمغادرة، ودع عائلته، وفي الثامن عشر، وصل إلى فيلادلفيا.

في 22 ديسمبر، ودع السيد إيتون وزير الخارجية، السيد بيكرينغ، وصعد على متن المركب الشراعي الأمريكي "صوفيا"، بقيادة النقيب هنري جيديس، المتجه إلى الجزائر؛ بصحبة السفينة "هيرو"، وهي سفينة حمولتها 380 طنًا، محملة بمخازن بحرية لداي الجزائر؛ و"حسن باشا"، وهو مركب شراعي مسلح حمولته 275 طنًا، يحمل ثمانية مدافع من عيار ستة أرطال، متجه إلى الجزائر؛ و"سكيولدابراند"، وهو مركب شراعي حمولته 250 طنًا، يحمل 16 مدفعًا مزدوج التحصين من عيار أربعة أرطال، متجه إلى الجزائر؛ و"للى عيشة"، حمولتها 150 طنًا، تحمل 14 مدفعًا من عيار أربعة أرطال، متجهة أيضًا إلى الجزائر. كان من المقرر تسليم جميع هذه السفن، باستثناء "صوفيا"، إلى داي الجزائر، مقابل متأخرات الاتفاقية والمستحقات الحالية.

جيمس ليندر كاثكارت، المعين قنصلاً في طرابلس، وزوجته، سافرا في "صوفيا" مع السيد إيتون.

في شهر أغسطس 1797، أبرم جوزيف إتيان فامين، وهو تاجر فرنسي مقيم في تونس، وكيل الولايات المتحدة هناك، معاهدة مع إيالة تونس. نوقشت هذه المعاهدة من قبل مجلس شيوخ الولايات المتحدة في شهر مارس 1798، وصُدقت، باستثناء المادة الرابعة عشرة، التي كانت نصها كالتالي:

"مواطنو الولايات المتحدة الأمريكية، الذين ينقلون إلى مملكة تونس بضائع بلادهم في سفن أمتهم، يدفعون رسومًا بنسبة ثلاثة في المائة. أما تلك التي قد يحملها هؤلاء المواطنون، تحت علم أجنبي قادمة من الولايات المتحدة

أو من أي مكان آخر، فتدفع رسومًا بنسبة عشرة في المائة. أما تلك التي قد يحملها أجانب على متن سفن أمريكية قادمة من أي مكان كان، فتدفع أيضًا رسومًا بنسبة عشرة في المائة. إذا رغب أي تاجر تونسي في حمل بضائع بلاده، تحت أي علم كان، إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى حسابه الخاص، فعليه أن يدفع رسومًا بنسبة ثلاثة في المائة."

من المدهش إلى حد ما أن هذا السيد فامين، وهو فرنسي، قد تم تفويضه لإبرام هذه المعاهدة، في وقت اتخذت فيه فرنسا والولايات المتحدة موقفًا عدائيًا. ومع ذلك، فإن كونه موصى به من قبل السيد بارلو قد يساعد في حل هذا التصرف غير اللائق. إذا كان فامين جاهلاً بقوانين الإيرادات في الولايات المتحدة، فقد كان غير مناسب للتفاوض على معاهدة؛ وإذا لم يكن جاهلاً، فإن المادة الرابعة عشرة تكشف عن انتهاك صارخ للواجب واللياقة. كان الهدف الأول الذي يتطلب اهتمام القنصلين، إيتون وكاثكارت، بالاشتراك مع أوبراين، القنصل في الجزائر، والذي كان هناك آنذاك، هو تعديل المادة الرابعة عشرة من هذه المعاهدة: حيث تم تفويض القناصل الثلاثة، أو أي اثنين منهم، لإجراء التعديل.

اشتبهت حكومة الولايات المتحدة في أن الجزء الأخير من المادة الرابعة عشرة ربما يكون قد أُدرج من قبل فامين بتوقع الحصول لنفسه على مزايا تجارية كبيرة من خلال فتح تجارة مباشرة من تونس إلى هذا البلد: أو أن الباي ورؤساءه، إما مدركين لآثار المادة، أو تم إبلاغهم من قبل فامين، قد يدبرونها كأداة للحصول على تضحية جديدة لجشعهم؛ متوقعين أنها لن تُصدق من قبل الولايات المتحدة؛ وأن الولايات المتحدة، من أجل إلغائها، ستهدي الباي مبلغًا إضافيًا من المال. ولكن، مهما كان الدافع، كانت المادة غير مقبولة؛ وقد صدرت تعليمات للقناصل بتعديلها، لوضع تجارة الولايات المتحدة مع تونس، وتجارة تونس مع الولايات المتحدة، على أساس الدولة الأكثر رعاية في ذلك الوقت؛ أو الإصرار على رفضها، حتى لو كانت الحرب الفورية هي النتيجة.

كما اعترض مجلس الشيوخ على بعض الأجزاء الأخرى من المعاهدة؛ خاصة النص على أن يُدفع للحكومة التونسية برميل من البارود مقابل إطلاق كل طلقة من حصن تونسي، تحية للسفن الحربية الأمريكية التي

تدخل موانئهم؛ مع ترك عدد طلقات التحية لتقدير من يطلقونها.

فيما يلي خطاب اعتماد السيد إيتون.

الجنرال إيتون

جون آدامز،

رئيس الولايات المتحدة الأمريكية.

إلى الأمير الأكثر شهرة وعظمة، الباي، الذي يقود أوجاق تونس، مقر السعادة، وإبراهيم داي الأكثر تكريمًا، وسليمان آغا الإنكشاري، ورئيس الديوان وجميع شيوخ الأوجاق.

أيها الأصدقاء الكرام والمكرمون،

نظرًا لوجود بعض الصعوبات في شروط معاهدة السلام والصداقة المبرمة بين الولايات المتحدة وبينكم، ورغبة منا في إزالة تلك الصعوبات بأفضل طريقة ممكنة، فقد عينت ومنحت كامل السلطة لمواطنينا الموقرين، ريتشارد أوبراين، المحترم، ووليام إيتون، المحترم، وجيمس ليندر كاثكارت، المحترم، للتفاوض معكم من أجل إزالة تلك الصعوبات. لذلك أطلب منكم أن تستقبلوا السادة ريتشارد أوبراين، ووليام إيتون، وجيمس ليندر كاثكارت، أو من يكون منهم في تونس ويقدم لكم هذه الرسالة، وأن تستمعوا وتصدقوا توضيحات تلك الصعوبات التي أُمروا بعرضها عليكم؛ وبموجبها لديهم السلطة لترتيب شروط المعاهدة معكم، بطريقة تتوافق مع مصلحة وشرف البلدين، وبها يمكن استمرار السلام، وتأسيس التجارة، والتمتع بأكبر المزايا من كلا الجانبين. وليوفق الله الآبدي قلوبنا إلى ما هو صواب.

أيها الأصدقاء الكرام والمكرمون،

لقد عينت السيد ويليام إيتون المذكور، ليكون قنصل الولايات المتحدة، لمدينة ومملكة تونس، ليقيم في تونس، وليراقب مصالح الولايات المتحدة ومواطنيها. وعليه، أطلب منكم أن تستقبلوه كقنصل لهم، وأن تضمنوا له الاحترام الواجب، وأن تمنحوا كامل الثقة لما سيقوله لكم باسم الولايات المتحدة، خاصة عندما يؤكد لكم صداقتهم وحسن نيتهم.

صدر بتوقيعي وختم الولايات المتحدة الأمريكية العظيم، في فيلادلفيا، في الحادي والعشرين من شهر ديسمبر، في سنة ربنا ألف وسبعمائة وثمانية

وتسعين، وفي السنة الثالثة والعشرين لاستقلال الولايات المتحدة.

جون آدامز.

بأمر الرئيس،

تيموثي بيكرينغ.

وفي التاسع من فبراير، وصلت السفينة "صوفيا" إلى خليج الجزائر، بعد رحلة استغرقت ستة وثلاثين يومًا من رؤوس ديلاوير. زار إيتون وكاثكارت أوبراين، القنصل العام للولايات المتحدة لساحل البربر، وبقيا معه حتى الثالث من مارس. في الثامن عشر من فبراير، سُلّمت السفن المسلحة المنصوص على إعطائها لداي الجزائر إلى الإيالة. في الثاني والعشرين، قُدّم إيتون وكاثكارت إلى القصر. يصف إيتون المقدمة على النحو التالي:

22 فبراير، الجمعة، الساعة 12 ظهرًا، تم قبولنا في مقابلة مع الداي.

القناصل أوبراين، وكاثكارت، وأنا؛ والقباطنة جيديس، وسميث، وبينروز، ومالي، انطلقنا من المنزل الأمريكي إلى فناء القصر، وكشفنا رؤوسنا، ودخلنا ساحة القاعة، وصعدنا متاهة متعرجة من خمسة طوابق من السلالم، إلى مدخل ضيق مظلم، يؤدي إلى شقة ضيقة تبلغ مساحتها حوالي 12 × 8 أقدام، غرفة المقابلة الخاصة. هنا خلعنا أحذيتنا؛ ودخلنا الكهف، (فقد بدا كذلك) بفتحات ضوء صغيرة ذات قضبان حديدية، وأُرينا وحشًا ضخمًا أشعث، جالسًا على مؤخرته، على مقعد منخفض، مغطى بوسادة من المخمل المطرز، وساقاه الخلفيتان مجموعتان مثل خياط، أو دب. عند اقترابنا منه، مد مخلبه الأمامي كما لو كان سيتلقى شيئًا ليأكله. صاح مرشدنا: "قبلوا يد الداي" انحنى القنصل العام بأناقة وقبلها؛ وتبعنا مثاله على التوالي. بدا الحيوان في تلك اللحظة في حالة غير مؤذية: كشر عدة مرات؛ لكنه لم يصدر ضجيجًا يذكر. بعد أداء هذه المراسم، والوقوف لبضع لحظات في عذاب صامت، سُمح لنا بأخذ أحذيتنا وممتلكاتنا الأخرى، ومغادرة العرين، دون أي إصابة أخرى سوى الإذلال الناتج عن اضطرارنا، بهذه الطريقة غير الطوعية، إلى انتهاك الوصية الثانية لله، والإساءة إلى اللياقة العامة.

هل يمكن لأي رجل أن يصدق أن هذا الوحش المرفوع له سبعة ملوك من أوروبا، وجمهوريتان، وقارة، تدفع له الجزية، بينما قوته البحرية بأكملها

لا تعادل سفينتي خط معركة؟ هذا هو الواقع

لا يمكن شرح استقبال السيد إيتون في تونس، والتقدم المحرز في تعديل المعاهدة، أفضل مما شرحه هو بنفسه، في أول رسالة له من تونس إلى وزير الخارجية. ستعطي المقتطفات من هذه الرسالة القارئ أيضًا فكرة عن طريقة إدارة الشؤون الدبلوماسية على ساحل البربر.

تونس، 24 مارس 1799.

المقتطف التالي من يومياتي، بعد مقارنته وتطابقه مع يوميات السيد كاثكارت، سيحصل على توقيعه، وسيُرسل من قبل النقيب جيديس؛ وسيفصل تقدمنا منذ لحظة مغادرة الجزائر حتى الانتهاء من مفاوضاتنا.

8 مارس. أبحرنا من الجزائر إلى تونس.

9 مارس. أجبرتنا الرياح المعاكسة على الدخول إلى خليج بنزرت. نزلنا إلى الشاطئ؛ وفي الساعة 3 بعد الظهر أرسلنا رسولًا برًا، بالرسالة التالية إلى السيد أزولاي، وهو تاجر يهودي في تونس:

"المبعوثون الموقعون أدناه، المكلفون من قبل حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، للتفاوض وتحديد تعديلات معينة في معاهدة السلام بين باي تونس والدول المذكورة، على متن المركب الشراعي الأمريكي صوفيا، الراسي الآن في خليج بنزرت، ينتهزون فرصة وجود رسول بري لإبلاغ السيد سليمان أزولاي، أنهم، مع أول رياح مواتية، سيتوجهون إلى تونس، للبدء في المفاوضات، ويطلبون منه توفير، باقتصاد، منزل مناسب، بأثاث ملائم لاستقبالهم. ولديهم رسائل مهمة من داربوكري وبوسنة في الجزائر، للسيد أزولاي: ولكن حتى تتاح فرصة تسليمها بأيديهم، يرجونه أن يقبل، إلخ.

و. إيتون،

ج. ل. كاثكارت."

هذه الرسالة، مترجمة إلى الإيطالية، مع أصلها، أُرسلت من قبل مغربي استأجرناه لهذا الغرض.

أدت رياح قوية تهب على الرصيف، وتيار قوي يتدفق إلى الخارج، إلى حدوث أمواج عاتية لدرجة أننا وجدنا أنه من المستحيل العودة إلى السفينة؛ وقد دُعينا بكرم للضيافة في منزل مسيحي، ستيفن ديكوستو، وهو إيطالي،

كان يعمل نائب قنصل للإمبراطور هولندا، وراغوزا. وفي هذا المنزل كان هناك سكرتير للسيد فامين، وقد شك في شخصيتنا، وأبلغ شكوكه له.

10 مارس. بمساعدة قبطان الميناء، وبقارب، تمكنا من الصعود على متن مركبنا. في هذا المكان، لقينا الكثير من الضيافة، لكننا دفعنا ثمنها غالياً نقداً.

11 مارس. في الليل، رسونا قبالة رأس قرطاج.

12 مارس. الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، رسونا في خليج تونس. توجهنا مع القائد في القارب إلى القليطة،[1] وأظهرنا لأغا البحرية أوراق السفينة، وتلقينا تأكيده بأنه سيتم إرسال المعلومات المناسبة إلى الباي؛ وأنه غدًا في الساعة الحادية عشرة صباحًا سيتم رفع علم كإشارة لتوجهنا إلى تونس.

13 مارس. الثامنة صباحًا، جاء مرتد[2] من القصر على متن السفينة بإذن من الباي لنا بالنزول إلى الشاطئ. توجهنا على الفور في القارب إلى المدينة، حيث وصلنا في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر. ولعدم توفر منزل، ذهبنا إلى منزل السيد فامين. استقبلنا بعلامات تدل على الاحترام، وعرض علينا كل خدمة في مقدوره. رُفعت أعلام الدول الأوروبية المختلفة التي هي في سلام مع هذه الإيالة، عند وصولنا، على المنازل القنصلية؛ وقد استُهلك هذا المساء في رسمية استقبال الزيارات. وقضى الرائد ماغري، القنصل الإنجليزي، المساء معنا. وحذرني من أي ثقة في السيد فامين: وقال إنه رجل خطير؛ وأضاف أن وضعي حرج بشكل خاص هنا؛ وأن الفخاخ منصوبة لي من جوانب عديدة، وأن أقصى درجات اليقظة قد لا تنقذني من الوقوع في بعضها. ونصحنا بالتحرك بحذر ولكن بحزم في أعمال مفاوضاتنا؛ وقال إن الباي رجل ذو فطنة حادة، وعادةً ما يكون تعامله عادلاً؛ لكنه مغرور وجشع.

»الرابع عشر من مارس، في تمام الثامنة صباحاً.

قادنا السيد فامين إلى القصر لتقديمنا إلى الباي. وبعد تسليم أوراق

1- القليطة (Galiot): سفينة حربية صغيرة وسريعة، تعتمد في حركتها على الأشرعة والمجاديف معاً، وكانت شائعة الاستخدام في البحر المتوسط خلال تلك الحقبة لأغراض المناورة والقصف الساحلي.

2- نصراني دخل الإسلام.

الاعتماد وتفويضنا الكامل، وإتمام مراسم تقبيل اليد، ثم الجلوس لبضع دقائق لاحتساء القهوة، بادرنا الباي بالاستجواب:

الباي: «أَسفينتكم حربية؟»

نحن: «نعم، هي كذلك.»

الباي: «ولمَ لمْ أُخطَر بذلك كما تقتضي الأصول، لتنال التحية المعتادة؟»

نحن: «لم نكن على دراية بالأعراف المرعية.» (والحق أننا أحجمنا عن طلب التحية تفادياً لتكلفتها الباهظة على الولايات المتحدة، والبالغة ثمانمائة دولار).

الباي: «ألم يكن لديكم وكيل هنا لإرشادكم؟ وأليس لي وزراء كان بإمكانهم عرض شؤونكم عليّ، دون الحاجة لوساطة يهودي؟»

نحن: «بلى، كان لدينا وكيل، لكننا جهلنا قنوات الاتصال الرسمية.» (والحقيقة أننا تلقينا نصيحة في الجزائر بتجنب الاعتماد على السيد فامين، ورتبنا أمورنا بناءً على ذلك).

الباي: «لقد انقضى أكثر من عام وأنا أنتظر الهدايا الملكية من العتاد البحري والعسكري المنصوص عليها في المعاهدة. فما الذي يعيق الوفاء بهذا الالتزام؟»

نحن: «لقد تسلمت حكومتنا المعاهدة منذ ثمانية أشهر تقريباً. وتصادف ذلك مع تفشي وباء في عاصمتنا، مما أجبر الحكومة بجميع إداراتها -فضلاً عن المواطنين- على النزوح إلى القرى الداخلية. وحين انحسر الوباء وسُمح بعودة الحكومة، كان الشتاء قد أغلق موانئنا بالجليد. أضف إلى ذلك أننا نخوض حرباً مع فرنسا، وكل مواردنا الاستثنائية مكرسة للدفاع ضد أطماع تلك الأمة الجشعة. علاوة على ذلك، حين عُرضت المعاهدة للتصديق، وُجدت غير مقبولة في بعض بنودها، وقد جئنا مفوضين للاتفاق على التعديلات اللازمة. ومتى تم ذلك، ستبذل الولايات المتحدة قصارى جهدها للوفاء بالتزاماتها.»

هنا أشرنا إلى المواد المطلوب تعديلها، وأكدنا للباي أنه فور الاتفاق عليها، وبموجب تفويضنا لإثبات حسن نية حكومتنا ورغبتها الصادقة في توطيد أواصر الصداقة، فنحن مستعدون لدفع ما يعادل تلك الهدايا نقداً.

الباي: «لست متسولاً، وعندي من المال فائض. لكن العتاد العسكري في هذه اللحظة أكثر ضرورة من أي وقت مضى بسبب الحرب مع فرنسا. لم تجدوا غضاضة في الوفاء بالتزاماتكم تجاه الجزائر وطرابلس، بل وأغدقتم على الأولى هدايا من الفرقاطات والسفن المسلحة!»

نحن: «يبدو أن الحقائق قد نُقلت إليكم مشوهة. حكومتنا وافقت بالفعل على تزويد داي الجزائر ببعض السفن المسلحة، ولكن بثمن مدفوع نقداً، ولم نجد مشقة في تنفيذ ذلك العقد لأن السفن كانت مسلحة بما يكفي للدفاع عن نفسها، ولأن الأمر استغرق سنوات لإنجازه. لذا وفينا به، وقبضنا الثمن المتفق عليه. ونحن على استعداد لتزويدكم بسفن مماثلة وبنفس الشروط، أما الالتزام بذلك كجزء من معاهدة الآن، فهو ضرب من المستحيل.»

الباي: «بإمكانكم إخباري بأن داي الجزائر دفع نقداً.. ولي مطلق الحرية في تصديق عكس ذلك.»

ثم التفت إلى السيد فامين قائلاً: «إذا لم تكن حكومة الولايات المتحدة قد صدقت على المعاهدة بصيغتها الأصلية، فلماذا رفعتَ علمهم إذن؟»

فامين: «كانت لدي أوامر حكومية برفعه.»

نحن: قاطعناه مؤكدين للباشا: «لم تصدر حكومتنا أمراً كهذا، ولن تفعل قبل التصديق على المعاهدة. الاستثناءات العالقة قليلة، وبمجرد تسويتها لن تجد حكومتنا صعوبة في الموافقة. وإذا توهم السيد فامين أن حكومتنا رغبت في رفع العلم كيفما اتفق، فلا بد أنه أساء فهم رسائل بعض الوسطاء. ومع ذلك، فور تسوية أمورنا، سنراسل حكومتنا مباشرة، وحينها سيتم الاعتراف بالتزاماتنا وبوكيلنا هنا ودفع المستحقات.»

الباي: «لم يكلفكم رفع علمكم الكثير.. وسيكلفكم إنزاله أقل.» وأصرّ على اعتبار الهدايا الملكية شرطاً لاستدامة السلام.

نحن: كررنا شرح المخاطر: «إن شحن العتاد العسكري محفوف بالمخاطر؛ فهي مواد تُعدّ مهربات حرب، وإذا وقعت في يد الفرنسيين، استحال استردادها بأي عرف قانوني. وهذا يعني خسارة محققة لنا، وتأخيراً وخيبة أمل لكم. وهذا السيناريو شبه حتمي، فمضايق المتوسط تعج بالسفن

الحربية الفرنسية والإسبانية، ولا سبيل لعبورها إلا بالقتال. وتفادياً لخيبة الأمل هذه، اقترحنا تقديم المعادل النقدي.

الباي: «إذا وافقت حكومتي على التعديلات التي طلبتها في المعاهدة، فسأقبل منكم سفينة مسلحة كهدية، بعد تسوية الأمر.»

نحن: «لا ينبغي لكم توقع أمر كهذا، فهو مستحيل تماماً. قواتنا البحرية بالكاد تكفي للدفاع عن تجارتنا ضد عدونا المشترك، وما دفعنا لاقتراح استبدال العتاد بالمال إلا لمنع وقوع ممتلكاتنا غنيمة تقوي شوكة العدو، ولإقناعكم بنزاهة حكومتنا.»

لاحظ الباي أن الوقت غير ملائم للخوض في هذا الموضوع، فاقترح تأجيله، وأخبرنا بأنه سيستدعينا في وقت أنسب، آمراً إيانا بحصر تواصلنا معه مباشرة، أو عبر مساعديه، بعيداً عن وساطة اليهودي.

جرت هذه المحادثة بحضور السيد فامين، ويُعتقد أن وجوده كان السبب وراء رغبة الباي في تأجيل النقاش.

انسحبنا إلى ساحة القصر، حيث مكثنا بضع دقائق، سألنا خلالها (صاحب الطابع)[3] عدة أسئلة تجارية، وأبلغنا أن الباي سيطلبنا يوم الاثنين. عدنا إلى منزل السيد فامين. خلال المقابلة، طلبنا الإذن باستئجار منزل، فأُجبنا بأن هناك أعمالًا أكثر أهمية يجب ترتيبها أولاً، وبعدها سيتم الاهتمام بترتيبات من هذا النوع، بالإضافة إلى أن هذا هو «المنزل الأمريكي».

15 مارس. في المساء الماضي، انطلق السيد كاثكارت للصعود على متن السفينة، وقد احتُجز طوال الليل في القليطة، وقبل ضيافة رجل عجوز محترم وذكي، كان في السابق عقيدًا في جيش الحاكم العام، والآن مهندس في خدمة الباي، ومكث معه طوال الليل، وحصل منه على النصيحة التالية ودونها في يومياته:

«لا تأتمن أي شخص على شؤونك. احذر من فامين. إنه شخصية غادرة، يحتقره جميع القناصل، ويُعتبر جاسوسًا على أفعالهم، ويُعتقد أنه اختلق

3-يوسف صاحب الطابع (Yusuf Sapatapa) كان الوزير القوي والمقرب جداً من حمودة باشا. «صاحب الطابع» هو لقب وظيفي يعني «حامل الختم»، وكان يوسف يسيطر على التجارة الخارجية والديوان. هو الشخصية التي كان إيتون يتصادم معها باستمرار بسبب مطامعها المالية الشخصية، وهو المقصود غالباً في الترجمات المشوهة بلقب «الصابت أغا». (المترجم)

ذرائع لحكومة تونس لتقديم مطالب من الدول التي تدفع الجزية، ويُعتقد عمومًا أنه يتلقى عمولة على كل الأسماك التي يجلبها إلى شباكهم.

الباي متقبل للمداهنة، وليس ثابتًا تمامًا في قراراته.

توافق كلامه هذا مع نصيحة القنصل البريطاني.

أرسل مبعوث الجزائر المقيم في تونس في طلبنا، فزرناه. بعد أن عرض علينا صداقته، نصحنا بألا تساورنا أي شكوك في نتيجة إيجابية لمفاوضاتنا، ولكن أن نتحرك بحذرومثابرة. قال إن أمراء البربريظهرون أحيانًا عبوسًا لا معنى له، ولا ينفذون دائمًا تهديداتهم.

أبلغناه بالموقف الذي اتخذته حكومتنا لصد ومعاقبة اعتداءات فرنسا، وقلنا له إن باي تونس، منذ اتخاذ هذا الموقف، لا بد أن يتبنى سياسة تجاهنا لا يمكن تفسيرها إطلاقًا، إذا كان، برفضه شروطنا للتسوية، سيجبرنا على توجيه تلك الأسلحة ضد طراداته التي هي الآن موجهة فقط ضد عدوه. ولكن إذا فضل هذا الإجراء، فالخيار له، لن نوافق على أي تضحية استثنائية لتجنبه. في وضع الولايات المتحدة، لن يلقوا بأي ممتلكات في قبضته في هذه البحار دون حماية. لذلك، كل ما قد يستولي عليه، سيتم النزاع عليه أولاً.

بدا مسرورًا بعدائنا مع فرنسا. وقال إن الصبر والمثابرة هما فقط اللازمان لتحقيق هدفنا، وتعهد بمقابلة الباي. ونصح بأن يبقى السيد كاثكارت معي حتى يتم الانتهاء من الأمر، بسبب تحدثه باللغة، وبعبارات من الإخلاص الظاهر، وعرض مرة أخرى صداقته الشخصية لي كوكيل للولايات المتحدة، التي أعرب عن احترامه الكبير لحكومتها. (وهكذا سيفعل زعيم شيروكي، مقابل زجاجة من الروم وبندقية.)

تبذل الجزائر كل وسائلها للحفاظ على نفوذ مهيمن في شؤون تونس، ومهما كانت الأخيرة مترددة في الخضوع لهذه السياسة، فإن الظروف القاهرة تجبرها على ذلك. الجزائر هي المتفوقة في السلاح والموارد. هذا ما يعرفه رعايا الباي جيدًا، وهم مترددون في التنازع معهم. لذلك، عندما يراهن الداي بكبريائه الوطني على تحقيق أي إجراء، فإنه متأكد من تحقيقه مع الباي، وبالتالي، فإن الأخيرلن يغضبه طواعية، عندما يكون مقتنعًا بإخلاصه. ومع ذلك، فمن الخطر على الدول المسيحية أن تستخدم وساطة الجزائر في

التفاوض مع تونس، لأن هاتين القوتين تلعبان عمومًا بشكل متفاهم في أيدي بعضهما البعض، بحيث أنه عندما يكون الأول قد سلب موكله الأتعاب، تصبح إدارة القضية مسألة غير ذات أهمية.

الاثنين، 18 مارس، الساعة 11 صباحًا. ذهبنا إلى القصر. بعد أداء المراسم المعتادة، وتناول القهوة، والجلوس للحظة، طلب الباي رؤية مواد المعاهدة التي تحتاج إلى مراجعة.

قدمنا مذكرة باللغة الإنجليزية، تحتوي على المواد والتعديل المستهدف، وقد ترجمها السيد كاثكارت له إلى الإيطالية. وأمر سكرتيره بأن يعطيه الأصل التركي. قارن هذا بالنسخة الفرنسية التي كانت معنا، ولاحظ أنه لا يرى سببًا لرفض حكومتنا أو رغبتها في تغيير المادة الرابعة عشرة، لأنها متبادلة تمامًا.

قلنا له إنها ليست غير مقبولة لعدم وجود معاملة بالمثل حرفية في المادة، ولكن كون الرسوم محددة بثلاثة في المائة، سيؤثر بشكل جوهري على معاهداتنا التجارية القائمة مع دول أخرى نحن في سلام معها، وسيضطرنا إلى ضرورة وتكلفة ومتاعب مراجعة كل تلك المعاهدات.

أجاب الباي بأنه غير متمسك بالمادة في شكلها الحالي، إنه راضٍ عن تغيير الرسوم إلى عشرة، أو مائة في المائة، شريطة أن تحتفظ بمعاملتها بالمثل، لكنه لن يطالب بأي امتياز جزئي.

اقترحنا هذا البديل: «تكون تجارة مواطني وسكان الولايات المتحدة مع مملكة تونس، ورعايا وسكان مملكة تونس مع الولايات المتحدة، على أساس الدولة الأكثر رعاية في ذلك الوقت على التوالي.»

قال الباي إنه من المستحيل عليه الموافقة على هذا، حتى يتم إبلاغه بالرسوم التي تُدفع في الولايات المتحدة، فمن الممكن أن تكون الرسوم غير متساوية إلى حد كبير. كانت رسوم الدول الأكثر رعاية محددة في موانئه بثلاثة في المائة حسب القيمة، ووفقًا لتقييم تم وأُقر بأسعار 7 فبراير 1797. وأن العديد من تلك المواد أصبحت الآن أغلى ستمائة في المائة مما كانت عليه في تلك الفترة، وبالتالي لم تكن تدفع نصف في المائة. كان هذا نظامًا دائمًا أُقر بمعاهدة مع الفرنسيين، في التاريخ المذكور أعلاه، وسُمح باعتباره قاعدة للدول الأخرى. لكن النطاق الذي سيسمح به بديلنا المقترح، قد يعرض رعاياه

لدفع أي رسوم ترى حكومتنا فرضها، شريطة أن تدفع الدول الأكثر رعاية نفس الرسوم. اقترح تحديد الرسوم بعشرة في المائة على التوالي، مع السماح لرعاياه بحمل بضائعهم تحت أي علم كان.

قلنا له إن الاقتراح غير مقبول، وكنا بصدد إعطاء الأسباب، عندما اقترح تأجيل المزيد من النقاش حول هذه المادة حتى الغد.

ثم قدمنا البند الأول من تعديل المادة الثانية عشرة. قال إنه ليس لديه اعتراض عليه، لكن الأصل كان أكثر ملاءمة لنا من التعديل، وشرح أنه يحمل بالضبط التفسير الذي خشي وزير الخارجية أنه قد يعنيه: «أن يوفر ضباط الميناء الحماية التي قد تلغي الحاجة إلى البحث عنها عن بعد.» لقد سمح باللجوء إلى حكومته في المقام الأول، دون التقدم بطلب إلى السلطات التابعة، وألزمهم بواجب توفير الحماية، مع ترك استئناف له في جميع الحالات التي لا يتم فيها تقديم الدعم الكامل والعدالة الكافية من قبل هؤلاء الضباط.

انتقلنا من هذا البند إلى الثاني من تعديل نفس المادة.

قال الباي إن هذه المادة أيضًا قد أُسيء تفسيرها أو تُرجمت بشكل سيئ من الأصل. إنها تشير فقط إلى حالات الطوارئ، حيث يحتاج هو (الباي) إلى إرسال سفن إلى المشرق أو موانئ أخرى في البحر الأبيض المتوسط، لكنها لا تعني أن تمتد إلى سفن الحرب أو سفن الحكومة.

قلنا له إن هذا تنازل، حتى مع هذا التفسير، لا تمنحه الولايات المتحدة لأي دولة على وجه الأرض. إنه بدون معاملة بالمثل، قد يلحق ضررًا جوهريًا بتجارنا بتحويلهم عن مسارهم، وسيؤدي أيضًا إلى إلحاق الضرر بالمصالح التجارية لرعاياه، لأنه سيعمل كحظر على دخول سفننا موانئه.

قال إن الدنماركيين، والسويديين، والهولنديين، والإسبان، وجميع الدول الأخرى التي هو في سلام معها، وافقت على نفس المادة، ولا يمكن الاستغناء عنها في هذه المعاهدة.

اقترحنا تعديلها على النحو التالي: «إذا احتاجت حكومة تونس، في حالة الطوارئ، إلى سفينة أمريكية لتسهيل إرسال البرقيات إلى أي ميناء في البحر الأبيض المتوسط، فإن مثل هذه السفينة، الموجودة داخل الإيالة، وليست سفينة حربية، ولا تابعة لحكومة الولايات المتحدة، يمكن إجبارها على أداء

مثل هذه الخدمة، عند تلقي دفعة كافية لتعويض المالكين والضباط عن راتب شهر واحد مقابل هذه الخدمة والاحتجاز.»

وافق على هذا، ثم أعاد فتح موضوع تأخير حكومتنا في عدم إرسال الهدايا الملكية.

كررنا له الأسباب المذكورة سابقًا، وشرحنا له شكل حكومة الولايات المتحدة، وقلنا له إن مجلس الشيوخ، وهو هيئة متميزة من الوطنيين المنتخبين من كل ولاية في الاتحاد لتقديم المشورة للرئيس التنفيذي في شؤون بهذه الأهمية، لم يوافق على التصديق على المعاهدة. لقد قرروا عدم التصديق عليها حتى يتم تعديلها بشروط عادلة ومشرفة. لم يكن الاتفاق كاملاً، وبالتالي، لم تكن الحكومة ملزمة ولا مخولة بإرسال الهدايا الملكية، ولكي نكون صريحين جدًا في هذا الموضوع، لن يتم اتخاذ أي ترتيبات لهذا الغرض حتى يتم تعديل المعاهدة والتصديق عليها. وعندما يتم ذلك، ستفي الحكومة بالتزاماتها على الفور وبدقة.

توقف الباي للحظة وقال: «غدًا لقد بقيتم حتى برد عشائي. اذهبوا، وتعالوا غدًا الساعة الحادية عشرة.»

الثلاثاء، 19 مارس، الساعة 11 صباحًا، في القصر.

عاد الباي مرة أخرى إلى المادة الثانية عشرة، وبناءً على طلبنا، أمر سكرتيره بإدخال التوضيح الذي قدمه للبند الأول من التعديل في الأصل. والتفت إلى الثاني، بعد أن استعرض ما جرى بالأمس، تظاهر بأنه لم يكن يقصد أن يتم تغييره وفقًا لترجمتنا لمعناه. يجب ألا يقتصر الأمر على السعاة فقط في حالات الطوارئ، بل يمتد إلى شحن سفينة حيثما يكون لديه حاجة لإرسال أو أخذ شحنة إلى أو من أي ميناء في البحر الأبيض المتوسط، ولكنه يجب أن يمتد إلى السفن التجارية فقط. وأمر سكرتيره بإدراج هذا التعديل بين السطور في الأصل، ملاحظًا في نفس الوقت أن حوادث من هذا النوع نادرًا ما تحدث، وربما لن تحدث أبدًا للأمريكيين.

قلنا إن هذا التعديل الذي أجراه غير جوهري، لم يكن كما فهمناه بالأمس. إذا كان سيقتصر على السعاة فقط في حالات الطوارئ، للخدمة المباشرة للحكومة، فمن الممكن أن توافق حكومتنا عليه، ولكن كما هو

الآن، فمن المؤكد أنها سترفضه. ولكن إذا وافقوا عليه، فستكون النتيجة أن سفننا التجارية لن تدخل موانئه.

قال: «حسناً، يمكنني الاستغناء عنهم، فهم يسعون وراء ربحهم وليس ربحي في مجيئهم إلى هنا. أحصل على مبلغ صغير قدره ثلاثة في المائة، حسب تعريفة قديمة، لا يكاد يصل إلى واحد، بينما يحققون أرباحًا كبيرة لأنفسهم. ولكن، إذا لم تعجب حكومتكم به كما هو الآن، فيمكنها رفضه أو إعادته، إنه الآن على قدم المساواة مع الفرنسيين، والدنماركيين، والسويديين، والهولنديين، باختصار، مع جميع الدول التي هي في سلام معنا.» دون مزيد من الملاحظات، عاد إلى المادة الرابعة عشرة، وكرر ملاحظات الأمس، وأصر على تحديد الرسوم، لكنه وافق على أن تكون متبادلة.

أعلنا له أنه من المستحيل علينا تحديد الرسوم الدقيقة، فسلطة فرض الرسوم على الواردات منوطة بممثلي الأمة بأكملها، في الكونغرس المجتمع. لا يمكننا إلا الموافقة على المادة البديلة. هذا منحه نفس الامتيازات التي تُمنح لأفضل أصدقائنا، مع تركه حرًا في نفس الوقت في فرض الرسوم التي يراها عادلة ومناسبة على بضائع مواطنينا، كما يفرضها على بضائع الدول الأكثر رعاية. وكانت معاهدتنا التجارية مع أمة إنجلترا القوية على نفس المبدأ. وكذلك فرنسا، قبل إلغاء معاهدتنا، وجميع الدول الأخرى التي كنا في سلام معها، على نفس هذا الأساس معنا. من المحتمل ألا تتأثر مصلحته أبدًا بهذه المادة، ولا نرى سببًا لمعارضته الشديدة لإجراء يخدم صديقًا ولا يلحق به ضررًا. باختصار، يجب تغيير المادة وإلا انتهت المفاوضات، ويمكنه التخلي عن توقع الهدايا الملكية. وضع المعاهدة ولم يرد علينا، لكنه التفت إلى وزيره وقال شيئًا بالتركية، وبعد بعض المشاورات، التفت إلى المادة الحادية عشرة، وسأل إذا كانت هناك أي مادة أخرى سيتم تغييرها غير هذه. الجواب، لا. «ما التغيير الذي تريده في هذه؟» «احذف برميل البارود لكل مدفع، وخفض العدد إلى خمسة عشر.» رفض بشكل قاطع. قال إنه سيدرج تعديلاً في الأصل التركي، ويجعل جوهر المادة متبادلاً، بفرض نفس الرسوم على السفن التونسية في الموانئ الأمريكية. قلنا له إن الترجمة كانت كذلك. قال: «لكن الأصل ليس كذلك.» وأمر سكرتيره بإجراء الإضافة، وسأل إذا كنا نوافق عليها

الآن. قلنا له إننا لا نوافق، لم يغير ذلك فهمنا لها. على الرغم من أن الشروط كانت لها معاملة بالمثل اسمية، إلا أنها كانت مختلفة في الواقع، لأنه لم يكن هناك احتمال أن ترتاد سفنه الحربية موانئنا، بينما كانت شروط سلامنا معه تجبرنا على إرسال سفننا المسلحة إلى موانئه، وبالنظر إلى التكلفة، كانت تافهة، ولكن بما أنها لم يسبق لها مثيل في أي من معاهداته مع الدول الأخرى، فسيكون من المهين لنا الموافقة عليها، وليس مشرفًا جدًا له أن يطلبها، لذلك، كنا على ثقة بأنه لن يصر على مثل هذا الطلب الغريب مقابل اعتبار تافه. قال: «مهما كان تافهًا في نظركم، فهو مهم بالنسبة لي. خمسة عشر برميلاً من البارود ستزود طرادًا، قد يستولي على غنيمة ويحقق لي مائة ألف دولار.»

قلنا له إن التنازل مهين لدرجة أن أمتنا لن تخضع له، وكل من العدالة والشرف يمنعان ذلك، وليس لدينا شك في أن العالم سينظر إلى الطلب كما سينظر إلى التنازل.

قال: «أنتم تنظرون إلى شرفكم، وأنا إلى مصلحتي. ولكن إذا كنتم ترغبون في إنقاذ شرفكم في هذه الحالة، أعطوني 25 برميلاً من البارود سنويًا، وسأوافق على التعديل.» أجبنا بأننا لن نضيع تفكيرًا على اقتراح يهدف إلى جعلنا ندفع جزية. كنا على استعداد لدفع ثمن البارود الذي أحرقه في التحية. وعاد إلى الصاحب الطابع، وقال بالتركية: «هؤلاء الناس شريبيون، إنهم صعبو المراس لدرجة أنه لا يمكن التعامل معهم.» (استطاع كاثكارت أن يفهم هذا جزئيًا من خلال ثقته في فامين).

ترجم السيد كاثكارت هذا لي بصوت عالٍ لدرجة أن الصاحب الطابع سمعه، وأمسك بيده، وكرر نفس الشيء بالإيطالية.

لاحظنا له أننا قدمنا تضحيات كبيرة للحصول على سلام، من المرجح ألا ينتج لنا شيئًا. قال إنه من المعتاد أن يرافق الأصدقاء تعبيراتهم بأعمال طيبة، لإثبات صدقهم. أجبنا، الصداقة الحقيقية متبادلة عمومًا في هذه الأعمال. «ولكن الصداقة، في أعمال من هذا النوع، خارج الموضوع إلى حد كبير. إذا كنا سنتحدث عن الإنصاف، فسيكون من الصعب جدًا عليه تبرير ادعاءاته علينا، ونحن لم نلحق به أي ضرر، ولم نتلق منه معروفًا، وعلى الرغم من أننا عُوملنا كأعداء، فإننا لم نكن في حرب معه قط.»

[«سيسركم أن تعتبروا،» قال الباشا، «أنكم لم تكونوا قط في سلام، وإذا لم يكن من المعروف أن يكون لديكم حرية الملاحة في البحر الأبيض المتوسط، فلماذا تطلبونها؟»]

اقترحنا حذف المادة الحادية عشرة تمامًا. ووافق. وقال: «أو، سأوافق على ألا يتم تحيتكم إلا إذا طلبتم ذلك، وبالطبع لن تكونوا ملزمين بالدفع مقابل التحية. وليس من شأني أن أطلق ذخيرتي لتحية الغرباء، ولكن إذا طلبتم ذلك، فيجب أن تدفعوا ثمنه.» نهض وغادر الغرفة دون مراسم. وهو يخرج، سُئل إذا كان قد قرر شيئًا بشأن المادة الرابعة عشرة. قال: «سأفكر في الأمر، وهناك أشخاص آخرون يجب استشارتهم. ستأتون بعد غد.»

صاحب الطابع، الذي بقي، أمسك بذراع السيد كاثكارت وهمس له: «إذا وافقتم على تقديم هدية خاصة للباي، فقد يدفعه ذلك إلى تعديل المادة الرابعة عشرة، لكن المادة المتعلقة بالبارود يجب أن تبقى.» سأل السيد كاثكارت رأيي في مدى ملاءمة الموافقة على الاقتراح. طلبت منه أن يجيب صاحب الطابع، أنه في حالة التوصل إلى نتيجة إيجابية للمفاوضات، فمن المحتمل أن يُتوقع هدية من هذا النوع، ولكن لن يتم الدخول في أي التزام من هذا القبيل. فعل ذلك. بدا الوزير محبطًا ولم يقل شيئًا. قلنا له إن حكومة الولايات المتحدة قد تعلمت أن تكن رأيًا محترمًا جدًا لقدرات ونزاهة باي تونس، ونأمل أن تتاح لنا الفرصة لتأكيد هذا الرأي، وألمحنا له بأننا على يقين من أن نفوذه سيفعل الكثير مع الباي، وأفهمناه أن خدماته الودية لن تُنسى.

قال إن الباي يخضع لتأثير أي رجل بشكل ضئيل للغاية، كل أعماله المهمة يديرها بنفسه، ولكن، بما أن الأمريكيين لم يكونوا أبدًا عدوًا نشطًا، فقد كان دائمًا مستعدًا لتقديم كل مساعدة في مقدوره لهم، ويعتقد أنه فعل الكثير من أجلهم، وما زال مستعدًا لاستخدام النفوذ القليل الذي لديه لصالحهم. وغادرنا القصر، الساعة 2 بعد الظهر.

الخميس، 21 مارس، الساعة 11 صباحًا. انتظرنا في القصر لمدة ساعة. كان الباي مشغولاً برسائل من الشرق. طلب منا أن نأتي غدًا الساعة الثامنة والنصف صباحًا. واقتُرح علي أن أزور صاحب الطابع. وبافتراض أن المناورة

كانت مخططة لمنحه فرصة لطلب المال، رفضت رؤيته. عدنا إلى المدينة.

الجمعة، 22 مارس، الساعة 10 صباحًا. في القصر. بعد بعض المحادثات التمهيدية، سأل الباي ما هو قرارنا بشأن تعديلاته المقترحة في المعاهدة؟ قلنا له إننا قد أعطيناه قرارنا بالفعل، وننتظر الآن رده، من أجل إرسال المركب الشراعي. قدم المادة الرابعة عشرة، وقال، مرة أخرى، إذا كنا سنحدد الرسوم بعشرة، أو عشرين، أو مائة في المائة، حسب القيمة، بشكل متبادل، فلن يكون لديه أي اعتراض على التعديل، أو إذا تم إبلاغه بالرسوم التي تدفعها الدول الأخرى في موانئنا، فسيكون قادرًا على تحديد ما إذا كان ذلك يتفق مع مصلحة رعاياه أم لا.

أجبنا بأن الرسوم في أمريكا متقلبة، بعض مواد الاستيراد تدفع أكثر، وبعضها أقل، ولكن الحديث أكثر عن هذا الموضوع هو استهلاك للوقت بلا جدوى. وعرضنا أن نضع التونسيين على قدم المساواة مع الدول الأكثر رعاية في ذلك الوقت، وطلبنا فقط نفس الشيء في المقابل. والشروط التي أصر عليها لا يمكن أن تكون ذات أهمية كبيرة بالنسبة له، ومن الممكن أن لا يرسل التجار التونسيون بضائع إلى أمريكا أبدًا، ومن المحتمل أن لا تذهب سفنهم إلى هناك أبدًا، لذلك لا يمكن أن يؤثر ذلك على رعاياه.

قال: «صحيح، لم يذهب رعاياي إلى أمريكا بعد، ولكن لماذا تستنتجون من ذلك أنهم لن يفعلوا؟ لأنهم ليس لديهم أي تعامل معنا، لا يبدو أن مصلحتهم تشجع على ذلك، وإذا فعلت، فهم لا يعرفون الطريق.» قال: «حتى الآن، لم يعرفوا الطريق، ولكن البشر أصبحوا الآن أكثر استنارة ومغامرة، وآمل قريبًا أن يكون لدي العديد من السفن التي تذهب إلى هناك.»

اعتقدنا أن هذا غير محتمل، ولكن، إذا كان كذلك، فلن يغير الأمر. لم يتم تقديم أي سبب، لماذا يجب قبول التونسيين في امتيازات لا تُمنح لدول أخرى، حتى الأكثر رعاية. يمكن التخلي عن الفكرة دفعة واحدة، لا يمكن قبولها، إذا كانت الحرب هي النتيجة، كنا مستعدين لهذا الحدث، وعلى الرغم من أنه سيضع كلانا في موقف حرج، وأن يدمر كل منا الآخر في نفس الوقت الذي يجب أن تتحد فيه أسلحتنا ضد عدو مشترك، ومع ذلك، سيكون أفضل من التنازلات التي طالب بها. ولكن لأن البشر موضوعون في

أجزاء مختلفة من الكرة الأرضية، بطريقة تنتج مصالح متناقضة، فلا ينبغي لهم، في كل مناسبة تافهة، أن يلجأوا إلى هذا النداء المدمر، بل يجب عليهم، كأعضاء في نفس العائلة الكبيرة، أن يسعوا إلى الخير العام، حتى على حساب المصلحة الفردية.

قال: «صحيح، ولكن هذا لن يكون الحال أبدًا، طالما أن هناك كبارًا وصغارًا بين الناس. وليس لدي، مع ذلك، أي نية للحرب مع الولايات المتحدة، ولو كان الأمر كذلك، لما سمحت برفع ألوانها، على الرغم من أنني ربما وجدت فرصة في فشل حكومتكم في إرسال الهدايا الملكية.

»سألناه عما إذا كان ثمة حافز قد يقنعه بقبول التعديلات التي طلبناها في المعاهدة.

فأجاب قاطعاً: ‹لا، سأوافق على أي شيء يرضيكم، شريطة المعاملة بالمثل؛ ولكن نصيحتي لكم -كما نصحتموني- أن تتخلوا عن شروطكم›. ثم اقترح النص البديل التالي كحل وسط:

›يتمتع مواطنو وسكان الولايات المتحدة الأمريكية بحرية دخول كافة موانئ مملكة تونس، وممارسة التجارة بحرية، مقابل دفع رسوم تعادل تلك التي يدفعها التجار التونسيون في موانئ الولايات المتحدة. وتُمنح مهلة تسعة أشهر لتبادل المعلومات اللازمة حول قيمة هذه الرسوم، وخلال تلك الفترة، يدفع الأمريكيون نسبة ثلاثة بالمائة فقط في الموانئ التونسية. وبالمثل، يتمتع رعايا وسكان مملكة تونس بحرية التجارة في جميع موانئ الولايات المتحدة، مقابل دفع الرسوم المطبقة عادةً على الدولة الأكثر رعاية.

ثم أردف قائلاً: ‹أرسلوا هذا المقترح إلى حكومتكم، فإن لم يرق لهم، فليردوه›.

عدنا إلى مناقشة المادة الحادية عشرة، مستحضرين جدال الأمس، وأصررنا على مبدأ التحية المتبادلة؛ بحيث ندفع نحن تكلفة التحية في موانئه، ويدفع هو في موانئنا، لكنه رفض. فصارحناه قائلين: ‹إذا كنت تظن أنك ستحقق ربحاً (مضاربة) من وراء هذه المادة، فأنت واهم؛ لن تنال منها خرطوشة واحدة ولو بعد مائة عام، فلن يطلب أي قنصل أمريكي تحية مدفوعة أبداً. ومع ذلك، فنحن لا نرغب في التخلي عن هذه المجاملة الودية،

إذا كان تبادلها سيتم بشروط مشرفة›. وسألناه: ‹هل توجد مادة كهذه في أي معاهدة قائمة لك مع أي أمة على وجه الأرض؟ لماذا تصر على فرض هذا التمييز المهين علينا؟ هل كنا أشد عداوة لمصالحكم، أو أقل وفاءً بالتزاماتنا؟ ألم نسعَ -بتكلفة باهظة- لإقامة علاقة ودية معكم؟ وألم تغرونا بقبولكم هدايانا للاعتقاد بأنكم مستعدون بصدق لمعاملتنا بشروط ودية ومشرفة؟›

أجاب قائلاً: ‹أما المعاهدات القائمة، فقد أبرمها أسلافي الذين كانت تغريهم ساعة ذهبية أو خاتم ألماس أكثر من مخازن الذخيرة والترسانات. أما أنا، فلست هاوياً للألاعيب، وأبرم معاهدتي الآن لنفسي. لا بد لي من الحصول على الذخيرة. أنتم تصنعون البارود، وبوسعكم تقديم هذه المجاملة البسيطة لسد احتياجاتي دون عناء كبير. أنا لا أشكك في حسن نيتكم، لكن هداياكم كانت ضئيلة›.

أجبنا: ‹صحيح أننا نصنع البارود، لكن إنتاجنا لا يغطي استهلاكنا المحلي. نحن نستورد من أوروبا أضعاف ما نصنع، وما ننتجه يكلفنا غالياً بقدر المستورد، لأننا نجلب مكوناته -الملح الصخري والكبريت- من مسافات شاسعة، من جزر الهند الشرقية وسكسونيا›.

لكنه ظل متصلباً في موقفه. وفي النهاية، تم الاتفاق على صياغة المادة كالتالي:

عند دخول سفينة حربية تابعة لأحد الطرفين ميناء الطرف الآخر، وطلبها للتحية، يُدفع برميل واحد من البارود مقابل كل طلقة مدفع. وتُطلق التحية بمدفع واحد فقط عند الطلب. أما إذا لم يطلب القنصل الأمريكي أو قائد السفينة التونسية التحية، فلا يتم إطلاقها، ولا تُطلب أي مدفوعات مقابلها›.

عدنا لنقترح عليه مجدداً إرسال طراد[4] بدلاً من المؤن والذخائر المنصوص عليها.

فقال إن طراداً واحداً لن يفي بالغرض، وأضاف: ‹لديّ رأس يفكر، ولا يمكنكم خداعي›. (ونحن موقنون بصحة ذلك). وتابع: ‹ولكن، لو تصرفتم بدهاء سياسي، لأهديتموني طراداً بالإضافة إلى الهدايا الملكية المنصوص

4- سفينة حربية صغيرة. [المترجم]

عليها›.

فأجبناه بأننا سنفكر في الكرم حينما نملك القدرة على أن نكون عادلين أولاً؛ وسنمنحه بصدق كل ما التزمنا به.

فختم قائلاً: ‹لا أفترض أنكم تسعون لخداعي، فتلك سمة دنيئة، لكنني أجدكم متمسكين بشدة بمصالحكم.. وهكذا نحن جميعاً›.»

«انسحبنا إلى جناح صاحب الطابع، حيث جرت صياغة التعديلات الأصلية.

انتهز صاحب الطابع هذه الفرصة ليطالب بهدية للباي. زعم أنه هو شخصياً، وكبار رجال الدولة، قد تلقوا الهدايا المعتادة عند رفع العلم (الاعتراف القنصلي)، باستثناء الباي الذي لم ينل شيئاً، مدعياً أن هذا هو العرف الساري مع كافة الدول الأخرى. ذكّرناه بأننا سمعنا الباي بنفسه يقول، قبل أيام قلائل، إنه ليس متسولاً ولديه فائض من المال. وأبدينا استغرابنا من تحوله السريع إلى متسول! ومع ذلك، أكدنا له أنه إذا وُجد في المعاهدة أي نص يفرض هذا الالتزام، فنحن مستعدون للوفاء به. أما التذرع بأعراف الدول الأخرى، فقد اخترنا في هذه الحالة أن نكون استثناءً؛ مبدين أسفنا لسرعة نسيان الباي لتلقيه خمسين ألف دولار كهدية من الولايات المتحدة منذ عهد قريب.

رد قائلاً: ‹الخمسون ألف دولار لا شيء! الإسبان دفعوا مائة ألف ثمناً للسلام، وهدايا ثمينة جداً عند رفع العلم›.

أجبناه: ‹الإسبان يملكون مناجم للذهب والفضة يستخرجونها كتلاً من باطن الأرض، أما نحن فنكسب قوتنا بالكدح على سطحها مقابل أنصاف القروش›.

قال: ‹لكنكم شعب قوي ومغامر، وتجاورون المناجم الإسبانية، ومن المرجح جداً أن تقع هذه الثروات في أيديكم قريباً›.

قلنا: ‹عندما يحدث ذلك، سنقدم للباي هديته›.

تابع قائلاً: ‹لكن الخوف لم يكن دافع الإسبان لتقديم تلك الهدايا، فقد كانت لديهم أساطيل تحمي تجارتهم، بل كان ذلك تعبيراً شجاعاً عن الصداقة›.

رددنا عليه: ‹على العكس، كان للإسبان ساحل ممتد ومكشوف لغارات القراصنة التونسيين، وكانوا يخشون باستمرار أسر نسائهم وأطفالهم العزل واستعبادهم؛ هذا هو الدافع الحقيقي لتعبيرهم الشجاع عن الصداقة. أما نحن، فلا نخشى شيئاً من هذا القبيل. فساحلنا ليس بعيداً فحسب، بل يدافع عنه رجال أحرار. كل رجل فينا يحمل سلاحه ومستعد للذود عن أرضه، وإذا ما هوجموا، سيجد الغزاة حراباً تستقبلهم أكثر من الغنائم›.

بدا الغضب على وجه صاحب الطابع، فنهض ودخل غرفة الباي، ثم عاد مُصراً على طلب الهدية. ورفضنا طلبه، ولكننا وعدنا بالتشاور مع حكومتنا. وتم اقتراح يوم الاثنين لاستلام المعاهدة. وتركناه ليهدأ.

الاثنين، 25 مارس، 11 صباحاً، في القصر:

سلمنا الهدايا القنصلية. وكان الباي منشغلاً مع قادته العسكريين، وطلب منا العودة غداً.

الثلاثاء، 26 مارس، 11 صباحاً، في القصر:

سلمنا الباي المعاهدة المعدلة باللغة التركية. ثم انسحبنا إلى غرفة صاحب الطابع، الذي جدد مطالبته بهدية الباي، مكرراً أنها عرف سائد لدى الجميع، ومشيداً بالإسبان مراراً.

قلنا له بوضوح: ‹بما أن الباي لم يمنحنا الامتيازات التي تتمتع بها الدول الأخرى، فلا ينبغي له توقع المعاملة ذاتها منا. لقد رفض مبدأ التحية المتبادلة إلا بشروط تمس شرفنا ومصالحنا؛ وانتزع منا التنازل عن حقنا في منع إجبار سفننا التجارية على الخدمة لصالحه؛ وفوق ذلك، فرض في موانئه رسوماً تبلغ ثلاثة أضعاف ما تفرضه أي دولة أخرى. لذا، لا توجد أي ذريعة عادلة لمطالبتنا بنفس الاعتبارات. وعلى أية حال، لن نبرم أي تعهد من هذا النوع. والمفاوضات قد أُغلقت، وهذا المطلب هو فتح لباب جديد لم تأذن به تعليماتنا ولا رغبتنا.

تدخل السيد فامين (Famin) وقال إنه ألمح بالأمر للسيد بارلو، وأن الأخير فوضه باتخاذ الترتيبات اللازمة لتلبية هذا الطلب. وشككنا في صحة كلامه. وزعم أن لديه رسالة تثبت ذلك. وذكّرناه بأنه أثار هذا الأمر في القصر يوم السبت ووعد بإبراز الوثيقة، وقد مر يومان دون أن يفعل. ونحن لا نصدق أن

تلميحاً كهذا قد وصل لحكومتنا، وموقنون بأنها لن تخضع له.

قال صاحب الطابع متهكماً: ‹إذن، اكتبوا لحكومتكم أن لديكم هدنة مع تونس، وليس سلاماً›.

قلنا: ‹إذا كان السلام مرهوناً بقبول هذه الابتزازات، فنحن مستعدون لإيصال رسالتكم كما أمليتموها›.

هنا استشاط غضباً، ورمى أوراقه بمسرحية مفتعلة، وبدأ يلوح بالتهديد. ثم عاد للموضوع وقدم مذكرة (فاتورة) تتضمن قائمة المواد التي قدمتها إسبانيا. ورفضنا النظر فيها، فألح علينا. وذكرناه بأن الباي لم يتسلم هدية منذ الأمس فقط (إشارة لعدم وجود مبرر لطلب جديد). قال إن تلك كانت هدية قنصلية ولا علاقة لها بعرف رفع العلم. وسألنا: ‹أتريدون سلاماً طويل الأمد؟›. قال: ‹إذا أردتم ذلك، فلا بد أن يكون بشروط سخية›.

أجبنا ببرود: ‹نتوقع أن يستمر السلام طالما كان ملائماً للطرفين، سواء دفعنا أكثر أو أقل›.

فانفجر غضباً مرة أخرى، وهددنا بالحرب إن لم نمتثل. وأخذنا المذكرة، ووعدنا بإرسالها لحكومتنا، مع التأكيد له أنها لن تلقي لها بالاً.

في هذا الموقف، كشف السيد فامين عن معدنه الحقيقي. فهو بوضوح يعمل لمصلحة البلاط التونسي، ومستعد لدعم كل مشاريعهم في النهب، ربما بدافع الخنوع بقدر ما هو بدافع الأنانية.

الأربعاء، 27 مارس:

تلقيت المذكرة التالية من وزير الخارجية، بإملاء من صاحب الطابع:

‹أكتب إليكم باسم سيدي يوسف بخصوص مسألتي. يقول سيدي يوسف إنه من أعراف هذه الإيالة، أنه كلما عُدلت مواد المعاهدة، تُمنح الهدايا المعتادة للوزير ولصاحب الطابع. وحتى لو أُعيدت كتابة المعاهدة مائة مرة، فمن الضروري تقديم نفس الهدايا كما في المرة الأولى. أتشرف.. إلخ. (توقيع: م. ستلنكا) - القصر، 27 مارس›.

الجمعة، 29 مارس:

رددت على صاحب الطابع بالرسالة التالية:

‹تلقيت قبل يومين مذكرة من الوزير، السيد ستلنكا، يخبرني فيها

بوجوب تقديم الهدايا المعتادة لحافظ الختم والوزير كلما عُدلت المعاهدة. يسرني أن أعرف ماهية هذه الهدايا. وآمل أن يؤخذ في الاعتبار أن المعاهدة لم تكتمل بعد، وأن الهدايا التي قُدمت سابقاً كانت تحسباً لهذا الإنجاز. وبناءً عليه، فإن طلب هدايا جديدة يفتقر إلى اللياقة، وكأن خلافاً قد نشب وتم تجديد المعاهدة من الصفر. أنا حالياً غير مستعد لتلبية طلب كهذا، ولكن إذا ثبت أن هذا العرف راسخ وقائم على الإنصاف، فسيتم التدبير له. ومع ذلك، تملي علي الصراحة والواجب أن أعلن أنني لا أستطيع بأي حال اتخاذ الأمة الإسبانية قدوة لسلوكي. ربما إذا تجاوزت الولايات المتحدة صعوباتها الحالية، قد تتمكن من تبني أعراف الأمم الدنماركية والسويدية. أنا.. إلخ›.

الأول من أبريل:

وردني مقتطف من رد الوزير بتاريخ الأول من أبريل:

›يقول سيدي يوسف إن معاهدتكم قد صُدقت بالفعل على غرار الدول الصديقة الأخرى. وبما أنكم غيرتم وحذفتم بعض المواد، فقد تغيرت المعاهدة، لذا يطالبكم بعرفه وعرف الوزير أسوة بالجميع. ويبدي سيدي يوسف دهشته الشديدة من مضمون رسالتكم بتاريخ 29 الماضي، وقولكم إنكم لا تستطيعون الاقتداء بإسبانيا، وربما تقتدون بالدنمارك والسويد لو ناسبكم الحال! أثناء استلام الرسالة، كان الباي في جولة، فامتطى سيدي يوسف جواده فوراً ولحق بسيدنا الباي وأخبره بما كتبتم. فأمره الباي أن يكتب إليكم بأنه سيحصل على هديته وفقاً للمذكرة التي نسخها السادة (القناصل) في حضرة سيدي يوسف، بل ويريدها أفخم مما ورد فيها. ويضيف فخامة الباي: إذا لم تعجبكم شروطه، يمكنكم إيقاف مركبكم والتوجه للقصر للتحدث معه، وسيعطيكم شروطاً «أدق» لتبليغ حكومتكم. (توقيع: ستلنكا)›.

أرسلت مذكرة سريعة لصاحب الطابع: ›تلقيت رسالتكم هذا الصباح. سأتشرف بزيارة فخامة الباي غداً في العاشرة صباحاً›.

في هذا الصباح، غادر السيد كاثكارت (Cathcart) إلى طرابلس على متن السفينة ‹صوفيا›.

الثلاثاء، 2 أبريل، 6 صباحاً:

أبحرت سفينة ‹صوفيا› مع رياح مواتية.

في العاشرة، زرت الباي حاملاً هدايا إضافية، شملت ست قطع من القماش الفاخر بألوان متنوعة، قُسمت بينه وبين صاحب الطابع. أبدى الباي تجاهلاً تاماً لهذه الهدايا.

سألني بلهجة متعالية: ‹لماذا أبحرت السفينة مخالفةً للأمر الوارد في مذكرتي بالأمس؟›.

قلت: ‹مصالح أمتي اقتضت ذلك›.

أبدى استياءه من مذكرتي السابقة، فقلت له: ‹التزاماتنا يجب أن تتناسب مع قدرتنا على الوفاء. آمل أن تقدروا أن أمريكا تخوض حرباً، والمواد التي طلبتموها لا تُجلب إلا من بلدان تمنعنا الحرب من التعامل معها، لذا يستحيل تلبية طلبكم›.

قال بإصرار: ‹سأحصل على الهدية المطلوبة›.

قلت: ‹يجب استشارة حكومتنا›.

قال: ‹إذا لم توافقوا، يمكنكم العودة لبلادكم واعتبار كل ما تم لاغياً›.

أجبت ببرود: ‹إذا لم يكن هناك بديل، فسأرحل›.

قال: ‹جيد جداً. أمنحك عشرة أيام للتفكير، وإذا بقيت على عنادك، يمكنك ركوب السفينة عند عودتها من طرابلس والرحيل›. ثم نهض من أريكته غاضباً وغادر دون مراسم.

بقيت مع صاحب الطابع، فسألني: ‹ألا تُصنع هذه المواد في أمريكا؟›.

- ‹لا، ليس لدينا المواد الخام ولا المصانع›.

بدا متفاجئاً: ‹أليست أمريكا بلداً قديماً؟›.

- ‹لا، لم يمضِ قرنان على تأسيس أولى مستوطناتنا›.

- ‹ولكن الباي لا بد أن يحصل على هديته، فهي لا غنى عنها›.

- ‹إذا كان الباي صادقاً في رغبته بالسلام، فلن يصر في هذا التوقيت على هدية يستحيل توفيرها، تاركاً الحرب بديلاً وحيداً›.

وأعربت عن أملي أن يستخدم نفوذه لثني الباي عن عناده. لم يرد. وتركته دون مراسم، لكنني أوعزت للمترجم بترك هدية كنت أعددتها له. وعند مغادرة البلاط، انهالت علينا طلبات البقشيش (الإكراميات) من صغار

الضباط وكبار العبيد، بدعوى أنها ‹أعراف جميع الدول› عند استقبال قنصل جديد!

من ضمن الأسئلة العرضية التي طرحها صاحب الطابع: ‹ما هو دين الأمريكيين؟›.

قلت له: ‹نؤمن بالله الواحد، وبأن العدل يُجازى والغش يُعاقب›.

فعلق ساخراً: ‹ظننت أنكم لستم مسيحيين متزمتين›.

(الحق أن للتونسيين رأياً سلبياً في المسيحيين، ولهم عذرهم في ذلك؛ فالذين خالطوهم من المسيحيين قد انحدروا بكرامة دينهم إلى طقوس فارغة وخنوعٍ مخزٍ).

الأربعاء، 3 أبريل. زرت مصطفى خوجة،[5] الوزير الأول، وهو رجل عجوز كان له نفوذ كبير، لكنه فقد أسنانه. قدمت له هدية إضافية من قطعتين من القماش. أعرب عن شعوره بالامتنان، وقال لمترجمي بتواضع شديد، إنه لو لم يخجل من فعل ذلك، لأعاد لي الهدية.

»أرسل صاحب الطابع (رئيس الوزراء) في طلبي، وجدد في شقته الحديث حول هدية الباي. بدا مزاجه أهدا من الأمس؛ وربما نجح ‹الوسيط› (المترجم أو فامين) الذي تُرك معه في تليين عناده. ومع ذلك، ذكّرني بأنني ألمحت له -أثناء مناقشة تعديلات المعاهدة- بأن الباي قد يتوقع ‹شيئاً نفيساً جداً› في حال موافقته، واتهمني بأنني تناسيت هذا الالتزام أو حاولت التملص منه بعد تحقيق غايتي.

أجبته بحزم بأنني لا أتهرب من التزام قُطع بنزاهة، مرجحاً أن الباي قد أساء فهم مغزى رسالتي، أو أنني لم أوصل مقصدي بوضوح. فقصدي كان ينحصر في تأكيد أن الولايات المتحدة لن تحذو حذو الإسبان، لسبب وجيه جداً: افتقارنا للقدرة على ذلك. فما الفائدة من الوعد بهدايا ملكية لا تنتجها بلادنا؟ لقد آثرت مصارحته على تملقه، كي لا ينتظر مجوهرات قد لا يكون في

5- مصطفى خوجة (Mustapha Khoja): هو الوزير الأول والمستشار الأبرز لباي تونس (حمودة باشا). وكلمة «خوجة» لقب عثماني يُطلق على الكتاب والعلماء، مما يعكس دوره كرجل دولة «من أصحاب القلم». كان المسؤول الأول عن إدارة الشؤون الخارجية والمفاوضات الدبلوماسية مع القناصل الأجانب، ويُعدُّ في الوثائق الأمريكية التاريخية العقل المدبر للسياسات التونسية في تلك الحقبة.(المترجم)

مقدورنا الحصول عليها أبداً. وكما أسلفت له بالأمس، ليس لدينا في أمريكا ذهب ولا ألماس، ولا حرفيون يتقنون صياغتها.

سأل متهكماً: ‹ماذا أنتم إذن؟ حفنة من القرويين.. رعاة وفلاحون؟›

- ‹إلى حد كبير›.

- ‹ولكنكم تبنون السفن؟›

- ‹نعم›.

- ‹ومن أي خشب؟›

- ‹من أجود الأنواع›.

- ‹وهي جميلة؟›

- ‹نعم›.

- ‹حسناً، لنفترض أنكم توافقون على تقديم طراد (سفينة حربية) صغير وجميل كهدية للباي؟›.

قلت له: ‹لقد أمهلني الباي عشرة أيام للتفكير في اقتراحه الأول. وخلال هذه المدة سأدرس هذا الاقتراح الجديد. ويسرني، على أية حال، أنكم أبديتم استعداداً لتعديل الطلب. سأزور الباي بالرد فور عودة السفينة›.

فقال: ‹وفي غضون ذلك، سأسعى لإقناعه بهذا الحل›.

من العسير التفاوض حين تكون الشروط مجحفة ومن طرف واحد. لقد أدمنت بلاطات دول البربر عادة إملاء شروطها في المفاوضات. حتى الإنجليز -كما أخبرني القنصل البريطاني بنفسه- قدموا عند وصوله واستقباله هنا هدية نقدية وعينية قُدرت قيمتها في إنجلترا بسبعة عشر ألف جنيه إسترليني. لكن الفارق أن تونس ترتعد لزئير إنجلترا. ولا ريب أن هذه سياسة مدبرة من إنجلترا لإحراج وإثقال كاهل الدول المسيحية التجارية الأخرى، وهي سياسة تؤتي أكلها. أما الولايات المتحدة، فيظنون أن بإمكانهم إملاء الشروط عليها. ولمَ لا؟ وما الذي يدعوهم للاعتقاد بخلاف ذلك؟ لم يروا من أمريكا ما يدحض هذا الظن. وكل حديثنا عن المقاومة والانتقام يعدونه جعجعة بلا طحن.

هم قلقون حالياً من احتمالية قيام تحالف هجومي ودفاعي بين الإنجليز والأمريكيين. والشائعات سارية، وقد انتهزت الفرصة لتعزيزها عبر تكثيف

لقاءاتي بالقنصل البريطاني، وتناول العشاء معه، وإجراء اتصالات سرية.

ولكن، ومهما كانت الحيل المستخدمة، فالمؤكد أنه لا سبيل لصداقة دائمة مع هذه الدول إلا بتمهيد الطريق بالذهب أو بكرات المدافع؛ والسؤال الحقيقي هو: أي السبيلين أجدى؟ ما داموا هم من يملي الشروط، فلا سقف لتكلفة السلام. فلا رادع لديهم من شرف أو أمانة؛ فمن الأمير إلى سائق البغال، لا يوجد وغد بينهم يترفع عن التسول والسرقة. وللمفارقة، حين اقترحت على صاحب الطابع اليوم استبدال الهدية العينية بالمال، زعم أن للباي ‹إحساساً مرهفاً بالشرف› يمنعه من قبول الرشوة، وأنه سيقبل هدية لكنه سيهان إذا عُرض عليه المال.

السبت، 6 أبريل:

أعاد الوزير الأول (مصطفى خوجة) هديته إليّ، مع رسالة مفادها أنه لم يعتد قبول هدايا أقل قيمة مما ناله صاحب الطابع (الذي يليه في الرتبة بصفته الوزير الثاني)، معتقداً أنني ضُللت بنصيحة اليهود في توزيع الهدايا. وهدد بأنه إن لم يحصل على ما يعادل نصيب صاحب الطابع، فلن يقبل شيئاً. وألمح الرسول إلى أن الوزير الأول مستشيط غضباً، لكنه أشار إلى أن الهدية قد تُقبل وتزول الضغينة ببعض الإضافات البسيطة. الغريب أنه لم يبدِ أي استياء حين كنت عنده يوم الأربعاء؛ ولعله لم يكن يعلم حينها بما غنمه صاحب الطابع.

الأحد، 7 أبريل:

وصلني طلب من الأميرال (قائد البحرية) يتضمن: عصا برأس ذهبي، وساعة ذهبية بسلسلة، واثنتي عشرة قطعة قماش.. بدعوى أنها ‹العرف عند استقبال قنصل جديد›. تُرك الطلب على الطاولة.

كما ورد طلب من ‹آغا القليطة› (قائد السفينة الحربية) يطالب بعرفه بمناسبة رسو أول سفينة حربية أمريكية في الخليج. وكان ردي عليه: سأهديك نسخة من المعاهدة!

الأحد، 14 أبريل، 8 صباحاً، في القصر:

أبلغني صاحب الطابع أن الباي رفض اقتراح استبدال المجوهرات بطراد صغير.

قلت له: رغم رفض الباي الحديث في المال، سأعرض عليه مرة أخرى مبلغ خمسين ألف دولار لتسوية كافة المطالب.

رد بأن الهدايا الملكية البحرية والعسكرية (المطلوبة في المعاهدة) ثمينة للغاية وضرورية في هذا التوقيت، وأنه حتى لو عرضت مائتين وخمسين ألف دولار، فلن يقبلها الباي.

لخصت له التكاليف التي تكبدناها بالفعل في مفاوضاتنا مع هذه الإيالة، وأطلعته على حساب ‹فامين› العام وقائمة الهدايا. فوصفها بالتافهة، وعاد لذكر المجوهرات.

أبديت استغرابي الشديد من إصرار الباي على طلب مواد يستحيل الحصول عليها بسبب الحرب.

فقال: ‹اجلبوها من إنجلترا؛ نحن نفضل الصناعة الإنجليزية على الفرنسية والإسبانية›.

قلت: ‹الأغرب من ذلك أن يفرض الباي على الولايات المتحدة رسوماً جمركية تبلغ ثلاثة أضعاف ما تفرضه الدول الأخرى، ويرفض مبدأ التحية المتبادلة الممنوح للجميع، ويجبرنا على بند يسمح بتسخير سفننا التجارية لخدمته، ومع ذلك يطالبنا بهدايا تضاهي هدايا الدول الأغنى والأكثر حظوة!›.

كرر زعمه بأن بند الخدمة لن يُفعّل غالباً. ومهما يكن، فالباي سيحصل على الهدايا.

ثم انتقل ليطالب لنفسه ببندقية مزدوجة السبطانة وسلسلة ساعة ذهبية، زاعماً أن الوكيل الأمريكي وعده بالبندقية وأنه يظن أنه قد طلبها.

صارحته قائلاً: ‹ستجد الولايات المتحدة أن إرسال قوة بحرية لحماية تجارتها في هذه المياه أرخص وأجدى سياسياً من الخضوع لهذه المطالب المتراكمة›.

فقال ببرود: ‹جيد جداً›.

دخل لتقديم تقريره للباي. وبعد دقائق أُدخلتُ إلى جناحه. تبادلنا بضع كلمات بنفس المضمون السابق. فاستشاط غضباً، ونهض مغادراً القاعة، لكنه التفت عند الباب وقال:

‹استشر حكومتك. أمهلهم ستة أشهر ليعطوني رداً ويرسلوا الهدايا. إذا

وصلت في الموعد، فبها ونعمت. وإذا لم تصل.. فأنزل علمك وعد إلى بلادك›.»
»وهكذا أُسدل الستار على مفاوضاتنا.

لقد ظُلمت الولايات المتحدة، وأجحفت هي أيضاً في حق نفسها. لقد قُدمت للجزائر تنازلات جمة، والحق أنه لا توجد سوى لغة واحدة يفهمها هؤلاء القوم، وهي لغة الرهبة والقوة. ولو كان الأمر بيدي، لكان ردي على هذه المطالب مزلزلاً وحاسماً، ولكن السؤال يبقى: هل تبيح السياسة الحكيمة رداً كهذا؟ إننا نخاطر بالقليل، لكننا قد نخسر الكثير.

في نهاية المطاف، سنضطر لشراء السلام وتحرير أسرانا، ما لم نتمكن من تحقيق التدمير الشامل لهذه الإيالة، أو إقناعهم -على الأقل- بقدرتنا على فعل ذلك.

إن وضعنا الحالي حرج للغاية؛ فوكيلنا السابق (فامين) يدبر الكثير من الدسائس. وأنا على يقين من أنه احتج رسمياً اليوم لدى الباي ضد تعيين الولايات المتحدة لقنصل جديد يشاركه رزقه، ولن أستغرب أن يستغل الفرصة للاطلاع على مراسلاتي إلى وزارة الخارجية.

لم أقدم هدايا بعد حيثما أمكنني التجنب، لكنني أتوقع أن أُجبر على ذلك ما لم يطرأ حدث غير متوقع يحول دونه. ولن أنصاع لهذا الإجراء على عجل؛ فحين أجد نفسي مضطراً، قد ألين لهجتي مع هذه الحكومة، لكنه سيكون خياري الأخير.

إن وكيلنا السابق لم ينطق قط بلغة الاستقلال والكرامة. ولو قُبل كممثل رسمي -فضلاً عن كونه وكيلاً- لحكومة الولايات المتحدة، لكان ذلك إقراراً منا بأهليتنا للعبودية. أنا مقتنع بأنه لم يقاوم أي طلب قط، بل أرى أنه كان شريكاً في جني ثمار تنازلاته. وقد يبدو رأيي المنقلب في هذا الفرنسي غريباً، لكن مجاملاته السابقة لي لم تكن سوى رداء خارجي للنفاق.

أعتقد أن استعراضاً للقوة في هذه البحار -إذا أمكن الاستغناء عن جزء منها في سواحلنا- سيكون له أثر بالغ، ولو لمجرد إقناع هؤلاء القراصنة بأننا لسنا طلياناً (ضعفاء). إذا قوبل طلب المجوهرات بالرفض -وهو ما آمل حدوثه- فسيكون استعراض القوة ضرورة قصوى، وإلا فلن تُقبل الهدايا الملكية الأخرى (المنصوص عليها في المعاهدة). وتقدم الدنمارك مثالاً حياً

وحديثاً على ذلك.

إذا تمكنا من منع التونسيين من إعلان الحرب في الوقت الراهن، فنحن في مأمن نسبي، لكن لا يوجد لديهم وازع من عدالة يمنع الحرب إذا سنحت الفرصة. من المرجح أن نحصل على مهلة إضافية، وهو أمر حتمي لاستحالة تلقي الرد في الوقت المحدد، لكن يُرجى ألا يُعول كثيراً على هذا الاحتمال. وليس لدى الولايات المتحدة رسول أرحب بقدومه حاملاً الرد مثل القومودور باري (قائد البحرية).

أتشرف بأن أكون، سيدي، خادمكم المطيع والمتواضع،

ويليام إيتون.

إلى معالي وزير خارجية الولايات المتحدة.

كانت تعليمات وزير الخارجية، السيد بيكرينغ، للسيد إيتون شاملة للغاية؛ فلم تقتصر على المهام القنصلية المباشرة، بل كلفته برصد القوة العسكرية والبحرية، والصناعة، والتجارة، والقوانين، والسياسة في تونس ودول البربر الأخرى. وفيما يلي، بعد حذف التفاصيل الهامشية، يقدم إيتون كماً وفيراً من المعلومات حول هذه المواضيع.

تونس، 15 يونيو 1799.

سيدي،

يهيمن اليهود بشكل شبه كامل على تجارة تونس. إذ تحتكر شركة تجارية، قوامها الرئيسي من اليهود وتدعى «جيورناتا» (Giornata)، تجارة الجلود والشمع في المملكة بأسرها -وهي سلع تصديرية حيوية- وذلك بموجب عقد إيجار من الباي مقابل ستين ألف قرش سنوياً (ما يعادل 17,142 دولاراً).

يُجبر المواطنون على بيع الجلود لهذه الشركة بسعر زهيد (11 سنتاً للقطعة) والشمع بسعر (32 دولاراً للقنطار). وكان لشركة «جيورناتا» وكالة في ليفورنو الإيطالية لتصدير هذه المواد، حتى تعطلت بسبب العمليات العسكرية الفرنسية في إيطاليا، فنُقلت الوكالة إلى ميسينا. ويُقدر حجم التجارة السنوية لهذه الشركة بـ 250,000 قطعة جلد و400 قنطار من الشمع. وتبلغ إيرادات الباي من هذا الاحتكار: 17,142.85 دولاراً.

أما صادرات المملكة الأهم فهي الزيت والقمح والشعير، ومنها يتقاضى

الباي «العشر» (Tithe).

يُقدر أن 130,000 «مطر» (وحدة قياس، المطر= 6 جالونات) من الزيت تُصدر سنوياً لأوروبا وآسيا. وإضافة إلى العشر، يتقاضى الباي 64 سنتاً عن كل «مطر» مقابل «التذكرة» (رخصة التصدير). ويبلغ متوسط سعر شراء الزيت 28 سنتاً للجالون، ويرتفع مع التذكرة إلى نحو 39 سنتاً. ووفقاً لهذا الحساب، فإن الإيرادات السنوية من الزيت تبلغ: 78,520 دولاراً.

ويُقدر تصدير القمح -باستثناء العشور- بنحو 350,000 بوشل سنوياً. وبافتراض أن هذا يمثل تسعة أعشار الإنتاج، فإن قيمة «العشر» تبلغ 38,888 دولاراً. ويتقاضى الباي 6 دولارات مقابل تذكرة التصدير لكل «قفيز» (11 بوشلاً)، بإجمالي 194,489 دولاراً. وتحمل أكثر من 120 سفينة (بمتوسط حمولة 90 طناً) بالقمح سنوياً. ليكون إجمالي الإيرادات من القمح: 233,377.74 دولاراً.

لا يمكنني تحديد كمية الشعير بدقة، لكن بافتراض أنها نصف كمية القمح، فإن الإيرادات ستكون حوالي 70,000 دولار. أما الفول والبيقية (Vetch) فتدر نحو 17,000 دولار. كما يتم تصدير كميات ضئيلة من الأبقار والأغنام، وتُحصل رسومها أيضاً عبر التذاكر.

(مصدر المعلومات): استقيت هذه البيانات من تاجر يهودي بارز في المدينة. ورغم أنها قد لا تكون دقيقة تماماً، إلا أنها تعطي صورة تقريبية عن إنتاج وإيرادات هذه المملكة.

تتمثل الصناعات الرئيسية في القبعات الحمراء (الشاشية) والأوشحة. وقد أرسلت عينة من القبعات مع النقيب جيديس، حيث تُصدر منها كميات ضخمة لكافة الأراضي التركية. وتستورد مصانع القبعات سنوياً 3000 قنطار من الصوف الناعم من إسبانيا، وتستورد مصانع الأوشحة 600 قنطار من الحرير الخام من المورة (اليونان)، وهذه المواد معفاة من الرسوم.

هذا في أوقات السلم، أما الحرب الحالية فقد شلت تجارة المملكة تماماً. وتعد «راغوزا» (دوبروفنيك حالياً) الناقل البحري الوحيد لتونس حالياً، وتتركز تجارتهم المتبقية في سميرنا (إزمير) وموانئ المشرق وساحل دالماسيا والمورة.

أما الواردات المطلوبة بشدة والتي قد تحقق أرباحاً نقدية هائلة (تصل إلى 300% مقارنة بأسعار أمريكا) فتشمل: الأقمشة القطنية، الجوخ، الأقمشة الفاخرة، الحديد، القهوة، السكر، التوابل والفلفل بأنواعه، شموع الشمع المبيضة، القرمز، الأسماك المجففة، والأخشاب.

(تقرير القوة البحرية):

[يقدم السيد إيتون هنا إحصائية دقيقة للقوة البحرية التونسية، مبيناً امتلاكهم لـ 94 سفينة مسلحة، و928 مدفعاً، و88 مدفعاً دواراً، بطاقم يتجاوز 8000 رجل].

الجدول المرفق يوضح بدقة نوع السفن، تسليحها، طواقمها، ومواسم إبحارها، ونمو البحرية في العقد الأخير. وقد أفادني السيد تولين -القنصل السويدي وعميد القناصل والأكثر خبرة- بأن تونس قبل عشرين عاماً لم تكن تملك سوى 9 طرادات.

وتجدر الإشارة إلى أن الباي يتقاضى «العشر» من كافة الغنائم التي يجلبها القراصنة إلى موانئه. وهذا المصدر، مضافاً إليه «جزية الهدايا الملكية» من الدول المسيحية، وغنائم قراصنة الإيالة الرسميين، والرسوم الداخلية، يدر إيرادات ضخمة. غير أن هذه المصادر بدأت تجف؛ فلم يبحر هذا العام سوى عشرون طراداً.»

«لقد انحصرت مناطق نشاط قراصنة هذه المملكة -حتى الآن- في محيط جزر كورسيكا وسردينيا وصقلية، وعلى امتداد سواحل جنوة وتوسكانا ونابولي وكالابريا، وصولاً إلى مدخل البحر الأدرياتيكي، بل وتوغلوا حتى فينيسيا (البندقية). غير أن هذه السواحل، بعد وقوعها تحت حماية القوى المتحاربة الكبرى، لم تعد توفر صيداً وفيراً.

يعتمد أسلوب هجومهم دائماً على اقتحام السفن (Boarding). ولهذا الغرض صُممت سفنهم خصيصاً؛ فأشرعتها اللاتينية (المثلثة) الطويلة تسقط مباشرة على سطح سفينة العدو، موفرة جسراً آمناً وسهلاً للمهاجمين. ولأن سفنهم تكتظ دائماً بالرجال، فإنهم يتقاطرون منها كالسيل من كل حبل ومن كل زاوية، سيوفهم بين أسنانهم، ومسدساتهم محشوة في أحزمتهم، لتكون أياديهم حرة لتسلق جوانب سفينة العدو أو شباكها. وهذا

النمط من الهجوم يتسم بالسرعة واليأس الشديدين. ولأنهم يعتقدون -بناءً على وحي دينهم- أن الحرب ضد المسيحيين تضمن خلاص أرواحهم، ووجدوا في الالتزام بهذا ‹الواجب الديني› مكاسب دنيوية هائلة، فإن دافعهم للقتال المستميت قوي جداً.

والدفاع الأمثل ضدهم يكمن في تعلية جوانب السفن (High nettings)، وتجهيزها بمدافع صغيرة لمنعهم من الفرار، وإمطارهم بوابل كثيف من طلقات الخرطوش (Grape shot) والبنادق القصيرة والعصي الخشبية (للقتال القريب). لكن الأفضل دوماً هو إبقاؤهم على مسافة بعيدة، لاستغلال نقطة ضعفهم المتمثلة في الجهل بفنون المدفعية.

أهم الموانئ البحرية هي: بورتو فارينا (غار الملح)، القليطة (حلق الوادي)، صفاقس، سوسة، وبنزرت.

بورتو فارينا (غار الملح): هي مرسى السفن الحربية، ويُحظر على السفن الأخرى الرسو فيها. تقع على بعد 8 أو 9 فراسخ شمال غرب تونس. الميناء محصن بأسوار وبطاريات المدينة، وله مدخل ضحل (عمقه 7 أقدام) يُجبر الطرادات الكبيرة على تفريغ حمولتها (مدافع، أثقال، مؤن) وإمالتها على جانبها لتقليل الغاطس، ثم سحبها للداخل بواسطة صنادل خاصة (Pontoons). المدينة تضم حوالي 100 ألف نسمة (رقم مبالغ فيه تاريخياً)، ولها حاكم (محمد خوجة)، وتعد الترسانة العسكرية للمملكة. ويمتلك الحاكم أسطولاً خاصاً من الطرادات يفوق ما تملكه الدولة نفسها.

خليج تونس وميناء القليطة (حلق الوادي): يتشكل الخليج بين ‹رأس فارينا› و‹رأس بون› (الوطن القبلي). الميناء في القليطة (Goletta) يقع على بعد 10 أميال شرق تونس العاصمة، وهو حوض ضخم يحده غرباً رأس قرطاج، وشرقاً نتوء بري قرب مصب نهر مجردة (المشهور بأسطورة ثعبان القائد الروماني ريغولوس). تحميه قلعة حجرية ضخمة (برج الكراكة) مزودة بـ 120 مدفعاً. الميناء آمن وجميل، ويسمح برسو السفن الحربية ذات الغواطس الكبيرة. يفصل الميناء عن بحيرة تونس شريط بري ضيق.

بحيرة تونس: بحيرة راكدة محيطها 30 ميلاً، تصل حتى ضواحي العاصمة. مياهها ضحلة (6 أقدام)، وتُنقل البضائع عبرها من السفن

الراسية في الخليج إلى المدينة بواسطة صنادل تمر عبر قناة تحت أسوار القلعة. مياه البحيرة آسنة لدرجة أن القوارب تترك خلفها أثراً أخضر عفناً، وتنبعث منها روائح كريهة قد تكون سبباً في تفشي الطاعون.

(ملاحظة أثرية): يُشاع أن البحيرة تغمر أطلال قرطاج، وهذا خطأ. لقد زرت الأطلال مراراً؛ فأسوار المدينة القديمة، وقلعة ‹بيرصا›، ومعبد ‹إسكليبيوس› واضحة المعالم على المرتفعات. أما الصهاريج الرومانية الضخمة (المعلقة) فما زالت سليمة ومغطاة بأقبية واسعة، وإن كان بعضها قد طُمر تحت الأرض واستغله السكان للزراعة فوقه.

صفاقس: مدينة محصنة (48 فرسخاً جنوب تونس). ميناؤها واسع ومحمي بجزيرة (قرقنة) عند المدخل، وله مرسى جيد. حاكمها (القايد) يرسل العديد من الطرادات للقرصنة.

سوسة: مدينة محصنة (30 فرسخاً جنوب تونس)، ولها ميناء جيد.

بنزرت: (10 فراسخ شمال غرب تونس). لها خليج واسع، لكن مرساه مكشوف للرياح الشمالية الشرقية. وتتميز بوجود رصيف داخلي يتصل ببحيرة كبيرة خلفية عبر قنوات، وتُسحب إليها الطرادات للأمان.

(الملاحة والمناخ): الرياح متقلبة، لكن في الصيف يسود نسيم البحر نهاراً ونسيم البر ليلاً. ولا يوجد موسم يمنع الملاحة تماماً، رغم أن التونسيين يقللون نشاطهم في فبراير لحساسيتهم المفرطة تجاه البرد.

البلاد ساحرة وخصبة بشكل يفوق الوصف؛ وكان الرومان محقين حين اعتبروها جنة للرفاهية. ولو قدر لها أن تقع في يد شعب مستنير، لنافست أوروبا في الثراء والتحضر.

نظام الحكم ملكي مطلق وراثي، لكنه يتسم باعتدال لافت. الباي الحالي (حمودة باشا)[6] يحكم الإيالة بالوراثة عن والده (علي باي) الذي اغتصب الحكم من ابن أخيه (الوريث الشرعي) عبر مؤامرات مع الديوان والباب

6- حمودة باشا (Hamuda Pacha) هو باي تونس (1782–1814) من الأسرة الحسينية. تميز عهده بالقوة والاستقرار النسبي ومحاولة الاستقلال بالقرار التونسي عن النفوذ العثماني المباشر. كان الطرف الرئيسي الذي واجهه إيتون، ووصفه إيتون بأنه حاكم ذكي ومراوغ، يسعى لانتزاع الجزية والهدايا من القوى الناشئة مثل الولايات المتحدة مقابل حماية سفنها من القرصنة. (المترجم)

العالي، لكنه كسب محبة شعبه بحكمه الرشيد. وقد سار حمودة باشا على نهج أبيه، ورسخ حكمه في قلوب رعيته لدرجة أن منافسه الشرعي (المحتجز كرهينة في القصر) قد يئس من استعادة العرش.

القانون الوحيد هو القرآن؛ لذا لا وجود للمحامين، والتقاضي قليل. الباي هو القاضي الأعلى؛ ينظر في الجنايات الكبرى بنفسه، ويحيل القضايا الصغرى لمحكمة «الشرع» برئاسة قاضي القضاة. وفي المقاطعات، يتولى «القايد» (حاكم المقاطعة) الفصل في النزاعات المدنية والجنائية، مع حق الاستئناف أمام الباي.

يجلس الباي للقضاء يومياً (عدا الجمعة والأعياد) من الصباح الباكر حتى الظهر. يدير شؤون الدولة بنفسه، ويشرف على الجيش والبحرية ودفع الرواتب، مما يجعل حياته شاقة للغاية. يعيش حياة تقشفية، يمارس الرياضة، وينام قليلاً. ورغم زواجه من أجمل نساء المملكة، إلا أنه يعيش وحيداً.

ولكن، ورغم هذه الصفات، فالأمير ليس منزهاً عن العيوب؛ فاسمه يرتبط برذيلة تخجل منها الطبيعة (إشارة للمثلية). ومن المفارقات أن وزيره المفضل «صاحب الطابع» -وهو تركي قوي البنية في الثلاثينات من عمره- هو الموضوع الأول لشهوته. كما أنه جشع بلا حدود؛ فقصره يغص بالمجوهرات والأسلحة المرصعة، ويُقال إن زوجته مثقلة بالذهب والألماس المحبوس عن العالم.

القوة العسكرية لتونس هي قوة وهمية أكثر منها حقيقية. كل تركي، وسليل تركي، هو جندي ويتقاضى أجرًا، ويبلغ عددهم 12,000. وهؤلاء، على الرغم من أنهم لم يُجندوا أبدًا، وهم ما يسمونه قواتهم النظامية. وتظهر مفارز منهم في الميدان مرة أو مرتين في السنة، لغرض التبجح في المقاطعات الداخلية، لجمع إيرادات المغاربة الفقراء المظلومين. ولا يمكن القول إن لديهم زيًا موحدًا، ولديهم انضباط أقل من أكثر القوات بدائية رأيتها في أمريكا؛ وقد رأيت ميليشياتنا من بوسطن في ماساتشوستس إلى ليكسينغتون في كنتاكي، ومن الحدود الشمالية لفيرمونت إلى الحدود الجنوبية لجورجيا. إنهم مسلحون بسيف، وزوج من المسدسات، وبندقية صدئة بدون حربة.

معسكرهم، كما يسمون جيشهم، أو بالأحرى غوغاءهم، عندما يجتمعون، يتألفون جزئيًا من سلاح الفرسان، المسلحين بنفس طريقة المشاة. وخيولهم، مأخوذة بشكل جماعي، هي في الواقع أسوأ من خيول الطاحونة في بلدي الأصلي، نيو إنجلاند، والتي يعرف الجميع أنها بائسة بما فيه الكفاية، تُجلب إلى الميدان كما خلقتها الطبيعة، أو تغيرت فقط بسبب تقرح السروج أو السلال، وكلها غير منضبطة تمامًا. ليس لديهم تدريب يدوي ولا مناورات ميدانية. وفي مسيرتهم، يندفعون بشكل عشوائي، خاليين من التكتيكات مثل نمور صحاريهم، ومعسكراتهم غير منتظمة مثل تدريبهم. هؤلاء هم كل الجنود الذين رأيتهم، ولدي سبب لأعتقد أن هؤلاء هم كل من يمكن أن تنتجهم المملكة، وكما قلت من قبل، هم نظاميون، ميليشياتهم أسوأ من ذلك. كل مغربي لديه أسلحة. ويشكل سكانهم الأصليون الميليشيا، لكنهم لا يجتمعون لا في مجموعات ولا في مفارز، إلا في حالة الخطر الداهم، وعندها يندفعون من الجبال مثل ذئاب الغابة. في بشرتهم وعاداتهم، ولديهم تشابه لافت للنظر مع الهنود الأمريكيين، وفي أخلاقهم يشبهونهم كثيرًا، لكنهم يفتقرون إلى تلك العظمة البرية، وتلك الأجواء من الاستقلال، التي تحيي أولئك الأبناء الأحرار في غاباتنا. أميل إلى الاعتقاد بأن المغاربة جبناء. ويقال إن الأتراك شجعان. هذا ليس مستحيلاً. يوفر تل بنكر دليلاً على أن الرجال غير المنضبطين سيقاتلون، لكن حملة عام 76 تثبت أيضًا أن الرجال غير المنضبطين يشكلون جيوشًا سيئة. لا يمكنني تحديد عدد الميليشيا غير المنظمة.

راتب الجندي التركي أربعة أسبرات، أي نصف دولار في اليوم، بدون ملابس، وبدون حصص، إلا عندما يكون في الميدان. يزيد هذا المبلغ أسبرًا واحدًا كل ثلاث سنوات حتى يصل إلى تسعة وعشرين أسبرًا في اليوم، ولا يمكن أن يتجاوزه مهما كانت الرتبة. والباي، كونه تركيًا، هو بالطبع جندي، وقائد عام للجيش والبحرية. راتبه مقابل هذه الخدمة هو تسعة وعشرون أسبرًا في اليوم. يتلقى لواءاته الكبار نفس المبلغ ولا أكثر مقابل خدماتهم العسكرية.

كيف يعيشون؟ بالمكافآت. ربما يكون هذا النظام قد تأسس على أساس الاقتصاد، لكنه دمر الانضباط.

من بين المتفرقات الأخرى في هذه الرسالة، الاعتداءات التي ارتكبها هؤلاء

القراصنة مؤخرًا، وبعض الأفكار حول الشؤون التي تهم أمتنا بشكل وثيق، آمل ألا تُعتبر غير ذات صلة تمامًا.

في الأعوام من ‹89 إلى ‹93، يقال إن تونس استولت على مائة غنيمة من فينيسيا. في شهر أغسطس من عام 1797، أُسر الأمير باتيرنو من صقلية، وهو يمر من باليرمو إلى نابولي، في سفينة يونانية من المورة، مع رعايا السلطان العظيم، وتحت الألوان العثمانية، من قبل قرصان تونسي وجُلب إلى الميناء. احتج بلاط نابولي لدى السلطان العظيم ضد الأسر، الذي أرسل مبعوثًا إلى تونس لفحص أوراق السفينة. وبعد أن وجدها غير دقيقة تمامًا، حُكم على السفينة والبضائع كغنيمة جيدة، وحُكم على الطاقم والركاب بالعبودية. وبقي الأمير أسيرًا حتى منتصف ديسمبر من نفس العام، عندما اتفق على فديته الخاصة مقابل أربعمائة وخمسين ألف دولار للباي وخمسين ألفًا للصاحب الطابع.

في الثامن من سبتمبر الماضي، نزل خمسة قراصنة تونسيين، يحملون تسعمائة وتسعين رجلاً، في فجر الصباح، على جزيرة سان بيترو التابعة لسردينيا، وأسروا وجلبوا إلى تونس سبعمائة امرأة وطفل ومائتين وعشرين رجلاً. الوصف الذي قدمه لي القنصل البريطاني، للسلوك الوحشي والهمجي الذي مورس على هؤلاء البؤساء العزل، من شأنه أن يصدم متوحشًا. بما أن رجال الجزيرة الأقوياء كانوا في مواسم قطف العنب في الريف، فقد وقع هؤلاء الناس ضحية ضعيفة للمهاجمين الذين لا يرحمون. وأُلقي بالمسنين العاجزين، والشباب الرقيقين والأطفال العزل، من أسرتهم، وأُلقوا من طوابق السلالم، ودُفعوا من نوافذ الشوارع، وسيقوا عراة في حشد غير مميز، دون احترام للجنس أو الظروف، عبر الشوارع، وحُشروا بشكل عشوائي في عنبر قذر لأحد طراداتهم؛ وبهذه الطريقة جُلبوا عبر البحر، وبهذه الحالة البائسة سِيقوا بالكرابيج عبر شوارع المدينة من قبل آسريهم الذين لا يرحمون، وسِيقوا إلى ساحة المزاد العام، وسُلموا للعبودية. ملك سردينيا، على الرغم من محنته بسبب جرائم الجمهورية، لم يجد حتى الآن القدرة على فديتهم، بالمبلغ الهائل البالغ ستمائة وأربعين ألف دولار، الذي طلبه الباي. لقد عين مؤخرًا كونتًا عجوزًا محترمًا، فورشيل، وكان سفيرًا أربع مرات من

قبل في هذا البلاط، وهو الآن هنا للتفاوض على شروط فديتهم. ولقد نجح أخيرًا في إقناع الباي بقبول مبلغ مائتين وسبعين ألف دولار؛ ولكن شروط الدفع لم يتم الاتفاق عليها بعد: ومع ذلك، هناك أمل في إطلاق سراحهم.

اضطر العجزة والعاجزون والأطفال، الذين لم يكونوا صالحين للعبودية، إلى تدبر أمورهم بأنفسهم. ولم يتمكنوا من العثور على قوتهم. وقدمت لهم الصدقة لقمة ضئيلة. ولقد عانوا الكثير؛ لكن القناصل ساهموا جميعًا بشيء لإغاثتهم. وتلقيت رسالة من وزير خارجية سردينيا، وأخرى من القنصل العام المعين ليكون مسؤولاً عن شؤون جميع الدول التي ليس لها قنصل مقيم في تلك المملكة، يطلبان فيها مساعي القنصل الأمريكي الحميدة في هذا الأمر: وبدا الأخير وكأنه يطالب بها كالتزام، ملمحًا إلى أنه قدم في كثير من الأحيان خدمات نزيهة للأمريكيين في سردينيا. وأعطيت مائة دولار.

عندما أُعلنت الحرب على فرنسا، حُبس القنصل وجميع مواطنيه في سجن مغلق، وصودرت ممتلكاتهم، على الرغم من نص معاهدة على السماح للقنصل وغيره من أبناء أمته بسنة واحدة، بعد إعلان الحرب، لتسوية شؤونهم ومغادرة المملكة.

في الثالث من أبريل الماضي، استسلمت حامية كورفو للقوات المشتركة للروس والأتراك، بشرط نقلهم إلى فرنسا. في الثلاثين، وانفصلت إحدى سفن النقل التي كانت تقل مائتين وخمسين من أفراد الحامية، عن قافلتها، والتقت بقرصان جزائري واستولت عليه. في الثاني من مايو، وجُلبوا إلى تونس، وفي الرابع، سِيقوا عبر المدينة وأُرسلوا برًا إلى الجزائر، حيث حُكم عليهم بالعبودية ومنذ ذلك الحين. في نفس الوقت تقريبًا، أُسرت سفينة فينيسية تحت ألوان الإمبراطور وجواز سفره، ونُقلت إلى الجزائر وحُكم عليها؛ ورفض الداي الاعتراف بالإمبراطور.

في الثامن من مايو، أرسل قرصان طرابلسي إلى ميناء القليطة سفينة دنماركية كبيرة محملة بالسكر والقهوة، أُسرت في المضايق. ولم تعلن طرابلس الحرب على الدنمارك: لكن الأخيرة تأخرت في بعض الهدايا الملكية المنصوص عليها.

في نفس اليوم، حكم باي تونس كغنيمة جيدة على سفينة تجارية صقلية

استولى عليها قراصنته بجواز سفر الأدميرال نيلسون. للأدميرال فرمان من السلطان العظيم لحماية أي سفينة يشاء.

(السياسة الأوروبية ومخاطر القرصنة):

«قبل أيام قلائل، طلب باي تونس من ملك إسبانيا فرقاطتين (كل منهما بـ 32 مدفعاً)، ويتردد أن القنصل الإسباني قد وافق على الطلب.

أما الدنمارك، فقد تأخرت في تسليم بعض الهدايا الملكية من العتاد البحري، فاتخذ الباي من التأخير ذريعة للمطالبة بهدايا إضافية تعويضاً عن الضرر. وحين رفض البلاط الدنماركي هذا المطلب، رفض الباي استلام الهدايا الأصلية رغم وصولها، وهي الآن قابعة تحت الماء في ميناء القليطة، والقضية لا تزال معلقة.

قد يبدو للوهلة الأولى أن إهانات واعتداءات كهذه كفيلة باستجلاب نقمة أوروبا وتوحيد صفوفها لسحق هذه الإيالات. كان هذا ليحدث لولا أن السياسة لها أحكام أخرى. فهذه الدويلات ليست بالهدف الذي يستفز القوى العظمى للتدخل الجاد، خاصة تلك القادرة على إخضاعها بصوت رعد مدافعها، أو شرائها بنصف تكلفة الحرب. أما الدول الصغيرة المتضررة، فهي منهكة بفعل الضعف (التأنث)، ومكبلة بالقمع، ومرتعبة من وحشية القراصنة، أو تفتقر للموارد. وقد وقفت القوى الكبرى موقف المتفرج وهي ترى هذه الضحايا الصغيرة تُفترس، والتي لولا ذلك لنافستها في التجارة.

لكن الزمن يتغير، وقد حانت اللحظة التي ستجف فيها منابع النهب التقليدية. فالتقدم المذهل للجيوش المشتركة في إيطاليا ينبئ بأن تلك الدول ستغير أسيادها وتقع تحت حماية قادرة. فالبندقية (فينيسيا) خرجت من متناول أيديهم، ويقال إن جنوة سقطت، وملك الصقليتين تفاوض على هدنة بوساطة السلطان ورعاية بريطانية. فرنسا لا تملك تجارة معرضة للخطر، وإسبانيا تشتري أمنها بذهب مناجمها، والبرتغال رغم صغرها تفرض شروطها بلهجة رجولية تحت أسوارهم. وها هي طرابلس قد أُجبرت مؤخراً (12 مايو) على شراء معاهدة بتكلفة زهيدة بعد أن استولى القومودور كامبل بأسطول صغير على اثنين من سفن الباشا.

وهكذا، سُلبت تونس من فرائسها المعتادة، فباتت كدبة سُلبت منها أشبالها، قلقة وجائعة. والتجارة هنا انتهت، والنهب لا بد منه. فأين تجد ضالتها؟

أمريكا هي البديل.

لكن تونس في سلام مع أمريكا! لا يهم؛ فالضرورة لا تعترف بالقانون. وستكون الذريعة هي تقصيرنا وتأخرنا في إرسال الهدايا. وستقع التجارة الأمريكية في هذا البحر فريسة لجشع هؤلاء اللصوص الجائعين، بينما تقف أوروبا لا لتتفرج فحسب، بل لتشمت وتبتهج.

أنا لا أتحدث من فراغ، فالأمر لا يحتاج لبصيرة ثاقبة. وكنت أظن سابقاً أن الحرب مع فرنسا ستغير المعادلة، لكن تونس، المترددة في محاربة فرنسا، تسعى سراً لتفاهم مع الجمهورية.

من المرجح جداً أن تصبح الولايات المتحدة قريباً الناقل التجاري الأول في المتوسط، أو تحوز حصة الأسد. فوضعنا السلمي، وقربنا من الجزر (الأطلسية)، وجرأة بحارتنا، والمكاسب المغرية، كلها عوامل تصب في مصلحتنا. لكن أوروبا لن تقف مكتوفة الأيدي وهي ترى منافساً من الغرب يراكم الثروة والقوة. ستتآمر الغيرة والحسد مع المصالح الوطنية لاستصدار حكم ضدنا: »يجب تدمير قرطاج« (Delenda est Carthago).[7] ولكن التدمير هذه المرة سيكون بالمكائد والاغتيال الاقتصادي.

وهؤلاء القراصنة هم الأداة المثالية لهذه السياسة القذرة؛ فوجودهم مسموح به لهذا الغرض تحديداً. السلم والحرب عندهم سلع تُباع وتُشترى لمن يدفع أكثر. ولا تحتاج الدول المنافسة لأكثر من التلميح لهم بغنائم السفن الأمريكية العزلاء، وربما تزويدهم ببعض الذخيرة كحافز. ومن من «أصدقائنا» الأوروبيين سيتورع عن ذلك؟ ليتني أستطيع إقناع نفسي بنزاهتهم، لكن العصر الذي نعيشه مليء بأمثلة الغدر السياسي التي كانت أمريكا ضحيتها.

واسمحوا لي هنا بالإشارة إلى خطأ استراتيجي: تخصيص اعتمادات مالية

7- »ديليندا إست كارثاجو (Delenda est Carthago)«: عبارة لاتينية شهيرة قالها الكاتو الأكبر، تعني «يجب تدمير قرطاج»، واستخدمها إيتون للدلالة على إصرار أوروبا على تدمير التجارة الأمريكية.

لدول البربر دون توجيه وكلاءنا بكتمان الأمر، أو تسريبهم للمعلومات، مما يرفع سقف مطالب البايات الذين يعرفون حجم الاعتمادات بدقة رغم أنهم لا يقرأون! أليس هذا جزءاً من سياسة منسقة؟ هل بريطانيا اليوم أقل حرصاً على منع التجارة الأمريكية مما كانت عليه عام 1660 (قوانين الملاحة)؟

لقد سمعت قبطان إنجليزي يصرخ في القنصلية البريطانية قبل أيام: »بالله عليكم، يجب وضع حد لهؤلاء القوم (الأمريكيين)؛ إنهم يسرقون تجارتنا هنا وفي الهند الشرقية!». وهل ستكون فرنسا (مجلس الإدارة) أقل حرصاً من لويس الرابع عشر على توجيه ضربات قراصنة الجزائر ضدنا؟

بصرف النظر عن المكائد الأوروبية، من مصلحة تونس وقطع علاقاتها معنا، وهم يدركون ذلك. فبعد أن حُرموا من صيدهم المعتاد (المسيحيين الأوروبيين) بفعل القوى الكبرى، ماذا سيفعلون بـ 120 «كلب صيد» (سفينة قرصنة) رابضة في موانئهم؟ لا بد من إطلاقها على أحد ما، وهي تشم رائحة سفننا بالفعل.

هل نعتمد على المعاهدات؟ المعاهدات لغة ميتة في عرف هؤلاء. ألم يُمنح الفرنسيون مهلة سنة ثم استُعبد قنصلهم ومواطنوهم؟ لا تعويل على حسن النية ولا على الإنسانية. لماذا نتوقع فضائل نادرة من قراصنة متأصلين في الإجرام؟ وهل نتوهم أنهم يخافوننا؟ لم يروا منا ما يثير الرعب سوى السفينة الصغيرة «صوفيا» المتنكرة، التي أثارت الشفقة لا الخوف. وحين ذكرت للباي أننا هزمنا الإنجليز، سألني بذكاء خبيث: »أأنتم فعلتم ذلك، أم فعله الفرنسيون لكم؟».

لا شيء سيمنع هذه «العلقة» من امتصاص دمائنا إلا: قوة هائلة، أو وفاء تام بشروطهم المجحفة، أو المزيد من التضحيات.

ومهما كان القرار، يجب تنفيذه بسرعة. أنا مقتنع أن الباي ووزراءه كانوا يناورونني للحصول على وعد بالمجوهرات والطراد كذريعة لإعلان الحرب عند النكث. ورأيي القاطع: ما لم يروا شيئاً ملموساً قبل الأول من فبراير، فالحرب واقعة وسفننا ستُجتاح. ونحن مدينون بسلامنا الحالي لانتصار اللورد نيلسون (الذي شغلهم)، ليس إلا.

لقد اقترحت سابقاً إهداء طراد صغير (18-20 مدفعاً). وما زلت عند رأيي

في حال تعذر إرسال أسطول حربي. قلتها وأكررها: لا طريق لهذه البلاطات إلا بالذهب أو بكرات المدافع.

صحيح أن الإنسانية تأنف من تسليح هؤلاء المجانين، لكننا لسنا وحدنا في هذه السياسة (فالدول الأوروبية تفعل ذلك). وبالنظر لمكائد منافسينا، لا ينبغي أن نندم إلا على خطر ارتداد هذا السلاح ضد صدورنا.

كما اقترحت أن وجود قوة بحرية محترمة في المتوسط هو أفضل رادع. كم نردد في أمريكا: »للحفاظ على السلام، استعد للحرب«. ولكن كيف يجدي الاستعداد نفعاً إذا كان العالم يجهله؟ إذا كان هذا ضرورياً بين الأمم المتحضرة، فكم هو أشد ضرورة مع متوحشين لا رادع لهم سوى الخوف؟ بما أنهم لم يروا شجرة الزيتون، فلا رغبة لهم في غصنها.

يجب أن تكون لغتنا معهم لغة الإنجيل: »لقد وضعت اليوم أمامكم الحياة والموت، فاختاروا ما تشاؤون«. بدون هذه اللغة، وموقف قوة يدعمها، فإن الحديث عن المعاملة بالمثل عبث. وإرسال وكيل أعزل يتحدث عن الشرف والعدالة، يشبه تزيين امرأة بالمجوهرات وإرسالها إلى الغابة للتفاوض مع قاطع طريق.«

لو كان الأمر بيدي لأمليت على الولايات المتحدة الإجراءات التالية:

أرسلوا الهدايا الملكية المنصوص عليها؛ لأنها صارت ديناً بموجب النص. ولكن، اجعلوا وصولها مصحوباً بقوة عسكرية مهيبة، وتحت فوهات مدافعنا قدموا «عرض الوفاء» وفق المبادئ القانونية (Tender)؛ بحيث إذا رُفض الاستلام، سقط الالتزام. وبعد إتمام هذا الواجب العدلي، إذا رأى الرئيس ملاءمة تقديم شيء إضافي كبادرة تصالح (لإبعاد الغضب)، فليكن ذلك مجاناً ومنّة، وبطريقة لا توفي التزاماً فحسب، بل تفرض الشعور بالامتنان أيضاً.

أعتقد أن هذه التدابير وقائية وضرورية. نعم، ستكلف مالاً؛ ولكن ليقتنع مواطنو بلادي -قبل أن تجبرهم الكوارث على الاقتناع- بأن هذه نفقة لا مفر منها يوماً ما. والحكمة تقتضي دفعها الآن، قبل أن نتكبد أضعافها في فدية مائتين أو ثلاثمائة أسير من العبودية، وخسارة أسطول تجاري كامل. إن الأمريكيين، رغم غيرتهم على حريتهم وحرصهم على ممتلكاتهم، يتباطأون في

تأمين ما يعز عليهم بالوسائل الواجبة. وإذا لم تقنعهم أهوال الحرب الأوروبية الحالية بأن الموقف الأعزل يستجلب الإهانة، فسيحصلون قريباً على أدلة مؤلمة إضافية.

الأمر جلي أمامي: تضحية مالية تقل قليلاً عن تكلفة الحرب ستؤمن ممتلكاتنا في هذه البحار طويلاً، ما لم يقرروا -على الأقل- تكبد النفقات الطوعية لإرسال جلاد ونصب مشنقة لتأديب هؤلاء اللصوص.

أعلم أن هذه التأملات قد تبدو خارجة عن السياق المألوف للرسائل الرسمية، وربما تكون غير ضرورية لوزارة الخارجية التي لطالما توقعت هذا الوضع. ولكن بما أنها وليدة ملاحظات ميدانية، آمل أن تترك أثراً في الأذهان التي لم تألف هذا الواقع. ولهذا السبب ألحقتها بتقريري الرسمي، راجياً التجاوز عما قد يبدو في غير محله.

وفي حديثي قبل أيام مع القنصل السويدي (الذي خبر هذه الإيالة لعشرين عاماً) حول جشع مطالب الباي، قال لي:

›إن جميع الدول عند إبرام السلام تقدم هدايا ضخمة، وإلا اتُخذت أتفه الأسباب ذريعة للنكث. وفوق ذلك، قد يطلب الباي هدية كل عشرين عاماً (تجديد ولاء). لقد طلب مؤخرًا من السويد ألواحاً وحديداً وقطراناً. وإذا كانت إنجلترا، التي تنعم بالسلام مع تونس منذ قرنين، تدفع 20 ألف جنيه إسترليني عند تعيين قنصل جديد، فلا عجب أن يُتوقع أكثر من ذلك بكثير من أمة عظيمة (أمريكا) عند توقيع معاهدة وتأسيس قنصلية لأول مرة‹.

من قرأ العهد القديم، أو درس عادات الشرق، يمكنه فهم هؤلاء القوم. فتلك الطقوس القديمة والمراسم (التي ربما انحدرت من المصريين القدماء) ما زالت محفوظة هنا مع قليل من التحريف. ولكن لا توجد عادة راسخة أكثر من »تقديم وتلقي الهدايا«. إنها عادة ضاربة في القدم، ليس فقط للدبلوماسية، بل حتى في الزيارات الاجتماعية. فملكة سبأ حملت لسليمان هدايا ذهبية قُدرت بـ 864,000 جنيه إسترليني. ويندر في التاريخ القديم أن يلتقي أمير بآخر للتفاوض دون تمهيد بهدية. ومن هنا قول النبي داود: »هدية في الخفاء تسكّن الغضب«.

ما نعده اليوم في الغرب «فساداً» أو رشوة، لم يكن قديماً سوى أمر

طبيعي، وهكذا يتلقاه أحفاد الشرق اليوم.

لقد أخبرني «صاحب الطابع» أنه حين ذهب سفيراً للسلطان العظيم (في إسطنبول) قبل عامين، حمل مجوهرات بقيمة 600,000 دولار إسباني، وحين وجدها غير كافية، تصرف بتقديره لتغطية النقص، وقد بارك بلاطه تصرفه لأن المهمة نجحت. وقد ساق لي هذه القصة كمرجع لتوجيه سلوكي مع سيده!

إذن، العادة موجودة بينهم، ولكنها عادة تقوم على التبادل. المشكلة أنهم فرضوا على المسيحيين عادة »العطاء دون أخذ»، وكان المسيحيون أغبياء بما يكفي ليسمحوا بتحولها إلى «قانون أمم» هنا. وعلى الأمريكيين الآن إما الخضوع لهذا القانون، أو التسلح لمقاومته.

والأمر صار ملحاً، لأننا بخضوعنا للعادة (في البداية) قد وافقنا ضمنياً على القانون. لقد بدأنا خطأ: انحرفنا عن الصواب حين علقنا تجهيز الفرقاطات الخمس وفضلنا التفاوض مع الجزائر. لو أن سفيرنا حمل في يمناه فتيلاً مشتعلاً، وفي يسراه مشروع المعاهدة، لكانت الجزائر قد صرخت وغضبت، لكنها كانت ستخضع لشروط أقل غلواً، ولكانت تونس وطرابلس قد تبعتها. ولكن، لا جدوى من الندم الآن؛ وعلينا إدارة هذه الصفقة الخاسرة بأفضل الممكن.

ويليام إيتون.

إلى وزير الخارجية، تيموثي بيكرينغ.

(مقتطفات لاحقة - 15 يوليو 1799):

لم أذكر سابقاً محاولاتي المستمرة لاستبدال الهدايا العينية (المخازن البحرية) بمبلغ نقدي، لضآلة الأمل في نجاحها ولأن النتائج لم تكن قد تبلورت. كنت أسعى للتأثير على الباي من خلال حاكم «بورتو فارينا» و»صاحب الطابع»، ولم يكن الأمر ميؤوساً منه تماماً.

لقد قدمت عرضاً صريحاً لصاحب الطابع: »إذا تمكنت من الحصول على تسوية نهائية وإبراء ذمة شامل مقابل أي مبلغ يقل عن 90,000 دولار، فلك فوراً 10,000 دولار مكافأة لخدماتك الطيبة».

وقد بدا ميالاً جداً لهذه البادرة (الرشوة).»

في الثامن والعشرين من الشهر المنصرم، أقام (صاحب الطابع) مأدبة عشاء في حديقته. حضرها القناصل الإنجليزي والإمبراطوري (النمساوي)[8]، والسفراء البرتغالي والصقلي، والوكيل الأمريكي، ولفيف من كبار الأتراك. وفي صباح ذلك اليوم، انتهزت الفرصة لأستخلص منه رأياً قاطعاً بشأن ‹البديل النقدي›.

فجاء رده حاسماً: المشروع مستحيل.

وبرر ذلك بأن الباي قد اشترى -ولا يزال يشتري- كل ما تقع عليه يده من ذخيرة؛ وأنه أرسل سفناً إلى تريستا وماهون وإسبانيا بحثاً عن عتاد بحري وعسكري مماثل لما كان يتوقعه من أمريكا وفشل في الحصول عليه. كما أرسل لجبل طارق وإنجلترا لنفس الغرض. وأكد أن تقصير الولايات المتحدة قد سبب خيبة أمل مريرة، خاصة في هذه الأزمة الحرجة، مما أدى لتأخير، بل وإحباط، خطط الدفاع الوطني والمشاريع التي كان يعول في تنفيذها على تلك الذخائر.

لقد فوضه الباي مجدداً بإبلاغي أن »أي مبلغ من المال لن يُعتبر بديلاً عن الهدايا العينية«. وأعرب عن أمله، في حال تعذر الحصول على الأخشاب فوراً (لأنني أخبرته سابقاً بسخرية أنها ما زالت تنمو في غاباتنا)، أن يتم شحن المدافع والذخيرة والقطران والحبال الموجودة في مخازننا دون إبطاء.

من الجدير بالذكر أنه أثناء العشاء، اقتحمت الحديقة -بل وفناء الدار- مجموعة من الأتراك المسلحين يطالبون بالمال، صائحين بأن الحكومة بعقدها السلام مع الجميع قد حكمت عليهم بالمجاعة، لكنهم مصممون ألا يموتوا جوعاً! هذا الحادث يؤكد الرأي الذي طرحته سابقاً: هؤلاء القوم يجب إطلاقهم على فريسة ما.

في التاسع والعشرين، أبحر السفراء البرتغالي والصقلي عائدين لبلادهم، بعد أن أبرم الأول هدنة لمدة ثلاث سنوات، والأخير هدنة طوال فترة الحرب الأوروبية. وهذا التطور أثار شبح قلق جديد أمامي:

ما الذي سيحبس الطرادات التونسية داخل المضايق الآن؟ وأي علم

8- »القنصل الإمبراطوري (Imperial Consul)«: قنصل الإمبراطورية النمساوية (الإمبراطورية الرومانية المقدسة).

سيردعهم عن الطواف بحرية من رأس الرجاء الصالح إلى جزر أوركني؟[9] إنجلترا في شبه تحالف معهم، وفرنسا لن تعترض على جرأتهم ضد الأمريكيين.

لذا، قررت مقابلة الباي مرة أخرى للدفع بمشروع «البديل النقدي». وفي الرابع من يوليو، زرت قصره وسألته مباشرة: »ما هو المبلغ الذي يرضيك ويلغي كافة المطالب الأخرى؟«.

فأجاب باقتضاب: »لا مبلغ على الإطلاق. لا تفكر في الأمر بعد الآن«.

وأشار إلى أن وزيره قد أبلغه بمقترحاتي وأنه أمره بإعطائي جواباً نهائياً، مفترضاً أن ذلك قد تم.

قلت له: «بما أنك تقلص عدد أعدائك يومياً (بالهدن)، وبالتالي تقل الحاجة للذخائر، فقد أملت أن يدفعك ذلك لقبول المال. ولكن بما أنك تصر على المواد، آمل أن تراعي العوائق التي تؤخر وصولها وأن تمدد المهلة».

فقال: «سيكون من السابق لأوانه الحديث عن التمديد قبل انقضاء المهلة الحالية».

أعتبر الآن أن عرضي النهائي -وفق التعليمات- قد قُدم بأفضل صيغة ممكنة، ورُفض نهائياً.

والآن يقع عبء الحفاظ على السلام على كاهل الولايات المتحدة وحدها. كل الشواهد تؤكد شكوكي: الإيالة لا ترغب في السلام، والتجارة الأمريكية قد حُددت كضحية للقرصنة التونسية.

ظننت أنني استوفيت هذا الموضوع في رسالتي السابقة، لكن الأدلة تتراكم:

الإسبان يتآمرون لتحويل الضربة عنا إليهم، لتفادي العاصفة المحدقة بهم.

الوكلاء السريون الفرنسيون يلقون بثقلهم في هذا الاتجاه.

وإذا أبرمت الجمهورية (فرنسا) سلاماً منفرداً مع الإمبراطورية العثمانية -وهو قيد التدبير- فالكارثة محققة، ما لم نحبط المؤامرة بوسائلنا الذاتية.

9- »جزر أوركني (Orkneys)«: أقصى شمال اسكتلندا، دلالة على المدى البعيد الذي قد يصل إليه القراصنة.

حتى اليهود، الذين خدمونا بذكاء حتى الآن، يعتمدون على الفرنسيين أكثر منا، وسيسحبون خدماتهم الودية. ومع تراجع أرباحهم من القروض والسمسرة، قد يجدون في المضاربة على »الغنائم الأمريكية« ربحاً يفوق »العمولات الأمريكية«؛ فهم في النهاية -فرادى وجماعات- يهود[10].

تجاه تهديدات الحرب، تظاهرت باللامبالاة، وأعتقد أنني نجحت في غرس قناعة لدى حكومتهم بجدية هذا الموقف. لكن كان عليّ أولاً إحداث «ثورة» في أسلوب التعامل؛ فالزاحف المتلون (فامين)[11] الذي سبقني لم يتحدث إلا بلغة التذلل. السياسة أملت عليّ الخروج عن نهجه، وأنا على يقين بأن السياسة ستملي على واشنطن دعمي في هذا الموقف، ما لم يكن لديهم ميل للعودة إلى العار والخضوع للنهب.

إذا رافقت قوة مسلحة الهدايا الملكية، فيجب أن تتخذ هيئة »قافلة حماية« (Convoy)[12]. هذا سيعطي قيمة لجهودنا، وسيكون له وقع العقاب دون تصريح بالتهديد. ولكن، إذا أصر الباي على «المجوهرات»، ولم يكن هناك بديل سوى الدفع أو الحرب، فكيف أتصرف؟

في 30 و31 من الشهر الماضي، استدعى الباي قناصل الدول التي تدفع الجزية (بمن فيهم أنا) وطالبهم بإمدادات فورية من المخازن البحرية. ومني تحديداً، لم يطلب سوى أن أستأجر فوراً سفينة إلى أمريكا لجلب المخازن! زاعماً -بناءً على تقرير أميراله وحاكم بورتو فارينا- أن مخازنه خاوية من أي لوح خشب أو صاري. وقضيت ثلاثة أيام في القصر أناقش هذا الأمر، وتركت الباي حيث بدأ (متمسكاً برأيه).

لا جديد أضيفه لتعزيز ضرورة الإسراع بإرسال الهدايا. لقد أقنعت الباي بالانتظار حتى الأول من يناير، وأكدت له استحالة وصول الرد من أمريكا قبل فبراير. وأي معلومة مبكرة عن الترتيبات ستكون مفيدة لي.

لقد وجدت الباي دائماً رجلاً عاقلاً، بل ومتعاوناً في حدود. لكن «صاحب الطابع» يمتلك أسطولاً من الطرادات، و»فامين« هو... عبده المطيع.

10-إشارة للصورة النمطية السائدة آنذاك عن تفضيل الربح المادي.

11- »الزاحف المتلون (Reptile)«: وصف مهين أطلقه إيتون على سلفه الفرنسي «فامين».

12- »قافلة (Convoy)«: مصطلح بحري يعني مجموعة سفن تجارية تحرسها سفن حربية، وهو ما اقترحه إيتون كرسالة قوة.

تونس، 8 أكتوبر 1799.

لا يزال باي تونس يتحدث بنبرة متعجرفة. لا أستطيع أن أضيف الكثير في هذا الموضوع إلى الاتصالات التي أُرسلت بالفعل، سوى تأكيد على أنه لا شيء سيؤمن سلامنا هنا سوى التنازلات الضمنية لجميع مطالب الإيالة، أو المقاومة الهائلة. بعد أن قررت أن أعرف ما إذا كان من الممكن، بأي وسيلة، الحصول على أي تخفيف لمطالب الباي، زرت قصره بالأمس، واقترحت أن يتلقى بدلاً من المجوهرات المطلوبة، مبلغ عشرة آلاف دولار في مواد يختارها للتكليف بها من إنجلترا. أجاب بأنه ليس تاجرًا؛ لا يعرف شيئًا عن قيمة الهدايا الملكية؛ إنها العُرف؛ ولن يخففها ولن يستبدلها. لقد تم النص على الهدايا الملكية من قبل الوكيل المناسب للولايات المتحدة، وليس لدى الحكومة بديل سوى التصديق على الفعل أو الدخول في حرب. أُعلن أن الأول من يناير هو اللحظة النهائية للتسامح مع الهدايا الملكية البحرية والعسكرية: والمجوهرات بعد ثلاثة أشهر.

بما أن هذا هو وضع شؤوننا هنا، فقد رأيت من الحكمة إبلاغ تحذير للقناصل المختلفين في البحر الأبيض المتوسط: قد يكون من المناسب أيضًا نشر هذا الإبلاغ في الولايات المتحدة.

لقد تلاشت مساعي الحرب مع إسبانيا؛ إذ أفضت تسوية سرية بين القنصل والباي إلى مصالحة الأخير. إن فرنسا، ورغم انخراطها في الحرب، لا تبدو في مكائدها أقل ثباتاً منها في قوتها. أما ملك الصقليتين فقد نال هدنة، بينما تحظى الدويلات الإيطالية الأخرى ومالطا بحماية أجنبية. وبناءً على ذلك، لم يعد هناك على امتداد ساحل المتوسط بأسره قرصان واحد يمكن لـ «نسر تونس» أن يغرس فيه مخالبه، مما جعله يوجه أنظاره نحو الغرب.

إن شكوكي حول النوايا العدائية لهذه الإيالة تجاه الولايات المتحدة تستند إلى شهادة تجعل الحقيقة ساطعة لا لبس فيها. فقد كُلف السفير الأخير المبعوث من هنا إلى الجزائر بإبلاغ «الداي» بأن: «الباي، بعد أن حدد مهلة لتسامحه مع الولايات المتحدة بستة أشهر من تاريخ إرسال برقيات وكيلهم، يثق بأن الداي لن يتدخل إذا ما اضطر الباي لاتخاذ إجراءات حازمة بعد انقضاء المدة المذكورة في حال لم تستجب الولايات المتحدة».

يُقال إن هذا الطلب قد أثار اضطراباً في ذلك البلاط، واستدرج من الداي وعوداً بالصداقة تجاهنا؛ غير أن تصرفاته لا تُظهر أي بوادر لمعارضة هذا الإجراء. وحين نعجز عن تقديم حجة واقعية واحدة، أو مصلحة حقيقية، أو نية حسنة من جانب داي الجزائر تدفعه للتدخل الفعلي لصالح الولايات المتحدة، فلا يجدر بنا التعويل على ذلك التدخل؛ فإذا كانت الحقائق والظروف تثبت العكس، فلا ينبغي لنا أن ننخدع بالظواهر. أليست الجزائر مرتبطة بتونس بروابط الدم والدين والشرف (إن وُجد شرف بين اللصوص)، وبوشائج المصلحة الوثيقة؟

ففي اللحظة ذاتها التي أدلى فيها السفير بتصريحه، قدم للداي هدية قُدرت قيمتها في تونس بثلاثين ألفاً وسبعمائة دولار، وهي تمثل مبلغ الجزية السنوية والهدايا السلطانية الاستثنائية. كان هذا المبلغ وحده كافياً لتهدئة روع ذلك «الوحش المتربص»، حتى لو رأى العالم المسيحي بأسره غارقاً في الدمار. كما أن الداي، حتى وإن رغب، لا يجرؤ على استخدام نفوذه لصالحنا؛ فكيف لتركي أن يخون مصلحة تركي آخر، أو لمسلم أن يفتك بمسلم، أو لقرصان أن يعارض مفعول قرصان حليف، لأجل مصلحة «كفار وعبيد»؟ إنه لا يجرؤ على ذلك، فسيلاحقه الثأر والموت على نصال كل مسلم. لذا، أؤكد أنه لا يملك رغبة جادة في دعم مساعينا؛ وما تلك الرسائل الهامة التي سُلّمت للسيد «كاثكارت» ولي لضمان نجاح مفاوضاتنا هنا وفي طرابلس، إلا محض مجاملات صُممت لإلهائنا، فماذا عساها أن تفيد غير ذلك؟

وفي العشرين من سبتمبر، قُتل «حسن الزيري» خنقاً بأمر من الباي. كان هذا الأمير الشاب من سلالة الدرجة الثالثة في الخط الشرعي لسلف والد الباي الحالي. وقد ظل محتجزاً في الجزائر منذ طفولته حتى قبل سبع سنوات، حين فر إلى هنا بوساطة من الباي وتحت ستار الصداقة، وإن كان الهدف المرجح هو إحكام السيطرة على حياته وثروته.

وعندما صُدرت الأوامر للجنود بالقبض عليه، تهيبوا الدنو منه، فما كان منه إلا أن ألقى سلاحه قائلاً: «تقدموا، مِمَّ تخافون؟». وحين سيق إلى ساحة الإعدام، اقترب منه «الصامتون» (الجلادون) بحذر، فقال لهم: «نفذوا أوامركم أيها الجبناء»، ثم انتزع الحبل من أيديهم ووضعه حول عنقه بنفسه،

وعقد يديه خلف ظهره آمراً إياهم بربطه. ثم التفت إلى أصدقائه المحيطين به قائلاً: «إن كنت قد ظلمت أحداً منكم فليسامحني، فأنا ذاهب إلى قبر آبائي»، ثم خُنق. نُقل بعدها في عربة إلى مدفنه دون مشيعين. وفي الوقت ذاته تقريباً، ضُرب عبدٌ بالعصا حتى الموت في القصر، ومع كل ذلك، يُعتبر «حمودة باشا» أميراً معتدلاً!

أما الأسباب الخاصة التي دفعت الدكتور «شو» لمغادرة السفينة «صوفيا»، فأترك له أمر تفصيلها، وهي أسباب رأيت أنها تبرر تأييدي لهذا الإجراء؛ خاصة وأن الأمر بدا نتاج ترتيب من القبطان «جيديس» نفسه، ومبنياً على جفوة متأصلة بين ضباط السفينة والدكتور. لقد استمررت في دفع راتبه وفقاً لتعيينه حتى 31 أغسطس الماضي، وطمأنته باستحقاقه للراتب حتى وصوله إلى مقر الحكومة وتسليم البرقيات المكلف بها.

إن دوافعي لإرساله إلى أمريكا في هذا التوقيت وبهذه الكيفية هي إطلاع الحكومة على معلومات دقيقة وموثوقة حول الراهن من شؤوننا هنا، واستخدام هذا الإجراء كذريعة لطلب مزيد من الصبر والتسامح من الأطراف الأخرى إذا لزم الأمر. وأعتقد أن هذه الخطوة تقتضيها الحكمة السياسية في ظل الظروف الحالية، وآمل أن تنال رضا الحكومة وتؤتي ثمارها المرجوة. وقد حظي هذا القرار بتأييد قنصلنا في الجزائر الذي قال: «أوافق بشدة على كل ما فعلته بخصوص إرسال الدكتور شو، وآمل أن يسهل ذلك الوفاء بالتزاماتنا». إن السيد «شو» يمتلك من المواهب والنزاهة ما يجعله نافعاً للعموم وللعالم إذا ما وجد الرعاية المناسبة.

6 ديسمبر 1799.

بكل رضا، أتشرف بإبلاغكم أن شؤوننا قد اتخذت، في غضون أيام قليلة، منحىً جديداً وواعداً. فمنذ مغادرة الدكتور شو إلى أمريكا في 17 أكتوبر، عملتُ على استمالة غرور وجشع «صاحب الطابع»؛ وهما العاطفتان المسيطرتان عليه، وأقنعته أخيراً بحقيقة لا ريب فيها؛ وهي أن مصلحته الحقيقية ستكون أكثر أماناً في ظل علاقة تجارية مع الولايات المتحدة منها في حالة حرب معها، وأن الأمريكيين سيكونون الناقلين الأنسب لبضائعه إلى إسبانيا، حيث استحدث تجارة واسعة النطاق تتعرض فيها سفن سائر الدول للمضايقات،

إما من القوى المتحاربة في أوروبا أو من قراصنة الجزائر. وقد أوضحتُ له أن شروط هذه المزايا معلومة لديه، وأنني خلال فترة إقامتي القصيرة هنا تلقيت مقترحات من القنصل الأمريكي في «ليفورنو» و»برشلونة» لإنشاء حركة تجارية، بالإضافة إلى طلبات من رباني سفن أمريكيين للحصول على عقود شحن هنا، فكان ردي عليهم بتذكيرهم بنصوص معاهدتنا، ومنذ ذلك الحين لم أسمع منهم شيئاً. لقد كان من الضروري إبلاغ مواطنيّ بأنهم لا يحظون هنا بالاحترام ذاته الذي تناله الدول الأخرى، ليتخذوا قراراً حازماً بعدم القدوم، مهما كانت إغراءات الربح الفردي. والآن، اختبر «صاحب الطابع» بنفسه صدق ما أعلنته له قبل ثمانية أشهر؛ وهو أن أي سفينة تجارية أمريكية لن تطأ ميناء تونس أبداً، إلا تحت الإكراه، ما لم يتم إخطارهم بأن شروط معاهدتنا أصبحت أكثر ملاءمة.

اعترف «صاحب الطابع» بصواب ملاحظاتي، وأبدى رغبة جادة في توظيف الأمريكيين كناقلين إلى إسبانيا، وألمح إلى رأيه بأنه في حال وصول الهدايا السلطانية في الوقت المناسب، فلن يكون هناك أي عائق أمام تسوية شؤوننا بشكل أكثر إرضاءً، كما وعد بطرح الموضوع أمام «الباي» وتقديم دعمه الكامل له. وقد خاض بصدق في تفاصيل الأسباب التي عرقلت مفاوضاتنا، والتي ستظهر مفصلة في يومياتي، ويمكن إيجازها هنا في أمرين: المكائد الفرنسية والخيانة اليهودية.

قابلت «الباي» هذا الصباح، وحصلت منه على وعد بالصبر لمدة ستين يوماً، نأمل خلالها وصول سفننا من أمريكا. وقد حاول «فامين» الإيحاء بأن حكومة الولايات المتحدة لا تملك نوايا جادة للوفاء بالتزاماتها تجاه تونس، لكنه لم يفلح في مسعاه. لقد كان ذلك «العبد» شوكة في جنبي، لكنه الآن جُرّد من أي نفوذ في البلاط. وقبل بضعة أيام، أسرّ إليّ الطبيب الخاص لعائلة الباي أثناء عشاء معي، بأن الطلب المبالغ فيه للجواهر كان في الواقع من تدبير «فامين»، وتم الاتفاق عليه بعد وصولي إلى تونس، وأن «صاحب الطابع» تردد في تقديمه لعدم وروده في المراسلات السابقة، إلا أن «فامين» حثه على ذلك مؤكداً قدرته على إيجاد الوثائق الداعمة للطلب. لقد تعاملت مع هذا القرصان الفرنسي دائماً باهتمام مهذب مع التمسك بموقفي القوي، حتى

نجحت أخيراً في إحباط كافة مشاريعه الخبيثة. وإذا لم يطرأ ما يعكر صفو ترتيباتي الحالية، فلدي أمل واعد بإنهاء شؤوننا مع هذه الأيالة بما يخدم مصالح الولايات المتحدة ويتوافق مع تعليمات الحكومة.

لقد ساهمت ثلاثة عوامل في إحداث هذا التحول في توجهات البلاط: أولاً، رحيل الدكتور شو إلى أمريكا؛ ثانياً، اقتناع الباي بأن الولايات المتحدة ستسير أسطولاً إلى هذا البحر بعد تحقيق السلام مع فرنسا؛ ثالثاً، رغبة «صاحب الطابع» في استئجار الناقلين الأمريكيين.

مقتطفات من يوميات السيد إيتون:

4 مايو: أبحرت السفينة «صوفيا» بقيادة الكابتن هنري جيديس متجهة إلى أمريكا.

«مصطفى خوجة» الوزير الأول، و«صاحب الطابع» حافظ الختم، كلاهما من عبيد وصاية تونس، جُلبا من جورجيا في آسيا وبيعا بالمال. الأخير اشتراه حاكم صفاقس وبقي في منزله إلى أن فُتن الباي بخصاله وطلبه من سيده. وكلاهما قد تركا دينهما في وقت مبكر. الأول رجل طاعن في السن، يتسم بالشجاعة والفطنة والإنسانية، وهو بطبعه كريم النفس ومنفتح الفكر؛ أما الثاني فهو كائن ماكر، داهية، جشع، ومتعصب بطبيعته. وعند وفاتهما، تؤول ممتلكاتهما كافة إلى الباي.

14 مايو: عيد البيرام (عيد الفطر). زار جميع القناصل «الباي» باستثناء القنصل الأمريكي الذي اعتذر بداعي سقوطه عن حصانه قبل ثلاثة أيام، واتخذ من سقوطه عذراً للتهرب، فكان العجز في رغبته بالزيارة أكثر منه في ساقه.

مساء أمس، جدد حاكم «بورتو فارينا» (غار الملح) طلب الحصول على هدية عن طريق أحد الأصدقاء، ملمحاً إلى أن العرف جرى بأن تقدم له كافة الدول هذه المجاملة عند تعيين قنصل جديد. وقد منعه الحياء من التصريح بطلبه وجهاً لوجه، وهو رجل يحظى بالنفوذ الأكبر بين حكام تونس.

20 مايو: خرجتُ في نزهة إلى قرطاج؛ انطلقت في السادسة صباحاً ووصلت في الثامنة والنصف. تجولت بين الأطلال حتى منتصف النهار، ثم عدت إلى تونس في الرابعة عصراً. بلغت درجة الحرارة 96، وكان «المور» (أهل

البلاد) منشغلين بحصاد القمح.

22 يونيو: أبرم الكونت العجوز «بورتشيلا»، سفير سردينيا، اتفاقية لفداء أسرى «سانت بيير»، ودُعي جميع القناصل المسيحيين لشهود العقد. كنت أعاني منذ أيام من صداع حاد دفعني لارتداء قلنسوة تركية من الصوف الأحمر الناعم تحت قبعتي. وعند دخولي بهو القصر، أُبلغت بتعذر مثولي بين يدي الباي بهذا الغطاء، فوضحت أسبابي الطبية؛ وجاء الرد بأن أحداً من السفراء لم يسبق له الوقوف أمام الباي مغطى الرأس، وبما أن هذا من أعراف القصر، فبإمكاني نزعها فقط أثناء التحية الرسمية المعتادة ثم إعادتها فوراً، فوافقت.

إلا أن «صاحب الطابع» استغل الموقف ليضفي على نفسه أهمية زائفة، فأرسل لي بأنه ليس من المعتاد أيضاً أن يظهر القناصل أمامه برؤوس مغطاة. أجبته بأنني سأخلع قبعتي كالعادة، لكنني لا أرغب في نزع القلنسوة لما في ذلك من مشقة عليّ. دارت بيننا رسائل وسيطة وتمسك كل منا بموقفه، حتى أبلغني أنه إذا لم أتنازل عن مطلبي فلن يسمح لي برؤيته. أقسمت بالله ألا أراه، فما جئت إلى هنا لأهان من «صاحب الطابع»، ومتى ما رغب في رؤيتي فليطلبني هو. قلت قولي هذا، وانحنيت معتذراً لزملائي القناصل، ثم استدرت وانصرفت إلى عربتي آمراً الحوذي بالانطلاق.

كان هذا الحادث، على تفاهته، مثاراً لتكهنات شتى بين القناصل؛ فمن وُلد منهم في هذه البلاد حدق فيّ بذهول، أما الآخرون فكتموا ضحكاتهم. تساءل صاحب الطابع مستنكراً: «من يكون هذا الأمريكي؟»، فأجابه القنصل البريطاني: «عليك أن تعلم أنه يمثل أمة مستقلة وباسلة، تنحدر من أصل إنجليزي، ومن الحكمة أن تسعى لمصالحته».

27 يونيو: تلقيت دعوة مهذبة لتناول العشاء مع «صاحب الطابع» في حديقته، بصحبة القناصل الإنجليزي والهولندي، والسفيرين البرتغالي والصقلي، وطبيب الباي الخاص وعدد من أعيان الأتراك، وهو أمر نادر الحدوث.

29 يونيو: وردتني رسالة من القصر تفيد برغبة الباي في مقابلتي غداً في الصباح الباكر.

30 يونيو: في القصر عند الخامسة صباحاً. طالب الباي باستئجار سفينة فوراً إلى الولايات المتحدة للإسراع بإرسال المؤن، زاعماً خلو مخازنه من الصواري والألواح الخشبية؛ وراح يكرر أسطوانته القديمة حول التظلم من التأخير، مصراً على مطلبه بنبرة من الاستعلاء.

1 يوليو: بإيجاز شديد، استشففت حقيقة نواياه؛ فقد كان يتشكك في صدق حكومتنا ويظن بنا المراوغة، مشيراً إلى انقضاء ثلاثة أشهر من مهلة الصبر، وراح يعد على أصابعه قائلاً: «نوفمبر.. إذا لم تمتثل لمطالبي وتصل الهدايا الملكية بحلول الأول من نوفمبر، فسأشرع في اتخاذ إجراءات لانتزاع تعويضات تجبر خاطري عما لحق بي من خيبة أمل». خاطبتُ عقله، فهو في الواقع رجل لبيب؛ فذكرت له تاريخ إبحار السفينة «صوفيا» من الجزائر ومسارها والزمن المتوقع لرحلتها، وتعهدت بأن الهدايا ستُرسل دون إبطاء، لكنه ظل غير مقتنع. وحين طُرحت المقترحات، عرضتُ أن أسافر بنفسي إلى أمريكا للحث على تعجيل إرسال المؤن؛ متوهماً أنني بذهابي سأمنعه أدبياً من استخدام القوة ضدنا حتى يأتيه رد مني على أقل تقدير. نجحت الحيلة، فلم يدرك مآربي ووافق على الخطة، والتزمت بالإبحار خلال خمسة أيام.

31 يوليو: في القصر. رتبتُ شؤون البعثة وأعلنت تولي الدكتور «شو» المسؤولية، ثم ودعتهم.

1 أغسطس: في القصر عند الخامسة صباحاً. بعد مداولات تمهيدية، ألمح الباي إلى ارتيابه في جدوى رحلتي، وبنزاهة لافتة ذكر لي الاعتراضات التي طرأت على ذهنه، ورأى في المجمل تعليق سفرى حتى يأتي رد من أمريكا، وافق بعدها على الانتظار بصبر حتى الأول من يناير. إن الولايات المتحدة إذا استمرت في سياسة الاستسلام والطاعة السلبية، ستكتشف أن «من جعل من نفسه نعجة أكلته الذئاب».

5 أغسطس: لا يكاد التونسيون يعرفون التقاضي، لعدم وجود محامين بينهم. كما تخلو حياتهم من الفضائح الأسرية أو مشاحنات الجيران بسبب احتجاب نسائهم. شبابهم يتمتع بلياقة بدنية وقوة وجسارة، لابتعادهم عما يوهن الجسد من انغماس في الشهوات. أما المتزوجون فيميلون إلى الكسل والحياة المنزلية؛ وبسبب تعدد الزوجات، يعيشون في حالة من الرضا المشوب

بالغيرة الدائمة، كما أن إدمانهم على التبغ جعلهم يميلون إلى كثرة النوم.

وإذا نظرنا إليهم كأمة، فهم في بؤس شديد؛ إذ لا يملكون أرضاً تذكي فيهم طموح الزراعة. هم عبيد أذلاء لاستبداد حكومتهم، ومرزوحون تحت وطأة طغيان هو الأشد مرارة: طغيان الكهنوت. إنهم يرتعدون خوفاً من شبح متعصب هلك وصار رميماً منذ أكثر من ألف عام، أكثر من خوفهم من مستبد حي قد تنهي حياتَهم غضبةٌ من محياه.

ومع ذلك، فأخلاقهم بسيطة، ومعيشتهم مقتصدة، وحديثهم في العموم يخلو من المداهنة. لا يعرفون السهر العبثي، ولا حوادث الاعتداء أو الضرب، ونادراً ما تقع بينهم جرائم قتل. أما ذلك البؤس المفجع المرتبط بالإغواء والخداع، والذي يجرح المشاعر في قرى العالم المسيحي، فهو غريب عنهم؛ لأنهم يزوجون جميع فتياتهم.

حِكم حمودة باشا، باي تونس (جديرة بأمير مسيحي)

لا تقضِ أبداً في مسألة تخص صديقك؛ فمهما كان حكمك عادلاً، سيوصف بشبهة المحاباة.

لا تكن على صلة حميمة بعظماء المملكة، لئلا يكتسبوا نفوذاً على عقلك، ويصرفوك عن واجبات اللطف والإنصاف تجاه الرعية البسيطين.

لا تسمح بتقاضي أي رسوم مقابل إقامة العدل؛ لئلا يبتكر الجشعون وسائلاً لتحويل القضاء إلى تجارة.

لا تقبل بوجود المحامين؛ لأن الأقوال البسيطة هي التي تقود عادةً إلى أوضح الحقائق.

11 أغسطس: أبلغ «صديق صالح» الباي بأن لدي مرآة يونانية أنيقة في منزلي، فأرسل اليوم يطلبها، متذرعاً برغبته في وضعها بقمرة زورقه الترفيهي الذي أوشك على تدشينه. هكذا تسير الأمور هنا؛ فإذا اقتنى القناصل قطعة أثاث نفيسة أو أي غرض جيد يثير إعجاب الباي، فإنه لا يتردد في طلبها، ولا يملك القناصل خياراً سوى الإذعان، وقد سمحوا لهذا السلوك بأن يصبح عُرفاً متبعاً.

13 أغسطس: أرسلتُ المرآة إلى الباي.

[رسالة الأدميرال نيلسون إلى باشا طرابلس]

(نسخة حصل عليها السيد كاثكارت وأرسلها إلى إيتون؛ ورغم أنها لا تتصل بالموضوع الحالي، إلا أنها وثيقة نادرة تستحق الحفظ والقراءة)

فانغارد، باليرمو، 28 أبريل 1799.

سيدي،

عندما تلقيت رسالة سموكم عبر الكابتن «هاردي»، سررتُ لعلمي بأنكم تبرأتم من المعاهدة التي أبرمتموها بتهور مع مبعوثي الجنرال بونابرت؛ ذلك الرجل السفاك، ناهب الضعفاء وعدو المسلمين الصالحين، فهو كالشيطان لا يداهن إلا ليتمكن من التدمير بسهولة، والحق أنه منذ عام 1789، صار الفرنسيون قاطبةً على شاكلته. لقد رفعتُ رسالتكم إلى ملكي العظيم، وفعلت الشيء ذاته مع السلطان العظيم، ليقيني بأن سموكم لا ينطق بغير الصدق، فمن المستحيل على مسلم حقيقي أن يكذب، أو هكذا كنت أعتقد دائماً.

لذا، تخيل مدى دهشتي حين علمُت من القنصل العام البريطاني، السيد «لوكاس»، أنه في اللحظة التي أبحرت فيها السفينة «فانغارد»، أُطلق سراح القنصل الفرنسي وجميع الرعايا الفرنسيين، بل وسُمح لسفنهم في الميناء بالتجهز للإبحار، وقد علمتُ أن إحداها أبحرت بالفعل نحو مالطا. لماذا يا سموكم تنقادون خلف مستشارين أشرار لا هدف لهم سوى تدميركم؟

يعلم سموكم أنه رغم وجود سرب برتغالي قوي تحت إمرتي منذ أغسطس الماضي، فقد منعتهم بكافة الوسائل من الإغارة على سفنكم أو الاقتراب من سواحلكم. والآن، من واجبي أن أتحدث بصراحة لا تقبل اللبس: إن «نيلسون» الذي حال حتى الآن بينكم وبين عدوكم القوي، يمكنه بل وسيقوم بإطلاق يدهم عليكم ما لم تُنفذ الشروط التالية في غضون ساعتين:

أولاً: تسليم القنصل الفرنسي ونائبه وكافة الرعايا الفرنسيين على متن سفينة الملكة «ألفونسو» التابعة للعميد «كامبل»، وذلك في غضون ساعتين من نزول السيد «لوكاس» إلى الشاطئ.

ثانياً: إرسال رهائن يبقون على متن السفينة حتى يتم ترحيل كل فرنسي في ولاية طرابلس، في مدة لا تتجاوز أربعة أيام. (ملاحظة: لا مجال للمراوغة بشأن القنصل الفرنسي في طرابلس؛ يجب أن يكون على متن السفينة خلال

ساعتين من تقديم الطلب).

ثالثاً: تدمير كافة السفن الفرنسية، أو السفن التي يُزعم الاستيلاء عليها من الفرنسيين، خلال ساعتين.

إذا تم الامتثال لهذه الشروط، فسيمتنع العميد «كامبل» عن التعرض لسفنكم حتى وصوله إلى باليرمو. أما إذا رُفضت هذه المطالب العادلة، فلن أتمكن من منع السفن البرتغالية من اتخاذ إجراءات قوية ضد سموكم.

سيكتب لي سموكم رسالة يمليها عليكم السيد «لوكاس»؛ وكدليل على كرهكم للمشورة الشريرة التي قدمها «يوسف شيان» قبطان مينائكم، ستقومون إما بتسليمه للعميد «كامبل» لأرسله إلى القسطنطينية، أو التصرف فيه بما يجعله عاجزاً للأبد عن تقديم النصح، فقلبه من السواد بحيث لا يرجى منه خير.

أنا واثق بأن سموكم سيقدر صراحة هذه الرسالة، ويعتبرها دليلاً على النوايا المخلصة للملك العظيم الذي أخدمه، وهي صادرة من خادم سموكم الأكثر إخلاصاً.

(توقيع: نيلسون)

18 ديسمبر 1799.

إلى السيد بيكرينغ،

في السادس من هذا الشهر، تشرفت بإبلاغكم بالآفاق الواعدة لشؤوننا، وأؤكد لكم الآن تلك الأنباء. والسبب الرئيس يعود للمصلحة التي يرتجيها «صاحب الطابع» من توظيف السفن الأمريكية مستقبلاً لنقل بضائعه إلى إسبانيا، نظراً للمخاطر التي يفرضها الجزائريون على سفن القوى المحايدة الأخرى. هذا الظرف يبشر بنهاية لمفاوضاتنا تتوافق مع رغبات حكومتنا، شريطة وصول الهدايا الملكية قبل بدء أي مفاوضات سلام في أوروبا، وإلا سنضطر لمواجهة النفوذ التجاري الفرنسي بكل ثقله.

تناول «كبير حجاب الباي» العشاء معي، وبعد أن سقيتُه الكثير من النبيذ، استعرض لي بداية وتطور الشؤون الأمريكية هنا؛ فذكر أنه منذ وصولي إلى «بنزرت»، كان «فامين» يتردد على قصر «باردو» باستمرار، محرضاً الباي على رفض استقبالي، ومشيراً إلى ما وصفه بغدرونكران جميل

الولايات المتحدة. زعم «فامين» أن تعيين قنصل أمريكي ليس سوى خدعة للتهرب من الالتزامات المعاهدة، مفاخراً بالخدمات التي قدمها لسموه. وقد انحاز «صاحب الطابع» لـ «فامين»، بينما عارض الوزير العجوز «مصطفى خوجة» هذا التوجه.

تردد الباي لعدة أيام، ثم واجه «فامين» قائلاً: «لقد أخبرتني مراراً بأنك عُينت من قبل أمير أمريكا قنصلاً عاماً لدي، وأن أوراق اعتمادك ستصل قريباً، والآن تقول إن أمريكا استبدلتك بخداع وأن قنصلهم الحقيقي في أحد موانئي، وتطلب مني الانتقام لك برفضه! لا أدري إن كان قولك صدقاً، لكني أخشى أنك لم تطلعني على الحقيقة كاملة. هذا القنصل قد ينير طريقي، وسيكون من التسرع إبعاده قبل أن أتبين إن كان رسول خير أم شر. وعلى أي حال، لم يعد بإمكاني اعتمادك ممثلاً لتلك الأمة ما لم تقدم أوراق الاعتماد التي ادعيت جاهزيتها».

عندها عرض «فامين» على «صاحب الطابع» مضاعفة إيجار منزله مقابل السماح له برفع العلم الأمريكي عليه والبقاء فيه. مال «صاحب الطابع» للعرض وللإيجار، لكن طموحه في رفع العلم الأمريكي على منزله الخاص غلب جشعه وصداقته لـ «فامين».

وبعد وصولي، استغل «فامين» كل غياب لي عن «باردو» ليعزز فكرة خيانة الولايات المتحدة، زاعماً أن الأمريكيين ضحايا للجزائر، وأن قنصلهم مجرد تابع للقنصل العام في الجزائر وُضع هنا للتجسس، وأن القنصل العام نفسه ما هو إلا عبد لداي الجزائر وأداة في يده، وأنه هو من سلم القنصل هنا إلى «برادلي» وكيل الجزائر.

على ذلك رد الباي: «صبراً، فالزمن كفيل بإثبات كل شيء، ولا بد لي من استقبال الوزير الرسمي لأمير أمريكا».

هذا الحاجب هو الصديق المقرب والمتواضع للباي، قضى في خدمته اثنتين وعشرين سنة؛ ورغم نيله حريته، فإنه آثر البقاء في منصبه على العودة إلى أوروبا. هو رجل مسالم، ودود، ويميل إلى الصمت غالباً، غير أن نقطة ضعفه تكمن في استسلامه للخمر.

29 يناير 1800:

تلقيت في السابع والعشرين من ديسمبر رسالة من السيد «أوبراين»، مرفقاً بها نسخة من رسالة السيد «سميث» من لشبونة، تفيد بأن الفرقاطتين «يونايتد ستيتس» و«كونستيتيوشن» كانتا على وشك الإبحار إلى البحر المتوسط في أغسطس الماضي، ومن المحتمل أنهما تحملان الإمدادات المخصصة للإيالات. قمت فوراً بإحاطة الباي علماً بهذه المستجدات، مؤكداً له أن الهدايا الملكية في طريقها إليه، وأعربت عن أملي في وصولها خلال شهر يناير.

21 فبراير 1800:

سيدي،

منذ أن أبلغتُ الباي ـ استناداً إلى رسالة السيد سميث ـ بأن المواد المخصصة لوصاية تونس باتت في الطريق، لم أزره في القصر إلا مرة واحدة؛ وقد استُنفد وقت المقابلة في الحديث عن طول مسافة الرحلة، وقسوة الموسم، وتقلب الرياح. ليس لدي أدنى شك في قدرتي على إشغال الباي وإلهائه حتى تصل أنباء مؤكدة بشأن الهدايا المنتظرة، شريطة أن تصل هذه الأنباء قبل أن يحل فصل الربيع الذي يغري القراصنة بالعودة إلى البحر.

1 مارس 1800:

أكدتُ في آخر مقابلة لي مع «صاحب الطابع» أن سفننا المتجهة إلى الإيالات قد وُضعت تحت الحجر الصحي في لشبونة. لا أدري حقاً كيف سأدير شؤوننا، فهذا التأخير الطويل نذير شؤم، وهناك عاصفة بدأت تتشكل في الأفق. ولا يمكنني إضافة جديد إلى التقارير المستفيضة التي قُدمت سابقاً، لكن ما لم يطرأ أمر يصب في مصلحتنا، فإن الأيام القليلة القادمة ستثبت دقة حدسي وصواب مخاوفي. لقد شاع في القصر خبر رُسوّ أربعين سفينة تجارية أمريكية في ميناء «ليفورنو»، كما وصلت عبر الميناء ذاته أنباء من أمريكا بعد أربعة وسبعين يوماً من رحيل الجنرال اللامع «واشنطن». «فامين» هو من ينقل هذه البلاغات وكل ما يخصنا إلى «صاحب الطابع»، والاستنتاج الذي يطرح نفسه هنا: «بإمكان الولايات المتحدة إرسال سفنها إلى تونس بذات السرعة والأمان التي تصل بها إلى ليفورنو».

8 مارس 1800:

نسخة الرسالة الموجهة إلى السيد «أبليتون» المرفقة طيه غنية عن البيان. ولعلكم تقترحون على وزارة الخارجية ضرورة تحذير قناصل الولايات المتحدة من الإفراط في منح امتيازات المواطنة الأمريكية. ومع ذلك، ليس مستبعداً أن يكون «ألبيرغانتي» - وهو إيطالي الأصل - من بين المواطنين الذين شملهم القاضي «ماكين» برعايته، فقد كان بالتأكيد في فيلادلفيا عام 1796، وكان «يعقوبياً» صاخباً.

لقد اقتضت الضرورة السياسية أن أمنح «فامين» رسالة حماية، لكني حصلت منذ ذلك الحين على أدلة دامغة تثبت تورطه في مفاوضات احتيالية ودسائس مستمرة لإفشال مساعينا مع هذه الأيالة؛ لذا سأسحب تلك الحماية في اللحظة التي تسمح فيها ظروفنا، وسأفضح أمره في القصر وأمام العالم أجمع. سيضع هذا حداً لجشعه المتستر بالمواطنة الأمريكية، ويمنعه من إلحاق المزيد من الأذى بنا بصفةٍ منحته مصداقية تفوق جدارته الشخصية؛ وإن كان ذلك سيعرضني لحقده الدفين، وأقصى ما قد يفعله هو تدبير اغتيالي، ولا أشك في ميله لذلك لو امتلك الشجاعة. إن رجلاً رقص على الأنقاض عند سماعه بخبر اغتيال رئيسه «روبسبير» يمكن أن يُتوقع منه أي شيء. لقد كانت لجنة «هيركوليه» بتفويض من «روبسبير»، وإجراءاته هنا تمليها السياسة الفرنسية في عهد ذلك الطاغية؛ وقد اختار «هيركوليه» «فامين» من بين مائة فرنسي آخر لكونه الأنسب لتنفيذ تلك الإجراءات وإحراج الولايات المتحدة. لا يوجد على وجه الأرض محتال أحقر أو وغد أوضع من وكيلنا السابق هذا الذي أفلت من المشنقة حتى الآن. ولعل ثقة السيد «بارلو» في «هيركوليه»، ومن ثم في وكيله هنا، تندرج ضمن تلك الأخطاء غير المبررة التي يقع فيها الرجال الأخيار أحياناً.

زرتُ الباي بالأمس؛ سمح لي بتقبيل يده، لكنه رمقني بعبوس مهدد ولم ينبس ببنت شفة.

[من السيد بيكرينغ إلى إيتون]

وزارة الخارجية، فيلادلفيا، 17 يناير 1800.

لقد أفردتُ رسالة منفصلة بخصوص قرار الرئيس بشأن الجواهر

التي طلبها باي تونس. وفي رسالته الموجهة للرئيس (المرفقة نسختها)، سترى أنه يصر على مطالبه، ولكن بلهجة أقل حدة من تلك التي استخدمها في حديثه معك. ربما يمكننا الالتفاف على الأمر، أو على الأقل تخفيض المبلغ إلى النصف. ولعلك تأكدت منذ مراسلتك الأخيرة مما قدمته القوى الأخرى، وإسبانيا كذلك، في مناسبات مماثلة. أدرك أن التأخير ليس في صالحنا، لكني آمل أن يلين موقفه بانتظار وصول السفينة «هيرو» بحمولتها القيمة من الإمدادات البحرية والعسكرية، فهي عربون على أن البقية ستأتي؛ وعندها قد تنجح في إلغاء طلبه أو تقليص قيمته إلى حدود دنيا. عليك التفكير ملياً في أفضل السبل لإدارة هذا الملف بما يخدم مصلحة الولايات المتحدة؛ فنحن لا يمكننا التفريط في سلامنا مع تونس مقابل قيمة هذه الهدايا.

أنت ترى أن تقدير قيمتها مبالغ فيه، ولا شك أن الأسعار المعروضة هي «أسعار يهودية»، وبإمكاننا الحصول عليها من إنجلترا بتكلفة أقل بكثير. لذا، إذا اضطررت لتقديم الهدايا، فاحرص على كسب وقت كافٍ لشرائها من إنجلترا، فبعضها قد يتطلب تصنيعاً خاصاً وقد يستغرق الأمر عاماً كاملاً. وفي هذه الأثناء، وبما أنه يرغب في رؤية نتائج ملموسة، يمكن تأمين بعض القطع الأكثر بريقاً وبهرجة من تونس. وإذا اعترض على هذا التأخير، فبإمكانك التوضيح بأن الرئيس كان واثقاً بأنه سيتخلى عن تلك المطالب بعد التفكير في ظروف الولايات المتحدة، ولذلك لم يصدر أوامره بتجهيز الهدية بعد.

(توقيع: تيموثي بيكرينغ)

[من رئيس الولايات المتحدة الأمريكية إلى حمودة باشا، باي تونس، المدينة المحروسة ومقر السعادة]

عن طريق : ويليام إيتون

لقد استلمت رسالتكم المؤرخة في 30 أبريل 1799، الموافق لـ 30 من شهر ذي القعدة، من عام 1213 للهجرة؛ وأغتنم هذه المناسبة لأعرب لكم عن شكري على الاهتمام الذي أوليتموه لمبعوثي، ويليام إيتون وجيمس ليندر كاثكارت، اللذين كُلفا بترتيب بعض بنود معاهدة السلام والصداقة بيننا من جديد معكم. ويسعدني أيضًا أنكم استقبلتم السيد إيتون كقنصل للولايات المتحدة، وأكدتم له جميع التشريفات والامتيازات التي يتمتع بها

قناصل الدول الأخرى. إنني مقتنع بأنه من خلال سلوكه الحكيم والرشيد سيظهر نفسه جديرًا باحترامكم وثقتي على حد سواء. لا شيء يسعدني أكثر من تعبيركم عن رغبتكم في أن يتم، نتيجة لهذه الترتيبات النهائية، تأسيس تجارة قوية ومربحة؛ وأن يجعل الله سبحانه وتعالى يسود بين بلدينا سلامًا راسخًا ودائمًا.

فيما يتعلق بالمدة التي طلبتم خلالها تسليم المؤن المتفق عليها، فقد كلفت السيد إيتون أن يشرح لكم استحالة الامتثال: وسأكتفي الآن بالإشارة إلى أن أربعة أشهر من الأشهر الستة المقترحة لهذا الغرض قد انقضت عندما وصلت رسالتكم ورسائل القنصل: ثم انتشر وباء في بعض مدننا الرئيسية، مما تسبب في فرار السكان إلى الريف، وتوقف الأعمال، وجعل التأخير أمرًا لا مفر منه. ولكن يمكنكم أن تطمئنوا، إلى أن الالتزامات التي تعهدت بها معكم، نيابة عن الولايات المتحدة، سيتم الوفاء بها بإخلاص تام؛ وسيتم تسليم جميع المؤن البحرية والعسكرية المتفق عليها، بأسرع ما تسمح به المسافة الكبيرة للولايات المتحدة، والوقت اللازم لتوفير المؤن. إن بصيرتكم الواضحة والمميزة سترى معقولية هذه الملاحظات؛ واحترامكم للعدالة سيمنحها وزنها المستحق.

مع خالص التقدير،

أبقى صديقكم المخلص،

جون آدامز.

حرر في فيلادلفيا، في اليوم العاشر من يناير 1800، وفي السنة الرابعة والعشرين لاستقلال الولايات المتحدة.

بأمر الرئيس،

تيموثي بيكرينغ، وزير الخارجية.

25 مارس 1800.

إلى السيد بيكرينغ،

سيدي،

تلقيتُ رسالتكم عبر السفينة «صوفيا» في الرابع والعشرين من هذا الشهر، وتوجهتُ في صباح اليوم التالي إلى القصر. وبعد انتظارٍ في الردهة نظراً

لوعكةٍ صحية ألمّت بالباي - إذ كان يعاني منذ تسعة أيام من حمى صفراوية حادة - سُمح لي بمقابلته؛ وبعد أداء المراسيم المعتادة، انتقلتُ إلى غرفة الوزير (صاحب الطابع). أبلغتُه بتلقي معلومات هامة من حكومة الولايات المتحدة، تتضمن رسالة من الرئيس إلى الباي، وطلبتُ معرفة الموعد المناسب لتقديم بلاغ رسمي بهذا الشأن حال تحسن صحة سموه.

فأجابني بحدة: «أتظنوننا كلاباً؟! لقد عرضتم علينا تارةً رسائل من وزيركم في البرتغال، وتارةً من قنصلكم العام في الجزائر، وأخرى من قنصلكم في ليفورنو؛ وأكدتم حيناً أن هداياكم تحت حراسة فرقاطتين، وحيناً آخر أنها في الحجر الصحي بلشبونة؛ وها نحن نراقب بنواظيرنا من النوافذ سفناً لا تبحر! لن نُخدع بعد اليوم، ولا حاجة لنا ببلاغكم الرسمي. وأنصحكم صراحةً - وهو قرار اتُخذ منذ مدة - بأن القراصنة المنطلقين الآن في غارة لديهم أوامر باختطاف الأمريكيين، وقد أُمروا بالإغارة قبالة سواحل إسبانيا والبرتغال».

حين شرعتُ في توضيح أسباب عدم دقة البلاغات السابقة، قاطعني مكرراً أن الإقرار قد نُفذ ولا داعي للتبريرات. وتتكون هذه القوة من ثلاث سفن: اثنتان للباي بـ 26 مدفعاً لكل منهما، وواحدة لصاحب الطابع بـ 20 مدفعاً.

أعربتُ له عن أسفي لأن مواطنينا سيُضطرون لقتال بعضهم وإراقة الدماء، وأكدتُ له بوضوح أنه إذا لم يعد هناك مجال للتفاهم، فإني لا أملك إلا الرثاء لهذه الكارثة مع يقيني بأنني بذلت كل جهد لتجنبها. وأضفتُ بذات الصراحة: «لقد حذرتُ مواطنيّ منذ مدة طويلة من هذا الاحتمال، وسفننا التجارية مدججة بالسلاح والرجال، وأضمن لك أنهم سيدافعون عن أنفسهم بضراوة؛ فهم ليسوا غرباء عن الحروب، ويأنفون العبودية».

لفتَ كلامي انتباهه، فاستغللت الفرصة لتغيير لهجتي وبدأت بالشرح؛ موضحاً أن البلاغات السابقة كانت غير رسمية ومبنية على مراسلات قناصلنا الذين ربما غلبتهم الحماسة، أما ما أحمله الآن فهو صادر مباشرة من حكومتنا، ويشمل رسالة من رئيسنا بخط يده إلى أمير تونس، مصحوبة بالمعاهدة المصدق عليها رسمياً، وتأكيدات من الوزير الأول بأن سفينة ضخمة في طريقها الآن إلى تونس محملة بالمؤن العسكرية والبحرية؛ كما أن

هذه الرسائل تخولني تلبية طلب الباي بشأن الجواهر بما يرضيه.

قال الوزير: «حسناً، هذا يبدو أقرب للواقع، لكننا لن نوقف الغارة؛ فإذا أسرنا أمريكيين، فسنرسل الطواقم المسيحية إلى منزلك، ونسوق السفن إلى «بورتو فارينا» ونخزن البضائع بأمان بانتظار وصول الهدايا الموعودة، فإذا لم تصل، ستصبح غنائم مشروعة».

أجبته بأن هذه الخطوة، حتى وإن كان هدفها ضمان الوفاء بالالتزامات، ستفشل تماماً؛ فمواطنيّ لن يرضخوا دون قتال، وستكون النتيجة الحتمية هي الدماء والانتقام. لذا، ورغبةً في تجنب هذا الشر الذي سيصيب البلدين، طالبتُ بأن يطّلع الباي على رسالة الرئيس ويسمع بلاغاتي. فتوقف عن الكلام، وأيدني في ذلك رجل إنجليزي كان بصحبتي ـ ولنا في مساندته فضل ـ مؤكداً رجاحة طلبي.

وبعد أن كرر الوزير تفاصيل التأخير الذي اعتبره «خيانة»، قال: «سأرى سيدي غداً، وبعد غدٍ تعالَ إلى القصر لنتخذ قراراً نهائياً».

26 مارس، الحادية عشرة صباحاً: رست السفينة الأمريكية «كاميلا» بقيادة «صامويل هولمز» في ميناء «حلق الوادي»، قادمة من نابولي ومرسلة إلى «يوليوس قيصر ألبيرغانتي». وفي الثالثة عصراً، وصلتني رسالة من الوزير تفيد بأن «الحكومة بحاجة للسفينة الأمريكية الموجودة في الميناء». فأجبته بأن الرد سيكون غداً. وفي غضون ذلك، أرسلتُ إلى صاحب الطابع قطعاً من القماش الأزرق الفاخر والقرمزي كنتُ قد جلبتهما من إنجلترا لاستعمالي الخاص.

قضيتُ هذا اليوم في ترجمة رسالة الرئيس إلى الإيطالية، وتصديق المعاهدة، ومقتطفات رسائل وزير الخارجية بخصوص الهدايا، ورسالة السيد «أبليتون» حول استياء قباطنة السفن في ليفورنو من البند الأخير في المادة الثانية عشرة من المعاهدة.

27 مارس، الحادية عشرة صباحاً:

قدمتُ البلاغات المذكورة للباي، فأبدى رضا كبيراً وسُرّ برسالة الرئيس، وحمد الله معرباً عن أمله في وصول السفينة بسلام، لكنه استدرك قائلاً: «لا أرى هنا شيئاً عن الجواهر». فقلت له إن الرئيس، توثيقاً لروابط الود،

أمرني بتجهيز هدية من هذا النوع من إنجلترا، لكنه حدد لها ميزانية أقل من التقديرات السابقة. فرد الباي: «لا يهمني المبلغ، سأرضى ما دامت الجواهر ستصل وفق المذكرة المقدمة». ولم يذكر شيئاً عن طلبه السابق بخصوص السفينة الحربية، كما منح الكابتن «هولمز» إذناً بشحن القمح لحسابه الخاص.

[تعميم]

قنصلية الولايات المتحدة، تونس، 10 أبريل 1800.

سيدي،

بصفتي قمتُ أخيراً بتسوية شؤون الولايات المتحدة ودياً مع باي تونس، أرجو منكم إبلاغ هذه الأنباء السارة لقادة السفن الأمريكية والمعنيين بالأمر في نطاق قنصليتكم.

لقد تعهد الوزير الأول للباي بأن البند الأخير من المادة الثانية عشرة من معاهدتنا - والذي كان قد أقحمه «جوزيف إتيان فامين» - سيعامل السفن التجارية الأمريكية وفقاً للأعراف المتبعة مع كافة الدول الأخرى التي تنعم بالسلام مع تونس، لا أكثر. لذا، لم يعد هناك خطر من زيارة السفن الأمريكية لهذا الساحل، علماً بأن الحالة الصحية العامة هنا ممتازة.

مع خالص التقدير،

خادمكم المطيع،

ويليام إيتون.

إلى السيد توماس أبليتون،

القنصل الأمريكي في ليفورنو.

7 مايو 1800.

بعد أن انحرفت العاصفة عن الولايات المتحدة، تلبدت غيومها فوق نابولي، ثم مرت بإسبانيا، لتنقضَّ في النهاية على الدنمارك.

في أكتوبر 1797، وجه الباي رسالة إلى ملك الدنمارك تتضمن هذا البند «المتواضع»: «نظراً للصداقة الطويلة القائمة بيننا، أخذتُ على عاتقي تكليفكم بتجهيز مجموعة من المواد البحرية والعسكرية، وفق المذكرة المرفقة، والتي أجدها ضرورية لمساعدتي في بعض الأشغال العامة الجارية

حالياً. أمنحكم ستة أشهر للرد على هذه الرسالة، وسنة واحدة لإرسال المطلوب؛ وتذكروا جيداً، إذا لم يتلقَّ الرد والمواد في الموعد المحدد، فإننا نعرف تماماً الخطوات التي يجب اتخاذها».

لم يولي ملك الدنمارك هذا الطلب الاهتمام الفوري اللازم، ومع ذلك أمر بإرسال سفينة محملة بالأخشاب وصلت في صيف عام 1798؛ لكنها كانت دون توقعات الباي بكثير، لدرجة أنه رفض هذه «المجاملة» تماماً حتى بعد تفريغها، ومنذ ذلك الحين بقيت تلك المواد مهملة وفي حالة سيئة تحت وطأة العوامل الجوية.

إن المشاريع التي كان الباي يضمرها ضد الأمريكيين، والتي كانت على وشك التنفيذ فعلياً، هي التي صرفت أنظاره عن الدنماركيين لفترة. وقد ملأ وصول السفينة «هيرو» أرجاء إمبراطوريته بالذهول، إذ لم تشهد تونس مثيلاً لتلك المؤن البحرية من قبل. وفي حين علق خضوع نابولي عملياته ضدها، أرسلت إسبانيا في الوقت ذاته هدية له وعددًا من بناة السفن للعمل في حوض بورتو فارينا؛ وبناءً عليه، تم إطلاق عنان القراصنة ضد الدنمارك. وهنا دليل على حقيقتين ذكرتهما سابقاً: الأولى أنه لا يمكن كبح جماح هؤلاء القراصنة، والثانية أن المعاهدات هنا ليست سوى «لغات ميتة». ومن هنا يتضح أيضاً أن مخاوفي لم تكن مبالغاً فيها؛ فلو تعرضت السفينة «هيرو» لأي حادث، لما تمكنت أي وثيقة من إنقاذنا حتى وصول شحنات الربيع.

لقد بدأ «نجمنا» يكتسب ثقلاً هنا، وأتمنى أن يُمنح الفرصة لِيَسطع؛ فلا يكفي أن نقول إننا منحدرون من أصل إنجليزي، بل يجب أن نُقرن ذلك بنوع من الإقناع - ولو عبر بناء سفينة واحدة - يثبت أننا جديرون بهذا الإرث. ورغم الآفاق الواعدة حالياً، ما زلت أرى ضرورة استعراض واحدة أو اثنتين من أفضل فرقاطاتنا هنا، وحبذا لو كانت تجر خلفها سفينة فرنسية مأسورة أو أكثر؛ فهذا العرض سيقنع القراصنة بقدرتنا على مواجهتهم في ميدانهم، وسيؤكد ما أعلنتُه دائماً في البلاط - ونفاه فامين باستمرار - وهو أن تنازلاتنا ليست نابعة من ضعف، بل من حبنا للسلام. ولن يترتب على ذلك نفقات باهظة، إذ يُفترض أن الحكومة لن تخاطر ببقية الهدايا الملكية التي نعول عليها كثيراً في ظل قوانين الحرب؛ وأقول «قوانين الحرب» لأنه إذا كنا في

سلام مع فرنسا، فإن تونس ليست كذلك، رغم الحقيقة اليقينية بأن هؤلاء القراصنة لا يجرؤون على الإغارة ضد «الجمهورية الرهيبة» (فرنسا).

إذا وصلت بقية الشحنات والجواهر التي كُلفتُ بها بأمان وفي الوقت المحدد، فيمكننا توقع عشرين أو ثلاثين عاماً من الهدوء؛ إذ إن أي هفوة تافهة ستُتخذ ذريعة للقطيعة ما لم نترك انطباعاً بـ «المهابة» يوازي أدلة كرمنا.

10 مايو: مساء أمس، وفي المنزل الأمريكي، طلب القنصل البريطاني المحترم «بيركنز ماغرا» موافقتي على ترشيحه لي لدى دوق بورتلاند للقيام بأعمال البعثة البريطانية في حال شغر المنصب، ولعل تدهور صحته هو ما دفعه لهذه الخطوة. وافقتُ بشرط أن تكون الثقة متبادلة، فوافق. آمل أن تسمح طبيعة العلاقة بين حكومتينا بصواب هذا الإجراء. قضى هذا السيد قرابة أربعين عاماً في خدمة ملكه، منها اثنتا عشرة سنة في هذه الأيالة، وهو رجل واسع الاطلاع وصارم الأمانة؛ يملك عقلاً إنجليزياً وقلباً أمريكياً.

11 مايو 1800:

صباح أمس، رست سفينة تجارية دنماركية قادمة من ليفورنو في ميناء «حلق الوادي» دون سابق إنذار أو شعور بالخطر. وما إن مُيز علمها، حتى سارع فامين بكتابة رسالة عاجلة إلى القصر يخبرهم بدخولها؛ ونتيجة لهذه الوشاية، أمر الباي بالقبض على القبطان والبحارة قبل أن يتمكنوا من الهرب. وفي اليوم ذاته، سِيقت سفينة دنماركية أخرى محملة بالبن والسكر إلى بنزرت.

مساء أمس، ألمح القنصل الدنماركي المحترم «لويس هاميكين» إلى توقعه بضرورة مغادرة المملكة لظروف قاهرة، وطلب مني تولي شؤون بلاده في غيابه، فوافقتُ على القيام بدور الوسيط مع بلاطه، ولا أرى أي تضارب في المصالح يمنع ذلك.

ملاحظة 12 مايو: جُدد الطلب اليوم في القصر بخصوص السفينة الحربية، وتم الإصرار على تحديد موعد قطعي لوصول بقية الهدايا. رُفض الطلب الأول دون نقاش، وبقي الثاني معلقاً على الآمال.

24 يونيو 1800:

إلى السيد بيكرينغ،

قد يبدو من الغريب، بل ومن السخف، أن يتدخل قناصل في بلاد البربر. وهم شبان صُقلت عقولهم في المعسكرات والسجون ـ لتقديم المشورة لرجال يتفوقون عليهم سناً وحكمة، والحقائق تؤيد هذا الاستغراب. ولكن، إذا سُلّم بأن العقول المتواجدة على الساحة قادرة على كشف المؤامرات والدسائس التي قد تحجبها المسافة عن عين البصيرة البعيدة، وإذا اعتبرنا أن هذه الاكتشافات نابعة من حس وطني، فإننا نأمل أن يُنظر إلى إلحاحنا هذا بعين الرضا في مقر الحكومة.

يُفترض أن كتاب فولني «رحلات في مصر وسوريا» قد قُرئ؛ والسمات العامة التي وصف بها الأتراك هناك تنطبق عليهم هنا تماماً، مع إضافة بسيطة؛ وهي أن صلف باشاوات البربر يتناسب طردياً مع استقلالهم عن «الباب العالي». إن الجهل حين يُرفع إلى منصب يخول صاحبه جباية الجزية من الجميع ـ بدءاً من البدوي المتجول وصولاً إلى ملك إسبانيا ـ لا يشعر بأي قيود من وازع العدالة. إن رفض طلباتهم ينتج أثراً يشبه ما يفعله طفل مدلل لأم متساهلة؛ إذ سيمزق الثديين اللذين أرضعاه. ومع أن التشبيه قد يبدو بعيداً، إلا أنه في محله؛ فالتأديب وحده هو ما سيخضع هذا الفظ لآداب اللياقة.

الدنماركيون يواجهون خطراً محدقاً هنا، وقد تعثرت مساعيهم في الجزائر وطرابلس، والسويد تلحق بهم. أما الولايات المتحدة فهي تتأرجح منذ معاهدة الصداقة مع فرنسا، ويبدو ميناء الأمان بعيداً كما كان لحظة تخليهم عن كرامتهم. هل يمكن إشباع الجشع أو القبر؟ إن صرخة «أعطِ.. أعطِ» هي النشيد الأزلي الذي ستحمله كل نسمة هواء إلى أمريكا، وكلما قوبل الطلب بالرفض، سيُشهر سيف قرصان وضيع فوق رؤوسنا.

يقول ضابط لـ 16,000 جندي تركي غير منضبط لملك الدنمارك: «ليس لدينا عمل نقوم به»، ويقول قبطان فرقة خيالة لوزارة الخارجية الأمريكية: «نحن نعرف الخطوات التي سنتخذها». فالدنمارك، مثل ذلك الطائر في مزارعنا، ينفش ريشه ليضخم حجمه ثم ينتهي به الأمر للاستسلام. وأمريكا تستسلم ضمنياً. لو كان هناك أمل في أن هذه الإهانات ستنتهي من تلقاء

نفسها لكان الأمر محتملاً، لكن القياس التاريخي يثبت أن هذا الأمل عقيم: فمتى رفع طاغية قدمه عن عنق عبدٍ طائع؟ وأين الدليل على أن هؤلاء قد اكتفوا يوماً بكرم أصدقائهم؟ هل تُثبت ذلك تجارب إسبانيا أو إيطاليا أو هولندا أو السويد؟ وهل ستثبته الولايات المتحدة يوماً؟ أبداً، ما دام لديهم بارود يقدمونه هدايا، ويفتقرون إلى الإرادة لحرقه في وجوههم.

يقول لسان حال «باشا تونس»: «أنتم تعطون المال للجزائر، فلماذا لا تعطوننا؟»، ويقول العالم لمبعوث أمريكا: «ألا تدفعون جزية لتلك الرملة الحقيرة في طرابلس؟». والجواب للأسف بالإيجاب ودون خجل؛ فقد ألفت النفس الإهانة حتى استساغتها، وستر العرف العار.

ولكن، ماذا سيقول العالم لو قامت ولاية «رود آيلاند» بتسليح سفينتين قديمتين، ووضعت مرتدًا أيرلنديًا في إحداهما وواعظاً في الأخرى، وأرسلتهما لطلب الجزية من السلطان العثماني؟ سيبدو الأمر سخيفاً، لكن سخافته نابعة من غرابته فقط؛ فالفكرة تتسق تماماً مع ما تفعله طرابلس اليوم حين تقول للأمة الأمريكية: «ادفعوا الجزية، أو ارتعدوا خوفاً من بأس بحريتي»، وبحريتها هذه ليست سوى قطع خشبية قديمة مشتراة من بوسطن أو سفن مهترئة من عواصم مسيحية أخرى. إن نجاح هؤلاء المغامرين ليس بأكثر غرابة من تفوق عصابات لصوص البحر هذه على العالم بأسره.

إن القنصل «كاثكارت» على حق بلا شك حين يقول إن «فرقطتين وأربعة زوارق مدفعية كفيلة بإخضاع باشا طرابلس»، لكن موضع الشك يكمن في رأيه القائل بأن تقديم هدية طوعية له هو الخيار الأفضل. فما النفع الذي جنيناه يوماً من كراهية مالطا الدستورية للمسلمين حتى لو عادت لنظامها القديم؟ لقد خضعت «جنوة» لسيد جديد مستبد بما يكفي لحمايتها، مما حرم القراصنة من مورد ضخم، فصاروا يبحثون عن غنائمهم في أسواق أجنبية بعدما وقعت غنائم المتوسط في يد لصوص أمهر منهم.

ليس من مصلحة أوروبا التجارية توجيه هؤلاء نحو أمريكا، وليس من مصلحتنا نحن أن يجدوا فينا ضالتهم. إن أمامنا خيارين: إما رشوة جشعهم أو تأديب وقاحتهم، مع العلم أن العطاء لا يزيدهم إلا نهمًا. البديل الوحيد هو إما الرضوخ المطلق، أو أن نشد مآزرنا ونواجههم بصلابة حتى يرتدعوا. لا

بد من اتخاذ هذا الموقف يوماً ما، فهل ثمة وقت أنسب من الآن؟ أم ننتظر حتى تقوى شوكتهم بفضل هدايانا العسكرية؟ إننا حين نفرغ هذه الهدايا في موانئهم، إنما نسفك دماء مواطنينا بأيدينا.

آمل حقاً أن تنال الولايات المتحدة شرف أن تكون أول من يؤدب صلف هؤلاء السادة. وإذا أصرت طرابلس على غيها، فلنجعل منها عبرة ولنضعها أمام التجربة؛ أروا الباشا فرقاطاتنا القوية، وضعوا خياري الحياة والموت بين يديه، فإذا اختار الأخير فليكن له ما أراد. إن الأتراك جيش بائس وهم في البحر محض لصوص؛ وقد سبق لي أن قضيت أياماً على إحدى سفنهم، وأؤكد أن بحارتنا يتفوقون عليهم بمراحل في كل الميادين، باستثناء القتال المتلاحم عند اعتلاء السفن.

سيكون من الحكمة أن تزور فرقاطاتنا تونس في طريقها؛ حيث سأدعو «صاحب الطابع» وحكام الباي لتناول العشاء على متن سفينة القيادة، وسأشير إلى المدافع قائلاً: «انظروا، هذه قوتنا التنفيذية المكلفة بحماية المعاهدات». قد تبدو هذه المشاعر عدائية، لكنها في الواقع الضمانة الوحيدة والأكيدة للسلام في بلاد لا تحترم شيئاً سوى السلاح.

بناءً على هذه الرؤية، إليكم إجاباتي على الأسئلة التي طرحها القنصل «كاثكارت» على القنصل العام «أوبراين»:

الجواب على السؤال الأول: لم أكن لأتدخل بمشورتي لولا طلبكم. لقد وقع باشا طرابلس وثيقة تثبت رضاه التام عن الهدايا التي تلقاها كشرط لسلام دائم، فمن أين تأتي هذه المطالب الجديدة؟ لا يكفي تذرعه بالرغبة في المساواة مع الإيالات الأخرى؛ فالفضل في سخائنا مع تلك الإيالات يعود لخيانة الوكلاء الفرنسيين، ومطالبه خرق صريح للمعاهدة التي وقعها بمحض إرادته. كما لا أعتقد أن صلاحيات الرئيس تسمح بتقديم هدايا إضافية تحت الابتزاز، ومن حسن حظنا أننا مقيدون بهذه القوانين التي يجب أن يرضخ لها الباشا. إن لجوء الباشا لـ «التسول» لا يبرر لنا العطاء. نحن «حراس نقطة متقدمة» كما وصفتنا، ومن واجبنا إطلاق الإنذار، لا التنازل عن شبر واحد من الأرض التي نذود عنها. لذا، على الباشا انتظار رد الرئيس، وأنا واثق أن الرئيس سيؤيد موقفكم الحازم في المقاومة أو التأخير.

الجواب على السؤال الثاني: في حال صودرت حمولة أي سفينة لنا - وهو خطر لا يبدو وشيكاً - يجب الرضوخ للواقع وتوفير احتياجات الطواقم حتى يصل رد الحكومة. أما جوازات السفر، فهي دليل على الود القائم، ولا يجوز منحها بعد انقطاع هذا الود. فضلاً عن أن منحها سيعطي العدو طعماً للإيقاع بسفننا ويحمي المعتدي من الانتقام، لذا لا يمكن منحها بعد أي خرق صريح للمعاهدة.

الجواب على السؤال الثالث: لا أعلم مدى توافق هذه الاستنتاجات مع قرارات الحكومة، فإذا بدا فيها بعض الحدة، فذلك لأن ظروف الحال تفرضها.

أما عن الوضع العام، فالطاعون يستفحل يوماً بعد يوم، وأملنا معقود على حرارة الصيف القادمة، فقد كان الشهران الماضيان باردين ورطبين بشكل غير معتاد. والمفارقة أن «المور» (أهل البلاد) لا يتخذون أي احتياط لمنع العدوى، وإذا سألت أحدهم عن سبب هذا الإهمال، أجابك مستنكراً: «أتظنني فقدت الثقة في الله؟!».

مع فائق الاحترام،

ويليام إيتون

إلى معالي وزير الولايات المتحدة،

إلى السيد سميث، الوزير في لشبونة

تونس، 30 يونيو 1800.

لقد أكدتُ للحكومة سابقاً، بعبارات صريحة، أن استعراض القوة هو الحجة الوحيدة الفعالة لمواجهة مطالب باي تونس الاستثنائية. ورغم موافقة الرئيس على أسلوبي، إلا أنه سمح بإرسال السفينة «هيرو» - وهي سفينة قديمة ومتهالكة - من نيويورك إلى تونس دون أي حراسة، بطاقم من عشرين رجلاً ليس بينهم سوى أمريكي واحد، وبمدفعين صغيرين وبرميل واحد من البارود، محملة بشحنة كان سلامنا يعتمد عليها بالكامل. ولحسن الحظ أنها وصلت، محققةً التأثير المطلوب حتى وصول بقية الهدايا.

ومع ذلك، فإن حالة السفينة الرثة عززت فكرة راسخة لدى التونسيين بأن الأمريكيين «طائفة مسيحية ضعيفة»، وأن استقلالهم كان محض منحة

من فرنسا. وقد غذى هذا الرأي وكيلنا السابق (فامين)، ذلك العبد الذليل لمسؤولي البلاط والخائن لأمانته، الذي لم يكف عن عرقلة مساعيَّ وإهانتي شخصياً، حتى بلغت وقاحته حداً لا يطاق. وبما أنني وجدت نفسي بلا دعم، قررت إقناع تونس وعبيدها بأن الأمريكيين يملكون كرامة تردع المعتدين، فعاقبتُ هذا الخائن عند بوابة الميناء، وأمام مائة شاهد، بسوط حصاني.

أشعل هذا الإجراء اللهب الذي أردته، فاستدعاني إلى «محكمة قرصان»؛ وهناك واجهتُه والمحكمة التي كانت منحازة له في البداية، فخاطبتُ الباي باختصار: لقد وجدتُ هذا الرجل متطفلاً ومجرماً، سواء في معاملته لممثل الولايات المتحدة أو في خيانته للمهام التي كُلف بها، وأنا لست هنا للرد على ادعاءات خائن، لأني لا أعتبر نفسي مسؤولاً أمام حكومة تونس، بل جئت لفضح هذا الرجل وسحب حماية لا يستحقها.

قال الباي: «سأطردك من البلاد». فأجبته: «ستمنحني بذلك شرفاً سأعتز به». ثم سألني: «كيف تجرؤ على رفع يدك على أحد رعاياي في مملكتي؟». فقلت له: «لو كان هذا المرتد في ملكوت السماء واستفزني هكذا لعاقبته بذات العقاب. لكن باي تونس أذكى من أن يصدق أن هذا الوغد الحقير من رعاياه؛ فلو كان فرنسياً حقيقياً، أو أمريكياً، أو مسلماً صالحاً، أو حتى مسيحياً مستقيماً لَنال احتراماً واجباً، لكنه ليس أياً من هؤلاء. لدي وثائق تثبت أنه مستعد لبيع رأسك مقابل «خروب»، والمقايضة بسمعة بلاطك من أجل «بياسترات» قليلة».

ثم كشفتُ للباي كيف يصف هذا الوكيل وزيره الأول وحاشيته بـ«قطيع من اللصوص والمعتدين» في رسائله للأمريكيين. حينها صرخ فامين طالباً الرحمة، فتابعتُ مخاطباً الباي: «هذا هو رجل ثقتك، وهذا هو الوسيط الذي يزعم الحفاظ على الود بيننا! إن خيانته وكذبه وتصويراته المسمومة هي التي عطلت التواصل بيننا. لقد عمل ثلاثة أيام لإقناعك برفض استقبالي، وكان يلمح دائماً بأن حكومتي تخادعك، وأنني مجرد أداة لهذا النفاق».

سألني الباي باستغراب: «وكيف عرفت كل هذا والمجالس بالأمانات؟». فأجبته: «لأن هذا الزميل يفتقر للحصافة؛ فمن فرط ابتهاجه بمكائده أفشى كل شيء لعشيقته، وهي بدورها أخبرت جيرانها، حتى صار الأمر حديث

الحانات بأن «الباي سيطرد القنصل الأمريكي إرضاءً لفرنسي مرتد»، وكأن الباي لا يملك بصيرة للتمييز بين إهانة أمة وإرضاء عبد!».

أصغى الباي إليّ، بينما ارتجف فامين وكأنه أصيب بشلل، وحاول مخاطبة الباي بالعربية، فنهرَه الباي قائلاً: «تكلم الفرنسية!». وعند مغادرتي، ضغط الباي على يدي بحرارة، وقال لحاشيته: «لقد كان القنصل الأمريكي منفعلاً، ولكن بحق، كان معه كل الحق. وجدته دائماً رجلاً صريحاً وصادقاً، واهتمامه بمواطنيه ليس جريمة».

منذ ذلك الحادث، الذي وقع قبل أربعة أسابيع، حظيتُ من الاحترام والتبجيل (برفع القبعات) أكثر مما رأيت طوال أربعة عشر شهراً. أسرد هذه المغامرة لأثبت أن أفضل وسيلة للتعامل مع هؤلاء هي مواجهتهم في ميدانهم: فمن بدأ بالترهيب يجب أن يُرد عليه الصاع صاعين.

تونس، 28 يونيو 1800.

إلى وزير الخارجية:

أُعلن اليوم قطع سارية العلم الدنماركي، وأعلن الباي الحرب على الدنمارك. حُكم على أكثر من سبعين بحاراً بالعبودية، والقنصل محتجز في منزله.

تونس، 4 يوليو 1800.

غادر القنصل الدنماركي وعائلته اليوم، وقد طلب مني الوساطة بين ملكه والباي خلال الحرب. وفي مقابلة مع الباي ووزيره، برر الأخير الحرب بفرصية أن «للباي الحق في طلب الهدايا، ومن يتجاهل الطلب فقد اعتدى».

قال الوزير بصدق: «الحرب كانت موجهة ضد الأمريكيين في الأصل، لكن رسالة أميركم جعلت الباي يتريث، ثم وصلت السفينة بحمولة من الجودة لم نشهدها من أي أمة مسيحية. لو كانت هدايا الدنمارك بنصف هذه الجودة لبقينا في سلام معهم».

علقتُ له بأن ثقته في المتطفلين هي ما سبب كل هذا التوتر، فرد قائلاً: «لقد مضى ذلك، وقد نلتَ انتقامك بطريقتك. نحن مقتنعون بصراحتك رغم أننا اعتبرناك صعب المراس في البداية؛ ولكنكم نوع من الإنجليز، أليس كذلك؟».

قلتُ له: «لسنا إيطاليين».

فسألني: «أليس لديكم «بابا» في أمريكا؟».

فأجبته مازحاً: «بلى، مرة في السنة يصنع شبابنا وبناتنا وبحارتنا «بابا» وشيطاناً من ملابس قديمة، يطوفون بهما على حمار ثم يطلونهما بالقطران ويحرقونهما معاً للتسلية».

ضحك من قلبه وقال: «أعتقد أنكم جنس عنيد كالإنجليز، والحمد لله أننا أصدقاء».

لقد أظهر الباي رضاه التام عنا، وأهداني منزلاً في «بنزرت» على شاطئ البحر لأقضي فيه الصيف. أما بخصوص طرابلس، فقد طلب الباشا بلهجة مهذبة أدلة ملموسة على الصداقة بدلاً من «الوعود الخادعة». أرى أن الاستجابة لطلبات طرابلس ستفتح باباً لن ينغلق من المطالب المماثلة من بقية الإيالات. متى ستنتهي هذه الإهانات؟ لا بد من وقت نستخدم فيه الحجة القوية لإقناع هؤلاء بصدقنا، ولماذا لا تكون البداية من طرابلس؟ أخشى أن صراحتي المفرطة تثير القلق، لكن الحقائق تثبت دائماً صحة ما أذهب إليه.

مع فائق الاحترام،

ويليام إيتون

إلى معالي وزير الولايات المتحدة

بعد أن عرضنا المراسلات والمعاملات الرسمية الأكثر أهمية حتى هذا التاريخ، قد يكون من المناسب الآن العودة إلى بعض رسائل السيد إيتون المألوفة وشؤونه الخاصة.

إلى السيدة إيتون

تونس، 29 أبريل 1799.

منذ وصولي إلى هذه المدينة، وهو ما كان في الرابع عشر من الشهر الماضي، وأنا مشغول باستمرار في التفاوض على تعديلات في المعاهدة بين الولايات المتحدة وباي وديوان هذه الأيالة. لذلك، لم تتح لي فرصة كبيرة للتعرف على أي شيء يمكن أن يوفر لك التسلية أو الفائدة. عند النزول إلى الميناء، على بعد حوالي نصف ميل شمال البوابة الأمامية للمدينة، رُفعت الأعلام على

جميع بيوت القناصل الأوروبيين، وعند وصولي إلى البيت الأمريكي، رحب بي قناصل الدول المختلفة في المكان. تم تخصيص اليوم التالي لتقديمي إلى الملك. انطلقت في الساعة العاشرة صباحًا، في عربة تجرها بغلتان، برفقة تركي، واثنين من المور، ومترجم. يقع القصر على بعد أربعة أميال من المدينة. وصلت إليه حوالي الساعة الحادية عشرة؛ وبعد الانتظار لبعض الوقت في ساحة البلاط، تم قبولي في غرفة الباي. كان جالسًا وساقاه تحته مثل الخياط، على أريكة مغطاة بمظلة مخملية مطرزة بالذهب بشكل غني، مع عمامة حول رأسه، ونوع من الرداء الفاخر يتدلى فضفاضًا حول كتفيه. بعد الانتهاء من إجراءات التقديم الرسمية، قُدم لي مقعد على يمينه، وكان وزيره الأول ووزير خارجيته يجلسان على سجادة على يساره. في غضون دقائق، دخل ثلاثة عبيد مسيحيين إلى الغرفة، أحدهم يحمل صينية قهوة، في فناجين صينية جميلة موضوعة في أطقم من الذهب، مزينة بالألماس بشكل غني؛ والآخر يحمل فوق كتفه منديلًا؛ والثالث أحضر نوعًا من المظلة المطرزة، التي بسطها في حجر الباي. بعد تقديم القهوة، دخلنا في حديث عن الرحلة؛ وتبع ذلك موضوع مفاوضاتنا. استمرت هذه الإجراءات الرسمية والعمل لمدة خمسة عشر يومًا، وفي النهاية، بوساطة الرشاوى والهدايا بمبلغ كبير، تم تحقيق هدف المفاوضات، وأخذت نصف يوم فراغ للتجول في الريف. وجدت الملك رجلاً يتمتع بالدهاء والفهم والبراعة الكبيرة. كانت شروطه، مقابل موافقته على الشروط التي اقترحناها، باهظة؛ وما زلنا لسنا على وفاق تام بشأنها. لقد قاومتُها باستمرار؛ وفي آخر مرة كنت فيها في القصر، هددنا بالحرب في حال لم أتوصل إلى اتفاق لا لبس فيه على شروطه. أخبرته أننا في هذه الفترة لسنا ممن يخافون من التهديدات؛ نحن مستعدون للحرب؛ وإذا اختار أن يبدأها بسبب تافه كهذا، فقد يكون لديه سبب للندم على تهوره. تركني دون مراسم، قائلاً، إذا لم أوافق على طلبه، يمكنني أن أنزل العلم الأمريكي، وأركب السفينة وأعود إلى بلدي. إذا لم أجد وسيلة لتليين مزاجه أو تخفيف طلبه، فقد أسلمك هذه الرسالة بنفسي.

هذا البلد جميل حقًا؛ لكن الناس بائسون للغاية. إنهم مهانون بالاضطهاد المزدوج للطغيان المدني والديني؛ ويبدو أن لديهم القليل من روح المبادرة، وهم

جهلة بشكل فاحش. بيوت المدينة مبنية من الحجر، والإسمنت والجير، من طابق واحد، بدون مداخن، والأسطح مسطحة، ومتلاصقة ببعضها البعض لدرجة أن كل الضوء يدخل من خلال فتحة في أعلى المنزل. يجلسون دائمًا على الأرض، التي تكون عادةً من التراب المغطى بالبلاط، أوبالحصير المصنوع من القصب؛ ويتغذون بشكل أساسي على نظام غذائي نباتي مصنوع من الحبوب والزيتون والفاكهة؛ ولا يشربون سوى الماء. لا تُرى النساء في الخارج أبدًا، باستثناء الطبقات الفقيرة، وحتى هؤلاء لا يخرجن إلا وهن ملفوفات بالبطانيات والمناديل من قمة الرأس إلى الكاحلين: وهن دائمًا حافيات، أو يرتدين نعالاً فقط. سكان البلاد لديهم نفس بشرة الهنود الأمريكيين تمامًا؛ باستثناء أولئك من البلدان الأجنبية الذين تجنسوا. تحتوي المدينة على حوالي ثلاثمائة ألف نسمة؛ عشرة آلاف منهم يهود، وألفان مسيحيون، وستة أو سبعمائة من المرتدين، بالإضافة إلى ثلاثة آلاف من العبيد المسيحيين. يتم توزيع هؤلاء على وظائف عامة مختلفة، وفي الخدمة الخاصة لأسيادهم.

مات الكثير منهم من الحزن، والآخرون يعيشون حياة لا تطاق أكثر من الموت. يا للأسف، يسيطر الندم على روحي كلها عندما أفكر في أن هذا في الواقع ليس سوى نسخة من نفس الوحشية التي رأتها عيناي في بلدي الأم. ومع ذلك، نحن نتباهى بالحرية والعدالة الوطنية. كم مرة، في الولايات الجنوبية من بلدي، رأيت أمهات باكيات يقدن أطفالهن الأبرياء إلى أسواق البيع، بنفس القدر من الألم العميق كما لو كن يقدنهن إلى الذبح؛ ومع ذلك شعرت بالهدوء في صدري وأنا أرى هذه الاعتداءات على الإنسانية الأعزل. ولكن عندما أرى نفس الفظائع تمارس على كائنات تدعي بشرتها ودمها قرابة مع بشرتي ودمي، ألعن الجناة وأبكي على الضحايا البائسين لجشعهم. في الواقع، يطالبني الصدق والعدل بالاعتراف بأن العبيد المسيحيين بين برابرة إفريقيا، يعاملون بإنسانية أكبر من العبيد الأفارقة بين المسيحيين المزعومين في أمريكا المتحضرة؛ ومع ذلك هنا، تنزف الحساسية من كل مسام من أجل البائسين الذين حكم عليهم القدر بالعبودية.

لقد مررت مرة واحدة فوق أطلال قرطاج وأوتيكا، لكن هذه اللحظة ضيقة جدًا لتمنحني وقت الفراغ لأصف لك اكتشافاتي أو مشاعري في تلك

المناسبة. سيخصص وقت آخر لهذا الموضوع؛ أما الوقت الحاضر فيُستهلك في إعداد الرسائل الضرورية لحكومتنا، وفي كتابة رسائل العمل. تونس في الوقت الحاضر، لا تقدم أي ميزة من التجارة. الولايات البربرية متورطة في الحرب مع الجمهورية الفرنسية. وهذا يستبعد كل اتصال مع دول إيطاليا، وسواحل فرنسا وإسبانيا، وفي الواقع مع جميع موانئ تجارتها المعتادة تقريبًا. لذلك، لا يمكنني أن أعد نفسي بالكثير من المزايا التجارية من وضعي الحالي. آمل، مع ذلك، عن طريق الاقتصاد، أن أتمكن من توفير نصف مبلغ راتبي. في أقل من عامين من هذه اللحظة، بإذن السماء، سأعانق أصدقائي مرة أخرى في بريمفيلد وأجزاء أخرى من أمريكا. لقد اتخذت ترتيباتي بالفعل لهذا الغرض؛ وأتطلع بقلق، وهو في الحقيقة لا يليق بسني، إلى اللحظة التي ستعيد إليّ مرة أخرى السعادة البسيطة لوطني الأم. ولكن قبل انقضاء هذه الفترة، قررت زيارة روما، وإذا أمكن، الأرض المقدسة: ولكن يجب أن أتخلى عن فكرة زيارة مصر طالما أن الفرنسيين يسيطرون عليها. الطاعون منتشر في هذه اللحظة في ذلك البلد المنكوب: ولكن، الحمد لله، لم يظهر أي عرض منه في هذه المدينة حتى الآن هذا الموسم.

لم أكن مقتنعاً من قبل، بقدر قناعتي الآن، بأن الحكمة الإلهية المطلقة قد تجلت في أبهى صورها حين قررت أنه (ليس من الجيد أن يكون الإنسان وحيداً). ولا تظني للحظة أنني قد أقبل بفقدان ضلعٍ آخر لكي تُخلق لي منه امرأة أخرى هنا؛ فأنا أؤكد لكِ أن شيئاً كهذا لن يحدث. ولكن، في المقابل، ليس لدي أدنى اعتراض على الخضوع لتجربةٍ تعيد (ضلعي المفقود بالفعل) -وهو أنتِ- إلى مكانه بجانبي مرة أخرى.

تصبحين على خير: إنها الساعة الثانية عشرة، ولا شيء سوى الوحدة والملل لتواسي صدر المخلص لك،

ملاحظة: احرصي يا إليزا، على ألا يموت والدينا العجوزان الطيبان حتى أعود.

إلى ستيفن بينشون، المحترم. بريمفيلد.

تونس، 29 أبريل 1799.

(أعطني كل ما هو جميل، لطيف وجديد؛ كل الأشياء القبيحة، الغريبة،

والقديمة أتركها لك.)

في الرابع من يناير من هذا العام، أبحرنا من رؤوس ديلاوير: وبسبب عواصف الشتاء، اندفعنا عبر المحيط الأطلسي غارقين في الماء المالح والرغوة، دون خيط جاف حولنا: وفي ستة وثلاثين يومًا وصلنا إلى الجزائر. إحدى سفننا، سفينة تتراوح حمولتها بين مائتين وثلاثمائة طن وعلى متنها ثلاثون شخصًا، انقلبت في عاصفة، وغرقت، يا لهم من مساكين، في لحظة. حدث هذا على الساحل الأمريكي. سفينة أخرى من مجموعتنا التقت بأسطول من الزوارق الحربية عند مدخل المضيق، وشقت طريقها بالقتال. كانت هذه سفينة شراعية بقيادة الكابتن مالي، الذي أخبرني أنه استهلك أربعمائة قذيفة في تلك المناسبة، وتلقى مثلها: ولكن هذا لا بد أنه كان على مسافة محترمة جدًا، لأنه لم تُسفك دماء من جانبنا صحيح أنهم اشتبكوا.

الجزائر كومة هائلة من الطوب والجير، ملتصقة في كتلة واحدة، على منحدر تل، تشبه محجر رخام به خلايا محفورة. ستفهم هذا الشكل بسهولة أكبر، عندما أخبرك أن قمم، المنازل مسطحة، ومتصلة ببعضها البعض بطريقة يمكن للرجل أن يمشي من جدار إلى جدار دون أن تلمس قدماه الأرض في أي اتجاه تقريبًا في المدينة.

الشوارع، أو بالأحرى الممرات المغطاة، ليست، بشكل عام، أعرض من ستة أقدام: أوسعها يسمح، بصعوبة كبيرة، بمرور جمل محمل في الوسط، ورجل ماشٍ على كل جانب. وهي مغطاة بشكل شبه موحد بطوابق بارزة من المنازل، تشكل في بعض الأماكن أقواسًا وفي أماكن أخرى مستويات، وتحجب الشمس في منتصف النهار. لا يوجد فناء واحد في المدينة بأكملها؛ كل مرفق يوضع داخل جدران المنزل، حتى الفناء، والأقبية، وخزانات المياه؛ وليس لديهم ضوء سوى ما يدخل من فتحة في وسط المنزل؛ عادة ما تكون مربعة، تمتد من الأعلى إلى الأرض في كل منزل، من ثلاثين إلى ثمانية أو عشرة أقدام بما يتناسب مع أبعاد المنزل، وتشكل في آن واحد الفناء والأروقة. على كل جانب من هذه المساحة، من طابقين إلى أربعة طوابق، توجد غرف لكل غرض.

المدينة مزدحمة بالأتراك المتغطرسين، والمور المتسولين، والعرب

المتوحشين، يتميزون عن بعضهم البعض بملابسهم، أو بالأحرى بقلة ملابسهم. الأتراك يرتدون سترات قصيرة، تشبه إلى حد ما سترات بحارتنا بدون أكمام، مطرزة بالترتر الذهبي، منسوجة بأشكال متنوعة على الحواف والجوانب: نوع من السراويل المفتوحة من أقمشة مختلفة، كتان ناعم أو شاش، تنزل إلى الساق وتربط حول كل ساق: وشاح من الحرير الأحمر أو متعدد الألوان منسوج بخيوط ذهبية ملفوف حول خصر الجسم، يوضع فيه سيف وزوج من المسدسات الطويلة: والأحذية مربعة الأصابع، أرجل عارية؛ رأس محلوق ومربوط بعمامة، وست ياردات من الشاش الأبيض ملفوفة حول قبعة حمراء صغيرة، تظهر بالكاد من الأعلى: اللحية معلقة على الصدر. يختلف لباس المور عن هذا فقط في الجودة، باستثناء أن هؤلاء لا يرتدون أسلحة، فالأتراك وحدهم يشكلون جيش البلاد. يشبه العرب في كل شيء متوحشي أمريكا، باستثناء أنهم أقل إقدامًا، وليس لديهم شيء من تلك العظمة الوحشية التي تنشط أبناء غاباتنا الأحرار.

نساء البربر اللواتي يُرين في الشوارع، يبدون كأشباح تمشي ملفوفة بالخرق. يرتدين أحذية مربعة الأصابع، عادة بدون كعب أو بكعب منخفض جدًا. فوق هذه، في منتصف الساق، تكون مكشوفة؛ ثم تبدأ لفائف من الشاش مثل سراويل البحارة، ملفوفة بشكل فضفاض حول كل ساق، مربوطة في الأسفل، وفي هذا النوع من اللفائف تصعد حوالي شبرين من المفصل الأول فوق الكاحل، وتشكل تقاطعًا؛ وتصبح الآن كيسًا ضخمًا يرتفع في طيات غير منتظمة حتى يتجمع حول الخصر ويفصل بين المناطق العليا والسفلى من الجسم. فوق هذا، معلقة مثل الستائر من الرأس إلى الأرض، تتدحرج طيات ضخمة قذرة من بطانيات الفانيلا أو الشاش. حول الفم والذقن والجبهة، توجد مناديل ملفوفة بإحكام، تخفي الوجه بالكامل باستثناء فتحة ضرورية لدخول الضوء. بهذا الزي، لا يمكن رؤية شيء منهن في الخارج سوى وميض عين.

ليس كذلك بنات إبراهيم (يقصد اليهوديات). وجوههن العارية، العريضة، والسمراء، تشكل تناقضًا مع النساء التركيات على النقيض تمامًا. يبدون قذرات كالبهائم ووقحات. ويشاع عنهن أنهن سهلات المنال. قد يكون

الأمر كذلك؛ ولكن لن يكون لدي دليل آخر على ذلك سوى فضيحة الشهرة العامة: فإلى جانب الحظر المفروض على فضولي من قبل قاضي يونيون، لدي اشمئزاز أخلاقي من كل شيء من هذا النوع يكون قذرًا. كل النساء اللواتي رأيتهن، لو تم دمج جمالهن، لما خلقن ما يكفي من الإحساس في قلبي لإنتاج أغنية شعبية، من عقلي، حتى لو كنت أمتلك مهارة ومشاعر حفيد يسى الملكي (يقصد الملك داوود). اما وصف عادات الجزائريين يمكن مع استثناءات قليلة جدًا، أن ينطبق على تونس. إنها كذبة شنيعة سجلها الجغرافيون، أن نساء تونس جميلات. اللواتي رأيتهن في الشوارع، وأكثر تعرضًا من أسطح منازلهن، سيئات الشكل، قصيرات وقذرات. كلهن سمراوات. لا أستطيع أن أقول الكثير عن أخلاقهن وعاداتهن: لكن لا يسعني إلا أن ألاحظ عادة واحدة ملحوظة جدًا، والتي أعتبرها جديرة بالثناء؛ وهي عادة الأرامل في الذهاب مرة واحدة في الأسبوع على الأقل إلى قبور أزواجهن والبكاء عليها، حتى بعد أن يكونوا قد ماتوا لمدة شهر.

عن قوة، وتجارة، وصناعات، وعادات هذه الأيالات بشكل عام، من المأمول أن توفر فرصة أخرى مزيدًا من التسلية والمعلومات. سأكتفي الآن بالإشارة، (لأن هذا أمر لافت للنظر)، إلى أنه لا يوجد محامون في البلاد: لكنها موبوءة بالكهنة بشكل فظيع. بالمناسبة: هذا يقودني إلى موضوع ديني عام. لقد اتخذت ذات مرة قرارًا بعدم مجادلة أي شخص في الأمور الدينية. كان القرار جيدًا؛ ولدي سبب للندم على أنني حِدت عنه في أي حال من الأحوال. أجدده هنا. الدين دليل ضروري لأفعال الإنسان، مرساة للأمل، ملجأ أخير من شرور هذه الحياة الخادعة؛ والإنسانية والأخلاق الحميدة تمنعان محاولة حرمان كائن بشري حائر من ملاذ مضياف كهذا، بغض النظر عن الشكل الذي تصوره فيه الرؤية.

ربما قليلون هم بين جموع الناس الهائلة، الذين يخلون من المبادئ الدينية، والذين لديهم فلسفة أو عزيمة، لمقاومة الإغراءات التي تنقلها أحاسيس كل يوم إلى العقل: ومن هنا فإن معظم الناس، الذين ليس لديهم احترام مقدس لدين من نوع ما، هم فاسقون في أخلاقهم؛ وأولئك، الذين يتظاهرون بالسخرية منه، هم منغمسون في كل رذيلة تدعو إليها الحواس

والتي يمكن للظلام أن يخفيها عن بصيرة العدالة.

كنت يومًا ما مسيحيًا، وأؤمن بالمعجزات: أصبحت ربوبيًا بسبب السخف الذي أُدخل إلى ذلك النظام من خلال نفاق، وتعصب، وجهل الكهنوت: وأنا الآن مسيحي مرة أخرى، من منطلق الاقتناع ببساطة وامتياز أخلاقه، واستقلاليته الرجولية، وأمله الخالد. لدي أيضًا أسباب سياسية. في بلد تسود فيه المسيحية، يجب على كل وطني نزيه أن يكون مسيحيًا، لمنع الشر الذي يستطيع المنافقون والأوغاد، السياسيون والإلهيون على حد سواء، ارتكابه تحت ستار المسيحية.

الجمهور العام من البشر يتأثر دائمًا بدرجة أو بأخرى بذلك الإيمان الأعمى الذي هم على استعداد لتمريره على أنه دين، والذي، ربما، هم يعتقدون أنه كذلك بسبب الجهل، أو التعصب، أو النفاق، وليس بسبب الحكمة: وبغض النظر عن شكل الإيمان الذي قد يدفعهم حماسهم أو نزوتهم إلى الميل إليه، فإنهم يقدمون له الولاء في رؤسائهم.

حجة إضافية هي أن كل رجل صالح ومحب لبلده، يدين لبلده بواجب الامتثال لدينه إلى حد كبير بحيث لا يفقد نفوذه، حتى لو ضحى من أجل الجهل: لأن توازن النفوذ يجب أن يظل دائمًا في أيدي الرجال النزيهين، وهذا يميل إلى تأمينه. إذا وجد منافق متآمر ضرورة لتدمير نفوذ رجل نزيه، يخشى نزاهته، فلا يمكنه فعل ذلك بفعالية أكبر من اتهامه بالكفر.

يبدو أنه مبدأ مرتبط بجبن الذنب وخطأ الجهل، وهو الاقتراب من قاضيه من خلال كائن وسيط. كل التجارب تثبت هذه الحقيقة: وقد اختلفت جميع عصور البشر في هذا المبدأ فقط، في الكائن الذي اختاروه للوسيط. البعض اختار ثورًا والبعض جثة؛ والبعض اعتبر الشمس والنجوم ممثلة لله، والبعض اعتبر الزوبعة والعاصفة. ولكن مهما كان، إذا لم يكن هناك احتيال سياسي أو فساد في دستوره، فيجب أن يحظى بتأييد الرجال الصالحين إلى حد يضمن للمجتمع فائدة نفوذهم: وأعتقد أن الله سيغفر الوثنية من أجل الإنسانية.

المسيحية بلا شك هي أنقى وأبسط ديانة مخلوقة، تم تقديمها حتى الآن من قبل الإنسان. أقول مخلوقة، لأن الحقائق وبالتالي الدين الحقيقي، لا بد

أنها كانت أقدم من وجود الله: لا بد أنها حكمته في الخلق، ولم يخلقها هو: أو هي بالأحرى فريدة من نوعها.

لا أجد سببًا سياسيًا في هذا البلد لأصبح مسلمًا: لكنني سأكون مسيحيًا إذا عدت يومًا إلى براري وطني العزيزة. ستعترض على نظامي لأنه يؤيد النفاق.—موافق: ولكن أليس نفاقًا راقيًا ذاك الذي سيتحكم في نفاق من النوع الأبشع، لخدمة البشرية؟ لقد أطلت في هذا الموضوع كثيرًا بما يتجاوز نواياي وحدود التواضع؛ لكن آمل أن تصدق أنني لا أسعى إلى أهمية إرشادية: أنا أقدم أفكاري غير المهضومة لنقدك، أو تصحيحك، أو تعاطفك.

لقد قلت في رسالتي إلى السيدة إيتون، التي ترافق هذه، إن بيوت تونس منخفضة. بيوت القناصل استثناءات. هذه من ثلاثة إلى أربعة طوابق، كبيرة ومبنية جيدًا. البيت الأمريكي هو الأكبر في المدينة والأجمل بكثير. يتكون من أربعة طوابق من المخزن؛ مائة وعشرون قدمًا في خمسين؛ مبني من الحجر والجير، ومُشطب جيدًا، على الطراز الأوروبي: لكن ليس به مدخنة أو موقد، إلا في المطبخ. به إحدى وعشرون غرفة وخزانة في طابق.

الطابق الثاني، ثمانية منها كبيرة، والأخرى مريحة وضرورية. تتكون عائلتي من شاب من بالتيمور، طبيب وفيلسوف، وافق على البقاء معي لمدة عامين؛ ومترجم وثلاثة خدم. يسود بيننا الصمت والوحدة: من الصباح حتى منتصف الليل لا يوجد ما يقطع الدراسة والتأمل العقلي، لأنه ليس لدينا امرأة في المنزل.

لم يمضِ سوى بضعة أيام منذ أن انتهيت من عمل مفاوضاتي مع الباي والديوان: في غضون أيام قليلة أخرى سأغلق رسائلي. بعد ذلك أعد نفسي بالكثير من الرضا في التجول بين أطلال المدن القديمة في هذه المنطقة.

ويليام إيتون.

مقتطفات، إلى أوبراين.

20 يوليو 1799.

تناول طبيب الباي العشاء معي اليوم، وأخبرني بسرية أن الأيالة تفكر في إعلان الحرب على إسبانيا؛ وتنتظر فقط عودة سفينتين تجاريتين، كانتا قد ذهبتا إلى هناك. فليسرع هذا الإجراء سيمنحنا راحة. يا للأسف، أن

الإيطاليين لم يكونوا مدرجين في الشخصيات الدرامية. مسلمون، كاثوليك، قتلة، لصوص، متسولون، قوادون. باسم السماء، فليأكل بعضهم بعضًا. العالم مبتلى بفظائعهم. أتمنى لو استطعت أن أرعد بصوت مثل جوبيتر: لكنت أطلقت صواعق كهربائية، قادرة على كل شيء بينهم، أكثف من نجوم السماء؛ وأكثر اضطرابًا من أحلام الذنب؛ مسننة بغضب أزرق، رهيبة كالجحيم؛ وفي متاهة واحدة مختلطة من الانتقام المعدي، أصليهم: ثم أسكن ساحل البحر المتوسط بجنس جديد من الرجال، على بناء من عندي، لا يعانون أبدًا من الشهوة، ولا الجشع، ولا المغص.

يؤسفني أن طلب «بوكريس الأنثى» غير مقبول، مع أنني أميل كثيرًا لخدمتهما. لكن، لقد وظفت بالفعل «صنصال أسود» من بين المشتتين، يخدمني كترجمان، وسيط، وخادم، وسائس، وغاسل أطباق، وغاسل زجاجات، ومساعد شخصي، وطبيب: ولد في جبل طارق، حر من لندن، مدان من أيرلندا، عمدة من هولندا: تم ختانه في البربر؛ كان جاسوسًا للشيطان بين الرسل في عيد العنصرة، ولديه موهبة الألسن: سافر في كل أوروبا، وسوف يُشنق بلا شك في أمريكا، لأنني أنوي أن آخذه إلى هناك. إنه أكثر الأوغاد فائدة في العالم. يترجم، ويتاجر، ويركض، ويمسك حصانًا، وينظف، ويصنع البنش، ويتآمر، ويقاتل، ويصف لي الدواء، مقابل مبلغ معتدل قدره خمسة دولارات شهرياً، والمكسب الجانبي المتمثل في سرقة كل ما أستطيع أن أفقده. يؤسفني أنني لا أستطيع أن ألبي طلب السيدتين.

إلى الأونرابل س. ليمان، المحترم. سبرينغفيلد.

4 أبريل 1799.

عقل اعتاد، في بلد مثل بلدنا، على الاستمتاع بالسعادة الهادئة والرجولية المتمثلة في التأمل، في كل نقطة، في إخوانه من البشر وهم يتمتعون بالكامل بحقوق متساوية وحماية متساوية، لا بد أن يصل هنا تقريبًا إلى حد الجنون عند رؤية أقصى درجات الوقاحة التي لا تطاق وأبشع أشكال الخنوع التي تظهر في كل مكان.

يبدو أن العمى خاص بهذا البلد. الشوارع مزدحمة بالمتسولين المكفوفين، يجلسون ملفوفين ببطانيات بائسة، يطلبون الصدقة حبًا بمحمد. أعتقد

أنني مررت بمئة من هؤلاء البائسين في مسيرة نصف ميل. أعتقد أن هذا المرض يمكن أن يُعزى إلى التأثير المنشط لدخان التبغ، الذي يتم تناوله باستمرار بين الرجال، دون استخدام كافٍ للطعام الحيواني لاستعادة السوائل التي تتبدد بفعل هذا المنشط غير الطبيعي. استخدام التبغ بأي شكل من الأشكال أعتقد أنه ضار بالجهاز البشري. لقد علمتني التجربة أنه كذلك بالنسبة لعادات مثل عاداتي؛ وقد أقنعتني الملاحظة أنه كذلك لجميع العادات. ومع ذلك، يبدو أنه يسحر نصف عالم البشر: ولكن في أي مكان لا يكون الرجال مدمنين على التبغ كما هو الحال في dominions التركية. من غير المألوف أن تقابل تركيًا هنا بدون غليون كما هو الحال أن تقابل شابًا في مدننا العصرية في أمريكا بدون سيجار.

إلى جورج هوف، المحترم.

18 سبتمبر 1799.

كان هناك وقت، يا صديقي هوف، ضحكنا فيه أنت وأنا ساعة بسعادة كما يستطيع الفقراء. لكن ليس بعد الآن؛ ومع ذلك، فإن هذه سمة من سمات الماضي، التي كثيراً ما أتشبث بها، وفي نوع من المتعة الاسترجاعية أكررها مراراً وتكراراً، لملء فراغ الحاضر.

يوفر مكان منفاي هذا الكثير من المواد للتأمل، ولكن القليل جداً من المتعة؛ لذلك، من بين أطلال الملذات الماضية، يتراجع عقلي للحصول على قوته: قليل من الفترات توفر أكثر من فترة تعارفنا المبكر.

هذا البلد جميل حقاً وينتج بطبيعته كل ما يمكن أن تنتجه أي تربة أو مناخ على وجه الأرض؛ لكنه يُزرع بشكل سيء؛ لأن الرعايا البائسين الذين يتربعون على سطحه لديهم حق غير مؤكد في نتاج عملهم، لدرجة أنهم لا يجدون حافزاً للصناعة والمبادرة. لذا، فإن القوت العاري يحد من طموحهم، وحالة القمع المؤكدة قد أدت بهم إلى الكسل والرضا المعتاد. على السطح الشاسع لهذا الساحل الممتد، الخصب والكريم بطبيعته كصدر الشباب، لا يكاد يُرى شيء آخر سوى عائلات متجولة من المور المحروقين بالشمس، بيوتهم الوحيدة هي خيام من شعر الإبل، وممتلكاتهم الوحيدة هي بضع قطعان من الماشية والأغنام، وقليل من الدواجن، وقطعة من الذرة. حفنة

من الزيتون وقطعة خبز تكفيهم لقوتهم اليومي. حصيرة من القصب، توفر فراشهم، ومقعدهم، وطاولتهم: وبطانية من الفانيلا، ملقاة بشكل فضفاض حولهم، كل خزانة ملابسهم. بساطة معيشتهم دليل صارخ على مدى القليل الذي قد يكفي لدعم الحياة؛ وعند مقارنتها بموائد الأثرياء، تثبت أيضاً كم يُلتهم هناك دون شهية ودون بهجة، والذي كان يمكن أن يخفف الضيق ويفرح قلب الحزن.

يبدو أن لديهم ما يكفي وأنهم سعداء. يتمتعون بصحة ممتازة؛ ويعيشون حتى سن متقدمة، ثم يتدهورون تدريجياً، مثل الأشجار القديمة، دون ألم ودون حتى وعي بالانحلال. هؤلاء هم سكان البلاد الأصليون.

الأتراك هم فئة مختلفة تماماً من الرجال. وكذلك سكان مدنهم وبلداتهم المسورة. مدينة تونس يسكنها قطيع أسمر من الحيوانات. هنا داخل محيط يبلغ حوالي سبعة أميال، يُحشر ثلاثمائة ألف نسمة في خلايا تحت الأرض، يهود ومور وإيطاليون وأتراك، مثل الخلدان والخفافيش والأفاعي والذئاب. البيوت منخفضة بشكل عام، مبنية من الطوب أو الطين؛ والجدران متجاورة، لا تسمح بدخول الضوء إلا من خلال فتحة في الأعلى؛ والشوارع الضيقة مليئة بنفايات ألفين أو ثلاثة آلاف عام، لدرجة أن النزول إلى الباب في كثير منها يتراوح من قدم إلى قدمين أو ثلاث أقدام. لدى الطبقة الوسطى والفقيرة شقة واحدة فقط، مستطيلة مقوسة، يبلغ طولها حوالي خمسة عشر قدماً وعرضها من عشرة إلى اثني عشر قدماً. لدى الطبقة الأفضل بيوت مربعة، مع مساحة مفتوحة في الوسط، على كل جانب منها غرفة بها شقق ضرورية. هنا وهناك ترتفع، بين هذه الأوكار، مبانٍ حجرية واسعة لأتراك أغنياء ووزراء أجانب؛ وأكوام ضخمة من القلاع ومساجد هائلة. أسطح المنازل كلها مسطحة، وفي موسم الأمطار من العام تغطيها النباتات، والتي، عند رؤيتها من شرفة البيت الأمريكي، الذي يرتفع ثلاثة طوابق فوق المنازل العادية، تقدم مظهرًا غريبًا للغاية. من العدد الكبير من الأنفس، الذين يسكنون هذه المساحة الصغيرة، نصفهم، النساء، لا يخرجن أبداً إلا مرة واحدة طوال حياتهن، خارج أسوار سجونهن البائسة؛ وعندها فقط ليتم نقلهن إلى سجن له بلا شك جاذبية أكبر ولكن رقابة أشد، منزل

الزوج؛ ولا يخرجن أبداً خارج أسوار المدينة. أضف إلى هذا، ثلث العدد الإجمالي، الحرفيون، الذين لا يبتعدون أبداً طوال حياتهم ثلاثة فراسخ عن مكان ولادتهم. هنا إذن مائتان وخمسون ألف حيوان، في شكل بشر، ينبتون ويجلسون في نفس الحفرة. والعدد القليل الذي يغامر بالخروج يقتصر سفره على القرصنة والتجارة والرحلات، داخل حدود البحر الأبيض المتوسط، أو إلى الدورة نصف السنوية للمخيم، لجمع الأعشار من السكان الأصليين الفقراء.

ليس لديهم كتب سوى القرآن، الذي لا يستطيع واحد من كل مائة قراءته، وبالتالي لا يوجد لديهم نور سوى النور الإلهي، الذي تعلمنا كل تجربة، أنه عندما يُسمح به مع استبعاد نور الحس السليم، فإنه يقود الرجال إلى ظلام دامس. من هذه المقدمات، ستستنتج أن الخرافة والتعصب لهما أشد نمو هنا. لا-هما أشد في إيطاليا وإسبانيا، لأن المتكهنين في الإلهيات لديهم نفوذ أكبر هناك؛ لكن هنا هما شديدان. في الشفق، (هذا وقت الصلاة) عندما يلقي اليوم المنصرم والوحدة نوعاً من الجلال على العقل، كثيراً ما أمشي على سطح منزلي وأرى العالم الحيواني في الأسفل. أرى في نفس اللحظة مئات الأنفس على شرفاتهم يسجدون عند ضريح إلههم الحامي، بينما يُسمع في الخلايا أدناه والمساجد صخب الصلاة المستمرة. بوجوههم نحو مكة، يركعون، يصلون؛ يسقطون ساجدين على الأرض ويقبلون التراب. يستمرون طويلاً في هذه العبادات. بتشوهات حزينة في الملامح، وأرواح مضطربة بالحماس المقدس، وقلوب ممتلئة دينياً بالكراهية تجاه الكلاب الكافرة الذين لم يعمهم نورهم، يباركون الله لأنهم ولدوا تحت تأثير الدين الحقيقي، ولم يُتركوا ليهلكوا تحت الوهم المسيحي.

ألف فكرة، أسرع مما أستطيع هضمها، تتدفق على عقلي في هذه المناسبات الجليلة: وسواء من الشفقة أو من التعاطف لا أدري، تنضم روحي إلى سيل الصلاة. «يا مصدر الوجود والكمال الذي لا يُدرك؛ هل يمكن أن تكون هذه العبادات من مخلوقاتك، الواعية بتبعيتها، مهما كانت جاهلة ومظلمة، ومهما كانت خاطئة، أن تكون أقل قبولاً لديك من رائحة الأرواح الأكثر رقياً، المقدمة ببساطة أقل وغرور متساوٍ؟ أم أنك تتأثر مثل طائفي

وتتأثر بطقس؟ ألا أتصورك في هذه اللحظة مخاطباً من خلال مليون قناة مختلفة؛ ألا يمكن أن توجه جميعها مسارها إلى محيط رحمتك الشاسع؟» ولكن هذه استفسارات انفعالية مقدسة جداً بحيث لا يمكن شرحها للإنسان الطبيعي: لذلك أتركها لحل أولئك الوزراء المميزين للنور الذين اخترقوا أسرار الله، وأتابع ملاحظاتي كعلماني، فقط ألتمس السماح لي بإنهاء فترة صلاتي بـ:

«لا تدع هذه اليد الضعيفة، الجاهلة
تجرؤ على إلقاء صواعقك؛
ولا توزع اللعنة في الأرض
على كل من أحكم بأنه عدوك.»

قلت إنهم يصلون ووجوههم شطر مكة. هل يمكنك أن تصدق أن الأكثر استنارة من هؤلاء «المفضلين لدى السماء» دقيقون جداً في هذه النقطة، لدرجة أنهم يضبطون اتجاههم باستخدام البوصلة؟ هذا صحيح؛ وقبر مخلصنا (في القدس) ينحرف عن هذا الاتجاه بمقدار ثماني عشرة درجة فقط عن قبر محمد، وهو فارق لا تدركه العين المجردة.

فإذا حدث، نتيجة حادث أو جهل، أن وجه مسلم أنفه نحو القدس في هذه المناسبات، فقد تدفع الغيرة «النبي» إلى اعتبار ذلك خرقاً لحسن النية، ومجاملة موجهة لمنافسه، وإهانة لكرامته؛ مما يثير غضب «أبي الآلهة والرجال» ليمطر سخطه على صاحب هذا الخطأ التعيس. وفي إيطاليا، سيصب هذا الإله ذاته غضباً مماثلاً على «الوغد الكافر» الذي يقدم مجاملة لذكرى محمد على حساب المسيح الحقيقي.

يا أيها الإنسان، يا مثال التناقض العقلاني! كم يجب أن تكون ممتناً لأبيك المشترك (الخالق)؛ لأنه يشفق على ضعفك، ويتحمل سخافاتك، ويغفر كبرياءك، ويكف عنك صواعق انتقامه التي كنتم ستدمرون بها بعضكم بعضاً، وتلعنون بها الجنس البشري بأكمله!

إن الجهل، والخرافات، والتقاليد، والطغيان المدني والديني، التي تكبل العقل البشري هنا، تستبعد كل أنواع التطوير؛ وبالتالي، فإن نفس العادات والتقاليد والأخلاق التي سادت في الشرق قبل ثلاثة آلاف عام لا تزال قائمة هنا، فكل شيء يُؤدى بأكبر قدر ممكن من السوء. والأتراك هم أسياد البلاد:

فهم يشكلون الحكومة والجيش النظامي، وعلى الرغم من أنهم يمثلون نسبة صغيرة جداً من إجمالي السكان، فإن كل شيء يخضع لراحتهم ومتعتهم، لذا فهم متغطرسون ومستبدون ووقحون، وغير مكترثين بالحقوق الإنسانية ولا يتأثرون بالبؤس البشري. وهم يعيشون بشكل عام على النهب؛ إما بشكل غير مباشر من سكان البلاد الأصليين، أو بشكل مباشر من القوى المسيحية الضعيفة في البحر الأبيض المتوسط التي يكونون في حالة حرب دائمة مع إحداها لهذا الغرض وحده. وتستمد الحكومة دعمها من ذات المصادر؛ ولخزي المسيحية والإنسانية، فقد أُسس هذا النظام لدرجة أن أوروبا وأمريكا تتعهدان بضمانه بموجب اتفاقيات ومعاهدات. إن المبدأ العام لهذه الولايات البربرية واحد؛ فلدى الجزائر سبعة ملوك أوروبيين وجمهوريتان، بالإضافة إلى الولايات المتحدة، يخضعون جميعاً لجزية مباشرة أو غير مباشرة، ومع ذلك، أعتبر الجزائر بعيدة كل البعد عن أن تكون منيعة أمام أضعف تلك القوى، وتونس ليست أقل غطرسة وإن كانت أقل قوة بكثير. وما الذي قد يؤدي إلى هذا الخضوع؟ إنها السياسة المتذللة للدول الشمالية في أوروبا المبنية على التنافس التجاري، والمتمثلة في دفع أموال لهؤلاء القراصنة لإثارة العقبات لبعضهم البعض، والضعف الجبان الذي أوهن إسبانيا وإيطاليا وجزرهما منذ فترة طويلة وزرع فيهما روح الخضوع الذليل. وما الذي دفع أمريكا إلى هذا الإجراء؟

إنها الغيرة من حكومتهم والسذاجة التي لا أساس لها في التدخل الأجنبي؛ فلو أن حكومة الولايات المتحدة ثابرت على قرارها الأول بإظهار القوة في هذا البحر، لكنا قد فرضنا شروطنا الخاصة، ولكن لتوفير نفقات التسلح أنفقنا من النقد في المفاوضات ما يعادل تكلفة تجهيزه، فأورثنا أنفسنا وذريتنا دفع جزية تصل سنوياً مع الشحن والتأمين إلى أربعين ألف دولار، وحصلنا من هذه الولايات على سلام غير مستقر. وأقول «غير مستقر» لأن التجارب تعلمنا أنه لا يمكن أن يكون هناك سلام دائم بين الدول لا تضمنه المصالح المتبادلة أو القوة المتساوية، أطول من الفترة التي تُدفع فيها للقوة المهيمنة مبالغ تعادل المزايا المحتملة لخرق السلام. وستختلق هذه الولايات ذرائع لتراكم مطالبها علينا طالما بقيت لنا تجارة تستحق هذه التضحيات لجشعهم، وطالما بقينا في

وضع لا يمكننا فيه منح أي حماية أكثر فعالية؛ إذن، ليس أمامنا إلا خياران:

إما التنازل غير المشروط لمطالبهم، أو تغيير نظرتهم إلينا من خلال إظهار القوة هنا، ولا بديل آخر. إنه في الواقع حساب خاطئ أن نسعى لتوفير نفقات الحماية عبر دفع مبالغ لعصابة من اللصوص الجريئين الذين لا يشبع نهمهم للنهب كالموت، ناهيك عن الإهانة الوطنية المصاحبة لذلك. إذن، يمكن لمواطنيَّ إما أن يفتحوا محافظهم لشراء عطر الورد لتعطير لحى المسلمين، أو يفتحوا فوهات مدافعهم لحماية أموالهم واستعادة سمعتهم. ومن ناحيتي، يزعجني الأمر بشدة حين أرى تركياً كسولاً مستلقياً في راحة على أريكة مطرزة، ومعه عبد مسيحي ليهش عنه الذباب، وآخر ليقدم له قهوته، وثالث ليمسك غليونه؛ وعندما أفكر في أن عرق مواطنيَّ يساهم في توفير هذه الرفاهية له. والأكثر إزعاجاً هو إدراك أن التركي يعتقد أن له الحق في المطالبة بهذه المساهمة، وأننا -مثل الإيطاليين- لا نملك الشجاعة لمقاومتها. إن إنجلترا حالياً هي الدولة الوحيدة في أوروبا التي تحظى باحترام هذه الولايات، لأن «أسد إنجلترا» يظهر لهم أنيابه، بينما تتظاهر الجزائر بالصداقة للولايات المتحدة كما تقع «قوادة عجوز» في حب شاب بعنف؛ لقد أمسكت بخيوط محفظته وهي مصممة على سرقته. ومن الإنصاف القول إن تونس لديها أمير حكيم ومحبوب، لكنه لا يحمل تصوراً كافياً عن أهمية الولايات المتحدة، ولا يمكنه التمييز بين مسيحيي البحر المتوسط ومسيحيي ما وراء الأطلسي؛ فحين أتحدث معه عن قوة واستقلال بلدي يبتسم بسخرية، وآمل أن يتعلم التفكير فينا بشكل أكثر عدلاً.

لو دخلت في تفاصيل الإهانات والاعتداءات والهمجية التي يمارسها هؤلاء القراصنة كل يوم على جيرانهم المسيحيين الأذلاء، لدهشت. من الشائع بينهم أن يأخذوا القادة والبحارة من السفن التجارية في موانئهم، ويجلدوهم بلا رحمة لرفضهم أي شيء يطلب منهم مهما كان تافهاً أو مبالغاً فيه. أعتقد أن رؤية أمريكي يُعامل بهذه الطريقة ستجعلني أتعرق. ومع ذلك، إذا وُجدوا هنا، فهم معرضون لذلك في ظل الظروف الحالية مثل أي مسيحيين آخرين.

لا أستطيع تحديد فترة محتملة لعزلتي عن المجتمع والسعادة. من فضلك اذكرني بلطف لسيدتك؛ وصدقني، يا سيدي العزيز، أنني مخلص

وصادق كما كنت دائماً،

صديقك وخادمك المتواضع،

ويليام إيتون.

مقتطف: إلى السيد بيكرينغ، (خاص)

[حول ملاحظات التحسين الزراعي]

من خلال تشابه التربة والمناخ بين هذا البلد وبعض أجزاء من الولايات المتحدة، يمكن الافتراض بأن الأشجار التالية والمختارة يمكن زراعتها بنجاح في بلدنا.

النخيل: يبحث عن طبقة عميقة وحارة من الرمل، وينمو حيث لا يُرى أي نبات آخر. ستكون غابات الصنوبر في جورجيا ملائمة بشكل خاص لهذه الشجرة. يُنتج من البذرة؛ وهو بطيء النمو، ولكنه متين جداً، ويشبه إلى حد كبير في مظهره شجرة الملفوف. الثمرة مغذية جداً؛ فكثير من الناس على حدود الصحراء يعيشون عليها بشكل شبه كامل، وتُستخدم كحلوى على العديد من الموائد. أرسل بعض البذور مع السيد شو؛ وأتمنى أن تُجرى تجربة بها عن طريق وضعها في أيدي رجل «جورجي»، يوسع أفكاره في التحسين الزراعي لتشمل منح يازو، ومائة عام في المستقبل. تتطلب الشجرة الري في المواسم الحارة.

التين: يزدهر أيضاً في التربة الرملية، ويتطلب رطوبة أقل من النخيل. ينمو التين البري بشكل عفوي على جزر سواحل جورجيا؛ وهو دليل كافٍ على أن التين الحقيقي يمكن زراعته هناك. إذا أمكن تطعيم الغصن، أنوي تجربة إدخاله إلى أمريكا. الخصائص الصحية لهذه الفاكهة معروفة للجميع، وعندما تكون خضراء، وكذلك جافة، تشكل حلوى لطيفة.

الزيتون: يتطلب تربة متماسكة؛ لكن حقيقة أن سهول هذا البلد خضراء بها، في حين لم تسقط قطرة مطر لأكثر من خمسة عشر أسبوعاً، تثبت أن الشجرة يمكن أن تعيش برطوبة قليلة جداً. من المرجح أن تكون التربة المارلية في أوهايو والميسيسيبي، والقيعان الطينية في الولايات الجنوبية، مواتية لزراعة الزيتون. إنه يُنتج من الغصن، وهو بطيء النمو، ولكنه يعيش لعمر مذهل. نرى هنا بساتين زيتون يبدو من أطلال الأسوار التي كانت تحيط

بها أنها زُرعت من قبل الأوروبيين، وما زالت مثمرة. لا حاجة لأن يقال أي شيء عن نتاج هذه الشجرة، سواء فيما يتعلق بقوت الحياة أو كمصدر للثروة. أفكر في محاولة إدخال هذه الشجرة أيضاً إلى أمريكا إذا ساهمت الظروف في إنجاح المشروع. لا أعرف ما إذا كان المشروع قد تم تجربته، ومهما كانت نتيجة ذلك، فإن توقع أن الأجيال القادمة قد ترى مصادر للحياة والثروة تغطي الأراضي الرملية والطينية الشاسعة في بلدنا، والتي تقدم الآن سطحاً محبطاً، هو موضوع ممتع للتأمل.

إلى السيدة إيتون

تونس، 18 أبريل 1800.

أنا في هذه اللحظة مشغول جداً بالأعمال، حيث لدي سفينتان يتم تحميلهما لأوروبا، ولدي اتصالات يجب أن أجريها مع الحكومة حول النتيجة النهائية لجهودي في العام الماضي. كل شيء على ما يرام معي، سواء على الصعيد العام أو الشخصي. لقد تلقيت الموافقة الكاملة من الرئيس على الطريقة التي أدرت بها شؤون الولايات المتحدة في لحظة حرجة للغاية؛ وعبارات الصداقة الدافئة من السيد بيكرينغ في رسالة خاصة منه حول هذا الموضوع. لا ينبغي أن أذكر هذه الأمور، لكنني أفترض أن الرجل قد يكون عائلياً قليلاً مع زوجته دون أن يُتهم بالغرور. بالإضافة إلى ذلك، أعرف أنك تشعرين بكل ما يمسني. آفاقي التجارية واعدة حقاً؛ وصحتي، الحمد لله، لم تكن أفضل من أي وقت مضى. لقد بكيتِ من أجلي يا إليزا؛ سيسمح لنا الله بأن نفرح معاً. أنا مقتنع أكثر فأكثر بأن هناك قوة عليا، كائن من العدالة، يهتم بالشؤون البشرية، ويجعل جهود الرجل المستقيم تزدهر.

إلى السيد بيكرينغ. (خاص)

تونس، 15 مايو 1800.

قرأت رسالتك الودية بتاريخ 17 يناير، بارتياح لا نهائي وتقدير مناسب للمرونة. وأنا لا أقل حساسية تجاه الشرف الذي نلته بموافقة الرئيس التي تفضل بمنحها لسلوكي هنا.

أنا سعيد لأن التقدير الذي استخدمته في سحب بدل تجهيز لم يثر اللوم. الوضع الذي وجدت نفسي فيه عند وصولي إلى هنا جعل مثل هذا الحل ضرورياً. لم أتبناه إلا بتردد، لعدم ثقتي في أن استنتاجاتي من تعليقاتك ستُقبل؛ مع علمي، مع ذلك، أنه إذا لم يُسمح به في النهاية، فيمكن وضعه في حساب ديوني على حساب الراتب. قد لا يكون من غير المناسب أن أشير هنا، إلى ما لا أرغب في أن يظهر في اتصالاتي الرسمية، ما لم يُطرح سؤال حول هذا الموضوع، وهو أن الراتب المحدد للقنصل البريطاني هو 800 جنيه إسترليني سنوياً، وعائدات المنصب، في العام الماضي، ما يقرب من 1200 جنيه إسترليني. وراتب القنصل الهولندي، الذي هو قائم بأعمال الإمبراطور وجمهورية راغوزا، حوالي 3000 دولار؛ وعائدات المنصب أكثر من ثلاثة أضعاف هذا المبلغ في العام الماضي، حيث كانت راغوزا الناقل الرئيسي لتونس؛ وكان القنصل يتلقى خمسة بالمائة من أجرة شحن سفنهم (القنصل البريطاني يأخذ أيضاً خمسة بالمائة)، وراتب القنصل الدنماركي حوالي 3000 دولار، والقنصل الإسباني 4000 دولار وجميع النفقات تتحملها الحكومة، حتى خزانة ملابسه، والسويدي حوالي 3000 دولار.

من تقدير لنفقات مائدتي في العام الماضي، أجد أن مبلغها 2,970 دولاراً و48 سنتاً، باستثناء الملابس، ورعاية الخيول، ورواتب الخدم. ومع ذلك، كان منزلي في العام الماضي بمثابة نزل للمسافرين. كل من كان له أذن لدى الباي، سواء كان مسيحياً (باستثناء فامين) أو مسلماً (الأخير ليس لديه أي وازع من شرب كأس من النبيذ تحت علم مسيحي) كانوا «أصدقائي الطيبين». بهذا المبلغ كان يمكن إعالة عائلة. المؤن السوقية أغلى بكثير هنا منها في الجزائر؛ لنقل بنسبة 33 3/1 بالمائة. ألا يجب أن يكون الراتب متناسباً؟ بيوت القناصل أكثر أناقة بكثير؛ فإذا كان الأمريكي فريداً في موارده، فلن يُقبل هذا كعذر كافٍ لكونه كذلك في نفقاته. ساعدني بدل التجهيز؛ أما فائض تأثيث المنزل وما جلبته من نقد، فقد استثمرته سراً في التجارة مع رجل إنجليزي، وقد نجح الأمر بما يفوق حساباتي. كنت مضطراً لفعل ذلك أو الوقوع في الدين.

إلى السيد بينشون

تونس، 23 مارس 1800.

لم تكن نيتي أن أكتب إليك بهذه الفرصة، لأن رأسي الفارغ لم يكن ليستطيع أن يؤلف شيئاً يستحق قراءتك. ولكن، أثناء البحث هذا الصباح، بين جوازات السفر القديمة، وشهادات الصحة، وقوائم الشحن، والاحتجاجات، والرسائل القديمة، وفوضى المخطوطات الخاصة بي، وجدتُ في حالة مشوهة أصل القصاصة المرفقة. إنها هذيان حدث في لحظة سماع نبأ وفاة أفضل وأعظم رجل عادي مات على الإطلاق (يقصد جورج واشنطن). عند مراجعتها، أعجبتني؛ ليس لأنها شعرية أو أنيقة، ولكن لأنها تعبير قوي عن الانطباع الذي أحدثه الخبر في ذهني. أرسلها إليك ليتم طباعتها، تحت إشرافك، في زاوية مهملة من إحدى الصحف. إنها تشوبها القليل من الوثنية، ولكن ليس فيها أدنى أثر للإلحاد أو الديمقراطية.

استقبال واشنطن في الإليزيوم

كان صباحاً بهيجاً عندما أعلن جوبيتر العظيم: «واشنطن المجيد يصل اليوم.» ألف شمس، لتزيين قبة السماء، أُشعلت لتلمع في هذه المناسبة؛ ونجوم تلألأت من خلال أشعة النهار، صُفت لتضيف بريقاً إلى العظمة.

زورق مصنوع من ألواح البلوط، يجدف فيه ثمانية من أرواح الأبطال: نصفهم قدماء ونصفهم حديثون: داود، محارب إسرائيل الملكي؛ قوروش، الفاتح الفارسي؛ ابن فيليب؛ وإمبراطور روما الأول يوليوس قيصر العظيم؛ ألفريد العظيم؛ لويس فخر فرنسا؛ بطرس القيصر، وفريدريك بروسيا الخالد؛ ودريك على الدفة؛ حمله عبر نهر ستيكس.

فوسيون وفابيوس، وشارلمان ووارن، وقفوا واستقبلوه على الجانب الآخر وقادوه عبر أفيرنوس. على حقول الإليزيوم الجميلة، مصطفين في صفوف مفتوحة بأسلحة مقدمة، وقف جيش السماء. وعندما اقترب من الميمنة، أُعطيت إشارة، فدوت المدفعية السماوية تحية.

مرة أخرى شوهد مواطنوه المحبوبون، الأبطال الذين نزفوا على سهول كولومبيا الشابة، يتقدمون فرحين في موكب جنرالهم. وعندما اقترب من المدينة، كل بوابة فُتحت على مصراعيها. على الأسوار الشاهقة، السماويون، حشود لا تحصى، حدقوا وهتفوا، بينما دوت جميع بطاريات السماء تحية.

مليون عذراء فوق الأرصفة المذهبة نثرن الغاروالقرفة والزهور العطرية، وأنشدن مرة أخرى: «البطل المنتصر قادم.» ملك الطبيعة العظيم من عرشه اللؤلؤي نهض كريماً، وبكل لطف انحنى قليلاً، نصفه قدم له التحية بينما رحب به، وكل بلاط جوبيتر انحنى باحترام. طوال الليل جلس فرانكلين على سحابة، وعرض أضواءً في جميع أنحاء المملكة. هكذا كان احترام العظماء للخير، وهكذا كانت الفرحة التي ملأت البلاط السماوي عندما تلقى واشنطن تاجاً خالداً.

ولكن، فوق نصف الكرة الغربي من الأرض، كان ذلك اليوم محجوباً بالحزن: حزن حاد لم يُعرف حتى ذلك الحين، ضغط على صدر أمة، ونصف عالم غارق في حزن عظيم. لا تبكي يا كولومبيا (أمريكا)، لأن ابنك وجنديك يرتقي إلى مجد لا يشوبه شائبة، أبدي. هل تريدين أن تحبسي روحاً مثله على الأرض، حيث يسود الجحود الأسود والحسد؟

في نصف قلوب الرجال ربما لا يزال يبقى عبقريتك الحارسة وصديقك. أنا متأكد من أن السماء لا تستطيع أن تمنح هدية، ولا تمنح أوسمة، ولا تضفي كرامة، بنفس القدر من الامتنان كهذا، مكافأة وافية على كل أعماله وفضائله كرجل. وأنا متأكد، لا يوجد منافس في السماء أو على الأرض يمكنه أن ينافسه في المطالبة بهذا التميز والوديعة. لا تبكي يا كولومبيا، واشنطن لا يزال عبقريتك الحارسة، دليلك الخالد.

بربر (تونس)، 12 مارس 1800.

لقد أُعلن عن وفاة البطريرك (يقصد واشنطن) في جميع أنحاء هذه المنطقة، قبل أن تعلن رسالتك ذلك. لقد بكيتم في أمريكا، وكان لديكم سبب لذلك، بل يجب أن يبكي العالم أجمع. لقد فقد الإنسان صديقاً؛ وكرجل وكأمريكي، أشعر بانطباع عميق من الحزن الرجولي. ولكن كمسيحي، ومعجب بهذا الرجل الاستثنائي، يسعدني أنه ارتقى؛ فقد عاش بما يكفي للمجد وبما يكفي للفائدة، ومن القسوة أن نتمنى له البقاء أطول بعيداً عن منزله الأبدي، فنحن مدينون بامتنان لا نهائي للسماء لإعارته لنا كل هذه المدة. لقد ترك لنا الآثار الخالدة لفضيلته، وترك لنا أمثاله، وترك لنا بلداً. وطالما احتفظت أمريكا بعرض واحد من الوطنية، أو الشرف، أو الامتنان، وطالما سادت

الحضارة، فكلما ورد اسم واشنطن، ستشعر فضائل مواطنيه بالتعزيز، ويخجلون من الفساد؛ حتى الفساد نفسه سيشعر بفخر كريم من الشرف المنعكس لكونه ولد في بلد أنجب مثل هذا الابن. سيُصد الخيانة والاحتيال عند فكرة أن روح واشنطن تشهد على دسائسهم. لقد فقدت أمريكا صديقاً وأباً، واكتسبت السماء زينة وابناً.

ملاحظة: لا تنسَ أن ترسل لي سجلاً (تقويماً). ليس الهدف منه معرفة «الأهلة الجديدة والأعياد المعينة» بقدر ما هو معرفة دوائر الدولة، والحرب، والبحرية، وأعضاء الكونغرس، والترقيات، والتخفيضات، وفواتير الوفيات، والمواليد، والزيجات، وإحياء الدين، والحالات الاستثناعية للتحول إلى الفيدرالية، والنكات، والوصفات لعلاج عضة الكلاب المسعورة، والسياسيين المجانين، والأفاعي الجرسية (فكلها عضة واحدة)، ولسعة العقارب، والطاعون، والاكتئاب؛ ومثل هذه الأمور المفيدة والحكيمة الأخرى التي تحتوي عليها «المذكرة الجيبية السنوية للسيد» بشكل عام.

إلى السيد بيكرينغ. (خاص)

تونس، 21 يوليو 1800.

في صباح اليوم التالي لمغادرة القنصل العام لجلالة الملك الدنماركي، جاء قادة السفن الدنماركية، التي كانت قد أُسرت آنذاك، وعددهم ستة، في مجموعة وطلبوا مني فداء سفنهم. كان من المفهوم أنهم يستطيعون فتح اعتماد في ليفورنو. ذهبت بناءً على ذلك إلى الوزير، واقترحت باسمي الخاص شراء السفن الدنماركية. وافق على الاقتراح وعين وكيله. عاينت السفن (ولم تكن قد نُهبت بعد) وقدمت عرضاً، فطلب وقتاً للتفكير. في غضون ذلك، أظهر قادة السفن الدنماركية مخاوف من الخطر في متابعة المشروع. كانت كلمتي قد أُعطيت؛ وكان أملي الوحيد يكمن في رفض عرضي من جانب الحكومة، أو زيادة عرضهم على عرضي. إلا أن الحكومة وافقت على عرضي، فأجبتهم بأنني اعتبرت الأمر منتهياً من جهتي لأنني كنت ثابتاً على عرضي الأول. في اليوم التالي غادرت إلى بنزرت، لكنني لم أكن هناك سوى اثنتي عشرة ساعة حتى وصلت رسالة عاجلة تعبر عن دهشة الحكومة من مغادرتي، لأن وكيلهم قد تلقى أوامر بالموافقة على شروطي. عدت على الفور وأنهيت الصفقة وحددت

طريقة الدفع. أبلغت الآن قادة السفن الدنماركية بالأمر، لكنهم فشلوا تماماً في الوفاء بالتزاماتهم، فوجدت نفسي في حوزتي ست سفن اشتريتها بالدين، وهو وضع غير مرغوب فيه على الإطلاق.

إلى السيدة إيتون

ربما ستكونين قلقة لمعرفة وضع صحتي وشؤوني في كل مناسبة، خاصة أنك ربما سمعتِ أن الطاعون في هذه المدينة. بارتياح أعلن لك أننا لم نعد نشعر بالذعر من ذلك المدمر؛ فقد مرت ستة أيام الآن منذ وقوع أي حادث، ولدينا أمل واعد بأن المرض قد هدأ تماماً. أنا، والحمد لله، بصحة ممتازة، وشؤوني على ما يرام، وآفاقي واعدة. قراراتي بالعودة إلى أمريكا في الربيع المقبل ثابتة.

بما أنني مكلف بشؤون الأمة الدنماركية، فقد افتديت ست سفن أسيرة لقباطنتها؛ لكنهم لعدم قدرتهم على الدفع تخلوا عن السفن لي. إذا لم يصبني حادث غير متوقع، يمكننا أن نعتمد على صفقة هنا بعشرة آلاف دولار بتقدير معتدل، والأعمال تتم على أوسع مبادئ الإنصاف والشرف. لقد اشتريت بالدين من حكومة تونس، ولا يوجد رجل في هذه اللحظة لديه مصداقية أو نفوذ هنا أكثر من القنصل الأمريكي. بعد عام من القلق والنزاع الأكثر إثارة للقلق، يمكنك أن تتخيلي أن عقلي لن يهدأ على الفور، وسأكون حريصاً على تكييف جهودي مع النتيجة؛ لأنه بدون عائق غير متوقع، لا أعرف لماذا لا نستطيع الحفاظ على عربتنا، حتى أحظى بسعادة تسليم مبلغ مشاريعنا لسيدة ذات طابع أكثر استقراراً وثباتاً من «السيدة فورتشن» (ربة الحظ). باختصار، إذا حدث وحققت ثروة جيدة هنا، فأنا على ثقة من أنه لن يقول أي معلق نزيه أنني لم أستحقها.

هل يعرف أي شخص في أمريكا ما سبب إقالة صديقي المحترم، والمحبوب، والمكرم، السيد بيكرينغ؟ من المستحيل، إذا كان هناك أي شيء مستحيل، أن يكون قد أساء التصرف في منصبه. أرجوكِ أخبريني بما تقوله الشائعات حول هذا الموضوع. أنا أرثي لخسارته لمنصبه، لأنني لا أستطيع بدون أسباب قوية أن أصدق أنه استحق ذلك. إذا لم يكن ذلك الرجل مخلصاً وعادلاً، فلن آمل بعد الآن في العثور على رجل نزيه بين جنس الرجال، الذين يقال إن الله قد

طبع عليهم صورته.

إلى السيد بيكرينغ.

لقد كان تخميني في حيرة وأفلس بشأن موضوع إقالتك. لا يمكن أن يكون لشك في التقصير وجود للحظة: لأنه، لو كان هذا صحيحًا، لما أضاع رئيس القضاة لحظة في تبرير نفسه للجمهور من خلال كشف الحقائق. ليس من المستحيل أن تكون مثل هذه التضحية قد اعتُبرت ضرورية لأمن انتخابات وشيكة. يُفترض أن الجنرال مارشال له نفوذ أكبر في الجنوب من سلفه. ومن يستطيع أن يقول إن هذه الرقابة قد لا تكون ضرورية لسلامة الدولة؟ وإذا كان الأمر كذلك «فمن المفيد أن يموت رجل واحد من أجل الشعب؛ وأن لا تهلك الأمة كلها» ولكن مهما كانت مثل هذه الانتخابات ضرورية لأمن الدولة، أخشى أن الإجراء الذي تم اللجوء إليه لتأمينها، سيفشل في تحقيق هدفه. سيبقى أريستيدس أريستيدس؛ ونفس الفئة التي سئمت من سماع تسميته بالعادل، ستحترم في المنفى من كانت تخشاه في المنصب؛ وستكره اليد التي ظلمته؛ لأنه مهما كان الرجال حريصين على دفع أحقادهم وتنفيذ إجراءاتهم بكل الوسائل، لا يسعهم إلا أن يكرهوا أداة الظلم التي تفضلهم. رئيس القضاة، مهما كانت دوافعه مستقيمة، لن يضيف شيئًا إلى مصلحته من المعارضة؛ بينما يخاطر بتنفير مؤيديه بفعل يسمح بالشك في وجود دوافع شريرة بدلاً من الدوافع الوطنية.

إلى السيدة إيتون.

تونس، 6 نوفمبر 1800.

كانت رسالتي الأخيرة بتاريخ 19 أغسطس. ذكرت فيها أنني افتديت ست سفن أسيرة دنماركية. لكنني أعدتها مرة أخرى إلى أصحابها الأصليين. تسألين لماذا؟ لأن هناك متعة في أن تكون كريمًا أكثر من أن تكون غنيًا. كان بإمكاني بلا شك أن أوفر ثمانية أو عشرة آلاف دولار من هذه الصفقة. ولكن، «الإنسان لا يحتاج إلا القليل، ولا يحتاج ذلك القليل طويلاً». لقد كان من دواعي سروري أن أرى ستة وثمانين أسيرًا غير سعيد يركبون هذه السفن ويتجهون نحو بلدهم الأم.

بعد أن سلمت الشؤون الدنماركية إلى أيدي وكيلها المناسب، تلقيت من

الأدميرال، المكلف بلجنة لترتيب الصعوبات القائمة، الرسالة التالية:

على متن فاكتور في ميناء تونس.

28 سبتمبر 1800.

سيدي،

سأكون مقصرًا في واجبي إذا رفضت، قبل مغادرة هذا الميناء، أن أتشرف ويسرني أن أكرر لكم كم أنا ممتن للخدمات التي تفضلتم بتقديمها لملكي وبلدي، سواء في وقت سوء تفاهمنا مع تونس أو في لحظة التفاوض على هدنة؛ في الحالة الأولى من خلال رعاية رعاياه في الأسر هنا بعناية فائقة؛ وفي الثانية من خلال المساعدة بنوركم في الإجراءات اللازمة لتحقيق التسوية المرغوبة. أنا هنا لست سوى لسان حال ملكي، الذي أبلغته بالفعل، بتقاريري الأولى، بما فعلتموه من أجلنا. لم تسمح لي كثرة المواضيع التي قدمت إليه آنذاك بتوسيع هذا الموضوع إلى الحد الذي أتمناه؛ ولكن بالتأكيد لن أفشل في أول فرصة في إنهاء الجزء الممتع الذي بدأته. وأتمنى، يا سيدي، عند عودتي إلى هنا أن أكون مكلفًا بشكل خاص من قبل جلالته لأعطيكم تأكيدات على شعوره بالالتزام. تفضلوا في غضون ذلك، يا سيدي، بقبول التأكيد الخاص بامتناني الشخصي، سواء للتأثير الذي تفضلتم باستخدامه خلال مسار المفاوضات التي كانت نتيجتها السعيدة، وكذلك للتهذيب الكبير الذي أظهرتموه لي وللسادة تحت إمرتي الملحقين بخدمة جلالة الملك الدنماركي.

مع خالص التقدير والاعتبار،

يشرفني أن أكون،

سيدي، خادمكم المتواضع والملزم جدًا،

توقيع كوفود.

إلى السيد ويليام إيتون،

قنصل الولايات المتحدة الأمريكية في تونس.

المقتطف التالي من رسالة من السيد كاثكارت إلى السيد إيتون، يكشف عن سمة غريبة من التعصب والخرافة المحمدية.

طرابلس، 17 فبراير 1800.

بما أن الكابتن «ماهكو» محتجز هنا بسبب الرياح المعاكسة، فهذا

يمنحني فرصة لإبلاغكم ببعض الحالات، لتأكيد رأيكم في شخصية ملكنا. بما أننا لم نحظَ بأي مطر منذ العشرين من أبريل الماضي، باستثناء زخات صغيرة جداً في الثامن من ديسمبر، أصدر الباي في الثاني عشر من هذا الشهر الأمر المضحك التالي: أن يجتمع جميع أولاد المدينة، ويأخذ كل منهم حجراً، ويتوجهوا إلى مقعد القاضي، حيث يقيم العدل بين العامة؛ وهناك يلقون حجراً عليه كعلامة على الكراهية العادلة التي يكنها الباشا لجميع أعمال الظلم؛ وعلى الرغم من أنه لم يستطع إثبات أي شيء ضد القاضي المدني المذكور، فقد اعتقد أنه لا بد أنه ارتكب عدة أعمال من الظلم الفاحش، لأنه لا شيء أقل من ذلك يمكن أن يثير غضب الله العظيم والوحيد إلى درجة تدفعه إلى حجب كرمه عن هذه الباشوية الغنية، المكتظة بالسكان، والقديمة، مسكن المؤمنين ورعب أعدائها. وأمر كذلك بأنه، إذا لم يكن القاضي حاضراً، فعليهم أن يلقوا الحجارة على مقعده؛ وهو ما سيكون كافياً، لأن النبي سيتشفع لهم بفضل نيتهم الحسنة، دون الإصرار على صرامة القاعدة.

الأولاد، إما لجهلهم بالأمر، أو لخباثة، لا أعرف أيهما، توجهوا إلى مقعد فضيلته، ولما لم يجدوه هناك، هدموه، وملأوه بالحجارة، ثم ذهبوا في مجموعة إلى منزله. وكان الخدم قد أُبلغوا بقدومهم، فحصنوا الأبواب حتى لا يتمكنوا من الدخول. ومع ذلك، ملأوا الباب بالحجارة، حتى أصبح غير صالح للاستعمال، ثم انسحبوا دون ابتهاج. حدث هذا في يوم غائم جداً، والريح جنوبية شرقية تقريباً، وهي رياح برية وحارة للغاية، والهواء مشبع بالرمال الصغيرة من الصحراء؛ وكل ذلك يشير إلى عاصفة رعدية ومطر. ومع ذلك، كان النبي هذه المرة لا يرحم؛ إذ تحولت الريح إلى الشمال الغربي وتبع ذلك طقس صافٍ جميل. في الثالث عشر، كانت الريح إلى الجنوب كما كانت من قبل، وكانت الشمس محجوبة بالغيوم والرمال مما يشير إلى المطر. الباشا، مصمماً على الحصول بالعنف على معروف لم يستطعه بالجدارة، أمر الأولاد بتدمير أجهزة الكنيس. كان هذا عيداً لهم؛ إذ ذهبوا في مجموعة مسلحة بالحجارة، فدُمر المصباح ذو الفروع السبعة، وشُق التابوت، وانتهكت الخيمة، وأُلقيت الكتابات المقدسة ومُزقت، وشُق حجاب الهيكل

إلى نصفين، وعاثوا فساداً في قدس مختاري الله.

عندما يجد العامة في أي بلد أنفسهم يمتلكون السلطة، فإنهم عموماً إما يجهلون مدى السلطة المفوضة إليهم، أو يتجاوزون حدودها بتهور. الأولاد، غير مكتفين بإنجازهم في الكنيس، ذهبوا إلى العديد من منازل اليهود، وكسروا منقولاتهم، وألقوا الحجارة على المخلوقات المسكينة التي لم يكن لديها بديل آخر سوى الهروب السريع. طاف «المرابطون» الشوارع والميناء، وألقوا الحجارة على اليهود والمسيحيين، علامة على كراهيتهم وعدائهم لجميع فئات الرجال ما عدا أولئك الذين يعتنقون الدين الإسلامي الحقيقي. أُصيب قبطان إمبراطوري في حاجبه بإحدى هذه الأسلحة المقدسة، وهو المسيحي الوحيد الذي أُصيب جسدياً بهذه الطقوس، لكن مشاعرنا لا بد أنها كانت قاسية لولا أنها شعرت بشكل محسوس بأهوال وضعنا المهين. ألا ترتد الإنسانية، يا سيدي العزيز، أمام الإهانة التي يعاني منها هؤلاء اليهود المساكين باستمرار، ومع ذلك يكتفون في نفس اللحظة التي يتلقونها فيها بتخطيط مخططات سرية للانتقام؛ وهم، أو يبدون، سعداء تماماً عندما يكونون قد (بممارسة الخداع الأكثر إتقاناً، والذي يدرسونه منذ طفولتهم) خدعوا أو استغلوا عدواً لدينهم، مهما كان المكسب تافهاً، فإنهم ينسحبون إلى مساكنهم بمكاسبهم غير المشروعة، ويبتهجون بإنجازٍ ارتكابه لدينا سيُوصم بالعار.

النبي، الذي كان مكتئباً طوال شهر رمضان، ولم يولِ أدنى اعتبار لصيام وصلوات المؤمنين الصالحين، كان الآن مسروراً جداً باضطهاد إخوانه من البشر، لدرجة أنه تشفع بفعالية لدى الله الخالد حتى فُتحت أبواب السماء في الرابع عشر من هذا الشهر، ونزل المطر مدراراً، مصحوباً بالرعد والبرق، واستمر حتى ليلة الخامس عشر، عندما تحولت الريح إلى الشمال الغربي وصفت السماء، ولدينا الآن طقس جميل. يرى اليهود أن مقدساتهم ستلقى مصيراً مشابهاً في كل موسم جاف، وأن هذا سيُستشهد به كسابق عهد.

مقتطفات إلى الجنرال مارشال، وزير الخارجية.

تونس، 2 سبتمبر 1800.

بتضحية ثماني سفن وحمولاتها، و61,440 دولاراً إسبانياً لفداء ستة وثمانين أسيراً، حصل الدنماركيون على هدنة مع وصاية تونس لمدة أربعة

أشهر. تاريخ هذه الحرب التي دامت شهرين بدون دماء سيقدم صورة جديدة بالدنماركيين. فرنسا من ناحية أخرى، بدون تضحية، حصلت على هدنة خلال الحرب مع أوروبا، وإطلاق سراح جميع مواطنيها بدون فدية. من مبادئ الدول البربرية، أن «المسيحيين الذين يرغبون في أن يكونوا على علاقة جيدة معهم يجب أن يقاتلوا جيداً أو يدفعوا جيداً». تشهد فرنسا والدنمارك على هذا المبدأ. السفن الدنماركية الست، المذكورة في بلاغ سابق، التي اشتريتها من هذه الأيالة لأصحابها، أعدتها إلى قباطنتها المعنيين بشرط أن يرد القائد اعتباري ويسدد المصاريف الفعلية.

إلى وزير الخارجية.

تونس، 1 ديسمبر 1800.

كنت في القصر هذا الصباح وأمس. يقول الباي: «ماذا أستنتج من كل تأكيداتك على دقة حكومتك؟» أجبته: سيتفضل سعادتكم بالاعتقاد بأنه عندما تم استلام معلومات عن ترتيباتنا النهائية في الولايات المتحدة، كانت المؤن التي اشترطناها كشرط للسلام معكم تنمو على جبالنا عند منابع أنهارنا. قال الباي: «هل أفترض إذن أن مدافعكم وبارودكم، المدرجة في ذلك الشرط، كانت تنمو على جبالكم؟ لم تواجهوا صعوبة في الوفاء بالتزاماتكم مع الجزائر. هل تظنونني أقل قدرة من الجزائر على إجباركم على الاحترام الدقيق للمعاهدات؟». قلت: بأي حال من الأحوال؛ إذا كنا أكثر اهتماماً بالجزائر منكم، فليس لأننا نعتبركم أقل احتراماً، بل أكثر عدلاً من الجزائر. قال: «يجب أن نضع حداً للمجاملات، سيؤلمني أن أهينكم؛ لكن الحقائق تبرر الاستنتاج بأنكم إذا كنتم تظنونني عادلاً، فإنكم تسعون إلى التلاعب بعدالتي. قد تزودكم الدنمارك بتحذير من مثل هذا الاعتماد». قلت: افترضتُ أنه لا يمكن أن يكون لدى سعادتكم أدنى شك في أن بقية هدايا سلامنا كانت في البحر منذ فترة طويلة، لكن الرياح كانت ضدنا لعدة أيام. قال: «لقد كانت ضدنا لثلاث سنوات». قلت: ستتذكر سعادتكم أنها كانت مواتية جداً في الربيع الماضي. قال: «ليست مواتية كما كنت أُوهَم لأعتقد أنها ستكون». سألت: ماذا يمكن أن نفعل؟ هل نخوض حرباً ضد العناصر؟ أجاب: «يمكنكم اختيار إجراءاتكم، ولا ينبغي أن تتفاجأوا إذا احتفظت

لنفسي بنفس الامتياز». قلت: اسمح لي أن أطلب توضيحاً لهذا التلميح. قال: «الأحداث ستوضحه». لاحظت: إذا كان هذا الأسلوب من المراوغة يغطي تهديداً، فيجب أن أعرفه لكي أحكم في إعطاء جوازات سفر لقراصنتكم. قال: «في هذا، ستستخدمون تقديركم الخاص. إذا أعطيتموها، فهذا دليل على أنكم في سلام معي. وإذا رفضتموها، فليس لدي ما أخشاه بجدية من ذلك».

رد قاطع لم أرد عليه، ولم أستطع أن أستخلص منه شيئاً مباشراً. لا أعرف ما إذا كان يجب أن أطلق إنذاراً أم أستمر في القول إن كل شيء على ما يرام. لكنني أجرؤ على تكرار؛ إذا لم يظهر شيء قريبًا لنجدتي، فسأضطر قريباً، بدلاً من الاتصالات العادية، إلى تقديم تقاريري الشهرية عن العبيد الأمريكيين. وإذا تكبدت الحكومة عناء مراجعة رسائلي، فلا يمكن إلا أن تدرك أن هذا الحدث قد نتج بدرجة أقل عن أي تقصير في اتصالاتي بقدرما نتج عن عدم الاحترام المناسب لها. أدعو السماء لوصول السفينة المنتظرة من نيويورك بسرعة. في غضون ذلك، أنا في حيرة من أمري بشأن مشاريع لإلهاء الأيالة. «سيدي يوسف» صاحب الطابع، رئيس الوزراء الحالي، لديه سفينة أسيرة دنماركية كبيرة تفسد في بورتو فارينا، وقد ظل لفترة طويلة يزعجني لشرائها. لقد قررت الدخول في مفاوضات لهذا الغرض، وإذا تمكنت من الحصول على ائتمان لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر بقيمتها، التي لا يمكن أن تتجاوز أربعة أو خمسة آلاف دولار، فقد يحول ذلك انتباهه عن أهداف أكبر. وإذا تكبدت تضحية في هذه الصفقة، فمن المفترض أن الهدف المهم الذي تهدف لتأمينه سيحث حكومة الولايات المتحدة على تعويضي.

إلى وزير الخارجية.

تونس، 8 ديسمبر 1800.

في الخامس والعشرين من الشهر الماضي، أُلمح لي بوجود سفينة أمريكية في ميناء بورتو فارينا. أرسلت على الفور رسولاً سريعاً للاستفسار، وفي السابع والعشرين تلقيت مذكرة من الكابتن «كوفين» من السفينة «آنا ماريا»، يبلغني فيها أنه قضى عشرة أيام في الميناء دون أن يتمكن من التواصل مع الشاطئ بسبب الطقس السيئ للغاية. في الثلاثين ركبت قارباً مفتوحاً في تونس، ووصلت على متنها في الساعة الثامنة من مساء نفس اليوم. في صباح

الأول من ديسمبر، تشرفت باستلام رسالتكم بتاريخ 30 أغسطس، مرفقاً بها فاتورة وقائمة شحن السفينة. عدت أمس إلى تونس، وتم تفريغ جزء كبير من الحمولة قبل مغادرتي السفينة. جودة المواد معترف بها لتكون جيدة؛ ولكن يُعترض بأن الخشب والمجاديف قصيرة جداً؛ وتتظاهر الحكومة بعدم الرضا لعدم وصول العوارض والمدافع والبارود. أعتقد أن الحقائق هي أن الحكومة غير راضية عن وصول أي شيء على الإطلاق. والولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة التي لديها في هذه اللحظة تجارة غنية وغير محمية في البحر الأبيض المتوسط، وإيالات البربر هم قراصنة.

أنسب لنفسي الفضل في أنني علّقت مرة أخرى على الأقل حملة كانت تُحضّر لنا، لكننا ما زلنا مقصّرين؛ ولستُ بمنأى عن الخوف من أن يتم اللجوء لهذا التقصير كذريعة لمباغتة تجارنا. هذه اعتبارات يجب أن تدفعنا للوفاء بالتزاماتنا. ليس لدي أمل كبير في تخفيض مطالبة الباي بالجواهر، والامتيازات الهائلة التي حصل عليها من إسبانيا والدنمارك وصقلية والسويد قد قللت من شأن شروط سلامنا في عينيه لدرجة أنه يقول إنها تافهة مقابل مزايا التجارة الحرة. تتظاهر هذه الحكومة باحترام شخصي كبير لي وحتى بالصداقة؛ إنها حيلة القتلة. وفي المقابل، أرد على مجاملاتهم بالمثل. ولكن، أكرر مرة أخرى، ما لم تغير حكومتنا طريقة تعاملها مع هذه الإيالات بحيث تكون دقيقة في مواعيدها، فليس لدي أي وسيلة للحفاظ على السلام.

أوبرين إلى إيتون.

الجزائر، 19 أكتوبر 1800.

سيدي، كتبت لكم معلناً وصول سفينة «واشنطن» في 17 سبتمبر. في التاسع من هذا الشهر، كانت السفينة جاهزة للإبحار إلى الولايات المتحدة؛ لكن الداي، في نوبة غضب شديدة، أعلن لي أنه إذا لم تنطلق السفينة المذكورة مع سفيره وهداياه إلى القسطنطينية، فإنه لن يلتزم بصداقته مع الولايات المتحدة. لم يكن لدينا خيار سوى الإذعان؛ وإلا لكانت الحرب هي النتيجة، وباحتجاز السفينة وطاقمها. إنه عمل قسري. السفينة الآن تبحر، وإذا حدث أي مكروه، فكن على يقين أنه عند أول خبر سيرسل الداي قراصَنته ويأسر كل الأمريكيين ليعوض نفسه. السفينة هي سلام الولايات

المتحدة مع الجزائر. في 14 من هذا الشهر، وصلت سفينة «بروتوس»، وسيصر الداي على أن تبحر السفينة المذكورة إلى رودس لتحضر له شحنة من الأتراك. لا أجر ولا اعتبار للشحنة، لا شيء يؤخذ في الاعتبار سوى إرادة الداي الاستبدادية.

طاقم سفينة «واشنطن»: 131، السفير وحاشيته: 100، نساء وأطفال زنوج: 100، بالإضافة إلى الحيوانات والأموال والهدايا التي تصل قيمتها إلى مليون دولار. نحن بحاجة إلى ست فرقاطات في هذا البحر لانتظار نتيجة رحلة «واشنطن».

ملاحظات إيتون.

يا عبقرية بلادي كيف تم إذلالك! أليس لديكِ بعد ابن واحد تثور روحه وتنتفخ أوعيته الدموية غضباً عند التفكير في مثل هذا الانحطاط؟ يا ظل واشنطن انظر إلى سيفك اليتيم معلقاً على عبد طوعي يخدم قرصاناً. لم أكن أتصور قط أنني سأجد ركناً في هذا العالم حيث يتزاوج الانحطاط والأمريكي. لقد أصبحنا مضرب المثل في السخرية؛ يُستشهد بنا كأمثلة على الانحطاط حتى من قبل الدنماركيين. هل سترفع تونس أيضاً ذراعها اللصة وتصفع خدنا ثم تأمرنا بتقبيل العصا؟ هذا هو ثمن السلام، ولكن إذا أردنا السلام بمثل هذا الثمن، فاستدعوني، وأرسلوا عبداً معتاداً على الذل ليمثل الأمة، وزودوه بسفن حربية وأموال وعبيد لدعمه ولعارنا الخالد. سيسجل التاريخ أن الولايات المتحدة كانت أول من تطوع بسفينة حربية لتكون ناقلة لقرصان. لقد كُتب ذلك، ولا شيء سوى الدم يمكن أن يمحو هذا الأثر. أعترف بصراحة، كنت لأخسر السلام وأُخوزق بنفسي على أن أقبل بهذا التنازل. ألن يوقظ أي شيء بلادي؟

إلى السيد سميث.

تونس، 9 مارس 1801.

يبدو أن الموقف الحالي مع تونس يبشر بالهدوء، على الأقل حتى تُعرف نتيجة مغامرة سفينة «آنا ماريا»؛ ولكن ربما لا ينبغي لهذا الاحتمال أن يؤدي إلى تراخٍ في الوفاء بشروط معاهدتنا. بالأمس فقط، سألني رئيس وزراء الباي متى أتوقع الجواهر؟ أجبت: لن تصل أبداً وفقاً للقائمة التي طلبها؛ ولكن

وزيرنا في إنجلترا تلقى تعليمات الرئيس للحصول على هدية في لندن كدليل على المشاعر المحترمة، والتي من المحتمل أن تصل في الصيف المقبل؛ لكنني لم أكن مخولاً بالقول إنها ستتوافق مع المذكرة المرسلة؛ بل كنت متأكداً أنها ستكون أقل من ذلك. أجاب الوزير بانفعال: «إذا لم يرسل الرئيس كل شيء، فلن يتلقى الباي أي شيء». قلت: «أخبر الرئيس بذلك، ولن يرسل شيئاً. إنه رجل بسيط ومستقيم يحب أصدقاءه، ولكنه معتاد جداً على فعل ما يشاء؛ وإذا أهنته ستجده عنيداً كالإنجليزي». هنا انتهى الموضوع، ولم ألاحظ أن الوزير شعر بالإهانة من هذه الصراحة.

إلى وزير الخارجية

تونس، 10 أبريل 1801.

سيدي،

إن الرسائل المرفقة طيه من قنصل الولايات المتحدة في طرابلس تبدو لي ذات أهمية كبيرة لسلامة ومصالح مواطنينا البحريين والتجاريين، وبالتالي لإيرادات الحكومة، لدرجة أنني لا أشعر بأنني مبرر فحسب، بل ملزم بالواجب، لاستخدام وسائل استثنائية لإيصالها إلى وزارة الخارجية؛ لذا فقد استأجرت سفينة من «راغوزا» لتنطلق بها مباشرة إلى الولايات المتحدة، بشروط معبر عنها في نسخة مترجمة من عقد الإيجار المرفق طيه. أفضل هذا العلم لأنه أقل عرضة للانحراف عن مساره، وأرسل السفينة فارغة لمنع أي إزعاج محتمل. إن تكلفة هذه الوسيلة ضئيلة جداً مقارنة بالمصالح التي تهدف إلى تأمينها، لدرجة أنني لا أشك في أنها ستحظى بموافقة الرئيس.

لقد مر الآن أكثر من تسعة أشهر منذ أن مر الإنذار عبر هذا المكتب من السيد كاثكارت؛ يبدو أن قدراً ما قد اعترضه في طريقه إلى أمريكا: من المحتمل أن يكون تفسير السيد أوبرين لسبب مطالبة الباشا قد خدع الحكومة وجعلها تشعر بالأمان. الحقائق الآن لا تقبل الشك؛ فقراصنة الباشا في البحر بالفعل ويتم تجهيزهم مجدداً ضد الأمريكيين؛ ووكيل حكومتنا في طرابلس يتخذ إجراءات لسلامة نفسه وعائلته. لقد نصحته بعدم منح جوازاته للقراصنة إلا إذا أعلن الباشا صراحة أنهم ليسوا موجهين ضد الأمريكيين؛

وفي حالة رفض مثل هذا الإعلان الصريح، أن يسرع في إخراج نفسه وعائلته إلى تونس. أقدم هذه النصيحة لأنها أصبحت حيلة لدى هؤلاء الباشاوات لاستدراج فريستهم بجوازات سفر قنصلية؛ ولأنه في حالة الحرب، فإن بقاء السيد كاثكارت في أيدي طرابلس سيميل إلى تعقيد أي إجراءات قد تتخذها الحكومة لإعادة إرساء السلام بدلاً من مساعدتها.

يطالب الباشا، كشرط للإبقاء على الولايات المتحدة، بمئتين وخمسة وعشرين ألف دولار إسباني دفعاً فورياً، وخمسة وعشرين ألفاً سنوياً؛ وهي شروط وافق عليها السويديون، وسيُطلب من الدنماركيين الموافقة عليها. ولكن إذا وافقت حكومتنا على هذه الشروط لباشا طرابلس، فسيكون من الضروري تماماً اتخاذ ترتيبات لطلب ضعف المبلغ لباي تونس. كما يجب احترام الجزائر وفقاً لرتبتها. إذا أرادت الولايات المتحدة تجارة حرة في هذا البحر، فعليها أن تدافع عنها؛ لا يوجد بديل، إذ لا يمكن كبح الروح المضطربة لهؤلاء اللصوص.

إلى السيد ماديسون

تونس، 13 ديسمبر 1801.

في مساء 3 نوفمبر، تلقيت من طرابلس تأكيداً بأن الغاصب قد تصالح مع أخيه، ولجأ إلى داي الجزائر، وتوسل وساطته لتحقيق مصالحة مع الحكومة الأمريكية؛ وأعرب عن قلق كبير لمعرفة ما إذا كان، في رأيي، سيقبل الأمريكيون مثل هذا التدخل؟ لم أتردد في إبداء رأيي بأن حكومتنا، بعد أن خدعها ذلك الداي مراراً، ستسعى الآن إلى إرساء سلامها على أساس أضمن. ثم رغب في أن يُنصح بما إذا كان بإمكانه أن يضع أي اعتماد على عمليات الأمريكيين لصالحه. أوصيته بالصبر والصمت؛ وفي الوقت نفسه، سمحت له بأن يأمل بأن عمليات الصيف القادم ستدعم وجهات نظره.

إلى السيد ماديسون

ليفورنو، 8 فبراير 1802.

المعلومات من طرابلس حتى 18 يناير تفيد بأنه لم يتم أسر أي سفينة. الباشا يرسل قراصنته إلى موانئ مختلفة في «المورة» خوفاً من هجوم الأمريكيين. السخط في داخليته قد وصل إلى حد التمرد، والمجاعة تضيق

الخناق على عاصمته؛ وهو يفتقر إلى الموارد. لقد قدم بالفعل مبادرات للمصالحة مع أخيه في تونس. سأُفشل هذا المشروع إذا وصلت إلى وجهتي في الوقت المناسب.

إلى السيد ماديسون

تونس، 18 مارس 1802.

عند وصولي إلى تونس، أجد سيدي محمد باشا يرضخ لطلبات أخيه، وعلى وشك المغادرة إلى درنة، وهي مقاطعة في طرابلس، وُعد بحكومتها؛ ولهذا الغرض طلب جواز سفري. لم أرفض ذلك فحسب، بل أخبرته بصراحة تامة أنه إذا غادر، فيجب أن نعتبره في خانة الأعداء، وأنه بدلاً من تأثيري للمساعدة في مروره إلى مملكة طرابلس، سأستخدمه لأسره هو وحاشيته كأسرى حرب إلى الولايات المتحدة؛ ولكن إذا التزم بترتيباته السابقة، فلا أشك في أنه، قبل انقضاء أربعة أشهر، قد يُعرض على أتباعه من قبل أسطول أمريكي. أخبرته أن الهدف الوحيد لأخيه هو قطع عنقه. إنه قلق بما فيه الكفاية ومضطرب جداً، حيث رفض هذا الباي تزويده بأي إمدادات أخرى من المؤن. يقترح الذهاب إلى مالطا وانتظار النتيجة هناك. سأوافق فقط على ذهابه إلى ليفورنو أو سردينيا. إذا غادر بشروط أخرى سأرسل سفينة مسلحة خلفه، وإذا أمكن، سآخذه هو وحاشيته إلى ميناء إيطالي ما.

إلى السيد كاثكارت

تونس، 2 أبريل 1802.

في «الباردو» يوم الأربعاء الماضي، اتهم كل منا الآخر بامتلاك تصرفات غير متكيفة، واحتدم الجدال لدرجة أن الباي أمرني بمغادرة البلاط، وأن أكون على استعداد للمغادرة (embarcation) في أول سفينة حربية من بلدي تصل إلى الميناء. استدرت على كعبي؛ جئت إلى مكتبي؛ ومنعت سكرتيري من ملء أي جوازات سفر أخرى للطرادات التونسية. تم إبلاغ هذا الحظر فوراً للباي؛ وكان له الأثر المرجو. في نفس المساء، جاء وكيله التجاري إلى منزلي وتوسل، باسم الله، أن ألغي ذلك الأمر؛ قال إنه لم تكن نية الباي إثارة حرب بإبعادي، بل الحصول على قنصل آخر أكثر قدرة على رعاية السلام مني. أجبت، أنني لن أوافق على النظر في أهداف الباي أو وجهات نظره في توجيه إهانة لحكومتي في

شخص وكيلها. لقد اتخذ موقفه؛ وقد اتخذت موقفي، والذي سأحتفظ به حتى يتراجع عن موقفه.

صباح السبت ذهبت إلى «الباردو» بدعوة من الباي. كانت الحركة الأولى هي طي صفحة الماضي؛ بالطبع تم تمرير قانون عفو متبادل. ثم ناقشنا المزايا النسبية للسلام والحرب. كانت النتيجة، كما خلص إليها هذا البلاط: «أنه، على الرغم من أنهم لا يستطيعون الادعاء بالقدرة على محاربة سفننا الحربية، إلا أننا لا نستطيع إلحاق أي ضرر بهم: سيوقفون طراداتهم الكبيرة، ويرسلون طراداتهم الصغيرة لإزعاج تجارتنا». وقال الوزير: «على الرغم من أن الذبابة في حلق الرجل لا تستطيع قتله، إلا أنها ستجعله يتقيأ». ومع ذلك، فإنهم سيكونون دائماً على استعداد للحفاظ على السلام مع الأمريكيين على نفس قدم المساواة مع الدول المسيحية الصغيرة الأخرى، ولكن يجب أن يكون لديهم قنصل أقل خيالاً، وأكثر ودية لمصالح البربر. ذكرت أنني أتوقع يومياً الإذن بالعودة إلى بلدي، وأن يخلفني السيد كاثكارت. أعرب الباي عن دهشته وسألني إذا كنت أتذكر ما قاله العام الماضي لهذا الاقتراح؛ وكرر أنك لن تأتي أبداً إلى بلاده تحت أي ذريعة كانت؛ حتى لو كنت رجلاً صالحاً، فلن يكون ذلك مناسباً بعد أن خضت حرباً مع طرابلس.

إلى السيد ماديسون

تونس، 12 مايو 1802.

بالأمس تلقيت مذكرة من رئيس وزراء الباي يطلب فيها مقابلة. ذهبت إلى القصر، لأواجه كما افترضت تعقيدات جديدة؛ ولكن، عند المرور بالمراسم غير المعتادة مع الباي، اكتشفت على وجهه تعابير رضى غير عادية. أشار إليّ بأنه، بعد الانتظار قليلاً، سيُبلغني بهدف استدعائي إلى القصر. وبالفعل، بعد حوالي ساعة، رافقت الوزير مع الوكيل التجاري للإيالة إلى غرفة خاصة؛ حيث وصل إلى الموضوع المقصود؛ والذي لم يكن أكثر ولا أقل من اقتراح سلام من جانب باشا طرابلس بوساطة وتحت ضمان باي تونس. وفيما يلي جوهر مؤتمرنا:

الوزير: «هل فعلت أي شيء بشأن موضوع السلام مع طرابلس؟»

أنا: «لا شيء.»

الوزير: «أنتم تخوضون حرباً، على مسافة بعيدة، بتكلفة كبيرة جداً، دون أمل في كسب أي شيء.»

أنا: «نحن ندرك ذلك جيداً.»

الوزير: «هل أنتم على استعداد للتفاوض على سلام مع طرابلس؟»

أنا: «هل أنت مخول بطرح هذا السؤال؟»

الوزير: «نعم.»

أنا: «حسنًا، إذن أقول لك بصراحة تامة، ليس لدينا أي دوافع على الإطلاق لرغبة في حرب مع أي دولة على وجه الأرض؛ ناهيك عن تلك التي هي الآن موضوعها. إذا قدمت طرابلس تراجعات مناسبة، فقد تفكر في السلام. ولكن، حتى ذلك الحين، سنعتبر أنه من الخطر التفاوض مع الباشا الحاكم بعد أن رأينا مثل هذه الانتهاكات الصارخة لعهده. طرابلس قد فقدت لقبها كصديق. إلى جانب ذلك، هناك فرق شاسع بين المتسول الذي يمسك حصاني باللجام، ومسدس مصوب إلى صدري ويطالب بمحفظتي، وبين ذلك الذي يطلب الصدقة حباً في الله. الأول يستحق العقاب؛ والثاني يثير الشفقة. أترك لك تطبيق الصورة.»

الوزير: «أشعر بذلك. ولكن إيالات البربر لا تعقد سلاماً أبداً دون هدايا.»

أنا: «إذن، حان الوقت لوجود سابقة.»

الوزير: «ولكنك تقول إنك مستعد للسلام.»

أنا: «نعم؛ ولكن لا ينبغي أن تفهمني أننا نرغب أو سنقبله بشروط مذلة.»

الوزير: «لا يمكن أن يكون هناك شيء مذل في تقديم هدية طوعية صغيرة لطرابلس.»

أنا: «دعنا من هذا الموضوع، من فضلك. طرابلس ليست في وضع مناسب لتلقي تعابير حسن ضيافتنا. كما أنني لست مخولاً بسلطات للتفاوض. لا يمكنني إلا أن أعبر لكم عن الشعور العام، ولكن الثابت، لحكومتي وبلدي، بأننا نفضل السلام على الحرب إذا كان بإمكاننا الحصول عليه بشروط مشرفة. ولك الحرية في التعبير عن هذا الشعور لطرابلس؛ قد تستفيد منه إذا رأت ذلك مناسباً، وإلا فإن أربع أو خمس سنوات من الحرب مع تلك الدولة ستكون مجرد تسلية لمحاربينا الشباب.»

في المساء كان الوكيل التجاري في منزلي، ومررنا بنفس النقاش. كان متأكداً أننا لن نحصل على سلام أبداً دون دفع شيء ما؛ فهذا سيُهين الإيالة. قال إن الذريعة الوحيدة التي كانت لدى باشا طرابلس لخرق عهده هي أن السلام لم يكن طوعياً من جانبه بل فُرض عليه من قبل الجزائر. تثبت هذه المبادرات الوضع المحرج لعدونا، وتعد بسلام بشروطنا الخاصة. أنا أميل إلى خطتي الأصلية لإعادة الباشا الشرعي. باي تونس جاهل بذلك المشروع، وسيكون من المعقول إبلاغه به بعد ضمان نجاحه. في غضون ذلك، دعونا نلهي الغاصب باقتراحاته الخاصة.

إلى السيد كينج

تونس، 1 يونيو 1802.

في 28 الشهر الماضي، وصلت فرقاطة الولايات المتحدة «كونستليشن»، بقيادة القبطان ألكسندر موراي، قادمة من جبل طارق. سلمني الأسلحة التي أُعدت في لندن لهذا الباي، والتي قدمتها، باستثناء السيف، والتي كانت مقبولة للغاية؛ ولكن بروح الوقاحة المعتادة، أحيا الباي طلبًا سابقًا لطراد أو سفينة حربية صغيرة مثل تلك التي أعطيناها للجزائر. أحلته إلى نصوص المعاهدة، وبالتالي أسكتت هذه المطالبة في الوقت الحاضر.

إلى السيد ماديسون

تونس، 8 يونيو 1802.

إن مشاوراتي مع محمد باشا، الحاكم الشرعي لطرابلس، قد تعرضت لانتقادات شديدة للغاية من قبل القبطانين س. بارون وباينبريدج؛ حيث تم شجبها من قبلهما بأسلوب من اللوم غير الليبرالي؛ وتحت تأثيرهما رُفضت من قبل القبطان موراي بلهجة من السلطة والتوبيخ لم أكن أتوقعها.

أنا أدرك أن العبارة الموجودة في مراسلتي، «لقد تخلت عنا سفننا الحربية»، قد تكون قد مست مشاعر السادة الذين يقودونها، لكن من واجبي أن أبلغ بالحقائق كما تظهر لي. أبحرت سفينة «فيلادلفيا» من هذا الميناء في 23 سبتمبر الماضي متجهة إلى طرابلس، وعادت في 3 أكتوبر التالي؛ لم

تُشاهد هنا منذ ذلك الحين، وأحد ضباطها يؤكد أنها لم تظهر أمام طرابلس إلا مرة واحدة وبقيت لمدة ست ساعات فقط. هذه هي السفينة الحربية الوحيدة التي ظهرت على هذا الساحل منذ أكتوبر. أجبرت قسوة الشتاء قائد «فيلادلفيا» على استئجار منزل في سرقسطة. تم وضع «إسيكس» قبالة جبل طارق لمراقبة هيكل سفينة مفككة؛ ولكنها تركت هذا الموقع من حين لآخر. هذه طريقة اقتصادية بشكل فريد لإدارة الحرب، وليس من المستغرب أن يتضايق أولئك الذين تعلقوا بها من يقظة تهدف إلى وضع حد لها.

قد يكون هناك مصدر آخر للتظلم نشأ في الجزائر، حيث مارست حرية التعبير لأعرب عن قلقي من أن سفينة حربية للولايات المتحدة قد تعرضت لسخرية الأمم وهي تبحر تحت ألوان جزائرية. من المؤكد أن القبطان موراي قد تأثر بالقبطانين بارون وباينبريدج. عندما تشرفت بزيارة هؤلاء السادة في الصيف الماضي، أعربوا عن موافقتهم التامة على جميع إجراءاتي، فلماذا ابتعدوا فجأة عن هذا الشعور؟ إنها فكرة غريبة عن الاقتصاد التي تدفعه لرفض مشروع يعد بتوفير مئات الآلاف بحجة تجنب نفقات قدرها 10 أو 20 ألف دولار. إلى من يجب أن يتطلع السادة الجدد في القيادة هنا للحصول على المعلومات؟ إلى الوكلاء المتمركزين هنا لمراقبة مصالح الولايات المتحدة، أم إلى مسارح سرقسطة وليفورنو ومالقة؟

إلى السيد ماديسون

تونس، 8 أغسطس 1802.

في 23 الشهر الماضي، التقيت بتاجر طرابلسي أبلغني بأن وجود محمد باشا في مالطا قد أثار اضطراباً كبيراً في طرابلس؛ وأن الباشا الحاكم قلق جداً ولجأ للقبض على عدة رؤساء قرى لمنع التمرد. على العكس، فإن رعاياه يبنون أملاً في عودة السلام وإدارة ألطف؛ فروح السخط والتمرد الشامل تسود جميع الفئات، وهم يعتقدون عموماً أنه تدخل من السماء أن يعاد إليهم حاكمهم الشرعي.

إلى سمو أحمد قرماللي، باشا طرابلس

تونس، 6 أغسطس 1802.

سيدي،

تشرفت باستلام رسالة سموكم المؤرخة في 16 الشهر الماضي، وأغتنم هذه الفرصة الأولى لأطلب من السيد بوليس أن يزودكم بألفي دولار نقدي على حساب الولايات المتحدة، والتي آمل أن تكون عوناً لكم حتى وصول قائدنا. لقد علمت من مصدر موثوق أن مشروع أخيك لإحضارك إلى درنة كان لقتلك. هو الآن أكثر تصميماً من أي وقت مضى؛ لذلك لا يمكنك أن تكون آمناً في أي جزء من إيالتك ما لم تدخلها بصفتك الحقيقية كحاكم. أؤمن بالله أن هذا الحدث ليس ببعيد. في غضون ذلك، أوصي سموكم بالحفاظ على المراسلات مع حزبكم في طرابلس ومع رعاياكم في البلاد؛ دعهم يقتنعوا بأن أصدقاءك لن يتخلوا عنك حتى يروك تعود إلى شعبك المخلص. وافعل كل شيء لإبعادهم عن مصلحة الغاصب.

أتشرف بأن أكون، سيدي، مع أعمق الاحترام، خادم سموكم المطيع والمتواضع، ويليام إيتون.

إلى السيد ماديسون.

تونس، 10 أغسطس 1802.

مهما كان رأي القبطان موراي في إجراءاتي، فلا ينبغي له أن يضحي بمصالح الخدمة من أجل ضغائن شخصية. يمكن للحكومة أن ترسل بيوت اجتماعات الكويكرز لتطفو في هذا البحر بدلًا من فرقاطات بقيادة أمثال موراي: التحيات الودية التي قد يتلقاها ويردها في جبل طارق لا تنتج شيئًا في طرابلس. هل لدينا تروكستون واحد وستيريت واحد فقط في الولايات المتحدة؟

المخيم العربي، الذي دُعي للدفاع عن طرابلس، قد تم تجميعه بلا شك لإفشال مشروع محمد باشا، الأخ المنفي. أي عدو داخلي آخر يمكن للغاصب أن يخشاه؟ إذا كان الأمر كذلك، فإن هذا يرقى إلى دليل لا يرقى إليه الشك على التأثير الذي كان يمكن أن يكون لهذا الإجراء في الحرب مع طرابلس لو تم دفعه إلى التنفيذ. ولكن، ربما لم يضع المشروع. دع الباشا الحاكم يستنفد موارده في استعدادات دفاعية غير مجدية، ويرهق رعاياه بحملات عقيمة،

بينما المشروع المنظور، من جانب عدوه، ينضج للتنفيذ. لم أبلغ السيد نيسن بأي شيء عن هذا المشروع، لعدم وجود شيفرة لديه تتوافق مع شيفرتي، ولخطورة إيداعه في نص مفهوم: يبدو أنه غير مطلع عليه تمامًا. هذه الإيالة تخلق مطالب جديدة علينا. سأفصلها في الوقت المناسب، إذا لزم الأمر. من بينها الطلب الأصلي لسفينة حربية.

وفقًا لذلك، وتحت ذريعة تفادي الفرقاطات السويدية والأمريكية، أقنع مرافقيه بالرسو في مالطا. بعد ترتيب هذه الخطة، أمرت القبطان باوندز بالتوجه إلى جبل طارق، برسائل إلى الحكومة والقائد، توضح هذا الوضع. هناك التقى بـ «كونستليشن»، بقيادة القبطان موراي؛ الذي، بعد أن قرأ مسبقًا مراسلاتي، وتشاور مع القبطانين س. بارون وباينبريدج، تجاهل المشروع، وصرف سفينتي بعلامات من الاستياء الواضح. محمد باشا، وفيًا لالتزاماته، أفرغ سفينته في مالطا، بنفس الذريعة التي أخذته إلى ذلك الميناء؛ وظل هناك منذ ذلك الحين، على الرغم من أنه أجرى مقابلة مع القبطان ماكنيل الذي نصحه بالمثابرة في المشروع، إلا أنه لم يتلق أي عون، ولا حتى تأييد من السيد القائد الآن (القبطان موراي). إن ظرف موقعه الآمن، مع ذلك، قد أثار مثل هذا القلق في مخاوف الباشا الحاكم، لدرجة أنه استدعى للدفاع عن مدينته أولئك العرب من مملكته الموالين لمصلحته، ولضمان ولائهم، حبس رؤساءهم داخل أسواره. هذه الحقيقة، إلى جانب حرص الغاصب على الاستيلاء على شخص أخيه، تدل على صحة حساباتنا بشأن هذا المشروع، لو تم استغلال الموقف الذي أتاحه بشكل مناسب. آمل أن لا تضيع الفرصة.

إلى السيد ماديسون.

تونس، 23 أغسطس 1802.

إن عملياتنا في العام الماضي والعام الحالي لا تنتج في الواقع سوى أعداء إضافيين وازدراء وطني. إذا استمر نفس نظام العمليات، فستستمر نفس العواقب. إن الموقف العنيد واللامبالاة المصطنعة بالتهديد، التي كانت حتى الآن تمائمي في غياب الحجة القوية هنا، لم تعد تجدي نفعًا. الوزير ينفخ صفارة في وجهي، ويقول: «لقد وجدنا أن كل ذلك مجرد نفخ نرى كيف

تديرون الحرب مع طرابلس».

لم أتوقف أبدًا عن إطلاق الإنذار في الوقت المناسب: عن اقتراح الإجراءات التي بدت لي ضرورية لتجنب أي أذى خطير؛ وعن الإشارة إلى ما كنت أعتقد أنه سيكون نتيجة إهمال تلك النصيحة. لدي الآن الانعكاس المحزن بأن مخاوفي كانت مبررة للغاية، وتنبؤاتي دقيقة للغاية.

أصبح منفاي لا يطاق هنا. تخلّى عني مواطنيّ القادة؛ لا نصيحة من الحكومة لتنظيم سلوكي؛ وجهودي الخاصة تفشل في تحقيق تأثير؛ لقد تُركت عرضة، وإن لم أكن خاضعًا بعد، لأشد أنواع الإساءة والضيق الشخصي. القلق، الحيرة، ومناخ غير مواتٍ لصحتي، يهدر صحتي. الموقف الذي اتخذته وحافظت عليه مع هذا الباي فيما يتعلق بجوازات سفر تجارته إلى طرابلس، قد أثار مزاجًا ونزعة في هذا البلاط لمضايقتي في شؤوني الشخصية. لقد ذكرت مرارًا أن راتبي دعم غير كافٍ. إن العائق الذي ارتأى القبطان موراي وضعه على إجراءاتي العامة لم يؤثر بشكل أقل على سمعتي العامة. في هذا الوضع، أنا أستهلك حياتي، وممتلكاتي، وربما سمعتي العامة هنا، دون الأمل المعزي في أن يكون لي فضل أن أكون مفيدًا لبلدي. لماذا يجب أن أبقى في منصب لم يعد قابلًا للدفاع عنه؟ مرة أخرى، أكرر، مواردي الفردية حواجز غير كافية ضد جشع هذه الإيالة. منذ اللحظة الأولى لوكالتي هنا كان من الواضح لي أن الخضوع لمطالب هذا الباي لن يؤدي إلا إلى زيادة الشراهة. لقد ذكرت هذا التخوف في مراسلاتي مع الحكومة: اعتُبر حيويًا للغاية إجراءاتي لمعاقبة عدو غادر توصف الآن، من قبل القادة، بأنها تخمينية، أوهام خيال مضطرب أليس كافيًا أنني ضحيت بما يقرب من عامين لخدمة بلدي في حالة من العزلة المؤلمة عن كل متعة عقلانية؟ هل سيدعي أي شخص أنني لم أقم بواجبي بحماس مستقيم؟ وهل هذه هي مكافآت خدماتي؟ أن أُوصم بالجنون في دفاعي عن نفسي، ومن قبل قبطان وحيد في فرقاطة، بالتكهن والجنون هذا أكثر من اللازم لدي الحقوق الطبيعية، وأثق، بمشاعر مواطن أمريكي. دع موراي يترك لي حريتي وشرفي: يمكنه أن يسرق مني كل ملحقات الحياة الأخرى التي يمكن أن تكون مفيدة له. ولكن بعد أن شُوه شرفي هنا بوزن سلطته ونفث فضيحته، فإن وجودي ذاته لا يطاق. كان من المستحيل إبقاء

هذه الأمور مخفية هنا، حتى لو تم التعامل معها بأقل علانية. يقول الباي: «لقد قلت دائمًا للقنصل الأمريكي إنه رجل مجنون»، (لأنني لم أكن عبده الخاضع، كما هو حال نصف القناصل بالقرب منه)، «ويبدو أن قادة أمته من نفس الرأي» أيها القادة اللطفاء لم تظهروا حتى الآن أي أعراض جنون لهذه الإيالات هم راضون تمامًا عن تسامحكم وبالمثل، راضون عن الضربة، بدم بارد، التي وصمتم بها شخصية مواطن زميل وخادم زميل لبلدكم.

لذلك، أنا مضطر، ليس فقط من منطلق الاهتمام بمصلحة وشرف بلدي بل أيضًا بمصلحتي وشرفي الفردي، أن أطلب من الرئيس أن يسمح لي بالاستقالة من الثقة التي أتشرف بحملها تحت حكومة الولايات المتحدة؛ ما لم يتم اتخاذ قرار بعمليات أكثر نشاطًا ضد العدو؛ وفي هذه الحالة، سيسعدني أن أبقى على هذا الساحل حتى يتم تحديد النتيجة.

ملاحظة. 28 أغسطس. بالأمس استُدعيت إلى القصر. طالبني الوزير رسميًا بفرقاطة من 36 مدفعًا. لا ينبغي أن يُعتقد أنه من الغريب رؤيتي في أمريكا هذا الشتاء. لا يمكنني أن أستجيب ولا أتخلص من هذا الطلب.

إلى السيد ماديسون.

تونس، 12 سبتمبر 1802.

لقد أشرتُ في مراسلات سابقة تشرفتُ برفعها إلى وزارة الخارجية، إلى أنه حين تنجح هذه الإيالات في إقناع وكيل وطني خاضع بتقديم مطالبها إلى حكومته، فإنها تتخذ من هذا الامتثال ذريعة لفرض شروطها وبناء افتراضات مستقبلية؛ ولذلك كنت حريصاً دوماً على رفض عرض مطالبهم.

وثباتاً على هذا الموقف، أرفض الآن كتابة طلب لفرقاطة مجهزة بـ36 مدفعاً. ونتيجة لذلك، قرر الباي أن يكتب بنفسه، لكنه ابتكر مشروعاً أصيلاً تماماً لمحاولة خداعي وتمرير رؤيته، وهو أن أقوم أنا بصياغة نص الرسالة التي سيرسلها إلى الرئيس تحت توقيعه؛ وبذلك تصبح الرسالة من صنيعي، وتُعدُّ بحسب طريقة تفكيرهم بمثابة «وعد» صادر عني. وقد قمت برفض هذا الطلب أيضاً.

في القصر في 28 الشهر الماضي، استُمدت الحجة من الاتفاقية التعاهدية، ومن تسليمنا الأخير للهدايا، لتثبيط هذا الطلب. سألت الوزير،

ألا يخجل من تقديم الطلب بعد تلقي مثل هذه الهدايا القيمة من الولايات المتحدة، وفي وقت قريب جدًا؟ أجاب بما معناه: «الهدايا التي تم استلامها بالفعل كانت مجرد شروط سلام، كان يجب تسليمها قبل سنوات. لقد صبرنا عليكم بسبب تأكيدات وكلاء حكومتكم بأنها دائمًا في الطريق. لقد مرت ست سنوات منذ بدء مفاوضات السلام الخاصة بكم. كنا نتوقع الدفع الكامل في غضون عام. جئتم بلا شيء. مرت أكثر من ثلاث سنوات منذ أن أنهيتم المفاوضات. منحناكم ستة أشهر لإحضار الهدايا. لقد انتظرنا أكثر من ستة وثلاثين. بعد كل هذا التأخير الطويل تلقينا ثمن سلامكم. ولكنكم لم تقدموا لنا أي مقابل لهذا الصبر: ولم نتلق حتى الآن أي دليل على الصداقة الحقيقية لأمير أمريكا؛ على الرغم من التلميحات الودية المتكررة التي قدمناها له بأن مثل هذا التعبير عن إخلاصه سيكون مقبولًا لدينا. ونتوقع إجابة مختلفة على هذا الطلب. وسمو سيدي، رجل صبور جدًا؛ لكنه يعرف الخطوات التي يجب اتخاذها مع الدول التي تستنفد صبره بتعبيرات صداقة خادعة؛ كما تعلمتم من الدنماركيين والإسبان وغيرهم. ألا ترى أن الملك الإسباني قد غير قنصله بناءً على طلب سيدي؟ قد تواجهون نفس العار. سنتوقع لذلك، أن تمنحونا نفوذكم للحصول على فرقاطة؛ على الرغم من أن لدينا سببًا وجيهًا للاعتقاد بأنكم تثبطون أميركم عن الاستماع إلى طلباتنا. وفي حالة حدوث قطيعة، وأُبلغ بإهمالكم لواجبكم، فيجب أن ينسب السبب إليكم وحدكم.»

فأجبت: «دع الباي يكتب للرئيس. يمكنه بلا شك أن يعرض ادعاءاته بوضوح أكبر مما أستطيع. سأهتم بإيصال رسالته.»

في الثالث من الشهر، كان ترجماني في القصر، حيث تكرر الطلب منه بأن أتولى أنا صياغة مسودة الرسالة. وكنت قد أصدرت إليه تعليمات مسبقة، في حال فُتح هذا الموضوع مجدداً، بأن يبلغ الباي بوضوح تام أنني لن أكتب في هذا الشأن، لا بصفة مباشرة ولا غير مباشرة؛ وقد فعل ذلك بالفعل. رد الوزير حينها قائلاً: «هذا ما يفعله كل القناصل المتثلون، ويخطئ الأمريكي إذا ظن أنه قادر على كسر الأعراف الراسخة». ثم أمر الترجمان بإبلاغي بضرورة مقابلة الباي في القصر يوم الرابع.

وبناءً على ذلك، توجهت إلى القصر في اليوم الرابع، فأحالني الباي إلى

الوزير. التقيت بالأخير في مكتبه الخاص، وبعد حديث قصير، طلب مني بنبرة تملؤها الغطرسة والأمر أن أضع له صيغة الرسالة الموجهة إلى الرئيس. فسألته مجدداً: على أي أساس يبني مطالبته بفرقاطة حربية؟ ولماذا يصر بشدة على أن أكون أنا كاتب الرسالة؟ فأجاب: «لقد أوضحت مسبقاً مبررات مطلبنا، ولا بد أن ننال هذا الدليل على الصداقة».

من المؤكد أن محمد باشا قد أُجبر تحت وطأة الجوع على مغادرة مملكته والارتماء في أحضان أخيه. كنت أظن سابقاً أن الوزير يميل بقلبه إلى هذا المنفي، وما زلت أعتقد بصحة ذلك على المستوى الشخصي، غير أن مقتضيات سياسة الدولة غلبت عواطفه الفردية.الباشا، باي تونس، إلى رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية.

تونس، 8 سبتمبر 1802.

سيدي الرئيس،

بكل سرور ورضا، رأيت وصول واستلام، على التوالي، جميع المخازن العسكرية والبحرية، وكذلك الجواهر الرائعة، التي أرسلتها حكومتكم لإيالتي ولي، تنفيذًا لشروطنا لتأكيد وتوطيد الوئام والتحالف الجيد الذي، بحمد الله، تم تأسيسه، وهو قائم بالفعل بيننا.

بينما يسعدني أن أقدم لكم هذا التأكيد، الصادق حقًا، على رضاي الكامل، لا ينبغي لي أن أخفي، أنني لا أرى نفسي، في نفس الوقت، أعامل بنفس التميز ونفس التقدير الذي أوليتموه لأصدقائكم الآخرين، وبما أنني واحد منهم، أعترف لكم، بصراحة، كما أعلنت بالفعل للسيد إيتون، قنصلكم، أنه كان سيسعدني للغاية، لو قدمتم لي أيضًا هدية سفينة حربية.

بما أن السيد إيتون لم يجد من الملائم أن يتولى إيصال هذا الطلب إليكم، من جانبي، فقد قررت أن أشهد لكم مباشرة، بهذا الخطاب، أنه سيكون من دواعي سروري الشديد أن ترسلوا لي فرقاطة جيدة من ستة وثلاثين مدفعًا، مما سيزيد من التقدير العالي الذي أكنه لأمتكم، وسيعزز أكثر فأكثر روابط صداقتنا، التي، من جانبي، سأحافظ عليها ثابتة ومصونة.

مقتنعًا كما أنا مسبقًا، سيدي الرئيس، بأن هذا الطلب، إذا أُخذ في الاعتبار، سيحقق الأثر الكامل الذي أتوقعه منه، أجدد لكم تأكيد تقديري

المتميز، وأدعو الله العلي القدير أن يحفظكم في رعايته المقدسة.

حمودة باشا، باي، أمير أمراء تونس، المدينة المحروسة، دار السعادة. (ختم الباي)

إلى السيد ماديسون. تونس، 12 أكتوبر 1802.

إن الإهانات التي تعرضتُ لها في هذا البلاط مؤخراً لم تعد تطاق؛ فمع أول ظهور لأسطولنا، تصرف الباي باحترام، لكنه استحال وقحاً بما يتناسب مع اعتدال تحركات الأسطول ونجاحات العدو. ورغم ذلك، لم أستسلم بأي حال من الأحوال لابتزازاته. ولكن، اسمحوا لي أن أكرر مجدداً: بدون دعم أكثر حزماً، لا يمكنني الحفاظ على الموقف الذي اتخذته هنا؛ وهو الموقف الذي نال حتى الآن موافقة كل ضابط متميز في الحكومة العامة ممن تشرفتُ بمراسلته.

واسمحوا لي أن أضيف: إذا كان هناك توجه لتقديم المزيد من التنازلات هنا، فإني أرغب ألا أكون الوسيط الذي تُقدَّم من خلاله. إن الهدايا الثمينة التي قدمتها بالفعل لهذا الباي باسم «رئيس قضاة الولايات المتحدة» لا تخدم شيئاً سوى إظهار ثروتنا وضعفنا له، وتحفيز جشعه لمطالب جديدة. لقد كنتُ أتخوف من هذه النتيجة منذ ثلاث سنوات بسبب تعابير الصداقة التي أبديناها، وسينتج الأثر ذاته عن السبب ذاته طالما ظل هذا السبب قائماً.

لقد سئمتُ حقاً من حالة المنفى هذه ومن هذا الجهد العقيم؛ ومع ذلك، لا أسمح لنفسي باعتبار أي حرمان من المتعة الشخصية (رغم أنه بالنسبة لي حرمان كلي) تضحيةً، إذا كان في ذلك تعزيز لشرف بلدي الحبيب ومصلحته. ولكن، إما أن يتم دعمي أو استبدالي؛ وهو اقتراح معقول بقدر ما هو مرغوب.

إلى السيد ماديسون.

تونس، 9 نوفمبر 1802.

كان من المفروض عليّ أن أرسل حسابي مع عودة الأسطول: ولكن لا بد أنه أصبح معروفًا للحكومة منذ فترة طويلة أن أي سفينة من ذلك الأسطول لم تظهر هنا لمدة سبعة أو ثمانية أشهر قبل مغادرة هذا البحر. أسبابي لعدم إرساله مع «واشنطن»، ذُكرت في رسالة 13 ديسمبر الماضي. كان من المرغوب فيه الحصول على إذن لتقديم حسابي شخصيًا. هناك بنود ليس لدي

قسائم منتظمة لها، وأخرى تتطلب قسائمها شرحًا. هؤلاء الناس لا يعطون إيصالات للهدايا أبدًا. لم أستطع إقناع الباي، ولا وزيره، بالتوقيع على استلام المواد التي سُلمت له كشروط للسلام؛ وكنت سأبقى إلى الأبد محرومًا من مثل هذه القسيمة، لو لم يلتزم في رسالته إلى الرئيس، المؤرخة في 8 سبتمبر. سأرسل الحساب بأول وسيلة نقل مباشرة. في غضون ذلك، من واجبي أن أبلغ الحكومة بأن حوادث إجراءاتي مع محمد باشا، قد ترتب عليها نفقات تبلغ حوالي ثلاثة وعشرين ألف دولار، والتي حصلت على نقد لتمويلها بالدين هنا؛ والتي يجب اتخاذ ترتيبات فورية لسدادها. يؤسفني أنني كنت الوكيل الرئيسي في إجراءات تكبدت هذه النفقات غير المجدية لبلدي: لم تكن لتكون غير مجدية، لو تلقت تلك الإجراءات دعمًا في الوقت المناسب. لن يتبع فشل المشروع أي إزعاجات أخرى لشؤوننا هنا؛ على الرغم من أنني، أعترف، كانت لدي مخاوف من عواقب أكثر خطورة منه. يمنعني الأسف حتى من تقديم هذا البيان، لو كنت أملك النقد لسداد المبلغ؛ لكنني عانيت من كل أنواع الضيق الشخصي التي يمكن أن يلحقها الجشع، لإجباري على الامتثال لوجهات نظر هذه الإيالة: كل ما بدا أنه وعد تم انتزاعه وابتزازه مني. لقد سُرقت حرفيًا؛ وبالتالي أنا محروم من الموارد هنا. إذا لم يتم قبول هذه النفقات في الحساب عند التسوية النهائية، فيجب أن تذهب ممتلكاتي في أمريكا لتعويض الولايات المتحدة، بقدر ما ستغطي هذا الهدف. لدي الرضا في التفكير في أنني لم أتنازل عن أي نقاط وطنية هنا؛ (على العكس، على الرغم من أنه هدد وربما يؤثر في النهاية على دمار شخصي، فقد قاومت بثبات إلحاح وابتزاز الباي): ولكن، على الرغم من أنه هددني بجميع الأشكال لإجباري على التنازلات، أجد أن هذا العناد (كما يطيب له أن يسميه) لن ينتج عنه أي أذى عام هنا.

إلى السيد ماديسون.

تونس، 12 ديسمبر 1802.

وسائلي ومواردي للمقاومة قد استُنفدت تمامًا في هذا المكان. وعمليات أسطولنا هذا الموسم فعلت أقل من الموسم الماضي لمساعدة جهودي. فرقاطة واحدة فقط من هذا الأسطول شوهدت حتى الآن على ساحل العدو. لم يعد بإمكاني التحدث عن المقاومة أو الإكراه دون إثارة ابتسامة ازدراء وسخرية.

لا يُسمح لي ولا أميل إلى التحدث عن التنازلات. وبالتالي، لم تعد خدماتي الشخصية مفيدة هنا في ظل الظروف الحالية. أي شخص يمكن الاعتماد على ولائه، وقادر على كتابة رسالة مفهومة، يمكن أن يكون ذا فائدة متساوية وأقل عرضة للخطر. هذه الإيالة تنظر إليّ بعين الغيرة والشك. يقولون، «القنصل الأمريكي عدو لمصالح البربر.» (لا سمح الله أن يكون صديقًا لهم.) وفي حالة حدوث قطيعة، ليس لدي أدنى سبب للاعتقاد بأن الباي سيوافق على مغادرتي. عندما يصل القائد والسيد كاثكارت سأتشاور معهما، وإذا وافقا على الإجراء، سأحاول بحيلة الخروج من هذا البلد والعودة إلى مقر حكومة الولايات المتحدة.

ملاحظات من اليوميات.

نشالون

تونس، 27 ديسمبر 1802.

أرسل المشرف على مباني «مصطفى أغا»[13] العامة ليطلب مؤونة شتاء من السكر والقهوة.

أعدت الرسول بهذا الجواب: «قل للحاج صالح بوغدير، أنه ليس لدي سكر؛ وإذا أراد قهوة، فليتعامل مع سمساري.»

لقد سئمت واستُنفدت من هذا النوع من التسول. الباي، مصطفى أغا، كلاهما طبيباهما، حجابهما، قائد بورتو فارينا، شيخ المدينة، (عمدة المدينة) وأغا، (قائد أو عقيد) القلعة، قد تم تزويدهم بالسكر، والقهوة، والشاي، والفلفل، والتوابل، وفي الواقع، الملابس، من البيت الأمريكي، لأكثر من ثلاث سنوات: وبطريقة تستبعد، في معظم الحالات، إمكانية جعلها حسابًا عامًا. حتى الوكيل التجاري للباي يرفض دفع ثمن القهوة والسكر الأبيض؛ (هو أرفع من أن يستخدم البني)؛ والذي تلقاه، في أوقات مختلفة، بالدين، بمبلغ 800 قرش. كل ما يقع عليه عين هؤلاء النشالين في منزلي هو غنيمة جيدة.

13- مصطفى آغا (Mustapha Aga): مسؤول تنفيذي عسكري رفيع المستوى في البلاط التونسي. ولقب «آغا» يشير إلى مكانته كقائد عسكري (غالباً آغا الكرسي أو قائد الحرس). كان دوره يتمحور حول تنفيذ أوامر الباي المباشرة ومواجهة القناصل في المسائل الإجرائية واليومية؛ لذا يظهر في مذكرات إيتون كشخصية حازمة تمارس الضغط المباشر والابتزاز لانتزاع المطالب المالية والعسكرية.(المترجم)

لن يتم رفضهم دعوني أخرج من وكر اللصوص هذا راتب رئيس الولايات المتحدة بالكاد سيكون كافيًا لدعم هذا المنزل، على النظام المعتدل الحالي لاقتصادنا، مع هذه الإيالات.

إلى السيد ماديسون.

تونس، 1 مارس 1803.

صباح أمس، حوالي الساعة التاسعة، غادر القائد موريس البيت الأمريكي للذهاب على متن السفينة. والمشاحنات بينه وبين الوكيل التجاري للباي، الذي جاء ثلاث مرات، وتراجع في كل مرة، عن اتفاق بشأن المطالبات المتعلقة بالغنائم قيد البحث مع هذه الإيالة، وقد دفعته إلى المغادرة دون القيام بزيارة وداعية للباي. تم اعتراضه عند الميناء من قبل الوكيل التجاري، واحتُجز لدفع رصيد قرض، يبلغ اثنين وعشرين ألف دولار، كنت قد حصلت عليه من الوكيل المذكور، كما هو مذكور في رسالتي إلى وزارة الخارجية، بتاريخ 9 نوفمبر الماضي. وتم الاحتجاج بشدة على هذا العمل العنيف؛ وأُصر على أن القرض كان معاملة خاصة بي، وكنت مسؤولاً عنها وحدي بصفتي التمثيلية. كررت للوكيل ما كنت قد أبلغته به من قبل، أنني أبلغت حكومتي بهذا الأمر منذ ما يقرب من أربعة أشهر، ومن المحتمل أن أتلقى قريبًا بعض المساعدة؛ وأنه على أي حال الدين مضمون، ومن أجل الحصول على مهلته، عرضت أن أقدم له أي تعويض معقول عن التأخير. رفض الاقتراح: أكد أنني وعدت بالدفع عند وصول القائد؛ وأصر على أن يتم الدفع له. أنكرت أنني قد أعطيته أي تأكيد بالدفع عند وصول القائد؛ لكنني اعترفت، وهو ما كان صحيحًا، أنني قلت له، آمل أن تكون لدي وسائل الدفع عند وصول فرقاطة من أمريكا. وكررت له أنني سأقدم له أي تضحية معقولة كتعويض لو وافق على تأجيل التسوية حتى وصول كهذا. كل ذلك كان عبثًا - (شايلوك يجب أن يحصل على رطل لحمه.)[14] عاد القائد إلى البيت الأمريكي؛ وبناءً على طلبه، مثلت بنفسي

14- شايلوك (Shylock): هي إشارة رمزية إلى شخصية المرابي اليهودي في مسرحية «تاجر البندقية» لوليام شكسبير. يُضرب به المثل في الجشع الشديد والمطالبة الحرفية والقاسية بالحقوق أو الديون مهما كانت مؤلمة، حيث أصر في المسرحية على قطع «رطل من لحم» خصمه وفاءً لدين لم يُسدد. استخدمها الكاتب هنا لوصف ابتزاز «الباي» وإصراره على نيل مكاسب مادية مجحفة من الولايات المتحدة دون مراعاة لأي اعتبارات دبلوماسية أو إنسانية. (المترجم)

أمام الباي وسألت إذا كان احتجازه بأمره. لم يعطني إجابة مباشرة؛ لكنه أشار إلى أنه تم بعلمه. لم يكن هناك بديل سوى أن يقوم القائد بتسوية هذا الطلب قبل أن يتمكن من الحصول على إذن بالصعود على متن السفينة. لذلك،

توجه إلى المفوض العام الفرنسي، الذي تعهد بتقديم المال مقابل سنداته، على ليفورنو: ولكن من أجل تعويض القائد، أقترح أن أضع في يديه لصالح الولايات المتحدة تنازلاً عن جميع ممتلكاتي من أي نوع، سواء كانت عقارية، أو شخصية، أو مختلطة، لتُستخدم في سداد هذا المبلغ في حالة عدم قبول التكاليف الطارئة، التي تسببت في هذا القرض، عند التسوية النهائية؛ ويرافق هذا البيان حساب بذلك.

كان من المرغوب فيه أن أتمكن من المثول بنفسي في مقر الحكومة، مع قسائمي، من أجل تقديم التوضيحات التي قد تتطلبها طبيعة الموضوع: لكن القائد يعتقد أن ذلك سيكون ضارًا جدًا بمصالح الولايات المتحدة هنا في هذه الأزمة. يؤمل، مع ذلك، أن يتم منح هذا التسهيل حالما يسمح به وضع الأمور. أنا الآن محروم تمامًا من الأموال والائتمان هنا، ولا أعرف من أين أحصل على وسائل العيش اليومي. لقد أعرب لي القائد وغيره من السادة ذوي الرتب في الأسطول عن موافقتهم التامة على وكالتي العامة وإجراءاتي العامة، في هذه الإيالة: لكن أحداث الأمس يبدو أنها أثارت بعض المشاعر غير السارة. لم يكن لدي أي مخاوف من مثل هذا الحدث. كان من المستحيل أن أتصور أن الاحترام المرتبط بشخص القائد سيُنتهك. إنه أمر غير مسبوق، حتى في تاريخ تجاوزات البربر.

هذا الصباح، زار القائد، برفقة السيد كاثكارت، والدكتور ديفيس، وأنا، الباي في القصر. بعد التوصل إلى اتفاق ودي في قضية الغنيمة، من خلال تعهد القائد بإعادة جميع الممتلكات التونسية، وطُرح موضوع القرض الذي ذُكر سابقًا. طُرح السؤال على الباي ما إذا كان القائد قد اعتُقل بأمره؟ أجاب بشكل مراوغ؛ قائلاً: «لم يكن من اللائق أن يغادر قائد دون القيام بزيارة وداعية؛ وأن لديه خيولًا جاهزة لهذا الغرض، أي، في صباح الرابع.» وفي الوقت نفسه، في صباح الثالث، كان القائد قد استنتج أنه من غير الضروري

أن يودع الباي؛ وأن الصباح التالي، كانت العربات قد أُعدت لهذا الغرض. قال له الوكيل التجاري، إنه يعتقد أن قضية الغنيمة يمكن تسويتها دون صعوبة في القصر؛ وأنه يمكن الحصول على تأخير لدفع هذا الرصيد من خلال إشراك وساطة الوزير. لكن السلوك المراوغ والمثير للريبة للحكومة فيما يتعلق بمطالبات الغنائم، كما ورد في تقريري أمس، قد دفع القائد إلى الذهاب على متن السفينة؛ لإجراء اتصالاته الإضافية مع القصر من خلال القنصلية؛ وترك لي تسوية هذا الرصيد. وكان احتجازه هو النتيجة.

لم أستطع الامتناع عن الاحتجاج بعبارات حادة ومتحمسة مع الباي ضد هذه الإهانة الوطنية وخرق الضيافة. شرحت له الوسائل التي أملكها لتسديد هذا الدين. أنني أبلغت حكومتي بالفعل بظروف القضية؛ وأن الإجابات لا يمكن أن تتأخر طويلًا الآن. أن لدي سببًا للاعتقاد بأن الثقة التي أظهرها دائمًا من جانبه تجاهي، ونزاهة سلوكي تجاهه، كانت ستحميني من هذه الجرح لمشاعري وسمعتي. أن هذا القرض، كما يعلم جيدًا، نشأ عن إجراءات قسرية تمامًا؛ أنني دفعت علاوة قدرها ألفي دولار للحصول عليه؛ وأنني مُنعت من سداده في وقت أنسب بسبب الإهانات التي تعرضت لها في بلاطه؛ خاصة الاحتيالات المطلقة لوزيره، مصطفى أغا الذي سرقني حرفيًا. متظاهرًا بالإهانة من هذه التهمة، كما هو معتاد في جميع الحالات عندما يُقاوم أو يُلام؛ اتهمني بالجنون. والباي، مهتمًا بقضيته، أمرني فورًا بمغادرة بلاطه. أجبت: «حسنًا لست مستاءً من مغادرة بلاط لم أختبر فيه سوى القليل من العنف والإهانة.» لكنني طالبته ببيان اعتراضاته على وكالتي؛ وإذا وجدني غير عادل، فليعلن ذلك. مخاطبًا القائد، أجاب: «القنصل رجل ذو قلب طيب، ولكن رأسه خاطئ. إنه عنيد جدًا وعنيف جدًا. يجب أن يكون لدي قنصل ذو مزاج أكثر انسجامًا مع مصالح البربر» متى وفيماذا أسأت؟ قال، لقد انتهكت قوانين بلاده بضرب رعاياه: وذكر فامين، ومسيحي آخر، ويهودي. اعترفت بأنني، قبل ثلاث سنوات، عاقبت فامين. لكنني أنكرت أنه كان من رعاياه؛ على الرغم من أنني كنت أعرف أنه عبده الطوعي سلوكه تجاهي استحق العقاب: لقد كان غادرًا، وغير أمين، ووضيعًا. ولم أجد وسيلة أخرى للعدالة، فاستخدمت التأديب الذي سأستخدمه مرة أخرى في ظروف

مماثلة. أما بالنسبة لليهودي، فلم أكن معتادًا على تحمل إهانة في منزلي بصبر من أي رجل؛ ناهيك عن يهودي جزائري. القضية الأخرى قد تم تحريفها له. فيما يتعلق بوكالتي العامة، كنت واعيًا بأنني لم أقصر في واجبي ولا في احترامي له كأمير. اعترف الباي بذلك. كررت له أنني عانيت من كل أنواع الأذى، والاعتداء، والإهانة في إيالته؛ وشكرته بصدق على أمره لي بالخروج منها.

لذلك، تأجلت التسوية إلى الدورة التالية. قضى معظم الصيف والخريف في إدارة وتحسين مزرعته في بريمفيلد. في يناير 1804، توجه السيد إيتون إلى واشنطن لتسوية حساباته بموافقة الكونغرس، بعد أن رفضت وزارة الخارجية السماح بمبلغ 23,000 دولار التي أُنفقت في محاولة الحصول على تعاون الباشا السابق، بالإضافة إلى بعض المطالبات الصغيرة.

المقتطف التالي من رسالته إلى رئيس مجلس النواب يستحق القراءة.

بعد أن استعرضت هذا البيان للأحداث التي أنتجت بنود مطالبتي المعروضة الآن على هذا المجلس الموقر؛ وعرضت أهم معاملات وكالتي؛ سواء فيما يتعلق بجهودي للحفاظ على السلام في تونس أو للمساعدة في عمليات الحرب ضد طرابلس؛ أرجو أن يُعتبر، أنه فيما يتعلق بالأخيرة، لم أكن سوى الوكيل الرئيسي لإجراء أوصى به وحث عليه ليس فقط السيد كاثكارت، وهو وكيل للحكومة، وأكثر دراية باحتمالات نجاحه، ولكن أيضًا كل وكيل ومواطن آخر للولايات المتحدة تمكنت من استشارته، والذين كانوا يستحقون ثقتي. وهو إجراء تبناه في النهاية كل قائد ظهر في تلك المحطة منذ أن اتخذ شكلاً؛ ووافق عليه الرئيس. أنني لم أتخذ أي خطوات في هذا الإجراء إلا ما نتج عن الموقف الذي وُضعت فيه وطبيعة واجبي؛ وإلا ما حظي بموافقة السيد كاثكارت وغيره من ضباط الحكومة الذين كانوا على الأرض. أنه، بقدر ما كان لوكالتي أي تأثير على الإجراء، فقد نجح: وأنه، إذا لم نختبر جميع الفوائد المحسوبة الناتجة عن تأثيره الكامل، فيجب أن يُعزى ذلك إلى خمول قائد أو قادة لم يكن لي سيطرة على سلوكهم. أنه لم يكن يُخشى من أي نفقات للولايات المتحدة من شأنها أن تنشأ عن هذا الإجراء. بل على العكس من ذلك، أن مثل هذه النفقات التي قد تكون عرضية لمتابعته وسيتم تغطيتها من نجاحه؛ وأنه سيكون توفيرًا عامًا في الأرواح والممتلكات: وكان من الممكن

أن يكون هذا هو الحال في النهاية لو تمت متابعته بحيوية مناسبة.

قد لا يكون من غير المناسب أن أذكر، أن سفينتي «غلوريا» كان من المفترض أن تُستخدم في هذه الحالة الطارئة فقط حتى وصول قائد إلى الساحل. لكن كان من المستحيل أن نتخيل أن وصوله سيتأخر أحد عشر شهرًا بعد أن نضجت الخطة للتنفيذ، أو أنه، عند وصوله وإيجادها في تلك المرحلة، لن يبذل أي جهد لتنفيذها. لقد تم التوسل إليه لإرسال سفينة واحدة فقط من سفنه مع الوكلاء إلى الباشا الصديق من أجل تشجيع مثابرته حتى يتمكن من جلب الأسطول بأكمله للتعاون معه. ورفض هذا بحجة أن السفن كانت على حصص غذائية قصيرة، ويجب أن ترافقه جميعها إلى جبل طارق للتزويد. وقد يكون هذا هو الحال؛ ولكن، مع ذلك، صحيح أن الأسطول بأكمله بقي تسعة أيام بعد وصوله إلى ذلك الميناء دون أن يأخذ حتى بسكويتة واحدة أو دلوًا من الماء: وكان القائد مشغولًا بسمو الأمير الملكي، دوق كينت، في طلب محكمة أميرالية للفصل في قضية ديفيد فالينزي، اليهودي، الذي قبض عليه من سفينة إمبراطورية، بالقرب من مالطا. وصحيح أن أول ظهور لهذا القائد أمام طرابلس لم يكن حتى 22 مايو 1802. صحيح أنه خلال فترة عامه، من وصوله الأول إلى المحطة، لم يحرق أبدًا أونصة من البارود؛ باستثناء تحية ملكية أُطلقت في جبل طارق احتفالًا بعيد ميلاد جلالة الملك البريطاني؛ أو في مناسبات مماثلة. وصحيح أيضًا، أنه خلال فترة سبعة عشر شهرًا قاد فيها كامل قوة الولايات المتحدة في البحر الأبيض المتوسط، لم يظهر إلا تسعة عشر يومًا أمام ميناء العدو

بالتأكيد لا أشعر بأي ميل لأداء دور المخبر: ولن أذكر هذه الحقائق لولا أن تلك التقصيرات قد أثرت عليّ بعمق؛ وأثقلت عائلتي، وعلى حد علمي، أدخلتني في فقر مدقع. بينما، لو كنت مدعومًا بتلك الطاقة، بل بتلك النزاهة، التي تستحقها ثقة الحكومة في القائد العام للحملة، لكنت قد أنقذت شرفي وممتلكاتي. لكنت قد أنقذت نفسي على الأقل من إذلال هذا النداء إلى عدالة وحساسية الهيئة التشريعية الوطنية. ويُعتقد بثقة، أن بلدي كان سيجني فوائد دائمة من جهودي.

من المفترض أن المشروع مع أحمد باشا[15] لا يزال ممكنًا. وإن مجرد وجوده دليل على احتفاظه بموقع مهيب للعدو؛ لأنه من المعروف جيدًا، أن طاغية تركيًا لا يدع منافسًا له يعيش أبدًا إذا كان بإمكانه تدميره.

يجب أن يُسمح لي بالتمسك بالرأي، الذي حفز سلوكي في هذه القضية، بأنه الطريقة الأكثر أهلية لتأمين سلام دائم مع تلك الإيالة؛ لأنه لا يوجد إيمان في المعاهدات مع الباشا الحاكم.

إلى جانب الانطباع الذي سيُترك على العالم، من خلال هذا النوع من العقاب، سيكون له تأثير مفيد على إيالات البربر الأخرى. بالنسبة لهم، ستكون السابقة مروعة؛ لأنه لن يكون من الصعب جدًا في حالة الحرب إثارة منافس في أي من تلك الإيالات؛ وحكومة الجزائر كونها عسكرية انتخابية؛ وباي تونس، على الرغم من أنه وراثي، إلا أنه الآن محتل بالاغتصاب. قد يفسر هذا ربما، سبب انسحاب مصطفى أغا، بعد المداولة، من التزاماته معي لصالح إعادة تأسيس الباشا الشرعي لطرابلس.

ولكن، سواء كان المشروع لا يزال عمليًا أم لا، يُعتقد، أنه تم تقديم أدلة كافية لإقناع فهم كل من يرغب في الاقتناع، بأن الهدف الذي سعى إليه ذلك المشروع كان يستحق التجربة. مع التعليمات التقديرية التي كنت أحملها، كنت سأعتبر نفسي مذنبًا بإهمال إجرامي لو لم أبذل كل جهد لتأمينه: لأنه إذا سنحت فرصة مواتية تضع حياة وسلطة العدو في أيدينا، ألم يكن من الخيانة إهمالها؟

يمكن التأكيد دون تهور أو مبالغة، أن ترتيباتي مع الباشا المنافس فعلت لإزعاج العدو في عام 1802 أكثر من كامل عمليات أسطولنا. ومع ذلك، كانت القوة المرسلة إلى البحر الأبيض المتوسط في ذلك الموسم كافية لجميع أغراض الحرب؛ ومع الموقف المواتي الذي تم تأمينه، كان من الممكن أن تنهي الحرب في غضون ستين يومًا بعد الوصول إلى الموقع، لو كان الوصول في الوقت المناسب. هذا ليس رأيي الوحيد. بل باي تونس نفسه، عندما سمع بالخطة

15-أحمد باشا القره مانلي (Hamet Karamanli) هو باشا طرابلس المخلوع، والوريث الشرعي للعرش الذي خلعه أخوه الأصغر «يوسف باشا القره مانلي». هو الشخصية التي تحالف معها ويليام إيتون في مشروعه الجريء لغزو طرابلس براً من مصر (حملة درنة)، وكان إيتون يأمل في تنصيبه حاكماً لضمان سلام دائم للولايات المتحدة.

المتفق عليها بين الأمريكيين والباشا المنافس، صرخ: «لقد هلك يوسف» يعني الباشا الحاكم في طرابلس. ولكن يُدّعى الآن أن المشروع قد تم التخلي عنه من منطلق الاقتصاد كان أوليفر كرومويل يبحث عن الرب، كلما كان لديه مناسبة لإخفاء وجهات نظره الشريرة عن الإنسان يبدو أن الاقتصاد هو قناع اليوم لدينا لإخفاء أكثر الإهمالات الواضحة وغير المبررة للواجب لأنه يتم استخدامه من قبل كل منافق يحتاج دناؤه إلى درع للتقصير؛ أو يسعى حسده إلى طمس فضل تلك اليقظة والطاقة التي لا يمكن إلا أن توبخ تراخيه. ومن هنا، فإن القائد ذاته، الذي يرتعد من تبذير رؤية سفينة واحدة تُستخدم في متابعة إجراء كان يمكن أن يقرر مصير العدو؛ وفي لحظة لم يكن فيها بديل، يبدو غير مبالٍ تمامًا بتوظيف كامل القوة البحرية العاملة للولايات المتحدة لمدة عام كامل، في البحر الأبيض المتوسط، في خدمة امرأة متزوجة

لا يُستنتج من هذه الانتقادات أن مقدم الطلب كافر بمبدأ الاقتصاد على العكس من ذلك، يؤمن، أن ليس في البخل والذخائر الحربية؛ بالإضافة إلى الجواهر القيمة، والمبالغ الكبيرة من المال التي ندفعها باستمرار في أيديهم، لصبرهم، وللفدية العرضية للأسرى. هولندا وإسبانيا، كونهما مقاولين بحريين، تزودانهم بالمهندسين والعمال في أحواض بناء السفن الخاصة بهم. بدون هذه الموارد، كانوا سيغرقون تحت جهلهم ونقص وسائلهم ليصبحوا مؤذين.

لماذا هذا الإذلال؟ لماذا نزودهم بوسائل قطع رقابنا؟ إنه من سياسة بيت تجاري مهينة في حكومات الدول الأوروبية الأكثر قوة لإبقاء هؤلاء اللصوص موجودين كرادع للمشاريع التجارية لجيرانهم الأضعف. ومن مبدأ التنافس التجاري بين الخاضعين للجزية، الذي يهدف إلى إزاحة بعضهم البعض في صداقة هؤلاء الزعماء من خلال تفوق الرشاوى: وهو مبدأ، مع ذلك، يهزم في النهاية هدفه الخاص: — لأن البايات، مثل المحامين المرتدين، يأخذون رسومًا من كلا الجانبين؛ وبقاعدة الاستثمار، يوجهون حججهم ضد العميل الذي لديه أثقل محفظة.

بالإضافة إلى الدوافع العادية لدول البربر لارتكاب القرصنة على تجارتنا، هناك حافز آخر بنفس القوة، قد يكون قد فات على انتباه شعب الولايات

المتحدة، ومع ذلك يؤثر علينا فقط.

نحن منافسون للجزائر وتونس في سلعة رئيسية واحدة من التجارة في البحر الأبيض المتوسط؛ وهي حبوب الخبز. تُشحن كميات هائلة من هذه السلعة الحيوية سنويًا من كلتا الإيالتين إلى موانئ إسبانيا وإيطاليا، وأحيانًا إلى موانئ أخرى في العالم المسيحي في ذلك البحر. هذه السلعة التجارية في الجزائر، وكذلك جميع السلع الأخرى، مستأجرة من قبل بيت اليهود بكري وبوشناق؛ الذين من المعروف أن لهم تأثيرًا مهيمنًا في جميع شؤون تلك الحكومة.

في تونس، تحتكر الحكومة نفسها التجارة الكاملة للمملكة. في كلتا الإيالتين، لا يمكن لهذا التنافس إلا أن يثير روحًا من العداء لتجارتنا؛ خاصة وأن هذه هي السلعة الرئيسية للتصدير في كلا البلدين؛ والتي تتلقى منها الحكومتان إيراداتهما الرئيسية؛ وسلعة دائمًا ما تجد بيعًا سريعًا ودفعًا نقديًا، أو مقايضة مفيدة. وفي حالة حدوث قطيعة مع أي من، أو كلتا الإيالتين، فإن توفير إمدادات وفيرة من هذه السلعة لتلك الموانئ في البحر الأبيض المتوسط، وحصار محكم لموانئ العدو، قد يعيدهم إلى صوابهم. ويكون، بعد غزو بلادهم، تلك أقوى ضربة يمكن توجيهها. ويقنعهم بأنهم بحاجة إلى صداقتنا بقدرما نحتاج نحن إلى صداقتهم. أليست هذه هي مبادئ المعاملة بالمثل التي نرغب في إرسائها؟

أنا أدرك أن هذه الملاحظات قد تُعتبر غير ذات صلة بموضوع هذا العرض. ومع ذلك، قد لا تكون غريبة عن مصلحة مواطني الولايات المتحدة. إنها نتيجة ملاحظات مأخوذة على الفور؛ ومن المحتمل، في فترة ليست بعيدة جدًا، أن يُكتشف أنها تحتوي على جواهر.

أعتقد أنه سيظهر أيضًا بوضوح أن الإجراءات التي اتبعتها مع أحمد باشا، لم تكن مدفوعة بدوافع أقوى من حماس متقد لخدمة بلدي من خلال معاقبة عدو، يستحق العقاب بجدارة، بطريقة اقتصادية وفعالة ومشرفة: أن هذه الخطة كان من الممكن تنفيذها في الوقت المناسب، لو لم يتخلَّ عني الشخصيات ذاتها التي كان تنفيذها يعتمد عليها في نهاية المطاف: وبالتالي كان سيتم توفير كل النفقات على الولايات المتحدة.

يُرجى النظر بعين الاعتبار إلى أنَّ مخرجات هذا المشروع، مهما كانت، لن تقع تبعاتها الثقيلة إلا على كاهل مواطن أمريكي واحد؛ مواطنٌ قد يواجه الهلاك فعلياً. ولكن، اسمحوا لي بجراءة النداء: هل يليق بشرف أمتنا وعظمتها أن تصدر حكماً بمثل هذه القسوة على نوايا كانت مخلصة ومستقيمة؟ وأين هو البلد الذي طالب قائداً يوماً بتعويض نفقات معركة خاضها أو حملة قادها؟

إنني على يقين بأنه إذا ما قُيِّدت النفقات التي أنفقتها في تدبير شؤون مهامي —والتي اعتقدت مخلصاً أنني مخولٌ بصرفها من الأموال العامة— ضمن مستحقاتي، فسيتبين أن لي رصيداً ضئيلاً بذمة الولايات المتحدة. أما إذا رُفض ذلك، فسأجد نفسي في لحظة واحدة مفلساً ومعدماً، تذرو الرياح كدح خمس سنوات قضيتها في المنفى بلا نتاج.

أدرك تماماً أن هناك فرداً أو اثنين ممن خدموا في البحر المتوسط، يتمنون في قرارة أنفسهم أن تؤول شؤوني إلى هذه النهاية المأساوية. هؤلاء، وسعياً منهم لإخفاء تقصيرهم الفاضح عبر اتهامي بسوء الإدارة، تواروا خلف قناع المجهول ليوصموا سلوكي أمام العامة بعبارات ‹المضاربة› و‹الاحتيال›. ورغم ثقتي بأن هذه الأرواح الاتهامية الوضيعة لا تستحق عناء الرد، إلا أن الواجب تجاه وطني يحتم عليّ التوضيح.

لو كانت دوافع ‹المضاربة› قد ساورتني في أي مرحلة من مراحل وكالتي، لما عزّت عليّ الوسائل، ولتمكنت من تحقيق ذلك بطرقٍ يستحيل كشفها أو تعقبها. فلو أنني قبلتُ، على سبيل المثال، صكاً بألفِ قفيزٍ من القمح —تُقدر قيمتها بعشرة آلاف دولار— قدمها لي ‹باي تونس› تعبيراً عن مودته الشخصية حين كان يطمح للحصول على وعدٍ بسفينة حربية، فأيُّ عينٍ بشرية كانت ستكشف ذلك الاحتيال؟ لقد كانت تلك صفقة بيني وبينه، آمنة من الاختراق تماماً.

هل يُعقل أن أعرض سلامتي الشخصية للخطر مرة أخرى، وبدلاً من الانصياع لأوامر ‹الباي›، أستغل حماية جواز سفره لإرسال السفينة إلى ‹ليفورنو› لبيعها بخسارة محققة؟ لقد ضحيتُ بعشرة آلاف دولار في بيع تلك السفينة، ولا أجد سبيلاً لاستردادها. ولو أنني استجبتُ لرغبة ‹الباي› —أو

بالأحرى لأمره القاطع في ذلك الحين— تحت أي ذريعة مقبولة، لكان لزاماً على الولايات المتحدة تعويضي عن كافة النفقات المترتبة على ذلك. لكنني أفتخر بأن علم الولايات المتحدة لم يُرَيوماً يرفرف في خدمة قرصان بربري طوال مدة وكالتي.

إنني لا أدّعي لنفسي فضلاً استثنائياً في رفض تلك العروض أو قبول تلك التضحيات؛ فذلك ما يمليه عليَّ واجبي الوظيفي. ولكن، إذا ما احتكمنا إلى المنطق السليم ومبادئ التحليل الرصين، فإن الاستنتاج الطبيعي هنا هو أنني —وبدلاً من التفريط في المصلحة العامة لأغراض نفعية— قد ضحيتُ بمصالحي الخاصة وسلامي الشخصي وفاءً بالأمانة التي اؤتمنت عليها.

إن الغباء وحده هو من يصدق أن رجلاً بكامل قواه العقلية قد يتجاهل فرصاً آمنة ومضمونة لإثراء نفسه عبر ‹مضاربات› غير مباشرة، ليلجأ بدلاً من ذلك إلى ابتكار مخططات احتيالية مفضوحة تحت جنح الظلام وأمام مرأى ومسمع من العالم. ومن حقّي هنا أن يملأني الغضب تجاه هذه المحاولة الشيطانية لاغتيال سمعتي والنيل من شرفي.

وفي سبيل تبيان مدى الاحترام الذي حظيت به وكالتي في نظر النخبة من الأوروبيين، قد لا يُعدُّ من قبيل الغرور أو عدم اللياقة أن أرفق طيه نسخة مترجمة من رسالة كتبها رجل ذو مقام رفيع، أملتها عليه مشاعره الصادقة فور سماعه بتلك الأحداث؛ بالإضافة إلى شهادة من زملائي الوكلاء الأوروبيين، قُدمت لي عبر وسيطنا ‹فارس دي بوت›.

صديقي العزيز والمحترم، تونس، 7 مارس 1803.

نراك أخيراً وقد طُردت من تونس بعد أن سعيت بشرف لسنوات لدعم مصالح أمتك، دون أن تنال للحظة واحدة خلال هذه الفترة ذلك الاعتبار اليسير المرتبط بوظيفة القنصل في بلاد البربر. نراك أخيراً ضحية —آمل أن تكون مؤقتة— لسلسلة من الأحداث والمكائد التي أجرؤ على القول إن أصلها يعود إلى طبيعة سلام الولايات المتحدة مع هذه الإيالات: تلك الإيالات التي يحتقر العالم المتحضر حيلها الممتزجة بالغطرسة والجهل، بينما يداهن ادعاءاتها السخيفة بصبر ووضاعة مفرطين.

إن سلامكم مع تونس، قبل كل شيء، تم التفاوض عليه في ظل أسوأ

الظروف؛ إذ كان لا بد أن يُجرح الكبرياء الشخصي لهذا الباي حين ظهر داي الجزائر، أو بالأحرى يهوده، بمظهر الحماة لكم، مما أعطى انطباعاً بتبعيتكم للأمير التونسي. هذه الخطوة غير الحكيمة لم تمنحه رأياً عالياً في دهاء حكومتكم، كما أن حربكم غير النشطة مع طرابلس لم تعطه فكرة عظيمة عن قواكم القسرية.

لم يسبق لقنصل أن سلك طريقاً شائكاً كالذي سلكته، ولا سعى لهدف صعب المنال مثلك. إن من تشرف بتمثيل أمتك عند وصولك إلى هنا، من خلال الدور الخانع والذليل الذي أداه في هذا البلاط، كانت لديه الوسائل والوضاعة لبيع مصالحكم؛ وهو المصدر الرئيسي، في رأيي، الذي يمكن أن تُعزى إليه معضلاتك السياسية اللاحقة.

هل يمكن الشك للحظة في الرأي غير المواتي الذي تركه هذا الرجل لدى الباي بخصوص حكومتكم؟ لن أخفي ما لاحظته وقت التفاوض على معاهدتكم؛ أن باي تونس لم يؤسس سلاماً مع الولايات المتحدة، بل اعتبرها مضاربة تجارية، وكان «فامين» هو وكيله السياسي الذي سيجني العمولة. وأجرؤ الآن أن أضيف بأن الباي كان على حق، والخطأ كان من جانب الولايات المتحدة.

وليس من المستغرب أن خليفة «فامين»، باتخاذه موقفاً حازماً يليق بالمنصب الذي جاء لشغله، قد فاجأ الباي بهذا التناقض الفريد. كان له الحق في أن يشك فيما إذا كان هذا الحزم نابعاً من شخصيتك الفردية، أم هو الموقف الذي أرادت حكومتكم إظهاره هنا. ألا يجب أن يقول في نفسه: إن أمة يبدأ تمثيلها بأحد أتباعي لا تنوي تحدي ادعاءاتي؟ إن هذا الإهمال في اختيار الشخص الأول —الذي كان يجب أن يحدد درجة الاعتبار التي ستتمتع بها الولايات المتحدة مستقبلاً مع هذه الإيالة— هو خطأ تثبت العواقب الفعلية حجمه، وسيكون من الصعب محو آثاره الضارة؛ والزمن سيوضح ذلك.

سامح هذه الأفكار، ففكرة رحيلك تفرضها عليّ، والصداقة المبنية على الاحترام تشارك الصديق أذاه. لا أقدم لك التعازي، فالواجب المؤدى لا يستوجب مثل هذا الشعور.

أنا سيدي، صديقك المخلص والمكرس، دي فوا. (المرسى، على بعد فرسخين من تونس)

إلى: ويليام إيتون، قنصل الولايات المتحدة.

ترجمة الشهادة: «نحن الموقعون أدناه، قناصل ووكلاء الحكومات الأوروبية في إيالة تونس، نشهد بأن السيد ويليام إيتون، قنصل الولايات المتحدة الأمريكية، قد دعم في كل مناسبة حقوق أمته بكرامة ونزاهة. ويسعدنا أن نمنحه هذه الشهادة إثباتاً للحقيقة ولصداقتنا. حُرِّر في تونس، في 10 مارس 1803.»

التواقيع:

أ. نيسن (القنصل العام للجمهورية الباتافية).

ديفواز (المفوض العام والقائم بأعمال الجمهورية الفرنسية).

هنري كلارك (القائم بالأعمال البريطاني).

جوزيف هوبيز (القنصل العام والقائم بأعمال ملك إسبانيا).

هولك (القنصل العام لملك الدنمارك).

مدينة واشنطن، 16 فبراير 1804.

ملاحظة: عند الرسو في الجزائر، صعد القنصل «أوبرين» إلى متن السفينة، وأبدى دهشته برؤيتي، فشرحتُ له ملابسات طردي من تونس. أفاد «أوبرين» بأنه كان يتوقع وقوع هذه الأزمة، ودوّن أسبابه كتابةً كما يلي:

«تشهد هذه الوثيقة أنه في أكتوبر 1802، أعلن لي تاجر يهودي محترم من تونس، بحضور «بكري» و»بوشناق» من الجزائر والقبطان «أندرو موريس»، أن مصطفى آغا (الوزير التونسي) قد صرّح لليهودي المذكور بسعيه لتحطيم القنصل الأمريكي في تونس. وأضاف التاجر أن مصطفى آغا عازمٌ على استبداله بقنصل أمريكي آخر يكون أكثر مرونة وطواعية لأهدافه.»

حُرر بتوقيعي في العاشر من مارس 1803. (توقيع) ريتشارد أوبرين

ورغم ذلك، لم تُسوَّ حسابات السيد «إيتون» بالكامل خلال هذه الدورة. وفي أبريل، عُيِّن وكيلاً بحرياً للولايات المتحدة لدى عدة دول بربرية،

بهدف التوجه إلى «أحمد باشا» ودعم عمليات الأسطول الأمريكي ضد الباشا الحاكم في طرابلس.

وفي يونيو، أبحر على متن الفرقاطة «جون آدامز»، برفقة السفن «بريزيدنت»، و«كونغرس»، و«إسيكس»، و«كونستليشن»، في مهمة رسمية إلى البحر الأبيض المتوسط تحت قيادة القائد «صامويل بارون» والقادة «رودجرز»، و«ج. بارون»، و«كامبل»، و«تشونسي». وفي عرض البحر، كتب السيد «إيتون» الرسالة التالية إلى العقيد «دويت» من سبرينغفيلد:

إلى العقيد دويت: مقتطف من رسالة تعليمات وزير الخارجية إلى «جيمس ليندر كاثكارت» بتاريخ 9 أبريل 1803:

«كانت آخر رسائلي إليكم بتاريخ 22 أغسطس 1802، ويومها كان يُؤمل نجاحكم في إبرام سلام مع طرابلس نظراً لملائمة الظروف حينذاك. وإذ حرمتنا التقلبات من مزايا تلك الأزمة، فقد تقرر رفض المقترحات التي عُرضت علينا. ونحن مصممون على الرفض، ولكن قد يُستغل الظرف لتقديم مقترحنا بشأن المدفوعات الدورية التي نهدف من خلالها لإظهار سخاء الولايات المتحدة تجاه الإيالة، وتحفيزها على الحفاظ على السلام، وتنظيم المطالب غير الواضحة حالياً.

ويُعتقد أيضاً أنه إذا كانت الظروف مواتية، فمن المستحسن تسوية المطالب مع تونس أولاً بسعر معتدل، كمقدمة للتفاوض مع طرابلس؛ إذ سيضع ذلك حداً لمطالب الإيالة الأولى، ويوفر معياراً للتسوية مع الثانية، ويستبق أي مقترحات مبالغ فيها قد يقدمها الباي. على أن يكون المبلغ المسموح به لتونس قابلاً للدفع نقداً، وبمعدل لا يتجاوز 10,000 دولار سنوياً، تُسدد كل سنتين إذا أمكن ذلك.»

توجه السيد «كاثكارت» إلى تونس بهذه الشروط ومعه هدية قنصلية في صيف عام 1803، إلا أن الباي رفض القنصل والشروط معاً. ويبدو أن «كاثكارت» قد كتب إلى الباي من متن السفينة بعد مغادرته أو أثناء الرسو في الميناء بعبارات اعتبرها «سموه» إهانة لكرامته، وعليه، قدم الباي التماساً إلى رئيس الولايات المتحدة.

ونتيجة لذلك، وجه الرئيس الرسالة التالية:

من توماس جيفرسون، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، إلى الأمير الأكثر شهرة وعظمة، باي تونس.

صديقي العظيم والجليل،

لقد تلقيتُ في الوقت المناسب رسالتكم المؤرخة في 7 سبتمبر، والتي كررتم فيها طلبكم الحصول على فرقاطة مجهزة بـ 36 مدفعاً، وهو الطلب الذي كنتُ قد أوضحتُ لكم في مناسبة سابقة أن الظروف لا تسمح لنا بتلبيته. وإني لمضطر للإفادة بأن تلك الظروف لا تزال قائمة؛ إذ أن قوتنا البحرية مصممة بدقة لتتناسب مع احتياجاتنا الدفاعية، ولا يمكننا من قبيل الحكمة تقليصها بالتنازل عن أي جزء منها.

سيكون من دواعي أسفي الشديد أن يُساء فهم دوافعنا في هذا الشأن؛ فنحن نُثمن صداقتكم حق قدرها، كما نفعل مع سائر الدول التي تربطنا بها علاقات، وكما نفترض أن تلك الدول تُقدر صداقتنا بالمقابل. إن هذه الصداقات المتبادلة، والمصالح الناشئة عنها، هي قيم متكافئة، وتمنح لكل طرفٍ مطالبات وحقوقاً متساوية تجاه الطرف الآخر.

ولم نقصر يوماً في تقديم الأدلة على حسن نوايانا تجاهكم بصفة خاصة، إلى جانب التزامنا الأمين ببنود معاهدتنا؛ ولن نتوانى، في المناسبات الملائمة، عن الاستمرار في إظهار مظاهر المودة المعقولة، وفقاً للقواعد التي ننتهجها في تعاملاتنا الدولية.

ونظراً لمكانتكم عندنا، فقد تلقيتُ ببالغ القلق ما ورد في رسالتكم المؤرخة في 14 سبتمبر، بخصوص السيد «كاثكارت» الذي اخترتُه ليخلف السيد «إيتون» لديكم؛ فقد وقع اختياري عليه ثقةً مني في نزاهته وخبرته ودماثة خلقه، لكنه تصرّف بطريقة أثارت استياءكم. وأؤكد لسموكم أنه بفعلته تلك قد خالف نصاً وروحاً التعليمات الموجهة إليه، والتي قضت بأن يكون سلوكه مرآةً لتقديري واحترامي لشخصكم على المستويين الشخصي والرسمي، وأن يعمل على تعزيز أواصر الصداقة معكم بكل اهتمام وتفانٍ. وبمجرد خروجه عن هذا المسار، فقد تجاوز حدود واجبه؛ وتعتبر أفعاله مرفوضة لمناقضتها الأوامر الصادرة إليه. وفور عودته إلى الولايات المتحدة، سيُحاط علماً بالمدى الذي ابتعد فيه عن نوايا رؤسائه.

إن رؤيتكم الحكيمة بأن روابط السلام بين الأمم لا ينبغي أن تنقطع بسبب تصرفات متسرعة وغير مصرح بها من وكيل عام، هي رؤية جديرة بحكمتكم وعدالتكم. كما أن موافقتكم على إدارة السيد «ديفيس» لشؤوننا مؤقتاً لحين إرسال وكيل بصلاحيات رسمية، تعكس رغبة صادقة في الحفاظ على التفاهم المشترك، وهو ما يبشر باستمرار السلام بيننا.

وعند اختيار شخصية أخرى لتحل محل السيد «كاثكارت»، سأحرص على انتقاء شخص يؤدي واجبات الاحترام والتقدير تجاهكم على أكمل وجه؛ وبذلك وحده سيكون ممثلاً أميناً وناطقاً برغبتنا الصادقة في أن يظل السلام والصداقة القائمان بين بلدينا ثابتين ودائمين.

وأسأل الله العلي القدير، يا صديقي العظيم والجليل، أن يحفظكم في رعايته المقدسة.

حُرر في مدينة واشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية، في هذا اليوم السابع والعشرين من يناير، عام ألف وثمانمئة وأربعة.

(توقيع) توماس جيفرسون جيمس ماديسون، وزير الخارجية

إنَّ مَن يتلقى الإهانة ثم ينشدُ العفو عن الإساءة لا بد وأن يكون غارقاً في الجبن. إنَّ لغة رسالة الباي التي يطالب فيها بفرْقاطة، هي لغة سيدٍ يخاطب عبده، أما الروح التي أملت ردَّ الإدارة الأمريكية، فهي تخون إلهام «جبل كارتر» بأكثر مما تعكس صمود «تلة بنكر».[16] وإذا ما تذكرتُ يوماً أنني قرأتُ فيضاً من هذه الدناءة الروحية بقلم أمريكي، فقد كان ذلك في رسالة التهنئة التي بعث بها المستشار «ليفينغستون» إلى «تاليران»، يهنئه فيها على الجرائم التي اقترفها «بونابرت»، ذلك القرصان الإمبراطوري.

من ذا الذي يشكُّ بعد الآن في أن فيلسوفنا السامي (جيفرسون) وهو

16- تجمع هذه العبارة بين التهكم السياسي والرمزية التاريخية؛ فإشارة إيتون إلى «جبل كارتر» (مقر إقامة الرئيس جيفرسون) ترمز إلى السياسة الفلسفية الميالة للانسحاب والمهادنة، وربما تلمّح إلى واقعة فرار جيفرسون التاريخي من القوات البريطانية. وفي المقابل، ترمز «تلة بنكر» إلى معركة الصمود والتضحية العسكرية في الثورة الأمريكية. وبذلك، يتهم إيتون الإدارة بأن ردها على تهديدات القراصنة يعكس روح التخاذل والهروب (إلهام جبل كارتر) بدلاً من روح المواجهة والكرامة الوطنية (صمود تلة بنكر).

مسيحيٌّ متواضع، بعد أن تجلّت في مواقف عديدة طاعته العمياء لأحد أكثر أوامر هذا الدين إماتةً للنفس: «مَن لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً»؟ ولكن، إذا كان «للكاذبين نصيبٌ في البحيرة المتقدة بالنار والكبريت»، فإنه بقدر كرهه لرائحة البارود، يظلُّ معرّضاً بشكل مخيف لملامسة رائحة الكبريت.

قد يذكر بعض أصدقائي أنني عند وصولي إلى أمريكا في 5 مايو 1803، صرّحتُ في صحيفة فدرالية ببوسطن بأن باي تونس طالب الرئيس بفرقاطة، لكن مقالاً ظهر بعد فترة وجيزة في العمود الرسمي لصحيفة «سميث» بواشنطن ينفي صحة بياني. لقد كشف فحوى ذلك المقال بوضوح أنه صادرٌ عن وزارة الخارجية، وهكذا غُرقت حقيقتي تحت وطأة احتيال مهيب. ولكن كم كان ذلك النفاق وقحاً وعديم الخجل، حين تجرّأ على تمرير هذا الخداع على الجمهور، ووصمي ظلماً بالتحريف، في حين أن التعليمات الموجهة للسيد «كاثكارت» بتاريخ 9 أبريل كانت حبيسة المكاتب لأكثر من شهر، وقد صدرت بالفعل مع قبول استقالتي.

لقد تضمن بندٌ في تلك التعليمات إشارةً إلى نيتي مغادرة القنصلية، حيث رافق رسالة الباي تقريرٌ دقيق حول المقاومة التي أبديتُها تجاه طلبه، وتأكيداتي له بأنه لن ينال أي تنازلات أخرى من الولايات المتحدة كشرط للسلام. وأعلنتُ صراحةً أنه إذا قُدّمت أي تنازلات، فلن أكون الوسيط الذي تمرُّ من خلاله. وطلبتُ من السيد «ماديسون» إبلاغ الرئيس بهذا القرار، مع التعبير عن عزمي الأكيد بأنه ما لم يتم دعمي في الموقف الذي اتخذتُه في ذلك البلاط القرصاني - وهو موقفٌ التزمتُ فيه بدقة بروح تعليمات السيد جيفرسون- فلن أخدم يوماً آخر في ذلك المنصب. لقد لمستُ فتوراً في إجراءات الحكومة تجاه شؤون البربر ينذر بالإذلال، ولما لم أعتد التراجع، لم تكن لدي أي نية للمشاركة في هذا الدور. لكن القصد كان إخفاء هذه التعليمات الأخيرة عني، تماماً كما كان القصد إخفاء ذلك الإذلال للشرف الوطني عن الرأي العام.

لقد طُرحت كرامة الولايات المتحدة تحت أقدام «رؤساء بيوت الكلاب» في تونس وطرابلس، عبر صلوات رئيسنا بأن يقبلوا جزيةً ستُفرض على أجيالنا

القادمة، بشرط ألا تظهر كجزء من المعاهدة العامة إذا أمكن استبدالها بوعد وتفاهم خاص.

عند وصولي إلى واشنطن، احتججتُ لدى السيد «ماديسون» على الخداع الذي مورس على الجمهور، وعلى الضرر الذي لحق بشرفي بسبب التكذيب الصادر من مكتبه. لكنه تهرب من الموضوع. فزرتُ الرئيس والنائب العام؛ وكان أحدهما مهذباً والآخر جاداً، لكن لم يبدِ أي منهما استعداداً لإنصافي، وهو الأمر الذي كان يجب أن تمليه عليهم نزاهتهم الوظيفية. كان من السهل ملاحظة أن نظام علاقاتنا مع الإيالة قد تغير، مما جعل آرائي مجرد تاريخ مضى. ورغم إقرار الجميع بحماسي، إلا أنهم بدوا غير مبالين بالتضحيات التي قدمتُها، وحريصين على إخفاء تلك التغييرات عني.

حاولتُ إقناع السيد «لينكولن» بضرورة الرد على اعتداءات البربر بالمثل، لكنه تجنب الموضوع وألهاني بتنبؤات عن «ألفية سياسية» وشيكة في الولايات المتحدة؛ ألفية ستكون نتيجةً لـ «طيبة قلب» السيد جيفرسون و»نزاهة عقله». وزعم أن جميع الأمم، حتى القراصنة والمتوحشون، سيتأثرون بفضيلته المقنعة ودبلوماسيته البارعة! ومهما كانت الثقة التي قد أضعها في نبوءات «تلك السيدة العجوز»، لم يستطع عقلي قبول صحة البيانات التي بنيت عليها. ولم أستطع إلا أن أعبر عن شكوكي في الطبيعة البشرية، فهي أفسد من أن تتأثر بعجيبة «الخير التأملي». إن أفعال الخير الطوعية التي تمارسها الدول تجاه الآخرين، إذا حملت طابع الضعف أو الجبن، فإنها لا تُنتج إلا الازدراء وتدعو للإهانة بدلاً من الامتنان.

لا توجد أفعالُ خيرٍ ستحمي أمةً من النهب ما لم تكن لخزائنها أقفالٌ ولمخازنها حراس. إن البشر يقدمون التقدير لما يرهبهم لا لما يشكرونه؛ فحتى «جوبيتر» نفسه لم يكن ليتلقى القرابين على مذابحه لولا صواعقه، ولم يسبق لرجل أن نال احتراماً حقيقياً ما لم يضع الآخرين أولاً تحت وطأة خشية الخطر.

كان تلميذي القديم (لينكولن) غارقاً في عبادة صممه السياسي لدرجةٍ لم تعد تؤثر فيها مبادئي الأخلاقية، تماماً كما لو كنتُ أعظ مرشحاً شاباً من

طائفة «الهوبكنتونيين».[17] ومع ذلك، لم يجرؤ على إخباري بأن «الخير المنتج» الذي يعول عليه كل شيء، سيتجلى تجاه الأمم الأخرى في صورة استنزاف لخزانتنا الوطنية، وامتهانٍ مخزٍ للشرف القومي.

إن روح الخنوع ذاتها التي أملت تعليمات التاسع من أبريل 1803، هي التي تتخلل رسالة الرئيس في السابع من يناير 1804. وكلاهما يتناقض تماماً مع النظام الذي حثثتُ عليه في بياني أمام الكونغرس؛ لدرجة أنني أدركتُ الآن القوة الكاملة لملاحظة قالها لي أحد أعضاء تلك الهيئة: «إن الحكومة ما كانت لتطلب خدماتك لو كان بإمكانها الاستغناء عنها».

لقد قُدّم مقترح «الجزية» البالغة عشرة آلاف دولار من قِبل «كاثكارت» لباشا طرابلس، ومن قِبل «أوبرين» و«ديفيس» لباي تونس؛ وبفضل الله، رُفض العرض من كليهما لكونه ثمناً تافهاً لصداقتهما. وقد تجلت مشاعر الأمة بوضوح في هذا الشأن لدرجة أن الرئيس لن يجرؤ على تجديد العرض. ومع ذلك، لا يساورني أدنى شك في أن «الفيلسوف العفيف» (جيفرسون) سينسب لنفسه في النهاية فضل استعادة شرف البلاد من خلال مقاومة تلك الشروط المذلة.

لو سارت الأمور وفق حسابات رئيسنا، لكانت البحرية قد فُككت ورُبطت في «مونتيسيلو» منذ زمن. ولكنه الآن سيحصد أيضاً فضل إحياء الأسطول واستعادة هيبة العلم الوطني. يا له من رجل محظوظ في الأزمات، بقدر ما هو دنيء في الحسابات.

بينما تُحجب الحقائق الجاهزة، يلوذ الرئيس بالتحفظ. ويرى وزير الحرب أن الأفضل هو دفع الجزية، وهو ما قاله لي صراحةً في مكتبه الخاص. أما «غالاتين»، فينكمش خلف طاولة المحاسبة كيهودي جبان. ويترك السيد «ماديسون» كل شيء لوزارة البحرية. أما أنا، فقد تلقيتُ أوامر الانضمام

17- الهوبكنتونيون (Hopkinsians): حركة لاهوتية مسيحية متشددة نشأت في أمريكا، كان أتباعها يؤمنون بمبدأ «الإيثار المطلق»، وهو الاستعداد للتضحية بالمصلحة الشخصية وحتى الخلاص الأبدي من أجل «الخير العام». استخدم إيتون هذا المصطلح للتهكم على مسؤولي إدارة جيفرسون، واصفاً إياهم بالمتعصبين لأيديولوجيتهم السياسية السلمية؛ فهم في نظره يتمتعون بمثالية عمياء وغير واقعية، تجعلهم مستعدين للتضحية بشرف الدولة وكرامتها تحت مسمى «الخير المنتج»، تماماً كما يضحي «الهوبكنتوني» بنفسه بدافع ديني متطرف لا يقبل النقاش.

للحملة من الوزير «سميث» —وهو رجل نبيل بقدر ما تسمح له علاقته بالإدارة— دون تعليمات خاصة تنظم سلوكي، ودون رسالة إلى الحليف الذي وُجهت إليه، بل ودون أي توجيه للقائد العام بشأن الإمدادات؛ لم يكن هناك سوى تقدير عام وغامض حول «التعاون»، وعبارة باهتة عن وكالتي تقول: «السيد إيتون هو وكيلنا لعدة إيالات، وسيكون مفيداً للغاية»، وبذلك ألقى بمسؤولية المشروع عليّ بالكامل.

إن سياسة الرئيس الحذرة تهدف للتهرب من المسؤولية، مع ضمان الاستئثار بكل ثمار «المعجزة» لنفسه؛ فهو لا يرسل إمدادات ولا يرد على الزعيم الصديق. فإذا فشل التعاون، نجا هو من تهمة الانخراط في مشروع «نظري وخيالي»، وأُلقيت التهمة عليّ. أما إذا نجح، فسيُنسب المجد كله لبصيرته وفطنته. لا يمكن تصور موقف أكثر إحراجاً من هذا الذي وضعتني فيه هذه السياسة الماكرة.

أنا لا أحمل دليلاً واحداً من حكومتنا على صدق نواياها تجاه الباشا الصديق، الذي خاب أمله مرة في وعودي السابقة لأن القائد الميداني لم يدعمها. وليس أمامي بديل سوى أن أضع صدري في مواجهة هذا الإخلال بالثقة؛ وهذا ما اعتزمتُ فعله. سأخاطر بخلاصي الدنيوي لأقنع الحليف والعالم بإخلاص بلادي، رغم يقيني بأن الإدارة لا يحركها سوى الاعتبارات الفردية المحضة.

بهذه العزيمة أنا متوجه إلى مصر، وما سأفعله هناك سيتطلب أقصى ما أملك من قدرة على الارتجال. إن شعبي ينتظر الكثير من هذا التحالف، وأصدقائي يثقون في حماسي لإنجاحه؛ ولن أخيب هذه الثقة. ورغم أن المغامرة تبدو يائسة ومحفوفة بالمخاطر، إلا أنني سأنجزها أو أهلك دونها. أنا مؤمن بأن أسرانا لن يحرروا بدون فدية إلا بهذه الطريقة؛ وكمواطن، أفضل تعريض نفسي لخطر الموت في الحرب على إذلال كبريائي باستجداء قرصان بائس لفداء رجال هم الورثة الشرعيون للحرية.

ولكي لا تُحرف نواياي وتُصنف كـ«مضاربة»، قررتُ ألا أقبل أي تعويض عن خدماتي سوى ما يغطي نفقاتي الفعلية.

وختاماً، أقول ما قاله سفير إسبرطة لوكيل ملك الفرس حين سئل:

«هل جئت بمفوضية عامة أم لحسابك الخاص؟» فقال: «إن نجحتُ، فللجمهورية؛ وإن فشلتُ، فلنفسي».

تفضلوا، سيدي، بقبول فائق الاحترام. خادمكم المطيع، ويليام إيتون.

إلى: توماس دويت،

من واقع اليوميات

21 يوليو 1804: عند الظهيرة، لاحت لنا «بيكو»، إحدى جزر الأزور الغربية. كانت الرياح مواتية ومنتظمة طوال ثمانية عشر يوماً.

الأحد، 22 يوليو: تغيرت الرياح لتصبح معاكسة، ومع ذلك واصلنا الاقتراب من الجزر.

السبت، 28 يوليو: استمرار الرياح المعاكسة. وعند منتصف النهار، أطلقت الفرقاطة «كونغرس» إشارة تدل على رصد جزيرة «ماديرا».

الأحد، 29 يوليو: واصلنا المناورة في مواجهة الرياح المعاكسة حتى وصلنا على بعد ثلاثة فراسخ من «فونشال»، المدينة الرئيسية في ماديرا.

الأحد، 5 أغسطس: في تمام الساعة الواحدة والنصف ظهراً، أبصرنا مدينة «الصويرة» (ماجادور) على الساحل الأفريقي باتجاه الجنوب الشرقي، وسط رياح لا تزال معاكسة.

الأحد، 12 أغسطس: في الساعة التاسعة والنصف صباحاً، تراءى لنا «رأس سبارتيل» باتجاه الجنوب الشرقي على بُعد ستة فراسخ. ومن الملاحظ أنه منذ مغادرتنا لـ «رأس هنري» في 5 يوليو وحتى رؤيتنا للجزر الغربية في 21 منه، كانت الرياح قوية ومواتية تماماً من جهة الجنوب الغربي؛ أما من ذلك التاريخ وحتى رؤية «رأس سبارتيل» في 12 أغسطس، فقد ظلت الرياح قوية ومعاكسة من جهة الشرق، مع انحراف طفيف نحو الشمال أو الجنوب. وهكذا، قطعنا ثلثي رحلتنا في أول خمسة عشر يوماً، بينما استغرق الثلث الأخير اثنين وعشرين يوماً من الكدح. ومع ذلك، كان الطقس طوال الرحلة رائعاً، لدرجة أنه لم يمر يومٌ واحد تعجز فيه قوارب السفينة عن الإبحار بأمان.

14 أغسطس: أبحرت السفينتان «بريزيدنت» و«كونستليشن» باتجاه طرابلس، تحت قيادة القبطانين «رودجرز» و«تشونسي».

الخميس، 23 أغسطس: في تمام الساعة الثالثة والنصف عصراً، وبينما كنا عند خط عرض °36 30، شمالاً، وخط طول °2 48، 19»، غرباً، وعلى بُعد 17 ميلاً غربي «رأس دي غات» (كابو دي غاتا)، داهمتنا هزة زلزالية عنيفة استمرت لنحو ثلاثين ثانية. كان وقعها يشبه تماماً احتكاك قاع السفينة بقوة فوق صخرة صلبة. كنا حينها نتناول العشاء في المقصورة، فاستولى الذعر على الجميع وظننا أن السفينة قد جنحت، فهرعنا إلى السطح. استمرت السفينة في مسيرها دون أن نجد أي أثر لصخور أو مياه ضحلة. كانت السفينة «كونستليشن» قريبة منا، وكان قبطانها يتناول العشاء على متن سفينتنا نظراً لهدوء البحر، وسرعان ما أطلقت «كونستليشن» إشارة لطلب التحدث مع القائد، وعند اقترابها، أفاد طاقمها بأنهم ظنوا أنهم ارتطموا بصخرة. وبالتحري، وجدنا أنهم شعروا بالهزة في اللحظة ذاتها التي شعرنا بها على متن «بريزيدنت». كما كانت هناك سفينة تجارية دنماركية على بُعد فرسخ تقريباً...

إلى السيد سميث، وزير البحرية. مالطا، 8 سبتمبر 1804.

أفيدكم بأن «أحمد باشا» متواجد حالياً في الإسكندرية، تحت حماية وصداقة «باي مصر»؛ وهو ينتظر، كما أبلغني السيد «بوليس»، ردوداً على مقترحاته المقدمة إلى حكومة الولايات المتحدة. ويبدو أن المزايا المتوقعة من التعاون معه لم تتضاءل رغم الحوادث التي تلت تقديم تلك المقترحات. لا يزال الباشا الحاكم (في طرابلس) مصراً على طلب فدية مقابل الأسرى، إلا أن الضائقة الناتجة عن الوسائل التي يضطر لاستخدامها لفرض ادعاءاته لن تؤدي إلا إلى زيادة سخط رعاياه وتعجيل ثورتهم؛ ذلك أن الذين يعيشون منهم على القرصنة والتجارة قد قُطعت مواردهم بسبب الحصار المزعج، أما الذين يعتمدون على الكدح فقد أُجبروا على الخدمة العسكرية دون أجر، وهم جميعاً على أتم الاستعداد لاغتنام أي فرصة للتخلص من هذا العناء وفق مبادئ تتسق مع ولائهم ودينهم.

إن هؤلاء الرعايا، الذين انحازوا سابقاً لمصلحة الباشا الصديق (أحمد باشا)، لا يزالون على عهدهم. وبناءً عليه، أعتقد جازماً أنه يمكن إزاحة العدو عن أريكته في اللحظة ذاتها التي يُحرر فيها مواطنونا من أغلالهم. وتظل العقبة

الوحيدة التي تعترض نجاح هذا الإجراء هي نقص الإمدادات اللازمة للتنفيذ؛ فهي غير متوفرة في الأسطول، ولم يقرر القائد بعد ما إذا كان تفسير تعليمات الرئيس يمنحه صلاحية تقدير شرائها وتوفيرها، ومن المرجح أن يبدي رأيه في هذا الشأن بعد تحديد خطة عملياته.

مفكرة الرحلة:

السبت، 15 سبتمبر: صعدتُ على متن سفينة «البريغ» «آرغوس» المتجهة إلى مالطا في تمام الساعة الثامنة صباحاً.

الاثنين، 17 سبتمبر: الوصول إلى مالطا عند منتصف الليل، حيث وجدتُ السفينة «كونستيتيوشن» راسية هناك.

السبت، 22 سبتمبر: الإبحار إلى «سيراكيوز» برفقة القائد «بريبل».

الاثنين، 24 سبتمبر: الوصول إلى سيراكيوز، والسفينة «جون آدامز» راسية في مينائها.

الأربعاء، 26 سبتمبر: النزول في ضيافة السيد «جورج دايسون»، الوكيل البحري للولايات المتحدة؛ وهو رجل من «يوركشاير»، يتسم بالصراحة والمباشرة وحسن الوفادة.

الاثنين، 8 أكتوبر: تناول العشاء بضيافة حاكم «مسينا».

الخميس، 18 أكتوبر: الإبحار من مسينا برفقة القائد «بريبل» والقبطان «ديكاتور».

الجمعة، 19 أكتوبر: الوصول إلى سيراكيوز في الثالثة عصراً.

الاثنين، 22 أكتوبر: الإبحار مجدداً نحو مالطا.

الثلاثاء، 23 أكتوبر: الوصول إلى مالطا في الثالثة عصراً. تواجدت في الميناء الفرقاطات: «بريزيدنت»، «كونستيتيوشن»، «جون آدامز»، والبريغ «آرغوس» (التي وصلت للتو)، و«فيكسن»، والسكّونة «إنتربرايز». القائد «بارون» مريض على البر.

الجمعة، 26 أكتوبر: العودة مساءً إلى متن «بريزيدنت».

السبت، 27 أكتوبر: إبحار «آرغوس» نحو محطة العمليات قبالة طرابلس في التاسعة صباحاً.

الأحد، 28 أكتوبر: دخول السفينة «كونغرس» للميناء.

الاثنين، 29 أكتوبر: دخول السفينتين «إنتربرايز» و«إسيكس».

31 أكتوبر: إبحار السفينة «إسيكس».

الخميس، 1 نوفمبر: إبحار السفن «بريزيدنت»، «كونستيتيوشن»، و«كونغرس» في قافلة مرافقة لسفينة إمداد متجهة لسيراكيوز.

3 نوفمبر: الوصول إلى سيراكيوز.

4 نوفمبر: القائد «بارون» ينقل علمه إلى «إسيكس» وينزل للشاطئ لسوء حالته الصحية. إبحار «بريزيدنت» بقيادة القبطان «كوكس» في دورية، حيث التقت بـ«كونغرس» على بُعد ثلاثة فراسخ من الميناء وهي تقوم بتمشيط الساحل.

5 نوفمبر: العودة للميناء؛ ووجدنا «آرغوس» راسية بعد عودتها من الساحل بسبب تفشي مرض «الجدري» بين طاقمها، حيث بقيت في الميناء لمدة يومين.

10 نوفمبر: الانتقال مع الأمتعة إلى متن «آرغوس» لاستئناف الرحلة نحو مصر. في هذا الوقت، تولى القبطان «رودجرز» قيادة «كونستليشن»، والقبطان «ديكاتور» قيادة «كونغرس».

14 نوفمبر: إبحار «آرغوس» نحو مالطا والإسكندرية. وتركتُ في ميناء سيراكيوز الفرقاطات: «كونستيتيوشن»، «كونغرس»، «إسيكس»، «جون آدامز»، والبريغ «سكورج». القائد «بارون» لا يزال مريضاً على الشاطئ، بينما توجهت «بريزيدنت» لطرابلس لتحل محل «كونستيتيوشن».

16 نوفمبر: الوصول لمالطا عند منتصف الليل.

17 نوفمبر: الإبحار صوب مصر.

25 نوفمبر: الوصول للإسكندرية والانتظار لرسو مرشد السفينة.

26 نوفمبر: دخول الميناء القديم، حيث وجدنا أميرالاً تركياً بسفينة خطية وست فرقاطات. حيت «آرغوس» علم الأميرال بـ 17 طلقة مدفع، ورُدت التحية بـ 13. صعد القنصل البريطاني «صامويل بريغز» إلى متن سفينتنا .

27 نوفمبر: حيت «آرغوس» القلعة بـ 15 طلقة مدفع، ورُدت التحية طلقة بطلقة. ثم قمت بزيارة الأميرال، والحاكم، ومشرف الإيرادات، وكان

الاستقبال حافلاً وبالغ الحفاوة.

28 نوفمبر: انطلقتُ صوب «القاهرة الكبرى» عن طريق «رشيد»، برفقة الملازم «بليك» من البحرية، والملازم «أوبانون» من المارينز، والضابطين البحريين «مان» و«دانييلسون»، والسيد «فاركوهار»، والسيد «سليم علي» (ترجمان)، وستة من الخدم.

29 نوفمبر: تأخر مسيرنا في الإسكندرية بسبب هبوب رياح معاكسة.

30 نوفمبر: أبحرتُ إلى «رشيد»، وفي التاسعة مساءً رست السفينة في «خليج أبو قير» نظراً لانتصاف الليل وخطر عبور «البوغاز» في الظلام. وانتهزتُ الفرصة لزيارة ميادين معارك 8 و21 مارس 1801، التي لا تزال هياكل العظام البشرية تكسو أديمها.

1 ديسمبر: رفعتُ المرساة في الثالثة فجراً، وعند الواحدة ظهراً دخلتُ مصب النيل. وفي الثانية والنصف بعد الظهر، التقى بنا قارب إنجليزي يحمل ترجمان القنصلية في رشيد والدكتور «ميندريتشي». وصلنا الرصيف في الثالثة، وكان في استقبالنا الرائد «ميسيت» (المقيم البريطاني في القاهرة)، الذي لجأ إلى رشيد فراراً من الأخطار التي هددت الأوروبيين جراء استعار الحرب بين الأتراك والمماليك، واصطحبنا إلى منزل السيد «باتروتشي» (البيت القنصلي). وبدأ حينها صوم رمضان.

2 ديسمبر: حيل بيني وبين المضي قدماً نحو القاهرة بسبب استيلاء أحد المشايخ على جميع القوارب.

3 ديسمبر: استأجرتُ قارباً يُدعى «مارش» وجهزتُ المؤن اللازمة للرحلة.

4 ديسمبر: انطلقنا إلى القاهرة، وانضم إلى جمعنا القبطان «فينتشينزو» (سيكرتير الرائد ميسيت) والدكتور «ميندريتشي»، بينما عاد السيد «بليك» للإسكندرية. زاد عدد مجموعتنا ليصل إلى ثمانية عشر رجلاً مدججين بالسلاح والعتاد. وبسبب الرياح المعاكسة، اقتربنا من قرية «ديبي» على الضفة الغربية.

5 ديسمبر: استمرت الرياح في معارضتنا فنزلنا إلى البر؛ حيث وجدنا السكان بائسين يرزحون تحت وطأة الاضطهاد. أبحرتُ في الحادية عشرة صباحاً، ورُفع العلم البريطاني على سفينة القبطان «فينسنت» بينما رُفع

علم الولايات المتحدة على سفينتنا. تناولتُ العشاء في حديقة قرب قرية «فوا»، وأدهشتُ الأهالي بدقة إطلاقي للنار، إذ شطرتُ برتقالة مرتين من ثلاث طلقات على مسافة 35 ياردة.

6 ديسمبر: نزلتُ إلى قرية «صابور»؛ حيث أخبرونا أن خمسمائة من الأرناؤوط الألبان قد غادروا القرية قبل يومين بعد أن عاثوا فيها فساداً ودمروا كل ما هو ثقيل أو نامٍ. كما أبدى السكان ذعراً كبيراً من مخيم للعرب على بُعد أربعة أميال، وكانوا يبتهلون لعودة الإنجليز، وهي الدعوة التي تلهج بها ألسنة المصريين قاطبة.

7 ديسمبر: نزلتُ بالقرب من قرية على الجانب الشرقي للنيل، ففر القرويون منا، لكنهم حين اطمأنوا وعلموا أننا إنجليز، توافدوا نحونا مهللين، وعرضوا خدماتهم وهتفوا طويلاً آملين في استقرارنا ببلادهم.

الأربعاء، 19 ديسمبر: زرتُ جزيرة الروضة و«المقياس» وقرية الجيزة؛ ووجدتها جميعاً ركاماً من الأنقاض، حتى قصر «مراد بك» أضحى خراباً تاماً.

20 ديسمبر: زرتُ «مصر القديمة»؛ ملجأ السيدة العذراء وابنها يسوع. وعند مرورنا بسوق الغلال، تجمهر الناس وهتفوا بصلوات حارة لتقوم في البلاد حكومة «ذات قبعات مستديرة» (أوروبية) لعلَّ سعر الخبز ينخفض؛ ظناً منهم أننا إنجليز.

مراسلات سياسية:

أجبته بأن الضيق لا ينبغي أن يثير استياء العقول السامية، وأن العفو عن العدو التائب شيمةٌ إلهية أسمى من العقاب. فأومأ بالموافقة، ووعد بإرسال الرسل لتقفي أثر «أحمد باشا»، وهو ما فعلتُه أنا أيضاً. وبفضل تدخل صديقي الدكتور «ميندريتشي» ذي النفوذ في البلاط، وبالتواصل مع كبير مترجمي نائب الملك، لا يساورنا شك في الحصول على إذن بصعود الباشا وحاشيته إلى السفينة.

تكمن العقبة الوحيدة الآن في كيفية انسحاب الباشا من قضية المماليك دون إثارة شبهات الخيانة التي قد تودي بحياته. فإذا تكلل ذلك بالنجاح، سنكون قد أنجزنا أصعب مراحل خطتنا؛ فلديَّ ثقة مطلقة بأننا عبر نفوذه

نستطيع حشد الأعداد اللازمة من الرجال للزحف على طرابلس وضمان النجاح التام. وهذا، بمساندة قوتنا البحرية، سيكفل قطع كافة الإمدادات عن العدو بفعالية تامة.

17 ديسمبر: في مقابلة مع نائب الملك مساء أمس، وبعد عتاب «أحمد باشا» لانضمامه إلى المماليك، تم إقناعه بمنحه «صك عفو» وإذنٍ بالمرور عبر معسكرات الجيش التركي ومغادرة مصر دون التعرض له. وتظل المهمة الآن هي فصله عن «البايات» المتمردين.

مقتطفات من رسالة إلى «جون كوتون سميث»

القاهرة الكبرى، 26 ديسمبر 1804

هل تنتظر مني قولاً جديداً عن مصر بعد ما خطّه «فولني» و«دينون»؟ لقد رَسَما الواقع كما هو بلا مبالغة. إنَّ وجه مصر الجغرافي لم يتغير، أما وجهها السياسي فقد تبدّل فحسب؛ حيث خلف الجنود البريطانيون النظاميون «اللصوص الفرنسيين»، ثم خلف «اللصوص الأتراك» كليهما. السيادة على البلاد اليوم هي مَحطٌّ نزاعٍ بين هؤلاء وبين المماليك، بينما يتربص أعراب الصحراء —كغربان ونسور برارينا— بمؤخرة كلا الجيشين لينهبوا كل ما تُرِك بلا حماية. إن بؤس السكان هنا يفوق الوصف، حيث يطوف الخطر واليأس في كل مكان.

حقاً، إنَّ مصر لتبحثُ عن منقذٍ في غازٍ أجنبي، ومع ذلك يسودُ بين الناس معتقدٌ غريب بأنَّ الخلاص لن يكون إلا على يد «المماليك» (وهم في الأصل عبيد)؛ إذ يظنون أنَّ الله قد قضى منذ زمن «يوسف» —الذي كان مملوكاً— بأنَّ خلاص هذه البلاد لا يكون إلا على أيدي العبيد. هم يقرّون بفضل الإنجليز في طرد الفرنسيين، ويبتهلون لعودتهم لطرد الأتراك، لكنهم ينسبون كل هذا الفضل لروح «يوسف».

ومهما كانت الأحداث التي قد تشكّل مستقبل حكومتها، فإنَّ مصر —كقرطاج وسيراكيوز— لن تستعيد مجدها الغابر؛ فقد كانت تجارة الهند والبحر الأحمر المتدفقة عبر سهولها هي سر عظمتها، وحين اتخذت تلك الثروات قنواتٍ جديدة، رحلت معها العظمة. لذا، لا أرى في «النيل الشهير»

ما يتفوق على أنهارنا كأوهايو ومسيسيبي وسافانا؛ حتى تماسيحه وأسماكه لا تزيد شأناً عن مثيلاتها لدينا، فهي من الفصيلة ذاتها، وما حكايات فئرانه إلا أساطير جغرافية لم تكتمل. ولكن حين أقارن جداولنا الصافية، وضفافنا الصحية، ومناظر أنهارنا البهيجة في «هدسون» و«كونيتيكت»، وسعادة مواطنينا هناك، بمياه النيل العكرة وضفافه الطينية وصحاريه الأبدية، وبؤس فلاحيه الغارقين في الجهل والعبودية.. فإنَّ الفارق يبدو جلياً في المظهر والجوهر.

في الثامن من ديسمبر، وصلنا القاهرة دون حوادث، ووجدتُ هناك رئيس وزراء أحمد باشا وأحد حكامه الموثوقين، اللذين أكدا لي ما سمعته في الإسكندرية من أنَّ الباشا قد انحاز بالفعل لمماليك «البايات» وأصبح يُعدُّ عدواً للحكومة. كنتُ قد أرسلتُ إليه سعاةً سريين من الإسكندرية ورشيد، وأتبعتهم الآن بثالثٍ ورابع من العاصمة. وبسبب عدم معرفتي بمكان وجوده تحديداً، كانت خشيتي من صعوبة إخراجه من البلاد تفوق خشيتي من صعوبة الوصول إليه؛ إذ وجدتُ أنَّ القيام بذلك سراً أمرٌ مستحيل، ومجرد المحاولة قد تُفشل هدفنا وتُعرض سلامتنا للخطر. لذا، وفي أول مقابلةٍ لي مع نائب الملك —الذي وجدته رجلاً أكثر سخاءً وصراحةً مما عُرف عن الأتراك— كاشفته بهدف زيارتي، فلقيتُ منه عرضاً بالمعاونة. ورغم أنَّ هذا ذلل بعض العقبات، إلا أنَّه خلق حرجاً جديداً؛ إذ قد يثير عفو نائب الملك عن أحمد باشا غيرة «البايات»، مما قد يعيق رحيله..

كما واجهتني صعوبة غير متوقعة من القنصل الفرنسي في الإسكندرية، السيد «درويت» (وهو من بيدمونت)؛ إذ لمّح بأننا «جواسيس بريطانيون» بوجوه أمريكية، وأن تواصلنا مع أحمد باشا ليس إلا ذريعة للاتصال بالمماليك الذين يُشتبه في تلقيهم تمويلاً بريطانياً. وهو تلميح خبيث وبغيض. لا أزال عاجزاً عن تفسير سلوك «درويت» الغريب، وإهانة رفض العلم الفرنسي لبروتوكولات التحية المعتادة لعلمنا، وهي الحفاوة التي نلناها من سائر الدول الأخرى. يبدو أنه بعد إطلاعه على هدفنا، سار على نهج زميله في طرابلس لإفشال مهمتنا. ومع ذلك، وجدتُ الوسائل الكفيلة بتحريك الأمور في هذا الجزء من العالم لإزالة هذه العقبة؛ وحصلتُ أخيراً على «رسالة

عفو» و«وثيقة أمان» من نائب الملك لأحمد باشا، أُرسلت إليه في الخامس عشر عبر أربع نسخ وطرق مختلفة.

لقد انتظرتُ الآن بصبرٍ ما ستؤول إليه الإجراءات التي اتخذتُها حتى تلك اللحظة. وفي غضون ذلك، عكفتُ على تقصي أحوال المهاجرين الطرابلسيين المتواجدين في هذه البلاد، وبحثتُ في طبيعة ارتباطاتهم بالأخوين المتنافسين (أحمد ويوسف باشا) ومشاعرهم تجاه الأمريكيين. ومن بين هؤلاء، برز شخصٌ غادر طرابلس قبل تسعين يوماً فقط؛ وهو تركي عثماني كان في خدمة «يوسف باشا» خلال حصار الصيف الماضي، وقد أخضعتُه لفحص دقيق. وبما أنه ظنَّ أنه يتحدث إلى إنجليز، فقد كان صريحاً للغاية في اعترافاته، ولأن شهادته كانت تصب في مصلحة العدو (إذ كان متحمساً لقضية يوسف باشا رغم تركه لخدمته)، فقد اكتسبت قصته مصداقية أكبر.

قال الرجل: «لقد فقدت طرابلس الكثير من الرجال في هجمات الأمريكيين المتكررة الصيف الماضي، وتضررت المدينة تضرراً بالغاً، وساد الذعر بين السكان لدرجة أن أحداً لم يعد ينام في المدينة، وتوقفت فيها كافة الأعمال». كما أكد رواية انفجار سفينة الحريق «إنفرنال» على يد القبطان «سومرز» بعد أن صعد على متنها زورقان بخاريان؛ وعند ذكره لهذه الحادثة، غلب البكاءُ الرجل. وأشار إلى أن الحرب كانت مشؤومة على سفن القراصنة، فقد توهموا أن الأمريكيين ليسوا سوى تجار سيسهل الخروج إليهم واقتيادهم، لكنهم وجدوهم «شياطين» لا يمكن نيل شيء منهم في الحرب، ولهذا السبب ترك خدمة الباشا. وأفاد بأن «يوسف باشا» مصممٌ على عدم إبرام صلح مع هؤلاء «الكفار» حتى يخضعهم ويجبرهم على دفع ثمن الأضرار التي ألحقوها بأسطوله ومدينته. كما اعترف بأن «أحمد باشا» له أصدقاء كثر في طرابلس، لكن «يوسف باشا» لم يغفل عنه، ومن المؤكد أنه استأجر قتلة لتسميمه، ويبدو أن هؤلاء القتلة أبلغوا سيدهم بنجاح مهمتهم، ومن هنا نفسر شائعات وفاة «أحمد باشا».

وفي الثامن من هذا الشهر، تلقيتُ رداً من الباشا (أحمد) على رسالتي التي بعثتُها من القاهرة، والرد مؤرخ في 26 رمضان (الموافق 3 يناير)، يفيد فيه بأنه سيغادر في ذلك اليوم متوجهاً إلى هذه المقاطعة، وسيقيم في منزل

زعيم عربي يُدعى «محمد الحاج القرشي» حيث سينتظر مقابلتي. وبما أن جميع رسائلي اللاحقة له - بعد صدور عفو نائب الملك- كانت تنصحه بالتوجه إلى «البيت الإنجليزي» في رشيد بضمان جواز سفر نائب الملك، فقد ظننتُ أنه سيسرع بالذهاب إلى هناك، فغادرتُ القاهرة إلى رشيد في الثالث عشر من الشهر ووصلتُها في غضون ثلاثة أيام. ولما لم يظهر له أثر هناك، توجهتُ إلى الإسكندرية في التاسع عشر. وفي العشرين، تلقيتُ رد الباشا على رسالتي المؤرخة في 28 نوفمبر، وهو يحمل المضمون ذاته الذي تلقيتُه في القاهرة. يبدو أن الباشا، لعدم ثقته في نوايا نائب الملك تجاهه، أو ربما لتأخر وصول رسالة العفو إليه قبل مغادرة معسكر المماليك، قد قرر أن تكون المقابلة في المكان الذي حدده أولاً بالقرب من «بحيرة الفيوم» على حدود الصحراء، أي على بُعد نحو مائة وتسعين ميلاً من الساحل. ولا يوجد ما هو أكثر تشككاً من «تركي» في «شرف تركي آخر»، ولهم في ذلك عذرهم؛ إذ لا شيء يضاهي غموض عهودهم الموثقة.

على الرغم من أن السفر في داخل هذا البلد قد أصبح محفوفًا بالمخاطر بشكل غير عادي بسبب غيرة الزعيم التركي؛ بسبب إطلاق العنان للوحشية من خلال همجية الحرب الأهلية؛ وبسبب الأراضي القوية التي يسيطر عليها العرب المتوحشون بسبب تراخي كل القيود من جانب الأتراك والمماليك الذين هم مشغولون جدًا ببعضهم البعض؛ قررت محاولة العبور إلى الفيوم. وفقًا لذلك، في 22 من هذا الشهر، غادرت الإسكندرية مع ضابطين من «آرغوس»، الملازم بليك والسيد مان، وحراسة من 23 رجلاً مركبين بشكل مختلف، وفي مساء 23، وجدت نفسي موقوفًا عند الخطوط التركية، على بعد ما بين سبعين وثمانين ميلاً في طريقي، من قبل قائد دمنهور، الذي يقود مفرزة من حوالي خمسمائة جندي عثماني على الحدود. ولم تستطع أي حجة ابتكرتها أن تخفف من حدة قراره الأول، بعدم السماح لي بالمرور عبر خطوطه؛ على الرغم من أنه في كل شيء آخر عاملنا بتمييز وضيافة كبيرة. على الرغم من أن الاعتراف مهين، لا يسعني إلا أن أثني على السلوك العسكري الصحيح لهذا الزعيم؛ لأنه كان، في حد ذاته، ظرفًا مشبوهًا، أن توجد مجموعة من الأجانب المسلحين وغير المعروفين، يتجهون نحو ملتقى عدوه، دون أي ذريعة أخرى

سوى البحث عن باشا لاجئ لكن هذا الظرف المشبوه تم تعزيزه وتفاقمه من خلال التلميح الذي صدر من القنصل الفرنسي، بأننا جئنا إلى هذا البلد بنوايا سرية معادية للأتراك. كان وضعنا هنا محيرًا إلى حد ما، وغير سار على الإطلاق. لا أتذكر أنني وجدت نفسي يومًا على أرض أكثر حرجًا. إلى الغيرة الطبيعية للتركي، أضاف هذا الجنرال طبعًا شرسًا ووحشيًا؛ بالطبع فخورًا ومغرورًا. هنا كانت نقطة اقترابي. أثنيت كثيرًا على صحة سلوكه العسكري ويقظته. قلت إن هذا ما كنت أتوقعه؛ وما كنت سأفعله بالتأكيد بنفسي في ظروف مماثلة. ولكن، مع العلم بشخصية روحه العظيمة، كنت مصممًا على إجراء مقابلة معه، بثقة تامة في أنه سيساعد إجراءً إنسانيًا بحتًا، ومواتيًا بشكل واضح للمصالح التركية في مصر، وفي حالة عدم تمكني من متابعة هدفي شخصيًا. في الوقت نفسه، بالإشارة إلى مثال نائب الملك، الذي أريته رسالته، والإشارة إلى أنني مكلف بتقديم هدية له كشهادة على رأينا السامي في اسمه ومزاياه، تأثر: قال إن ثقتي لن تخيب؛ ودعا إلى خيمته زعيمًا من قبائل العرب يُدعى أولاد علي، وهم قوم رحل، تم طردهم أو هاجروا من مملكة طرابلس منذ اغتصاب يوسف باشا، والذي شرحت له عملي، وسألته إذا كان بإمكانها إعطاء أي معلومات عن أحمد باشا. صاح الزعيم الشاب، في نشوة، أنه يعرف كل شيء. طلبت منه أن يعلن عن نفسه: لأنه لم يكن لدي أي سر في علاقتي بهذا الباشا.

لقد سبقت، يا سيدي، قصته في البيان الذي قدمته عن الوضع الفعلي للباشا. أضاف أن عشرين ألف رجل، من عرب البربر، مستعدون للسير معه من هذه الحدود لاستعادة وطنهم وميراثهم: كرر أنه يعرف خطتنا؛ والآن بعد أن رآني، سيراهن برأسه للجنرال التركي على أن يحضر لي أحمد باشا في غضون عشرة أيام. وأرسله التركي وفقًا لذلك في صباح اليوم التالي في هذه المهمة.

لا زلت أرى بعض أعراض الشك والقلق على جبين صديقي الجديد والعسكري. لذلك، دون أن أبدو أن لدي أي هدف آخر سوى الحرص على مقابلة الرجل الذي أبحث عنه، ولكن في الحقيقة بهدف إزالة شكوكه، اقترحت عليه العودة إلى مقره، في القرية؛ وقررت إرسال حراستي إلى الإسكندرية؛ والانتظار بنفسي، مع السادة المرافقين وخدمنا فقط، حتى

يعود زعيمنا العربي من الفيوم مع الباشا. وكان لهذا الاقتراح تأثيره المنشود. تركناه واسترحنا في جناح جميل أُعد لهذا الغرض؛ تناولنا المرطبات التي أمر بوجودها في متناول اليد؛ وفي صباح اليوم التالي عدنا، مع حراسة إضافية من معسكره، إلى هذا المكان؛ حيث وجدنا مساكن جميلة، على الطراز التركي، مُعدة لنا.

هكذا، سيدي، لقد رسمت ملخصًا ليومياتي منذ أن افترقنا. هل تتوقع شيئًا عن مصر؛ آثارها؛ عجائبها؟ قد لا تخيب آمالك. أنا مشغول جدًا بالشؤون الحديثة لأفتش المقابر أو أتسلق الأهرامات؛ لنفس السبب ليس لدي وقت لإشباع الفضول؛ أما بالنسبة للعجائب، فلا يمكنني إلا أن ألاحظ ما لا يسعني إلا أن أتأثر به، الجهل المدهش، والغباء المدهش، والطغيان المدهش، والبؤس المدهش الذي يميزبقوة ملامح بلد كان يومًا ما مهد العالم للعلم والحكمة والسياسة الرشيدة والسعادة العقلانية. هنا مادة لمجلد. لا يمكنني تخصيص سوى ستة أسطر للموضوع. لا يقرأ أحد هنا؛ ومع ذلك لا أحد إلا ويظن نفسه ملهمًا إلهيًا. القائد الذي تحدثت عنه أعلاه، في رحلة قصيرة لجمع المساهمات، قطع ما بين خمسين وستين رأس فلاح لجريمة لا تزيد عن الفقر. وخارج البوابة الشرقية لهذه القرية مباشرة، يُقام الآن مشنقة لشنق طفل يبلغ من العمر اثني عشر عامًا، الابن الوحيد لزعيم قرية الرحمانية، لأن والده لا يستطيع دفع المساهمة المفروضة عليه.

يا إلهي أشكرك لأن أطفالي أمريكيون.

27 يناير: منذ أن بدأتُ كتابة هذه الرسالة، تراكمت الظروف لتجعل وضعنا أكثرحرجاً، بل وأجرؤ على القول، مضحكاً. ففي اليوم التالي لدخولنا المنزل الذي نقيم فيه، أُقيمت حراسة على شرفة منزل مجاور، ووُضع حارس تركي هناك بحجة «استنشاق الهواء النقي». كما أُرسل أتراك مسلحون إلى المنزل للبقاء معنا بغرض مرافقتنا كحرس شخصي في نزهاتنا، ووُضع حارس عند بابنا في الفناء السفلي لمنع المتطفلين. وعلى الرغم من أن هذه الترتيبات كانت تبدو مهذبة للغاية، إلا أنني كنتُ سأكون سعيداً لو استغنيت عنها. ولم تظهر مؤخراً أخبار جيدة جداً، ومع ذلك، ومن خلال الظهور بصراحة وهدوء مع الجنرال التركي، يبدو أن شكوكه قد تبددت. إنني أتلقى كل هذه الأدلة

على اليقظة كعلامات على الاهتمام، فأشكره على مجاملاته، وأؤكد له أنني سأحرص على ذكرها بشكل مناسب للرئيس.

وبهذا النوع من الإطراء، تمكنتُ بالأمس من سحبه بعيداً عن حذره لدرجة أنه فتح قلبه واعترف لي بشكل لا لبس فيه بأنه: «في الوضع المتشنج الحالي لهذا البلد، يجب على الأتراك أن يشكوا في الجميع، وخاصة الإنجليز؛ ولكن لديهم أسباب خاصة للشك فينا، حيث أعلن القنصل الفرنسي أننا جواسيس بريطانيون». ماذا يستحق ذلك المتوحش جراء هذه الطريقة المتعمدة والوضيعة التي عرض بها حياتنا لوصمة المشنقة؟ آمل ألا أقابله في الإسكندرية.

16 فبراير، في الإسكندرية: وصلنا مع الباشا والحاشية إلى القطع الإنجليزي بين خليج أبو قير وبحيرة مريوط، قبل أسبوع من يوم الأربعاء الماضي، وهناك واجهتنا صعوبات جديدة. كان القنصل الفرنسي قد سبقني في كسب أميرال هذا الميناء وحاكم المدينة لصفه؛ وبالتالي، توصلا إلى قرار يقضي بعدم السماح للباشا بدخول المدينة ولا بالصعود على متن السفينة. كانت الحجة حينها عديمة الفائدة، لأننا تأخرنا في تطبيقها.

وكان الباشا قد اتخذ من قبل قراراً بالسير برّاً إلى درنة وبنغازي، وهو الآن يدور حول البحيرة ليقيم معسكره في «برج العرب»، على بُعد حوالي ثلاثين ميلاً غرب الميناء القديم بالإسكندرية. في غضون ذلك، شرحتُ لنائب الملك كيف تم ازدراء رسالة العفو التي أصدرها من قِبل مرؤوسيه في هذا المكان، ونتيجة لذلك، وجه «فرماناً» عبر رسول إلى الحاكم يأمره بالامتثال الفوري لمضمون رسالة العفو، وفرض عليه غرامة قدرها خمسة وعشرون ألف قرش. وهكذا انتهى آخر مجهود لي في مصر؛ ورغم اعترافي بأنني تمنيتُ لو لم يسقط غضب نائب الملك بهذه القسوة على حاكمه العاصي، إلا أنني لا أعتقد أنه من الحكمة نصح الباشا بدخول المدينة، خشية أن يُنتقم منه بسبب العقوبة التي جلبها على أخيه التركي في هذا المكان. لذلك، سنبدأ خط سيرنا عبر صحراء ليبيا باتجاه درنة يوم الأربعاء القادم.

تتكون جماعتنا من خمسمائة رجل؛ مائة منهم مسيحيون تم تجنيدهم على الفور ويعملون في خدمتنا. سنتمركز في «بومبا»، وننتظر عودة القبطان

«هال» بالإمدادات والتعزيزات للاستيلاء على مقاطعتي درنة وبنغازي، ولهذا الغرض سيغادر إلى نقطة الملتقى بعد غد.

وهنا رسالة من طرابلس أرسلها العدو مع مبعوث لمنع السماح لأحمد باشا بمغادرة مصر. ولكن، لعدم وجود الوكيل الوحيد الذي ينجح في جميع القضايا هنا، يجب على هذا «الشيطان المسكين» أن يعود في الوقت المناسب فقط ليبلغ يوسف باشا بالمصير الذي ينتظره. فإذا تم دعم إجراءاتنا، فعليه إما الفرار من مملكته أو الموت.

كم سيكون المشهد مجيداً حين نرى مواطنينا الأسرى في طرابلس يسيرون في موكب نصر من زنزاناتهم إلى قصر طاغيتهم، وهم يرفعون علم الولايات المتحدة.

أتشرف بأن أكون، بأقصى درجات الاحترام والمودة القلبية، سيدي العزيز، خادمكم المطيع والمخلص.

ويليام إيتون.

إلى القائد بريبل

الملتقى.

لقد استبقتُ أفكاركم بشأن عدم ملاءمة اقتراب الباشا من الحدود التركية بقوة عسكرية، وأصدرتُ تعليمات لرسولي بأن يبلغه بأنه لا يمكنه التقدم إلا برفقة حاشيته، التي يجب ألا تتجاوز ثمانية رجال. ولستُ واثقاً من موافقته على هذه الشروط، إذ يبدو أن شكوكه متبادلة مع شكوك إخوانه الأتراك.

الساعة 8 مساءً. كنتُ قد انتهيتُ للتو من كتابة الفقرة السابقة رداً على رسالتكم الأخيرة، وعندما دخل رسولٌ من «أحمد باشا» إلى غرفتي، ولكي يثبت لي صدقه، وضع في يدي رسالتي الأولى التي وجهتها للباشا من الإسكندرية بتاريخ 28 نوفمبر. كان هذا حدثاً موفقاً، لأنه أكد للباشا تقديرنا العالي للسلطان العثماني، وحذره من أي خطوات قد تضر بعلاقاتنا مع ذلك السيادي. وبما أن الرسالة كانت تحمل ترجمة عربية على ظهرها، ذهبتُ بها

إلى «القائد» (الحاكم العسكري التركي) —وهو بالمناسبة تركي فظ وشرس لكنه جنرال محنك- فأزالت الرسالة كل شكوكه على الفور. صافحني للمرة الأولى، وأثنى على صراحتي، ودعاني لتناول العشاء في معسكره.

تبع هذا الرسول عدة عرب كانوا قد بقوا في الخلف حتى يتأكدوا من أمان الدخول، برفقة المالطيَّيْن اللذين أرسلتُهما سراً من القاهرة. أحد هؤلاء العرب خادمٌ للباشا، وقد رافقه في طريقه نحو هذا المكان. سيكون الباشا في «دمنهور» غداً، وصباح الأربعاء سننطلق إلى الإسكندرية. ليس لدى الباشا سوى حاشيته المكونة من نحو أربعين شخصاً، مما لا يثير قلق القائد؛ بل على العكس، عرض علينا طواعية حراسة لتأمين طريقنا إلى الإسكندرية، وسيخرج بنفسه معي غداً لمرافقة صديقنا إلى دمنهور.

مقتطفات إلى السيد سميث، وزير البحرية
الإسكندرية، 13 فبراير 1805

غادرنا دمنهور يوم الخميس الماضي ووصلنا إلى «القطع الإنجليزي» (بين خليج أبو قير وبحيرة مريوط) في اليوم التالي، حيث أوقفتنا حراسة تركية ومنعتنا من دخول المدينة. وهذا بتدبير من القنصل الفرنسي الذي سبقني في استمالة الأميرال التركي؛ (وهناك وسيلة واحدة فقط للوصول إلى هؤلاء الناس). الأميرال، معتبراً نفسه المسؤول الأول عن أمن المدينة والميناء، وغير معترف بسلطة نائب الملك التي تنتهي عند خط الجزر، ورفض تماماً دخول أحمد باشا للمدينة أو السماح له بالصعود على متن السفينة. ويبرر القنصل الفرنسي لنفسه هذه المؤامرة بادعاء أن حماسه لمصلحة الإمبراطور سيغفر له سلوكه.

وهذا يدعم الرأي الذي شكله القائد «بريبل» من تعامله مع القنصل الفرنسي في طرابلس، بأن تدخل الإمبراطور لصالحنا إما يغطي غايةً مبطنة، أو أن وكلاءه على هذا الساحل يتصرفون بتقدير غير مبرر. لكن هذا العائق لن يوقف تقدمنا. كان الباشا قد قرر بالفعل سلك طريق «صحراء ليبيا» نحو درنة، مبرراً ذلك - وهو تبرير أراه صائباً- بأنه لو استقل السفن وانفصل عن

العرب، فسيفقدون صبرهم وثقتهم وسيتخلون عن قضيته.

بناءً على ذلك، تحرك الباشا حول البحيرة؛ وسيتمركز غداً في «برج العرب» (على بُعد ثلاثين ميلاً غرب الميناء القديم بالإسكندرية)، حيث سأنضم إليه مع مفرزة من المدينة يوم الأحد القادم، لأتقدم معه نحو «بومبا» على رأس خمسمائة رجل. في غضون ذلك، يتوجه القبطان «هال» إلى نقطة الملتقى للحصول على التعزيزات والمعدات اللازمة لضمان سيطرتنا على درنة وبنغازي. إن وقوع هذه الأقاليم في حوزتنا سيقطع المؤن عن العدو ويحولها لصالحنا، ويفتح باب التواصل الحر مع داخل البلاد.

لقد طلبتُ من القائد لهذا الغرض: مائة قطعة سلاح مع خراطيشها، ومدفعين ميدانيين مع عرباتهما وذخيرتهما، ومفرزة من مائة جندي من مشاة البحرية (المارينز) لقيادة الهجوم الخاطف إذا لزم الأمر. أقدّر إجمالي النفقات النقدية لهذه الحملة، بما في ذلك مصاريف مصر، بعشرين ألف دولار. وستكون هناك حاجة لمدفوعات وإمدادات إضافية لإتمام الخطة. ولتعويض الولايات المتحدة، أبرمتُ اتفاقية مع «أحمد باشا» يتعهد فيها بتسليمنا «الجزية» التي تدفعها السويد والدنمارك والجمهورية الباتافية (هولندا) لطرابلس، وسأقوم بصياغة هذه الاتفاقية كتابياً لإرسالها مع القبطان «هال» إذا سمح الوقت، وإلا فبأقرب فرصة ممكنة.

اتفاقية بين الولايات المتحدة الأمريكية وسمو أحمد قره مانلي، باشا طرابلس

الله دائما

المادة الأولى: يُرسى سلامٌ دائم وتواصلٌ حُر بين حكومة الولايات المتحدة الأمريكية وسمو «أحمد قره مانلي» باشا، الحاكم الشرعي لولاية طرابلس، وبين مواطني الطرف الأول ورعايا الطرف الآخر.

المادة الثانية: تبذل حكومة الولايات المتحدة قصارى جهدها، وبما يتوافق مع شرفها ومصالحها ومعاهداتها القائمة وقانون الأمم المعترف به، لإعادة تنصيب «أحمد باشا» المذكور في ملكه، وتثبيت حيازته للسلطة، على

أن تُعامل اتفاقاته معها على قدم المساواة مع المعاهدات القائمة مع القوى الأخرى.

المادة الرابعة عشرة: تُرفع هذه الاتفاقية إلى رئيس الولايات المتحدة للتصديق عليها؛ وفي غضون ذلك، يظل تنفيذ بنودها وعملياتها جارياً دون تعليق.

حُرِّرت في مدينة الإسكندرية بالديار المصرية، في الثالث والعشرين من فبراير عام ألف وثمانمئة وخمسة، ووقعها سمو «أحمد قره مانلي» المذكور بخاتمه وتوقيعه، وويليام إيتون نيابة عن الولايات المتحدة.

(توقيع) ويليام إيتون (توقيع وخاتم أحمد قره مانلي)

بشهادة كلٍّ من:
ب. ن. أوبانون، ملازم من مشاة البحرية الأمريكية.
الدكتور فرانشيسكو مندريتشي.
باسكال باولي بيك.

أمرَ الحاكمُ «والدي بك» بحرية المرور. وفي الأحد، 3 مارس، غادرتُ الإسكندرية وانضممتُ إلى «أحمد باشا» في منطقة المرابط. كنا قد تأخرنا لعدة أيام بسبب تقصير «ريتشارد فاركوهار»، الذي كنتُ قد أوكلتُ إليه شؤون التموين والإمداد وسلّمته مبالغ وصلت إلى 3200 دولار، فاختلس معظمها أو أساء استغلالها؛ وبناءً عليه قمتُ بفصله واضطررتُ لتوفير المؤن بنفسي لعبور الصحراء.

4 مارس: زار المعسكر السادة «بريغز» وإخوانه والدكتور «ميندريتشي»، حيث شهدوا على الاتفاقية المبرمة مع أحمد باشا في 23 فبراير، وقاموا بتسوية حساب الأموال التي قدموها كسلف لخدمة الولايات المتحدة، والتي بلغ إجماليها 16,500 دولار؛ سدد القبطان «هال» منها 4000 دولار، وتبقى لهم في ذمتنا 12,500 دولار.

5 مارس: استأجرتُ قافلةً من 100 جمل للرحلة بسعر 11 دولاراً للرأس

الواحد. وهنا أثار شيخ الطيب مطالب مالية جديدة، وبدا مصمماً على تأخير المسيرة حتى تُلبى ادعاءاته، فاسترضيتُه بالوعود.

6 مارس: فككنا المعسكر وسرنا إلى «برج العرب»، على بُعد أربعين ميلاً من الإسكندرية. هذا البرج هو بقايا حصن منتظم من الحجر الرملي، يبلغ عرضه نحو ثلاثمائة قدم مربع، وجدرانه بسمك خمسة أقدام وارتفاع اثنين وثلاثين قدماً، وله أبراج في زواياه وفتحات رماية. وبجواره توجد مقابر ومحاجر في سلسلة جبلية تفصل الساحل عن السهول القاحلة خلفه. والبرج ذو عمارة يونانية وليست عربية، وتمتد الصحراء من الإسكندرية حتى هذا الميناء.

7 مارس: وصول آخر أجزاء أمتعتنا.

8 مارس: رتبنا القافلة ونظمنا قواتنا التي تألفت من: تسعة أمريكيين (بمن فيهم الملازم أوبانون والسيد بيك وضابط صف وستة من مشاة البحرية)، وسرية مدفعية من خمسة وعشرين رجلاً بقيادة «سليم كومب»، وسرية من ثمانية وثلاثين يونانياً بقيادة القبطان «لوكو يلوفيتش». أما حاشية الباشا فبلغت نحو تسعين رجلاً، ومع انضمام مجموعة من فرسان العرب تحت إمرة الشيخ الطيب بن محمد، وسائقي الجمال والمشاة، بلغ إجمالي عددنا نحو أربعمائة رجل. تحركت القافلة المكونة من 107 جمل وبعض الحمير في الحادية عشرة والنصف صباحاً، وقطعنا خمسة عشر ميلاً ثم خيمنا على جرف مرتفع عند شاطئ البحر حيث تتوفر مياه جيدة.

9 مارس: بقينا في المعسكر بسبب صعوبات مع أصحاب الجمال والخيول الذين طالبوا بدفع أجورهم مسبقاً، ولأن دفعها لم يكن آمناً، بدأوا بالتمرد.

10 مارس: تمرد سائقو الجمال والمشاة وتوقفوا عن المسير، إذ بذر «شيخ الطيب» الشكوك بينهم مدعياً أن المسيحيين سيحتالون عليهم إذا أدوا الخدمة قبل قبض الثمن. بدا الباشا متردداً ومكتئباً، ففي هذا المعسكر لا يتحرك شيء إلا بالمال. وعندما انقضى الصباح دون بوادر للمضي قدماً، أمرتُ المسيحيين بالتسلح وتظاهرتُ بالانسحاب مهدداً بالتخلي عن الحملة والباشا ما لم تُستأنف المسيرة فوراً؛ آتت هذه المناورة ثمارها، فقُمِع التمرد وسرنا اثني عشر ميلاً.

11 - 13 مارس: قطعنا في هذه الأيام الثلاثة مسافات متتالية (20، 21،

ثم 25 ميلاً) عبر وديان رملية وسهول صخرية. وفي مساء الـ13، التقى الباشا بساعٍ من «درنة» أبلغه كذباً أن المقاطعة تسلحت دفاعاً عنه وأن الحاكم محاصر. أقيمت احتفالات وطلقات احتفالية فرحاً بالخبر، لكن العرب المشاة في المؤخرة ظنوا أننا تعرضنا لهجوم، وحاولوا قتل المسيحيين المرافقين للقافلة لولا تدخل عربي ذي حكمة أوقفهم حتى يُعرف سبب إطلاق النار. في هذا الموقع توجد آبار عميقة محفورة في الصخر مياؤها عذبة، وإلى الغرب منها يقع خليج جميل.

14 مارس. سرنا ستة وعشرين ميلاً، فوق سهل صخري قاحل. مررنا ببعض بقايا الحصون القديمة: خيمنا على سلسلة جبال فاصلة بين مصر وطرابلس، بالقرب من صهريج به ماء ممتاز. موقع السلسلة سهل شاسع، قاحل من النباتات.

15 مارس: سرنا خمسة وعشرين ميلاً، ثم خيمنا في وادٍ وجدنا في أعلاه مياه أمطارٍ محفوظة في خزانات طبيعية نحتتها الشلالات في الصخور خلال شتاءات سابقة. كانت الليلة باردة وممطرة، وقد سرق العرب من خيمة مشاة البحرية بندقية وحربة وصندوق خراطيش، كما استولوا على كل مخزوننا من الجبن.

ملاحظة شخصية:

جاءت امرأة بابنتها إلى خيمتي لتعرضها كمترجمة مقابل «قنطار من الأرز»، وقد وافق الأب على هذه الصفقة. كانت فتاةً متناسقة القوام، ملامحها جميلة، تبلغ من العمر نحو أربعة عشر عاماً؛ ذات عينين عسليتين غامقتين تميلان للسواد، وحواجب مقوسة، وأسنان كاللآلئ، وشفتين خُلقتا للحب. لولا أن واجبي كان أكثر إلحاحاً وحكمتي منعتني، لكانت صفحات مذكراتي قد امتلأت بوصفها. إن عرب الصحراء عموماً ذوو بنية قوية ورشاقة واضحة، لكنهم يتسمون بالجبن والخداع والميل للسرقة.

26 مارس: وصل ساعٍ من «درنة» موالٍ للباشا، يحمل أنباءً تفيد بأن خمسمائة من فرسان «يوسف باشا»، ترافقهم جموع غفيرة من العرب خيالةً ومشاة، كانوا على بُعد مسيرة أيام قليلة من هذا المكان، وسيصلون حتماً قبل وصولنا. أدى هذا الإنذار إلى توقف حركتنا؛ وبدا الباشا متردداً

في التقدم، بينما هرب سائقو الجمال بقافلتهم، وظهرت بوادر تآمر بين رجال الباشا وعرب «البحيرة» للعودة إلى الفيوم. رداً على ذلك، قمتُ مرة أخرى بتعليق صرف الحصص الغذائية، مانعاً أي إمدادات حتى تعود القافلة وتُستأنف المسيرة. عُقد مجلسٌ ساد فيه اليأس كل الوجوه.

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً، علمتُ أن شيخ الطيب قرر عدم التقدم خطوة واحدة حتى تصله معلومات مؤكدة عن وجود سفننا في «بومبا». لم أستطع إلا لوم ذلك الزعيم على افتقاره للشجاعة والولاء؛ فقد وعد بالكثير ولم يفِ بشيء، وندمتُ على معرفتي به، وكنتُ سأكون راضياً لو نفذ تهديده بالعودة إلى مصر شريطة ألا يفسد عقول الزعماء الآخرين. غادر المعسكر في نوبة غضب، مقسماً بكل مقدسات دينه ألا ينضم إلينا أبداً. أراد الباشا إرسال ضابط لاسترضائه وإعادته، لكني اعترضتُ بشدة، فغادر الشيخ مع مفرزة صغيرة من قبيلته.

27 مارس: أثار شيخ الطيب تمرداً بين عرب المنطقة الذين تعاقدنا معهم، وأخذ معه نصف عددهم وانطلق بهم نحو مصر. أرسل الباشا رسولاً يرجوني إرسال ضابط ليطلب منه العودة باسمي، فأجبتُه: «لا يوجد اعتبار في الوجود يقنعني بأن أطلب كمعروفٍ ما هو حقٌّ لي؛ فخدمات هذا الزعيم دُفع ثمنها، وقد تعهد بإخلاص بأدائها، وليس من حقه الآن إملاء الشروط، ولن أذل نفسي باقتراح تسوية». كان الباشا يخشى نفوذ الشيخ وانقلابه ضدنا، فقلتُ: «دعه يفعل، فأنا أفضل عدواً صريحاً على صديقٍ غادر». وربما يمنحني موقفه هذا فرصة لأثبت له عملياً ما كنتُ سأفعله نظرياً لولا احترامي لسمو الباشا؛ فالبندقية والسيف الصادقان هما خير جواب.

نُقلت الرسالة إلى الشيخ فاستشاط غضباً وأقسم بالانتقام من الباشا ومن «ساداته المسيحيين» كما وصفنا. وأمرتُ بالمسير وانطلقنا في السابعة والنصف صباحاً. وفي العاشرة، جاء رسولٌ يؤكد أن الشيخ في طريقه للبحيرة، فقلتُ: «بما أنه سلك ذلك الطريق، فلا شأن لي معه سوى استعادة الأموال والممتلكات التي سحبها مني بالاحتيال». وواصلتُ المسير، وفي الثانية عشرة جاء رسولٌ آخر يقول: «شيخ الطيب سينضم إليكم إذا توقف المعسكر الآن». رضختُ لرغبة الباشا وتوقفنا في الثانية عشرة والنصف. وبعد ساعة

ونصف، ظهر الشيخ مع جماعته ودخل خيمتي والغضب يملأ وجهه قائلاً: «أرأيت النفوذ الذي أتمتع به بين هؤلاء الناس؟»، فأجبته: «نعم، وأرى الاستخدام المشين الذي تستخدمه به». لم نكسب اليوم سوى خمسة أميال.

28 مارس: لاحظت ترددًا واضحًا في تقدم الباشا، وحسابات واضحة لمسيرة تراجعية. استولت قوات يوسف باشا على كل أعصابه. أخذ الآن من ضباطي الخيول التي كان قد أعطاهم إياها للرحلة عبر الصحراء، وأعطاها لبعض مشاته. قاد مسلميه بعيدًا، ووقف مترددًا، بعد أن صُفّت القوات للمسير. وبخته على التردد، ونقص المثابرة، وعدم الاتساق في الترتيب. طالبت بالخيول لضباطي. تبع ذلك كلمات حادة. أمرت بالمسير في المقدمة. تراجع الباشا. وتقدمنا في المقدمة مع الأمتعة. وصل الباشا بعد حوالي ساعتين، وبعد أن قدم لنا بعض المجاملات على حزمنا، قال، إنه مضطر للتظاهر بالموافقة على رغبات أتباعه لجعلهم قابلين للإدارة. تقدمنا 12 ميلاً ونصف إلى قلعة شماس، وخيمنا الساعة 1 بعد الظهر. وفي المساء، اكتشفت أن العرب الذين انضموا إلينا في 25، والذين، كما توقعنا، كانوا يتبعوننا، قد بدأوا جميعًا مسيرتهم إلى حدود مصر. كان شيخ الطيب قد ثبطهم وأقنعهم بالعدول عن مواصلة الحملة. أرسل الباشا ضابطًا عامًا مع عدد من الفرسان لإعادتهم بالإقناع. لم يعد أحمد جرجس، الضابط الذي ذهب من أجل العرب، في هذا اليوم.

29 مارس: بقينا في المعسكر، في انتظار أحمد جرجس. في هذه القلعة، وهي جدار من الحجر الخام، مبني بملاط طيني، يبلغ ارتفاعه حوالي عشرة أقدام، بدون أبراج، ومئة قدم مربع، يبدو أن هناك بعض التجارة مع سكان داخل إفريقيا. نجد هنا، ماشية، أغنام، زبدة، دواجن، بيض، وتمر، ولكنها غالية جدًا، والتي قايضنا بها الأرز بخسارة كبيرة. الموقع ساحر؛ سهول شاسعة، قادرة على زراعة عالية؛ مياه آبار جيدة؛ وبعض الآثار القديمة الساحرة؛ لكن كل شيء يحمل بصمة الخراب البائسة للغزو التركي. حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر، وصل أحمد جرجس مع العرب.

30 مارس: الساعة 9:30 صباحًا، استأنفنا مسيرتنا مع المسيحيين والأمتعة، تاركين الباشا ليتبع مع العرب، الذين كانوا يُعدون لهذا الغرض.

عند هذه القلعة، نشأ نزاع بين شيخ الطيب والشيخ محمد حول توزيع 200 دولار، كان الأول قد تلقاها من الباشا لتوزيعها بالتساوي بينهما، والتي كان قد أخفاها؛ واحتدم الشجار لدرجة أن محمد أقسم بأنه لن يتقدم أكثر. ثلاثة شيوخ آخرين وثلاثة عشر عربيًا آخرين من ذوي الاعتبار انحازوا إليه، وغادروا. حاول الباشا وأنا التوفيق بين الزعيمين المتمردين. أصر الشيخ محمد على التخلي عن الحملة؛ وتحرك مع جماعته بسرعة. تركهم الباشا، وتبعنا بسرعة، بهدف إيقاف مسيرتنا، بعد أن أرسل أحمد جرجس وثلاثة ضباط آخرين لمحاولة استرضاء الساخطين. كنا قد قطعنا خمسة عشر ميلاً إلى الأمام عندما لحق بنا الساعة 3 بعد الظهر. ولكن كان من الضروري التراجع ثلاثة أميال إلى بئر ماء، والتخييم هناك. لم تتمكن الحملة من التقدم بدون هؤلاء الزعماء، حيث كان لديهم الكثير من الناس ونفوذ قوي مع قبيلة أولاد علي، التي ينتمون إليها. ونصبنا خيامنا الساعة 5 بعد الظهر. عاد الباشا مع اثني عشر فارسًا ومترجمي إلى القلعة على أمل التوفيق بين الشيوخ وإحضار جماعتهم. هذا سيؤخرنا غدًا.

منذ انطلاقنا من الإسكندرية وحتى وصولنا إلى هذا المكان، لم نشهد سوى مشاحناتٍ ومطالباتٍ وتأخيراتٍ مستمرة من قِبل العرب. ليس لديهم أي إحساسٍ بالوطنية أو الحقيقة أو الشرف؛ ولا يوجد ما يربطهم بنا ما لم يحدوهم أملٌ في الربح، باستثناء دينهم الذي يبدون تجاهه حماساً منقطع النظير. إنَّ الفقر جعل منهم لصوصاً، والممارسة جعلتهم بارعين في هذه الحرفة؛ فبمجرد أن يصرفوا أنظارهم عن شيءٍ رغبوا فيه، فمن المستحيل العثور عليه مجدداً. تشغل الأسلحة والذخيرة والمؤن جُلَّ تفكيرهم الفطري، وقد سُرق من العديد من رجالنا ملابسهم ومقتنياتهم الأخرى.

ومع كل هذا الانحطاط الأخلاقي، فهم يمتلكون استقلالاً وحشياً في الروح، وعناداً لا يمكن إصلاحه تجاه الانضباط العسكري، لكنهم يظهرون التزاماً مقدساً بقوانين الضيافة، وإصراراً دقيقاً على عقيدتهم الدينية وشعائرهم. قبل يومين، قُبلتُ —كعلامة على التميز الخاص— داخل أسوار قلعتهم، فدفع الفضول كل عربي ينتمي للقبيلة ليتجمهر حولي. فحصوا دانتيل قبعتي، وكتافيّ، وأزراري، ومهمازي، وتجهيزات أسلحتي؛ معتقدين أنَّ

كل ذلك مصنوعٌ من الذهب والفضة. ولقد دهشوا كيف يسمح الله لبشرٍ بامتلاك مثل هذه الثروات وهم يتبعون «دين الشيطان.

شرح مترجمي لهم أنَّ دين الأمريكيين يختلف عن دين سائر الدول الأخرى التي يرتدي شعوبها القبعات؛ (إذ تُعدُّ «القبعة» و«العمامة» العلامتين المميزتين للمسيحي والتركي). وأوضح لهم أننا نؤمن بالله ونحترم كافة وحيه، ولا نميز في احترامنا بين الناس من مختلف العقائد، فالجميع لدينا أحرارٌ في عبادة الله كما تمليه عليهم ضمائرهم، وأنَّ جميع الرجال الصادقين يحظون بالاحترام على قدم المساواة في أمريكا. وبالكاد استطاعوا فهم وجود هذا الوصف للمسيحيين في أي مكان.

أضاف المترجمُ أنني رجلٌ صالح وصديقٌ عظيم للمسلمين، ولقد سمعوا بذلك؛ إذ أخبرهم أتباع أحمد باشا بكل شيء، وبما فعلتُه من أجلهم. ومع ذلك، فقد تأسفوا لأنَّ رجلاً صالحاً كهذا سيذهب إلى الجحيم، وبما أنني لا أزال «كافراً»، فيجب أن أتوقع اللعنة؛ وأردفوا بأنني سأنجو من الجحيم وأذهب إلى جنة محمد لو أنني كررتُ كلمة واحدة فقط خلفهم: «الله، الله، محمد رسول الله»؛ وهي الكلمات التي نطقوها مراراً، ورغبوا - بناءً على ما شعروه من احترامٍ تجاهي- أن أكررها خلفهم.

أجبتهم بأننا في أمريكا لا نعتبر الدين يتكون من الكلمات فحسب، وأنَّ الله قد وعدنا بجنةٍ متميزة عن جنة المصريين والمسلمين، حيث سنستقبل فيها جميع الرجال الصادقين الذين يختارون المجيء إلينا، وسيكون مسموحاً لنا -حسب تقديرنا- القيام برحلاتٍ ترفيهية إلى جنة محمد وجنة البابويين (الكاثوليك). شكّوا في قصتي، فأخبرتهم أن لديَّ من التأكيدات الشخصية ما يضمن لي أنني سأُستقبل استقبالاً حسناً وأُعامل بلطف من قِبل هؤلاء الأنبياء المتضادين، حيث أن لديَّ العديد من الأصدقاء بين أتباع كليهما. ابتسموا لهذه الفكرة، لكنهم اعترفوا بأنهم سيكونون سعداء جداً برؤيتي في جنتهم، على الرغم من أنهم شكّوا فيما إذا كان «محمد» سيسمح لي بالدخول هناك، ولو في زيارة، ما لم أعترف به وأصبح مؤمناً حقيقياً.

إنَّ أي مسيحيٍ صالح كان سيعطيني الموعظة ذاتها. كم هو هشٌّ العقل البشري! وكم هو سخيفٌ كبرياء التعصب! ومع ذلك، كم يبدو هؤلاء العرب

الجهلة سعداء في إيمانهم وعدم تسامحهم! فالصحراء هي ميراثهم، والكوخ البائس هو مسكنهم، والبطانية هي فراشهم وخزانة ملابسهم، والوعاء الخشبي والملعقة هما أثاثهم، والحليب والجذور هما طعامهم. إنهم مثل بطاركة العصور القديمة، «يبحثون عن وطن»، وأملهم في السماء، ولديهم يقين الإيمان بالوصول إلى هناك.. لذا، فهم راضون.

إنَّ مناخ الصحراء نقيٌّ وصحي؛ فعلى الرغم من وقوعه تحت شمسٍ حارقة، إلا أنه يتمتع بنسيم بحريٍ منعش باستمرار نهاراً، ونسيمٍ بريٍ ليلاً. لا صقيع هناك، ولا عواصف؛ بل أمطارٌ خفيفة فقط خلال أشهر الشتاء، وأحياناً رياحٌ ورعد، ولكن ليست مفرطة. لا يبدو أن الناس يمرضون هنا، وهم يموتون فقط بسبب الانحدار السهل والهادئ للشيخوخة. يعتبرون ما بين السبعين والثمانين عاماً هو متوسط العمر المعتاد، لكني رأيت رجالاً ونساءً تجاوزوا المائة، وهذا أمرٌ شائعٌ جداً. هم خالون من الأمراض المزمنة، وحتى التهاب العين، الذي يبدو معدياً في مصر وبلاد البربر، لا يؤثر على أحد هنا، كما أنَّ الطاعون غير معروفٍ بينهم.

31 مارس: بقينا في المعسكر. كان يوماً ممطراً جداً، مع رعدٍ ورياح؛ والمساء التالي بارد. والباشا غائب.

1 أبريل: وضع الشيخ الطيب نفسه على رأس خمسة شيوخ، ثلاثة منهم من القافلة، وقدم نفسه في خيمتي ليطالب بزيادة الحصة الغذائية، فرفضتُ طلبه. فهددني، فوبختُه باعتباره السبب في كل تأخيراتنا في المسيرة، وبفشله التام في جميع التزاماته معي؛ فقد كان قد تعاقد معي على أربعمائة عربي راكب من قبيلته في «المرابط» وعلى أن يوصلني إلى «بومبا» في أربعة عشر يوماً، بينما لم يتجاوز إجمالي عدد رجاله ثمانية وعشرين، وقد انقضى الآن خمسة وعشرون يوماً في قطع نصف المسافة فقط، وبدلاً من تشجيع تقدمنا، كان يضع العقبات في طريقنا في كل مناسبة. اتهم الشيخُ الباشا والشيوخ الآخرين، لكني اعتقدتُ أن الباشا والشيوخ الذين اتهمهم أفضل منه، ورفضتُ سماع افتراءاته عليهم. وأعتبرني متحيزلهم، فقلتُ له إنني لو كنتُ قد أظهرتُ أي دليل على التحيز، فقد كان لصالحه هو حتى كشف نفاقه بنفسه؛ وأكدتُ له أنني لا أكنُّ له أي اعتبار لأنني لا أستطيع الثقة في

أي شيء يقوله أو يتعهد به.

بدا غير مبالٍ تماماً برأيي فيه ما دام سيحقق هدفه، وحذرني من الإصرار على قراري بعدم زيادة الحصص، مدعياً أن ذلك سيؤدي حتماً إلى تمرد، وأن الشيوخ الآخرين والقافلة سيتركونني، أما هو فلا يستطيع العيش على الأرز وحده ويريد خبزاً أيضاً. سألتُه إن كان يعتقد أنه سيجبرني على ذلك، فقال بنبرة تهديد: «تذكر أنك في صحراء، وفي بلد ليس بلدك، وأنا هنا رجل أعظم منك ومن الباشا». رددتُ عليه: «لقد وجدتك على رأس كل اضطراب حدث منذ غادرنا الإسكندرية، وأنت المحرض لشيوخ البدو. اترك خيمتي، وأحذرك: إذا وجدتُ سبباً للشك في أنك تثير تمرداً في هذا المعسكر خلال غياب الباشا، فسأقتلك في الحال أمام جيشي». ثم غادر الخيمة وركب حصانه وانصرف مع شيخين آخرين. وكان «حمد جرجس» (الترجمان) قد دُعي إلى خيمتي عند دخول شيخ الطيب، فنصحتُه بتهدئة الشيوخ الآخرين والبقاء هادئين حتى عودة الباشا. وحلّت الساعة 10 ولم تصل أخبار عنه.

في الساعة 4 بعد الظهر عاد الشيخ الطيب، ودخل خيمة ضباطي معرباً عن أسفه لفقدان مودتي، وخشيته من أن يكون بعض الأعداء السريين قد نقلوا انطباعات غير مواتية ضده، مؤكداً إخلاصه لي وأنه قد يتخلى حتى عن الباشا ليتبعني، وتوسل إلى السيدين «فاركوهار» و«بيك» لاستخدام نفوذهما للمصالحة. في الساعة 5 بعد الظهر جاء إلى خيمتي معرباً عن التزام ومودة أبديين، وأنه سيبحث عن أي مناسبة لإثبات ذلك، متمنياً أن تتاح له فرصة في «درنة» ليقنعني بأنه رجل يقف عند كلمته. فأجبتُه بأنني لا أطلب منه للمصالحة سوى الولاء الصادق للباشا، والسلوك السلمي مع الشيوخ، والحماس في هذه المهمة. ووعد بذلك بالقسم وقدم لي يده. وفي الساعة 6 بعد الظهر لم يعد الباشا، وأخشى أنه وقع في فخ أخيه. كوان اليوم ممطراً وعاصفاً وبارداً.

زرتُ معسكر العرب؛ شبانهم وشاباتهم وأطفالهم ذوو بنية مثالية، وهم جميلون رغم لونهم النحاسي. ولم أرَقط أسنانًا بيضاء ومنتظمة كهذه. اولنساء لا يتحجبن، وليس لديهن التحفظ المصطنع أو كبرياء التركيات، لكنهن متواضعات وخجولات في سلوكهن.وتناولت العشاء في خيمة أحد كبار

الشيوخ، وكانت تخدمنا ابنته الجميلة التي أبدت اهتماماً خاصاً بالضيف، فأثنيتُ على جمال تناسقها. قالت أمها إن هناك العديد من الشابات الأجمل من ابنتها، فشككتُ في ذلك، فأحضرت أجمل الفتيات والشابات المتزوجات لتثبت ذلك. واعترفتُ بجمالهن، لكني لم أتخلَّ عن رأيي الأول.

2 أبريل: في الساعة 10 بعد الظهر عاد الباشا برفقة الشيخ محمد وآخرين ممن انفصلوا عنا في 30 الشهر الماضي، والذين كان قد لحق بهم في «مقاطعة البحيرة» على مسافة تسعة وأربعين ميلاً شرق «قلعة مسوسة». ركب الباشا طوال ليلة 31 واليوم التالي في جو ممطر ورياح عاتية، وعاش طوال تلك الفترة على الحليب والتمر. في الساعة 7 مساءً اجتمع الباشا وجميع الشيوخ في خيمتي، وحثثتهم على الاتحاد لضمان نجاح المشروع، وصدرت الأوامر باستئناف المسير عند فجر الغد. لدينا الآن ما بين 600 و700 رجل مقاتل، ومع أتباع المعسكر وعائلات البدو، ليصل العدد الإجمالي إلى نحو 1200 شخص.

3 أبريل: سرنا في السادسة صباحاً، وتقدمنا عشرة أميال فقط حتى نصب العرب خيامهم وأصروا على البقاء لإرسال قافلة لمدة خمسة أيام إلى مكان يسمى «سيوة» لجلب التمر. كنا في وادٍ على قمة سهل مرتفع ولدينا مياه صهريج ممتازة. حثثتهم على المسير فرفضوا قطعياً لنقص مؤنهم، وقلتُ إن الاحتياجات ستُلبى في «بومبا»، فأجابوا بأن ذلك يعتمد على الطوارئ ولا يمكننا السيطرة على البحر. هددتُ بأخذ المسيحيين معي، فتوسلوا إليّ للتوقف حتى الصباح، فوافقتُ بشرط الوعد الرسمي بعدم وضع عقبات مستقبلاً وطاعة أوامري، مهدداً بالصعود على متن السفينة مع الباشا والحاشية والمضي إلى طرابلس وتركهم وحدهم في حال خرق الشروط. تعهدوا بذلك وخيمنا، وانطلقت قافلتهم إلى «سيوة». يقول العرب إن هناك نبعاً أو بحيرة مياه عذبة محيطها ثلاثة فراسخ تروي أراضٍ جيدة بجداول تنحدر من الجبال، ولا يبدو لها مخرج للبحر، وتُجلب منها تمور ممتازة للبيع على الساحل.

بعد ظهر اليوم أُقيم حفل زفاف في معسكر العرب؛ زُين جملان بمظلات تشبه العربات المغطاة مكسوة بسجاد من شعر الجمل، ومزينة بأقمشة

ملونة. أُعلن الموكب بطلقات البنادق؛ حيث حُبس العروس والعريس بشكل منفصل في هذه العربات بحضور نساء مسنات وفتيات غير متزوجات سيرًا على الأقدام ومحاربين راكبين. كانت النساء يغنين أناشيد زفافية وحشية، والرجال يؤدون مهارات الفروسية مع إطلاق نار مستمر. قاموا بجولة حول مخيمهم ثم مخيمنا، ثم عادوا إلى خيمتين منفصلتين؛ حيث دُفع الجمل الذي يحمل العروس سبع مرات حول خيمتها، ثم أُلقيت العروس برأسها أولاً داخل الخيمة حيث أحاطت بها النساء والزعماء لتلاوة صلاة قصيرة. انضممتُ مع سادة الحملة للموكب وعُوملنا بتميز. وكانت الجمال تتوقف لأداء رقصات بإيماءات شهوانية. طُلب مني تقديم هدية، فسألتُ عن الشخص المناسب، فأشاروا لامرأة في منتصف العمر كانت متطفلة في المراسم فظننتها أم العروس وأعطيتها دولارين، ودعوتُ رجلاً مسناً ظننته والد أحد الزوجين لخيمتي وأعطيته مؤناً إضافية. وعند الحديث عن النسب، دهشتُ حين وجدتُ أن الرجل العجوز هو العريس نفسه لفتاة في الثالثة عشرة، وأن المرأة التي ظننتها الأم هي زوجته الأخرى. كان الشيخ قد اشترى عروسه الجديدة من والديها وفق العادة، وقيل لنا إن العروس ستبقى ثلاثة أيام مع النساء قبل إتمام الزواج.

4 أبريل: سرنا الساعة 6:30 صباحاً، وتوقفنا الساعة الرابعة بعد الظهر قاطعين ثمانية عشر ميلاً. في هذا اليوم طارد «سليم كومب» قطاً برياً بكلبه السلوقي؛ يبلغ ارتفاعه قدمين وطوله أربعة أقدام، لونه أسمر مرقط مع أذنين وأنف وذيل أطرافها سوداء، وقد طُبخ وكان طعمه جيداً. أحضر لي عربي صغيرين منه لكنهما كانا أصغر من أن يُربيا. وفي هذا المكان وجدنا بئران عمقهما مائة قدم محفوران في الصخر الصلب، والسهول المحيطة بها آثار زراعة قديمة وأنقاض أبنية هائلة ممحاة تماماً.

5 أبريل: سرنا 12 ميلاً وخيمنا على بعد سبعة فراسخ من الساحل. هنا قلعة قديمة من الحجر المنحوت مساحتها 180 قدماً مربعاً، جدرانها بارتفاع 18 قدماً وبها أبراج وفتحات للرماة. في وسطها بئر ينزل لصهريج هائل في الصخر يمتد لبئر خارج الأسوار. يبدو أن الصهريج يُزود بمياه الأمطار من الشرفات لأن عمقه لا يتجاوز ثلاثين قدماً.

6 أبريل: خيولهم لم تشرب لمدة يومين، وحصل الناس بصعوبة على مياه كريهة من بئر القلعة. وازدحم الجميع عند البئر وتدافع الناس والخيول؛ فسقط حصان خادمي وجملان وهلكوا في السقوط. واصلنا المسير 17 ميلاً وتقدمنا قليلاً تحت جانب الجبل للوصول للساحل، وتوقفنا الساعة 3:30 بعد الظهر على بعد أربعة أميال من الشاطئ. مشيتُ مع السيد «فاركوهار» للماء، ووجدنا خليجاً جميلاً يسميه العرب «ميناء سلوم» (رأس لوكوس على الخريطة الفرنسية)، ويقال إنه مأوى للطرادات المالطية، وهو على بُعد 90 ميلاً من «بومبا» بالحساب. ولكننا لم نجد ماءً هذا المساء.

7 أبريل: سرنا الساعة 6:30 صباحاً وصعدنا الجبل وسرنا على قمته 18 ميلاً، وتوقفنا في الرابعة عصراً في وادٍ به علف ممتاز للخيول لكن بلا ماء.

8 أبريل: سرنا الساعة 6:30 صباحاً ونزلنا المنحدر الغربي للجبل، وفي التاسعة توقفنا عند صهريج مياه أمطار في قاع وادٍ عميق كان بمثابة وجبة ثمينة للعطشى. ذهبتُ لاستطلاع الساحل بنية مواصلة المسير، لكن الباشا أمر بنصب الخيام في غيابي. عند عودتي طالبتُ بالسبب، فأجاب بأن تعب القوات يتطلب يوماً من الراحة. ومع ذلك، اكتشفتُ أنني سأواجه فعلاً يائساً؛ إذ وُجهت في الحال طوابير من الحراب إلى صدري. كان الباشا مشتتاً والضجيج يغطي صوتي، فأشرتُ بيدي طالباً الانتباه. في هذه اللحظة تدخل ضباط الباشا وزعماء العرب بسيوف مسلولة وصدوا المتمردين. وبختُ الباشا على تهوره وضعفه، وسأله خازنداره إن كان في وعيه فضربه الباشا بسيفه. كاد الشجار يبلغ ذروته لولا أنني أمسكتُ ذراع الباشا وأخذته بعيداً وسألتُه إن كان يعرف مصالحه، فهدأ ودعاني صديقه وحاميه وتبعني لخيمتي وأمر العرب بالتفرق. قال إنه سيهدأ كل شيء إذا أمرتُ بصرف الأرز، فرفضتُ إلا بوعده بالمسير فجر الغد، فوعد وصُرفت المؤن وعاد الهدوء. إن سلوك السيد «أوبانون» الحازم فعل الكثير لردع هؤلاء المتوحشين ودعم كرامتنا، وعانقني الباشا واصفاً إياني بـ«الأمريكي». لعب المساعد «ديفيس» دوراً أعزوه للطف المزاج لا لضعف الأعصاب، بينما تصرف الطبيب بجبن وضيع، وتصرف السيد «فاركوهار» بحزم أكبر رغم أن عربياً صوب مسدساً نحو وجهه لكنه لم يطلق النار.

9 أبريل: سرنا في الساعة 6:30 صباحاً، وتقدمنا عشرة أميال ثم توقفنا عند صهريج ماء، حيث وجدنا علفاً جيداً لخيولنا. توجد هنا آثار قديمة كبيرة لمنازل وجدران تقسيم، لكنها ممحاة بالكامل تقريبًا. وعُثر في هذا الصهريج على رجلين ميتين، ربما كانا من الحجاج الذين قتلهم العرب، ومع ذلك، اضطررنا لاستخدام الماء.

10 أبريل: سرنا عشرة أميال، وفي الساعة الثانية عشرة خيمنا في وادٍ جميل بين سلسلتين من جبال الصحراء المكونة من الصخور الكلسية والصوان؛ حيث وجدنا صهريجاً ممتازاً لمياه الأمطار وعلفاً جيداً للخيول. انضمت إلينا المفرزة التي انفصلت عنا في السادس من الشهر، لكن دون استعادة الخيول أو اللحاق باللصوص. لا نملك للعيش سوى الأرز والماء، وبنصف حصص فقط، ولا معلومات من «بومبا» عبر الساعي المرسل إلى هناك.

تسللت فكرة إلى ذهن الباشا بأننا لا نهدف إلا لاستخدامه وسيلةً للحصول على سلام مع أخيه، وأن الطريقة لا تهمنا؛ وهو يفسح المجال لهذا التخوف لأنه خُدع مرتين من قبل قوى مسيحية، ويعتقد أن الإنجليز قد خدعوا باي مصر، ووصل به الوهم إلى حد خشية أن نسلمه لعدوه.

الساعة 3 بعد الظهر: عُقد مجلس حرب عام. وواجهنا مقاومة لا يمكن التغلب عليها من العرب وبعض رجال الباشا للمضي قدماً دون أنباء عن سفننا، مما دفعنا للموافقة على التوقف والانتظار بعد يومين آخرين من المسير. يخشى الباشا الانشقاقات إذا اقتربنا من «درنة» بلا مؤن، إذ ليس لدينا سوى حصص أرز تكفي لنصف يوم لمدة ثلاثة أيام فقط. وما يزيد الوضع قلقاً هو عدم ورود أنباء عن ظهور السفن، وندرك بوضوح أن وصولها هو الوحيد الكفيل بمنع تمرد العرب الذين سينحازون حتماً لمن يوفر لهم العطاء الأفضل.

الساعة 7 مساءً: أبلغني ضابط بوجود تمرد يُنظم في سرية المدفعية للمطالبة بحصتهم كاملة أمام خيمتي، فأمرته بمحاولة قمع التمرد بلين، فإن استحال ذلك فعليه تحذيرهم تحت طائلة الموت من الظهور بالسلاح للاحتجاج. وطلبت من مفوض التوزيع إحصاء كمية الأرز بدقة، ولم أذكر

هذا الوضع المزعج لأحد سوى السيد «أوبانون».

وقبل وقوع الكارثة، في الساعة 7:30 مساءً، وصل الساعي من «بومبا» بأن سفننا قبالة ذلك المكان درنة. وفي لحظة، تحولت الكآبة إلى فرح عارم، وتلاشت أخبار التمرد، واستعاد العرب ثقتهم، ووعد الباشا بمواصلة المسير إلى «بومبا». وفي التاسعة مساءً، أُصيب الباشا بتشنجات وقيء استمرا معظم الليل.

11 أبريل: سرنا في السادسة صباحاً لمسافة خمسة أميال ثم خيمنا، إذ استلزم مرض الباشا توقفاً اضطرارياً. ولا يوجد ماء، واكتشفتُ تجارة غريبة بين جنودنا ونساء العرب؛ إذ كانوا يقايضون أزرار ملابسهم بالتمر، والنساء يضعنها زينةً لأعناقهن. وفي السادسة مساءً تعافى الباشا.

12 أبريل: سرنا خمسة وعشرين ميلاً وخيمنا على مرتفع بلا ماء ولا وقود. ووزعتُ بقية الأرز اليوم، واضطرت القوات لأكله بلا طهي. وخيم جزء من القبائل العربية على بُعد خمسة أميال في المؤخرة لعجز عائلاتهم عن اللحاق بنا من التعب والجوع.

13 أبريل: سرنا سبعة أميال ونصف، حيث شل الجوع والتعب المشاة وعائلات البدو. وذبح الباشا أحد جماله ووزعه على الحملة، وتبادل آخر مع العرب مقابل خروف، مما وفر حصة كاملة لقواتنا، لكن دون خبز أو ملح.

14 أبريل: سرنا خمسة عشر ميلاً وخيمنا في وادٍ خصب غير مزروع، به علف وفير ومياه أمطار في صهريج، لكننا كنا محرومين تماماً من المؤن. وتظهر هنا أنقاض معمارية وعلامات زراعة قديمة أصبحت الآن خراباً.

15 أبريل: سرنا في السابعة صباحاً، وتفرق رجالنا في السهل بحثاً عن جذور ونباتات (مثل الشمر البري والحميض) لإخماد جوعهم. وفي الرابعة عصراً وصلنا إلى «بومبا»، وكانت الصدمة ألا نجد أثراً لبشر ولا قطرة ماء ولا أثر للسفن. وكنا قد قبضنا على ثلاثة عرب أكدوا رؤية سفينتين (منها البريغ «آرغوس») قبل أيام، فاستنتجتُ أنهم يئسوا منا وغادروا. اتهمنا العرب بالخيانة والكفر والتدبير الغادر لإيصالهم لهذا الوضع.

تقرير درنة، يوليو، 1805

بسبب عوائق يطول شرحها، ولكن بشكل رئيسي بسبب تقصير في إدارة

التموين لدينا، لم أغادر الإسكندرية حتى الثالث من الشهر الماضي. إن حشد العرب الذين رافقوا الباشا جعل تقدمنا عبر الصحراء بطيئًا ومؤلماً، يضاف لذلك المزاج العصي على السيطرة لهذه الميليشيا النهّابة، ونوبات اليأس الناجمة عن أخبار التعزيزات الهائلة للعدو.

وصول بومبا (15 الشهر):

كنا قد أمضينا خمسة وعشرين يومًا بدون لحم، وخمسة عشر يومًا بدون خبز، نقتات على الأرز. ولحسن الحظ، في صباح اليوم التالي، اكتشفنا سفينة «أرغوس»، وظهرت سفينة «هورنت» بعد ذلك بوقت قصير. إن الإمدادات التي وصلت في الوقت المناسب قد بثت الحيوية في رجالنا شبه الجائعين.

بدأ الجميع يفكر في النجاة الفردية، وقرر العرب الانفصال عنا في الصباح. أوصيتُ بالتوجه لدرنة فاعتُبر ذلك غير عملي. وانطلقتُ مع المسيحيين وأشعلتُ نيراناً على جبل مرتفع طوال الليل. وفي الثامنة من صباح الغد، وبينما كان المعسكر يتفكك، صرخ خازندار الباشا من فوق الجبل مكتشفاً شراعاً؛ وكانت السفينة «آرغوس». ورأى القبطان «هال» دخاننا فاقترب. إن اللغة لتعجز عن وصف الفرح؛ وصعدتُ على متنها في الثانية عشرة، وتحرك المعسكر لصهريج ماء، وفي السادسة مساءً أُرسلت إليهم المؤن.

17 أبريل: وصلت السفينة الشراعية «هورنت» محملة بالمؤن. ولعدم ملاءمة الرسو، واصلت المسير حول الخليج يومي 18 و19 حتى وجدنا ميناءً جيداً وصهريج ماء لا ينضب.

20-22 أبريل: بقينا في المكان لإنعاش الجيش الجائع وتزويده بالمؤن من «هورنت».

23 أبريل: رياح باردة ومطر. سرنا عشرة أميال فوق أرض جبلية صخرية وخيمنا في وادٍ بجانب نبع طبيعي ينبع من قمة جبل؛ وهو أول نبع طبيعي نجده منذ مغادرة مصر. ونحن نقترب من حقول مزروعة، واذ صرخة تدوي في المعسكر: «من يخدم أحمد باشا بإخلاص سيصبح غنياً، ومن يفكر في الخيانة سيفقد يده اليمنى».

24 أبريل: سرنا عشرين ميلاً فوق أرض وعرة مغطاة بالأشجار الجميلة؛

وهي أول «شبه غابة» نراها في مسيرتنا التي بلغت ستمائة ميل. وخيمنا في وادٍ جميل بجانب جدول وحقول شعير، على بُعد خمس ساعات من «درنة». ووردت معلومات مؤكدة بأن حاكم العدو حصن نفسه للدفاع، وأن جيش «يوسف باشا» اقترب من المدينة، ومن المحتمل وصوله قبلنا. واستولى الذعر على العرب واليأس على الباشا، وقضوا الليلة في مشاورات لم أُدْعَ إليها.

25 أبريل: في السادسة صباحاً قرعت الطبول للمسير، فتمرد العرب. بدأ «الشيخ الطيب» و«محمد» تراجعاً بالفرسان، ورفض البدوفك خيامهم. وبعد توبيخ ووعد بألفي دولارتُقسم على الزعماء، أقنعناهم بالتقدم. بحلول الثانية ظهراً، خيمنا على مرتفع يطل على «درنة». واكتشفنا دفاعات الحاكم: بطارية وثمانية مدافع في اتجاه الشمال الشرقيً، وحواجزوجدران جنوب شرق، وقسم من المدينة موالٍ ليوسف باشا قد زودوا شرفاتهم بفتحات للرماية، مع هاوتزر عشربوصات فوق قصر الحاكم. أبلغنا شيوخ من المدينة بولائهم للباشا، لكنهم حذروا من أن الحاكم يملك ثمانمائة رجل وجميع التحصينات، والجيش الآخر قريب. وتمنى الباشا لوعاد لمصر، ولا سفن في الأفق.

26 أبريل: في الساعة 8:30 صباحاً أطلقتُ إشارات دخان فوق الجبل. في الثانية ظهراً ظهرت السفينة «نوتيلوس»، وتبادلنا الإشارات وتحدثنا في السادسة. أعلنتُ تصميمي على الهجوم غداً إذا وصلت السفن الأخرى.

27 أبريل: في الساعة 5:30 صباحاً ظهرت السفينتان «آرغوس» و «هورنت». (تبدأ هنا وقائع الهجوم المذكورة في رسائلي للقائد بارون).

الهجوم على درنة (25 / 27 أبريل):

25 أبريل: اتخذنا موقعًا على مرتفع خلف درنة. المدينة مقسمة لثلاثة أقسام؛ اثنان مع الباشا، وقسم (الأقوى موقعًا) مع العدو، تدافع عنه بطارية من ثمانية مدافع.

26 أبريل: عُرضت على البك شروط الصداقة، فرد بمقولته: «رأسي أو رأسك».

27 أبريل: تحرك الجيش نحو المدينة بدعم من السفن «نوتيلوس»، «هورنت»، و«أرغوس».

تفاصيل المعركة:

استولى الملازم أوبانون على البطارية، وزرع العلم الأمريكي على أسوارها؛ ووجه مدافعها نحو العدو. وسرعان ما استولى الباشا على بلاط البك؛ وطوقت فرسانه العدو الفار؛ وبعد الساعة الرابعة بقليل سيطرنا بالكامل على البلدة. استمرت المعركة حوالي ساعتين ونصف.

الخسائر:

من بين المسيحيين القلائل الذين قاتلوا على الشاطئ، فقدت أربعة عشر قتيلاً وجريحًا؛ ثلاثة منهم من مشاة البحرية.

مراسلات إلى القائد صامويل بارون (29 أبريل، 1805)

تحدثت في هذه الرسالة عن التزامات الحكومة والتمويل، حيث بلغت النفقات ما يقرب من ثلاثين ألف دولار، شملت نفقات مصر والصحراء وتموين ألف ومائتي نفس ومائتي حصان لمسافة تقارب ستمائة ميل.

رؤية ميدانية (1 مايو):

إن حيازة هذه المقاطعة لا تغير وضع أحمد باشا جوهريًا بسبب فشل المحصول والجزيات التي فرضها يوسف باشا. العرب هنا فقراء وجشعون، ولا يبالون باسم المستبد شريطة ألا يفرض أعباءً جديدة.

مخاوف وتوصيات:

التخوف من الغدر: أخشى أن يتم استخدام أحمد باشا كأداة فقط، ثم يُضحى به عند أول عرض سلام من العدو.

الشرف الوطني: إن أي تسوية تنم عن التراخي ستكون بمثابة موت للبحرية وجرح للشرف الوطني.

الحاجة للدعم: إذا تقرر الاحتفاظ بالموقع، يجب إرسال إمدادات النقد والمؤن فورًا. النقد سيفعل الكثير مع سكان هذا البلد.

خاتمة الرسالة:

الاتفاقية التي أبرمتها مع أحمد باشا قد تكون مفيدة في حال استعاد

حكومته. لقد رأى القبطان هال والقادة الآخرون ضرورة بقاء «أرغوس» و«نوتيلوس» هنا حتى عودة الرد.

لي الشرف أن أكون، سيدي، خادمكم المطيع جدًا، (التوقيع) وليام إيتون. صامويل بارون، الموقر. القائد العام. درنة، مملكة طرابلس، 15 مايو، 1805.

سيدي، منذ إرسالياتي بتاريخ 29 من الشهر الماضي و1 من هذا الشهر، انشغلنا بتحركات قوات العدو؛ الذين، على عكس توقعاتنا، تقدموا وخاضوا معركة معنا في اليوم الثالث عشر. في الليلة السابقة، فرّبك درنة السابق، الذي وجدته صعب المراس في ملجئه المقدس، إلى معسكرهم؛ وبعد أن حصل على معلومات دقيقة جدًا عن عدد المسيحيين لدينا على الشاطئ؛ وحاملاً معه ثقة التأكيد بأن سكان المكان سينضمون إليهم ضد الباشا عند ظهور قوات يوسف، أعطى التشجيع والحركة للأخير. حوالي الساعة التاسعة صباحًا ظهروا على المرتفعات خلفنا؛ ونشروا راياتهم: استطلعونا لبرهة؛ ثم تحركوا في مجموعة واحدة، وهاجموا مفرزة من حوالي مائة من فرسان أحمد، الذين كانوا متمركزين في الجنوب على بعد قليل من البلدة. هؤلاء، على الرغم من أنهم دافعوا عن الأرض بشجاعة كبيرة، إلا أنهم أُجبروا على الاستسلام لأعداد متفوقة. طاردهم العدو إلى داخل المدينة وتحت نيران ثابتة من سفينتي «أرغوس» و«نوتيلوس»، ومدافع بطاريتنا ومدافعنا الميدانية، وتقدموا عبر نيران منتظمة من الأسلحة الصغيرة من أسطح المنازل حتى وصلوا إلى بلاط الباشا. وهناك قوبلوا باستقبال حار من نيران بنادق الأشخاص الذين كانوا بالقرب منه، والسكان الذين أطلقوا النار من الجدران الصماء لمنازلهم: لكنهم بدوا مصممين على الاستيلاء على شخص الباشا. لم تكن ضعف موقعنا يبرر القيام بهجوم مضاد لنجدته؛ وإذ خشيت، من نيران البنادق المتحمسة والمتقطعة، أن اليوم قد ضاع بالنسبة لنا، وجهت مدافعنا نحو البلدة. ولحسن الحظ، قتلت قذيفة من أحد مدافعنا عيار تسعة أرطال اثنين من العدو وهما على حصانيهما بالقرب من البلاط. على الفور أطلقوا بوق التراجع؛ وبعد أن تخلوا عن البلدة من جميع الجهات، طاردهم فرسان أحمد في كل مكان، حتى تم تعقبهم تحت نيران السفن؛ التي

ألحقت بهم أذى شديدًا في فرارهم. قبل الساعة الثالثة بعد الظهر بقليل، عاد الهدوء إلى كل شيء في المدينة، ولم يُر العدو إلا من مرتفعاتهم. يسعدني أن هذا الحدث يمكّنني من تصحيح رأي كنت قد كوّنته من معركة 27 من الشهر الماضي، وهو أن رجال الباشا كانوا يعتمدون كثيرًا على إنقاذ أنفسهم: لقد تركوا بالتأكيد عبء ذلك اليوم علينا، وهو ما لم أستطع إلا أن ألوم زعيمهم عليه: في هذه المعركة أظهروا شجاعة وحسن سلوك. من خلال عبد إيطالي فرّ منهم في اليوم التالي، علمنا بمعلومات شبه مؤكدة أنهم فقدوا أربعين أو خمسين رجلاً بين قتيل وجريح؛ وهو ما نعلم أنه خسارة فادحة ومحبطة للعرب، وقد كان له تأثيره، فقد رحلوا عن معسكرهم في ليلة الثالث عشر، وهم يتحركون إلى موقعهم القديم في بومبا، على بعد ثلاثين ميلاً، بعد أن أرسلوا إلى بنغازي لطلب تعزيزات. ولدي أسباب قوية للاعتقاد بأن أعدادهم في معركة الثالث عشر كانت، من الطرابلسيين الذين فيهم قوتهم الرئيسية، مائة وخمسون، وهم مسلحون جيدًا، منهم مائة يوناني؛ وحوالي ستمائة من البدو أو عرب الصحراء المشاة.

1 مايو: انطلقت «هورنت» بالرسائل.

2 مايو: فحصتُ المواقع المحيطة بالمدينة وحاولتُ إخراج الحاكم من ملجئه؛ إذ لجأ إلى منزل شيخ من «مصراتة» (أحد أقسام المدينة الموالية للباشا). لم تنجح الرشاوي ولا التهديدات في إقناع الشيخ العجوز بانتهاك حرمة ضيافته، محتجاً بأن العرب لا يسلمون لاجئاً أبداً، وأن انتهاك هذا المبدأ المقدس سيجلب عليه لعنة الله والبشر.

3 مايو: وصل ساعي من جيش «يوسف باشا» ينذر بهجوم عام. وأمرتُ بتحصين القصر والمواقع التي استولينا عليها، وبدأتُ في تحصين موقعنا بعد ورود أنباء عن تقدم العدو.8 مايو: في الأيام الخمسة الماضية، تم إبقاء المعسكر بأكمله في حالة تأهب دائم. والمناوشات بين عربنا والعدو كانت يومية. في التاسع، قُتل أحد عربنا من قبل دورية للعدو، وأصيب آخران. تم إرسال مفرزة قوية، أوقفت الدورية، لكنها لم تستطع إجبارهم على الاشتباك.

قضيت هذه الأيام الخمسة في وضع أنفسنا في أفضل حالة دفاعية ممكنة بالوسائل التي نمتلكها. وتقدم العدو بطريق دائري وزرع معسكره على الأرض التي احتللناها في 29 و30 الشهر الماضي. سكان المدينة في حالة من الذعر. يبدو أنه لا يزال من غير المؤكد لديهم من هو الطرف الأقوى؛ هزيمة أحمد باشا ستكون مذبحة لأتباعه. وخوفًا من ثورة مضادة من خلال مؤامرة مصطفى بك، الحاكم السابق، طالبت به مرة أخرى من مضيفه، مهددًا بقصف قسمه؛ قال إنه سيخضع لعقاب الله؛ لكنه لن يوافق على انتهاك أوامره.

9 مايو: كان العدو يحاول خلال هذه الأيام الأربعة إفساد وجلب سكان المدينة. والحاكم السابق الذي يعمل من ملجئه، يجب أن يُعتبر عدوًا نشطًا، لا يستحق أي امتيازات للضيافة. وظل الشيخ ثابتًا في قراره بعدم تسليمه. قررت تجربة إجباره؛ وفقًا لذلك، سرت إلى الحي القريب منه على رأس خمسين مسيحيًا بالحراب، وأعلنت نيتي في انتزاع البك من ملجئه. وانتشر إنذار عام في جميع أنحاء القسم. «المسيحيون لم يعودوا يحترمون عادات آبائنا وقوانين ضيافتنا» حثثت على أن البك كان خارجًا عن القانون؛ لقد فقد حقه في الحماية. ولقد رفض في المقام الأول شروط الصداقة؛ لقد تحداني بطريقة وقحة للقتال؛ لقد هُزم؛ وكان، بكل قوانين الحرب، أسيري. ولكن إذا لجأ إلى مأوى الدين، فسيتمتع بحمايته شريطة أن يبقى خاضعًا وهادئًا. لكنه كان يشن حربًا نشطة ضدي حتى في عزلته؛ وبفعله ذلك، فقد أيضًا الاحترام الواجب للأسير. لذلك، سآخذه، حيًا أو ميتًا. وظل الشيخ غير مرن. وتحرك القسم للدفاع عن عاداتهم القديمة. والباشا، أحمد، خائفًا من حدوث تمرد، وأصبح مضطربًا بشدة. وتوسل أن أعلق تنفيذ محاولتي حتى الغد، واعدًا في الوقت نفسه باستخدام أقصى جهوده لإخراج البك من حماية هذا الشيخ بوسائل لطيفة. ووافقت. في تلك الليلة، وساعد الشيخ البك على الهروب إلى معسكر العدو مع خمسة عشر أو ستة عشر تركيًا في حاشيته.

10 مايو: (انظر رسائلي بتاريخ 15، إلى القائد بارون.)

من الجدير بالذكر أن الشيخ نفسه من مصراتة، الذي لجأ إليه وساعد

في هروب مصطفى بك، قاتله في اليوم التالي، وجلب جميع أتباعه إلى المعركة ضد العدو لصالح أحمد باشا. بعد الفوز في المعركة، وقدم نفسه في قصر الباشا، وقبّل يده، وجلس أمامه كرعية بأسلوب شرقي، وخاطبه بهذه الكلمات القوية والمعبرة:

«لقد قدمت لك اليوم، كما أثق، دليلاً لا لبس فيه على تعلقي الشخصي وولائي. يجب أن أقول لك إنك لم تستحق ذلك؛ كنت ستستجيب لإلحاح الجنرال المسيحي في انتهاك ضيافة منزلي، وإهانة اسمي. وكان يجب أن تتذكر، أنه، قبل عامين فقط، أُنقذت في هذا الحرم الآمن، وأُمنت في هروبك بنفس الضيافة، من انتقام هذا البك نفسه. ولو كانت نتيجة هذا اليوم ضدك، كنت سأحتفظ بمشاعري للتوبيخ: كما هو الحال الآن، لقد برأت ذمتي أمام إلهي وضميري.»

ثم جدد قسم الولاء للباشا.

---

10 مايو: الساعة الثامنة صباحًا، ظهر العدو بقوة على تلال تطل على المدينة. وتحرك جيشنا لمقابلته؛ ولكنه تراجع.

11 مايو: لم تحدث أي تحركات.

12 مايو: أُبلغت بأن العدو ينوي شن هجوم متزامن على جيش الباشا والمدينة. تم التحصين ضد هجوم من هذا القبيل.

12 مايو: الساعة 3 صباحًا: أبحرت «نوتيلوس» برسائل إلى مالطا.

الساعة 10 صباحًا: تقدم العدو في صفوف المعركة على سفح الجبل، لكنه لم يتمكن من حسم أمره لمواجهة الأعداد الكبيرة التي أظهرت نفسها مع أحمد باشا، وانسحب بعد حوالي ساعة: لقد أظهروا أنفسهم يوميًا منذ 10، ولكن ليس بشكل بارز.

13 مايو: الساعة الثامنة صباحًا، دخل العدو السهل الشرقي من المدينة، في خط طويل متقطع. كان عربنا مستعدين لمقابلته. أخرجت مسيحيي؛ وشكلت خطًا في المقدمة، خلف بعض الجدران الحجرية القديمة، لدعم العرب. لكنهم لم يأتوا إلا في مرمى بنادق الصيد، وبدأ إطلاق نار متقطع وعشوائي من كلا الجانبين؛ مما استمر، في بعض الأحيان، بشكل مكثف إلى

حد ما، حتى الساعة العاشرة مساءً، عندما تراجعوا أخيرًا. تم شن هجوم في نفس الوقت على شرفات المدينة بواسطة أعداد أكبر من العدو، لكن تم صدهم بطلقات نارية من بندقيتنا الميدانية من قصر الحاكم، وطلقات متواصلة من البنادق الصغيرة من منازل الرماة. وبعد رؤيتنا، لم يعرضوا أنفسهم أبدًا أمام نيران مدفعنا.

العدو، هذه المرة، أظهر نفسه بما لا يقل عن ألف ومائتي رجل راكب وألف من المشاة؛ وكان لديهم مخزون كبير من الجمال والأمتعة والخيول الإضافية. ولم نقاتل سوى بمائة وخمسين رجلاً راكبًا، وخمسين من المشاة. وقُتل ستة رجال وجرح خمسة من جانبنا. وكان هناك عدد من الخيول من الجانبين.

13 مايو: الساعة 8 صباحًا: ظهر العدو بكامل قوته؛ ويبدو عازمًا على إظهار الشجاعة.

الساعة 10: اختفوا.

الساعة 6:30 بعد الظهر: ذكرت امرأة من المعسكر أن البايات كانوا ينوون مهاجمة أعمالنا هذا الصباح؛ لكن العرب رفضوا التقدم إلى الهجوم. حاول البايات إجبارهم. قالوا إن لديهم ليس فقط الحفاظ على حياتهم الخاصة ولكن وجود عائلاتهم للحفاظ عليه. كان أحمد باشا يسيطر على المدينة والمسيحيون على البطاريات؛ هذه، مع المدافع الثقيلة للسفن، ستدمر كل ما يقترب منهم. سيبقون مع المعسكر حتى تصل تعزيزات من يوسف باشا؛ وبعد ذلك سيقاتلون المسيحيين. ثم طالب البايات بجمالهم لتُحرك كغطاء لمقدمتهم وجوانبهم، لكنهم رفضوا ذلك، واضطر البايات إلى التخلي عن مشروع النصر اليوم.

كانت قطعان عرب البدو تحت حماية مدافعنا منذ صباح 13. لم يحدث حتى الآن أي حالة من خيانة هذه الثقة. نساؤهم يحضرون لنا لحم الضأن والحليب والبيض ويتاجرون مع جنودنا دون أي مخاوف من العنف أو الاحتيال. لقد اضطررنا لعدة أيام إلى ضرورة مقايضة بضائع الغنائم من «آرغوس» مقابل لحم للحامية؛ وسيلة مهينة؛ لكن ليس لدينا نقد.

14 مايو: أبلغنا أحد المخبرين أن العدو قد خيّم في صباح الأمس على بعد

ساعتين من المدينة، وينوي شن هجوم ثانٍ هذا اليوم.

15 مايو: لم يظهر أي عدو. وأُرسلت مفرزة من فرسان الباشا إلى معسكرهم؛ لكنها تراجعت عند الاقتراب الأول منهم.

16 مايو: انشق رجلان من المرتدين عن العدو؛ وأبلغا بأن الباشا قد حشد قوة أخرى قوية للانضمام إلى هذه، وأنه ينوي الزحف بنفسه إلى المقاطعة.

17 مايو: ظهر العدو مرة أخرى في السهل؛ ودخلوا حقول الشعير، ومكنوا خيولهم من الرعي، وجلبوا كميات كبيرة من القمح الأخضر؛ وقادوا سبعة عشر رأسًا من الماشية التي كانت ترعى في الجوار. وأدى تقصير جيش الباشا وتفوق الأعداء في الأعداد إلى جعل التحرك ضدهم خطيرًا.

18 مايو: خرجت مفرزة للبحث عن العدو؛ لكنها لم تجده.

19 مايو: لا يوجد عدو في الجوار. أُبلغت بأن الباي مستعد لدفع فدية لأسرانا وشراء السلام بمبلغ مائتي ألف دولار. أنا شخصيًا سأعتبر السلام بشروط كهذه وصمة عار وطنية.

19 مايو. نحن مهددون مرة أخرى بهجوم من العدو. منذ رسالتي الأخيرة، تلقى حسن بك طرابلس، الذي كان يقود قواتهم، تعزيزات، والتي تفيد بأن معسكرهم يضم ثمانمائة طرابلسي. البك، منتشيًا بهذه القوة الإضافية، تقدم بقواته ويقترب منا لمحاولة أخرى ضد درنة. أبحرت «أرغوس» إلى البحر في صباح اليوم الثامن عشر متجهة إلى سيراكيوز. معسكرهم من الطرابلسيين يضم ثلاثمائة وخمسين مسلحين جيدًا: مائة يوناني؛ وحوالي ثلاثمائة من البدو أو عرب الصحراء المشاة. في هذا الجيش المختلط، يوجد مائتان أو ثلاثمائة هارب من هذا المكان، قاتلونا في السابع والعشرين من الشهر الماضي، والذين يُعتبرون الآن طرابلسيين وعربًا. أقام العدو متاريس من جدران حجرية فضفاضة مع فتحات حول معسكرهم، الذي يقع على بعد ثلاثة أميال، ويفصلنا عنه سلسلة من الجبال، وهم منشغلون بنهب الذرة والقطعان لإعالتهم وإعالة خيولهم. من خلال الهاربين الذين وصلوا هذا الصباح، علمنا أن العرب يرفضون بعناد التقدم مرة أخرى، في مرمى مدافعنا، أو مهاجمة البلدة ضد حراب المسيحيين. حدث ما لا يُحمد عقباه،

وهو لصالح العدو، في الثامن عشر عن طريق هجوم مباغت. لا أستطيع إقناع رجال الباشا بمحاولة القيام بهجوم مضاد: «هم لا يقاتلون ليلاً أبدًا: ينوون القيام بشيء من هذا القبيل للخروج من البلاد بقصد العودة.» نحن حقًا أضعف من أن نقوم بهذه الغارات ليلاً؛ وحالة مخازن السفن لا تسمح بسحب البحارة. يكفي أننا نحتفظ بهذا الموقع، دون قوة كافية لإنهاء الأمر. في ظل هذه الظروف المحبطة، تبحر «نوتيلوس» هذا المساء بهذه الرسائل ونسخ من رسالتي الأخيرة. يجب أن أترك الأمر لتساهلكم، وللقبطان دنت، الذي ستمكنه معلوماته التي جمعها على الفور، وحكمه الصحيح، من توفير كل ما هو ضروري جوهريًا لمعلومات عن موقعكم الفعلي وآفاقكم المستقبلية، مما قد لا يتم استخلاصه من اتصالاتي. سنسعى جاهدين للاحتفاظ بهذا الموقع حتى عودته، وهو ما أطلب منكم السماح به، على الرغم من أنه لا ينبغي لي أن أخفي مخاوفي من أنه سيكون من الصعب جدًا، لأيام عديدة بدون إمدادات؛ قد تقطع الضرورة في الوقت الحاضر، كل احتمال لذلك.

لي الشرف أن أكون، باحترام فائق، سيدي، خادمكم الأكثر طاعة، (التوقيع) وليام إيتون. صامويل بارون، الموقر. القائد العام.

ملاحظة: الخبز والأرز من المواد الأساسية للعيش القهوة والسكر ضروريان، وبعض المؤن المملحة والبضائع الصغيرة.

20 مايو: لا شيء يُذكر.

21 مايو: وصل رسول من القائد بارون؛ أبلغ بأن قنصلنا العام، العقيد لير، في طريقه إلى طرابلس للتفاوض على سلام مع يوسف باشا.

21 مايو: ذكرت امرأة من معسكر العدو أن تعزيزات انضمت إليهم أمس من 150 فارسًا؛ وأنهم يتوقعون أخرى اليوم أو غدًا، وعندها يحسبون على أخذ المدينة ومحاصرة موقع المسيحيين.

22 مايو: أبحرت «كونستليشن» متجهة إلى طرابلس.

22 مايو: هرب إلينا زعيم عربي كان قد سُجن كرهينة لدى العدو لضمان ولاء قواته. يقول إن العرب يرفضون تمامًا المخاطرة بهجوم آخر على المدينة. يعد بإحضار أتباعه، البالغ عددهم ثمانين، إلى جانب الباشا.

«لا نريد شيئًا سوى الأموال لتفكيك معسكر عدونا دون إطلاق طلقة

أخرى»

23 مايو: أسرنا ثلاثة من جواسيس يوسف باشا.

23 مايو: عرض حسين بك، القائد العام لقوات العدو، سرًا، لرأسي، ستة آلاف دولار، وضعف المبلغ لأسري؛ و230 دولارًا للرأس الواحد من المسيحيين. لماذا لا يأتي ويأخذها؟

الساعة الخامسة بعد الظهر: غمرتنا رياح السيروكو أو الرياح الحارة من الصحراء. جاءت في إعصار وجلبت معها عمودًا من الغبار الساخن، يشبه دخان حريق، وحولت الشمس في المظهر إلى نحاس منصهر، وأطاحت بكل شيء له حياة على الأرض؛ وملأت كل شيء برمل حار، دقيق، أو بالأحرى مسحوق. كنا في ضيق من التنفس: انقبضت الرئتان؛ سخن الدم كالحمى؛ وعرق مريح غطى سطح الجسم. استمرت 4/3 ساعة.

24 مايو: علمنا أنهم يحصنون بومبا.

25 مايو: لم يحدث أي شيء مهم.

25 مايو: هبت رياح السيروكو في عاصفة من الجنوب الغربي طوال اليوم. كانت الحرارة شديدة لدرجة أن ألواح الصنوبر البيضاء لطاولتنا القابلة للطي وأغلفة الكتب في خيامنا انحنت كما لو كانت أمام نار قريبة. اخترق الغبار الساخن كل شيء، عبر ملابسنا؛ وفي الواقع بدا أنه يسد مسام الجلد. كان له تأثير غريب على جرحي، مما أعطاه الأحاسيس المؤلمة لجرح حديث.

26 مايو: جيش العدو على بعد أربع ساعات مسيرة من المدينة؛ لكنه في حالة من الجمود.

27 مايو: يطالبني رجال المدفعية بدفع أجرهم؛ وهو ما لا يمكنني تحمله. ليس لدي أموال. أخذت كل المسؤوليات على عاتقي. إذا لم تصل الإمدادات سريعًا، فسأضطر إلى التخلي عن كل شيء.

28 مايو: الساعة الرابعة بعد الظهر، اندلعت أعمال شغب في سرية المدفعية. وكان الهدف منها إجباري على الموافقة على طلباتهم بالاموال. وقمت بقمع التمرد من خلال الظهور بينهم بمفردهم وتوجيه البنادق المحملة، والبندقية، والمسدس، والحربة.

28 مايو: هاجمت وهزمت فرقة منفصلة من العدو، تتكون من حوالي ستين من المشاة وسرية من الفرسان، بخمسة وثلاثين أمريكيًا ويونانيًا فقط، بما في ذلك الضباط. كان السيد أوبانون، ومان، وفاركوهار، والقبطان قسطنطين، معي.

29 مايو: وصلت «آرغوس»، بعد رحلة ستة عشر يومًا من مالطا. أحضرت إمدادات؛ ولكن لا نقود. تمرد المدفعية في طريقها إلى الانتهاء. أرسلت في طلب قادتهم؛ أعطيتهم بعض الأسباب وبعض الوعود؛ وذهبوا راضين.

29 مايو: تظاهر العدو بالهجوم. (انظر رسائل هذا التاريخ.)

الساعة السادسة بعد الظهر: مرابط (قديس) كان قد تلقى بعض الصدقات مني — الآن من العدو، يذكر أن امرأتين، واحدة في المعسكر والأخرى في المدينة، قد تعهدتا بقتلي بالسم؛ وأن القائد العام للعدو، قد قدم لهما بالفعل هدايا كبيرة، من بين أشياء أخرى، خاتم من الألماس، برلنتي سوليتير، تحسبًا لهذه الخدمة. حذرني القديس من قبول أي هدايا من المعجنات، أو الحلويات، أو الفاكهة، من أي شخص في المدينة.

درنة، 29 مايو، 1805. سيدي، منذ مغادرة «نوتيلوس» بإرسالياتي بتاريخ 19، أظهر العدو نفسه يوميًا في وضع تهديدي، لكنه لم يصل إلى معركة عامة. بالأمس، تمركزت مفرزة من حوالي 50 أو 60 منهم خلف فرقة من الخيالة، ونزلت الجبل عبر وادٍ، وهاجمت بعض عائلاتنا العربية، التي كانت تخيم في مؤخرة البلدة، وسلبت عددًا من الماشية والجمال. امتطى رجال الباشا خيولهم وهاجموهم تحت الجبل، وقتلوا وجرحوا ثلاثة منهم، واستعادوا ماشيتهم. خرجت مع الملازم أوبانون، والسيد مان، وفاركوهار، وثلاثين من الرتب والملفات، أمريكيين ويونانيين، من الحامية، وسلكت واديًا على اليسار، بهدف قطع طريق تراجعهم. التقينا بهم بعد فترة وجيزة من صعود الجبل. قاومونا لفترة قصيرة، لكنهم فروا أمام هجوم بالحراب. طاردناهم إلى مسافة قصيرة من معسكرهم، وقتلنا قائدهم وخمسة رجال، وجرحنا آخر، وأسرنا اثنين؛ دون أن نتعرض لأي إصابة بأنفسنا. دق المعسكر طبول الحرب؛ تحركت الجمال المركوبة نحونا في مجموعة؛ لكنها لم تصل إلى مرمى البنادق.

لم يتمكنوا من تحديد عددنا، وخوفًا من أننا كنا فرقة متقدمة تهدف إلى استدراجهم إلى كمين في أرض غير مواتية، اصطفوا في تشكيل معركة وحافظوا على موقعهم بينما تراجعنا إلى أسفل الجبل. أقسم العدو بالانتقام: وعزم على تنفيذه اليوم. حوالي الساعة التاسعة صباحًا تقدموا بكامل قوتهم وتمركزوا على مرتفع في مرمى البصر. تم اتخاذ المواقع المناسبة من جانبنا لاستقبالهم. استطلعونا لبرهة؛ ولكن، عندما صدرت الأوامر بالهجوم، تمرد عربهم وتراجعوا؛ وأُجبر البكوات على اتباعهم مع طرابلسييهم.

30 مايو: لا شيء يُذكر.

31 مايو: شنق أحد رؤساء القبائل العربية في المنطقة المجاورة. كان في خدمة يوسف باشا؛ وجُد مذنبًا بمحاولة إثارة تمرد بين عربنا.

2 يونيو: الساعة الثامنة صباحًا، شن العدو هجومًا ثانيًا. دخلوا السهل من ثلاث نقاط؛ وسيطروا على جبل في الجنوب الغربي يطل على القصر. عانى عربنا من هزيمة كاملة. وأوقفنا تقدمهم في الجزء العلوي من الوادي، ببعض الحزم من جانب المسيحيين، الذين نجحوا في صد هجماتهم اليائسة. بعد قتال استمر أربع ساعات، وتراجعوا؛ وقضوا على معظم الجمال التي كانت قد أحضرت الحصاد إلى المدينة.

2 يونيو. اليوم عقد العدو العزم على الهجوم. كانوا قد أجبروا العرب في وقت سابق على أداء قسم الولاء عن طريق أسر وربط رهائن من أهم عائلاتهم: لكن تحركاتهم هذا اليوم انتهت تمامًا كما في 29. حاول البكوات إجبار العرب على التقدم. قاوموا: وزعموا من بين أعذار أخرى مماثلة، أنهم مستعدون لمحاربة عدو بأسلوب حربهم الخاص: لكنهم لا يستطيعون مقاومة الأمريكيين، الذين يطلقون قذائف هائلة، تطيح بالرجل وجمله دفعة واحدة، أو يندفعون عليهم بالحراب، دون أن يمنحوهم وقتًا لتلقيم بنادقهم. في المساء، كان لي شرف تلقي رسالتكم بتاريخ التاسع عشر من الشهر الماضي، والتي علمت منها أن باشا طرابلس العظيم قد قدم مؤخرًا عروض سلام، قرر القنصل العام، الكولونيل لير، أن يلتقي بها؛ معتبرًا اللحظة الحالية مؤاتية لمثل هذه الخطوة. ونتيجة لذلك، يبدو من المتوقع أن ننسحب من هذا

الساحل. لم أكن مخطئًا عندما تنبأت في رسالتي بتاريخ الأول من الشهر الماضي، بأن الباشا الحاكم سيغتنم اللحظة التي يخشى فيها خطرًا جديًا من أخيه، ليتخلص من هذا المنافس عن طريق فصل مساعدتنا عنه، من خلال عروض سلام. تؤكد الحقائق صحة هذا التخمين. أن سكان طرابلس سئموا الحرب هو أمر مؤكد. وأنهم يتمنون سرًا عودة حاكمهم الشرعي، لأنهم يعتقدون أنه ميال للسلام، يتسرب عبر قنوات مختلفة لا يرقى إليها الشك: وأن عرب ومور المملكة، الذين يشكلون سكانها بالكامل، في حالة ثورية عامة هو أمر صحيح بنفس القدر. يوسف باشا ليس جاهلاً بهذه الميول. في وقت مبكر من شهر يناير الماضي، كان، وفقًا للقنصل الدنماركي، يتابع باهتمام كبير معاملاتنا مع أخيه في الإسكندرية. في التاسع عشر من الشهر الماضي، ألمحت عروض متأخرة إلى القنصل العام بميله نحو التهدئة. كنا آنذاك قد أمضينا ستة وسبعين يومًا من الإسكندرية؛ خمسة وثلاثين يومًا في التقدم حتى بومبا: وواحد وعشرين يومًا في حيازة هذا المكان. وعن هذه التحركات والعمليات، أعلمته الاتصالات المعترضة عن طريق ذلك. لقد مضى الآن تسعة عشر يومًا منذ أن هُزمت قواته على هذه الأرض؛ وأن المفارز المنفصلة قد هُزمت ودُحرت. هذه هي الأحداث التي لا بد أن يكون لها تأثير. لا يبدو أن السرب قد أظهر حتى الآن أي استعراض هائل لقوته أمام طرابلس. ليس من غير العدل إذن أن نستنتج أن عروض السلام من الباشا الحاكم تتأثر إلى حد كبير بالمخاوف من اقتراب أخيه. ومع ذلك، يبدو أنه ليس لدينا أي التزامات تجاه أحمد باشا. ولكن إذا كان هذا هو تأثير الاسم والخوف من هذا الجانب، (الذي يعرف جيدًا كيف يجمع بين التأثير الشجاع للأطراف)، فإن الحسابات التي شكلناها للنتيجة النهائية للمساعدة الفعالة له لا ينبغي أن تبدو خيالية بعد الآن. أعتقد أن الحكومة كانت تنوي ألا تستفيد من هذا الظرف المؤاتي كأداة لتأديب عدو غادر، بدلاً من التضحية بصديق ساذج. أعلم أنه كان في الرغبة العامة، بل وتوقعات بلدنا، أن يتم تأديب العدو. إلى أي مدى سيتم إرضاء هذه الرغبة والتوقع، من الترتيبات الجارية الآن، يجب أن يحدده الوقت والأحداث. لكن لا يمكنني من أي شكل يمكن أن يُنظر به إلى الموضوع، أن أقتنع بأن طريقة خدمتنا لأنفسنا من خلال أحمد باشا، والتخلي عنه،

يمكن التوفيق بينها وبين مبادئ الشرف والعدل، التي أعلم أنها تحرك الصدر الوطني. يبدو كافيًا لإلغاء كل تعهد أننا أعدناه إلى الموقع الذي طُرد منه. يجب أن يؤخذ في الاعتبار أن هذا ليس سوى الموقع الذي طلب منه دائمًا الإمدادات؛ وبالتالي فإن إعادته إلى هنا، تمامًا كما كان، لا يمكن أن يقدم له أي خدمة جوهرية، ولكن التخلي عنه هنا في ظل الظروف الحالية عندما استنفدت المجاعة ونهب قوات العدو موارد المقاطعة، بينما لا تزال قواته في الجوار؛ لا يمكن إلا أن يتركه في وضع أكثر يأسًا مما ترك فيه المكان: وهنا سبب إضافي لعدم تغير وسائله ماديًا للأفضل. لقد طُرد بسبب اتصاله بأعداء منافسه. لقد تم حثه على العودة على أمل تلقي مساعدات منا لمتابعة آرائه في استعادة عرشه. اعتقدت أنني مخول، من التأكيدات التي قدمها لي وزير البحرية، بتشجيعه على أمل تلقي تلك المساعدات والتعبيرات المتكررة عن عزمكم على جعل طرابلس عبرة في الصيف القادم، عززت ثقتي بأن ممارسة سلطتي التقديرية هنا، بالطريقة التي فعلت بها، ستساعد في نهاية المطاف، إن لم يكن بشكل مباشر، في تحقيق هذه الأهداف. قيل إن المقاومة التي واجهناها في هذا المكان قد أحبطت التوقعات التي تشكلت للتعاون المنشود. لا شك أن هذه المقاومة كانت ستكون أقل عنادًا، لولا أن قرب معسكر العدو فرضها إلى حد ما، أو على الأقل شجعها. ولكن ربما كان من المتوقع أن حاكم يوسف باشا، الذي طرد أحمد باشا قبل عشرين شهرًا بقوات من طرابلس من هذا الموقع، والذي كان لا يزال يحتفظ بالسيطرة عليه، سيعارض عودته بكل الوسائل المتاحة له. يُذكر أن الافتقار إلى الصفات الأساسية في شخصية القائد والأمير يمثل عقبة خطيرة أمام تقدم قضيته. لا نجد حتى الآن أن العدو يمتلك تلك الصفات بدرجة بارزة، لتبرير مقارنة تضر بمنافسه. يجب الاعتراف بأن الأخير يمتلك القدرة على فرض الاحترام وكسب المودة بين رعاياه. وقد كان لدي مؤخرًا سبب وجيه لتصحيح الرأي غير المؤاتي الذي كنت أكنه في وقت من الأوقات لمشروعه العسكري. ومع ذلك، فهو ليس جنرالًا. لم أرقط تركيًا واحدًا، اعتقدت أنه يستحق هذا اللقب. لست وحدي في هذا الرأي. هناك اعتقاد عام بين السادة الذين عملوا معي، بأن أحمد باشا يمتلك مواهب كافية لأغراضنا. وكدليل على ذلك، فإن كل واحد منهم

ليس فقط مستعدًا، بل حريصًا على متابعة الحملة. مع المساعدات التي ذكرت أنها مطلوبة، يمكننا على الفور تفكيك معسكر العدو أمامنا، وفتح طريقنا، دون عوائق كبيرة أخرى، إلى أبواب طرابلس. العدو يدرك ذلك؛ ويحاول التفوق علينا. معسكره في الخارج؛ وبالطبع دفاعه ضعيف في العاصمة. الهزيمة الكاملة لقواته هنا ستكون ضربة قاضية لمصالحه: استدعاؤها سيكون بمثابة التخلي عن مقاطعتي درنة وبنغازي؛ ولكن بإزالة العدو القريب منه بالتهدئة، يمكنه بأمان توجيه جميع موارده ضد منافسه: وعندما يتم تخليصه من هذا الخطر، سنواجه مرة أخرى بلا شك تجارب احترامه للمعاهدة. أشك في أن القنصل الإسباني له تأثير في إجراءات يوسف باشا. إذا كانت ذاكرتي تخدمي، فقد اتهمه قنصلنا الراحل، السيد كاثكارت، بتقديم المشورة للحرب. أتذكر تمامًا أنني سمعته يؤكد، في تونس، في ديسمبر 1801، أن الأمريكيين أخطأوا في الحساب إذا ظنوا أنهم سيفرضون سلامًا دون دفع ثمنه. العار الوطني، وربما المصلحة، والفخر الفردي، دفعته إلى تفضيل مثل هذه النتيجة للحرب: يقال إنه رجل الباشا الموثوق به. أخشى أنه تم التغاضي عن اعتبار مهم واحد في الترتيبات التي اتخذها السيد لير مؤخرًا: خطر التراجع إلى مسافة لا يمكن استردادها؛ في حالة فشل المفاوضات التي بدأها، وفي نفس الوقت التخلي عن الأرضية المواتية التي نحتفظ بها هنا: سيكون لذلك بالتأكيد ميل لتوحيد مملكة طرابلس ضدنا، وربما يشجع ساحل البربر بأكمله على العدوان: أو، حتى لو تسرب أن إخلاء هذا الموقع قد تم التوصية به، فسيكون له بالتأكيد تأثير غير مواتٍ على المفاوضات المعلقة. هناك اعتبار آخر متورط، لا يمكن إلا أن يجرح كبرياء المبادئ العسكرية: يجب أن ننزل علم بلدنا هنا، في حضور عدو، لم يستحق النصر؛ ونسلم له شرف انتصار لم يمنحه أي مواجهة حتى الآن حق المطالبة به ولا سبب لتوقعه: بالتأكيد هم، وربما العالم، سيضعون تفسيرًا غير عادل لهذا التراجع. على أي حال هو تراجع؛ وتراجع للأمريكيين إذا كان الشعور الفردي وحده هو الذي يجب استشارته في هذا الموقف، فإنه سيفضل هزيمة رجولية على هذا النمط من السلامة. ستكون النتيجة لشخصيتنا الوطنية أكثر شرفًا. إن عبء النفقات التي يجب أن تترتب على متابعة التعاون، يبدو عقبة

لا يمكن التغلب عليها. أخشى أن تكون النفقات النهائية للحفاظ على سلام مع يوسف باشا، أكثر عبئًا على الولايات المتحدة، من تلك المترتبة على هذا التعاون: إلى جانب ذلك، يُحسب أن هذه النفقات سيتم تعويضها. يُلمح لي أن القنصل العام يعارض هذا الإجراء. من الممكن أن يكون لديه معلومات أفضل يستند إليها في تكوين رأي حول نتيجته، منا نحن الذين رافقنا الحملة حتى الآن؛ لكن هذا ليس محتملاً. هل له أي دور في الحرب؟ لا يسعني إلا أن آمل أن تصل تعليمات إضافية من الحكومة في الوقت المناسب لتمكينكم من توفير وسائل متابعة التعاون بفعالية، وتأديب تهور عدونا، ومنع الأحداث المحزنة والمزعجة، التي تهدد بها المظاهر الحالية. ستبكي يا سيدي، لو كنت في المكان، لتشهد الثقة اللامحدودة الموضوعة في الشخصية الأمريكية هنا، ولتفكر في أن هذه الثقة يجب أن تغرق قريبًا في الازدراء والكراهية الخالدة: ستشعر أن هذه الثقة، بأي ثمن، يجب أن تُحمل عبر ولايات البربر، على الأقل إلى طرابلس، بنفس الوسائل التي أُلهمت بها هنا. ولكن، إذا لم تأتِ مساعدات أخرى لمساعدتنا، وأُجبرنا على مغادرة المكان في ظل ظروفه الحالية، فإن الإنسانية نفسها يجب أن تبكي: مدينة درنة بأكملها، جنبًا إلى جنب مع عائلات عديدة من العرب، الذين ارتبطوا بحامد باشا، وقاوموا قوات يوسف على أمل الحصول على المساعدة منا، يجب التخلي عنهم لمصيرهم: سيكون الخراب والذبح النتيجة الحتمية: لا يمكن لروح منهم أن تفلت من الانتقام الوحشي للعدو. لذلك، بالمضي قدمًا إلى هذا الحد وليس أبعد، بدلاً من تقديم المساعدة للناس البائسين الذين نستخدمهم كحلفاء، والذين نستفيد بالفعل من حماسهم لمصلحتنا الحصرية، فإننا نورطهم في الدمار لو كنت قد توقعت هذه النتيجة لجهودي، فبالتأكيد لم يكن أي اعتبار ليقنعني بتولي دور في مأساة محفوفة بالدسائس بشكل واضح، ومؤلمة للمشاعر الإنسانية، وكما يجب أن أراها، مهينة لشرفنا الوطني. من المستحيل، على الرغم من أنه مفروض عليّ، أن أقول أي شيء آخر لحامد باشا عن تعاون السرب معه، بعد أن تم إبلاغي رسميًا بأن مفاوضات قد فُتحت مع أخيه، دون أن آخذ وضعه في الاعتبار إلى حد الموافقة على وقف إطلاق النار. لقد تمادى الخداع بالفعل. إذا لم تكن نيتنا دعمه، أو على الأقل

إنقاذه، فإن الشرف والدين كلهما كانا سيمنعان أي تشجيع له، أو استخدامه. يقال إن بعض الأحكام ستُحاول لصالحه في stipulations السلام؛ وهذا، مع ذلك، سيُترك للراحة. ولكن قبل أن يتم ترتيب هذا الحكم نهائيًا، إذا تم على الإطلاق، وتلقي معلومات عنه هنا، مع عدم الاتفاق على هدنة، وتخلينا عن هذا الموقع، فإنه هو وأتباعه قد يُقتلون على يد جيش العدو هنا، ومن قبل من هم من حزبه الذين سيحملهم خيبة الأمل والغضب إلى جانبهم. بالنظر إلى هذا الموقف الحالي للأمور، إما على أنه مناسب لشرفنا ومصالحنا الوطنية، أو لوضع الباشا والناس هنا، أعتبر أنه من واجبي تجاه ثقة الحكومة والتزام تفرضه كل وصايا الإنسانية، أن أسعى للاحتفاظ بهذا الموقع حتى اللحظة الأخيرة، على أمل أن يحدث حدث سعيد لتأمين مصالحنا وفي نفس الوقت مساعدة مصالح أصدقائنا؛ وأدعو السماء بإخلاص، ألا تلطخ دماء الأبرياء خطانا نحن الذين لم نهدف إلا لمحاربة أعداء بلدنا.

3 يونيو. تظاهر العدو بهجوم آخر اليوم بإرسال مفرزة إلى مؤخرة البلدة، والتي تم صدها بخسائر. بدا أن هدفهم هو التحقق من ميول سكان المكان؛ هؤلاء خرجوا عن بكرة أبيهم على مرأى منهم. توقفت قوتهم الرئيسية على مسافة آمنة: وبعد بعض المناورات تقاعدوا إلى معسكرهم. أثناء الإنذار، مرت مفرزة من الحامية، تحت قيادة الملازم أوبانون عبر البلدة. هتف الجميع، كبارًا وصغارًا، حتى النساء من خلواتهن: «عاش الأمريكيون عاش أصدقاؤنا وحماتنا» كائنات بائسة لو استطاعوا أن يروا العكس الذي ينتظرهم على الأرجح، لكانت هتافاتهم بالثقة قد تحولت بحق إلى لعنات

3 يونيو: لم يظهر أي عدو.

4 يونيو: أُرسلت دورية قوية لاستطلاع معسكرهم؛ لكنهم وجدوه مهجورًا.

5 يونيو: عادت سفننا إلى المحطة.

5 يونيو. هذا الصباح، أفاد جاسوس، وهو زعيم ديني، كنت قد وظفته لمراقبة تحركات العدو، والذي نام الليلة الماضية في معسكرهم، أن ساعيًا وصل أمس، بعد أحد عشر يومًا من طرابلس، برسائل من الباشا الحاكم

إلى قائده العام في هذه المنطقة، يوضح فيها نواياه في إبرام سلام مع الولايات المتحدة، والذي كان مصممًا على تنفيذه، حتى لو باع خزانة ملابسه وبعد ذلك سيعرف كيف يتصرف مع أعدائه الداخليين. لقد أمر القائد بالاحتفاظ بموقعه أمام هذه البلدة، إن أمكن، حتى يُعرف نتيجة مشروع السلام هذا. أضاف رئيس المرابطين أن البكوات كانوا يفكرون في اقتراح هدنة عليّ. سأوافق على مثل هذا العرض، إذا تم تقديمه، حتى أتلقى مزيدًا من النصائح من المقر الرئيسي. الساعة الحادية عشرة صباحًا. هذا الصباح جاء فاران من معسكر العدو، كلاهما من الأتراك المشرقيين، إسماعيل ومحمد، أحدهما شاويش والآخر شريف، بما يعادل رتبة مساعد وملازم، يؤكدان المعلومات المذكورة سابقًا؛ ويضيفان أن البكوات لا يستطيعون إقناع قواتهم بمهاجمة هذا المكان تحت بطاريتنا ومدافع السفن؛ لكنهم يعتمدون على نهب المدينة، في اللحظة التي نخلي فيها مواقعنا. وضع هؤلاء الضباط أنفسهم تحت حماية العلم الأمريكي، معطين هذا السبب للإشارة إلى أنهم كانوا يرغبون في الخروج من مملكة طرابلس واعتقدوا أن هذه مناسبة مواتية. يقولون إن يوسف باشا لديه حوالي مائتي جندي في طرابلس، يمكنه أن يثق بهم، وثلاثمائة أو أربعمائة آخرين، غير منضبطين ومشكوك فيهم. يعلنون أن الناس عمومًا في المملكة يتوقعون بقلق، وصبر نافد، اقتراب حامد باشا، لأنهم يعتقدون أنه رجل صالح، وقد سئموا جنون وعنف أخيه.

الساعة الخامسة مساءً. بعد ظهر هذا اليوم، جاء إلينا زعيم عربي، عبد السلام، مع مجموعة من المحاربين: يحمل رسالة من الزعيم العربي الرئيسي في المعسكر، بأنه سينضم إلى الباشا بفرسانه، الذين يبلغ عددهم حوالي مائة وخمسين، إذا استطاع الحصول على تأكيدات بأن الأمريكيين لن يتخلوا عنه، وفي هذه الحالة سيلتهم يوسف باشا عائلته وأراضيه. يؤكد هذا الزعيم أن بك بنغازي، الذي هو مع المعسكر، حسن النية تجاهنا؛ وينتظر فقط وصول إمداداتنا ليعلن عن نفسه.

كن على يقين. سيدي، نحن فقط بحاجة إلى المال وعدد قليل من مشاة البحرية للمضي قدمًا إلى طرابلس، ولقائكم في قلعة ذلك الوكر القرصني لتحرير أسرانا. لن يؤدي ذلك إلا إلى تأخير إطلاق سراحهم بضعة أشهر،

وسيعوض انتصارهم هذا التأخير بشكل وافٍ.

«يُرى أنه من المناسب إرسال «هورنت» بهذه المراسلات، والتمسك بالموقع هنا حتى يتم استلام ردكم.»

6 يونيو: لا أخبار من العدو.

7 يونيو: وصل رسول آخر من القائد بارون، أبلغ بأن المفاوضات مع يوسف باشا قد بدأت: وأن الباشا الصديق سيتمكن من استعادة زوجته وأطفاله إذا وافق على الانسحاب.

8 يونيو: هاجم فرساننا العدو عند ممر الجبل، حوالي تسعة أميال من المدينة، وهزموهم: أسروا ثلاثة عشر رجلاً وأربعين جملاً.

9 يونيو: لا يوجد عدو في الجوار.

9 يونيو. قبل أمس، فرّ الحاج إسماعيل بك، القائد الثاني في جيش العدو هنا، مع عدد قليل من المرافقين والجمال، وأخذ معه الخزانة العسكرية ودخل الصحراء باتجاه صعيد مصر. يُقال إن هذا الانشقاق كان بسبب اتهامه بسوء القيادة في معركة 13 من الشهر الماضي. كان يقود الفرسان.

10 يونيو: اقترب عربنا من معسكر العدو بقوة كبيرة؛ وفي الساعة الواحدة بعد الظهر اشتبكوا معه. بعد صراع يائس استمر ساعتين، هُزم العدو بالكامل. وقُتل ستة من قادته الرئيسيين في الميدان؛ واثنان من أقاربه أُصيبا بجروح خطيرة؛ وقُتل خمسة وثلاثون رجلاً؛ وقُتل الكثيرون في مطاردة طويلة؛ وأُخذ ستة أسرى؛ وأُخذت الكثير من الخيول؛ وكذلك أُخذت مائة جمل محملة؛ وأُخذت أمتعة قادة العدو. ولم نخسر سوى رجل واحد قُتل وثلاثة جرحى.

11 يونيو: أُبلغت بأن يوسف باشا قد عين قائدًا جديدًا للجيش، وأن هذا القائد في طريقه للانضمام إليهم مع تعزيزات.

استقبلني الباشا الصديق اليوم في قاعته العامة، بحضور حاشيته ورؤساء العرب. هنأني على نجاحنا، واعترف، بحماس من الامتنان الظاهر، بأن الولايات المتحدة كانت منقذته وراعيته: وتعهد بتبني مثالهم، وإظهار

الكرم تجاه أسراه المسيحيين.

الساعة السادسة مساءً، وصلت الفرقاطة «كونستليشن» من طرابلس؛ جلبت أمرًا رسميًا بإخلائي أنا والباشا والقوات المسيحية من هذه المحطة.

بيان بقوات العدو (11 يونيو)
كما قدمه سليم، شيخ مصراتة، الذي انشق في 16 الشهر الماضي:

القادة	القوة / المنطقة	العدد
1. حسين بك (القائد العام)	طرابلسيون راكبون	220
2. الحاج إسماعيل (فرسان)	محيط مصراتة	90
3. محمد (بك بنغازي)	إمسلاتة	30
4. مصطفى (بك درنة)	إسليتة	80
5. محمد (بك أوغنا)	إسحيل	75
بنغازي ومحيطها		60

11 يونيو. صباح أمس، بعد أن تلقى العدو تعزيزات جديدة من العرب، ظهر بأعداد كبيرة على المرتفعات التي تطل على البلدة؛ وتحرك على طول سفح الجبل لمسافة ميلين أو ثلاثة أميال، يبحث على ما يبدو عن ممر للنزول دون التعرض لمدافعنا، لكنه بدا مترددًا. أدى حادث إلى نشوب معركة. منحدر الجبل عبارة عن حافة صخرية شديدة الانحدار وغير مستوية، مع ممر واحد فقط يمكن للفرسان التحرك فيه نزولاً؛ وهذا على بعد حوالي ميلين ونصف من البلدة. السهل أدناه المتاخم للبحر بعمق ميل واحد تقريبًا هو صخور كلسية وتربة حمراء، متكسرة جدًا؛ في العديد من الأماكن يمكن أن يكون للمدافع النحاسية عيار اثني عشر تأثيرًا، وفي أماكن أخرى، تعوقها التلال بالقرب من الشاطئ. في منتصف الطريق تقريبًا بين البلدة وممر الجبل، كان الباشا قد وضع عددًا قليلاً من الفرسان ليكونوا بمثابة طليعة. نزلت مفرزة من العدو، بأعداد متفوقة، من الممر بهدف قطع هذا الموقع؛ لكن تم

مقاومتهم وصدهم بشجاعة. انضمت تعزيزات من فرق صغيرة، واستمرت في الانضمام، من جانب وآخر، حتى حوالي الساعة الثانية، عندما أصبحت المعركة عامة. كنا، أكثر بقليل من متفرجين على المشهد. كانت «أرغوس»، كلما انكشف العدو من التلال، تضايقهم بقذائفها من مدافعها الطويلة عيار اثني عشر؛ (لم تتمكن الكارونيدات عيار 24 رطلاً من الوصول) وكنا نوجه أحيانًا أحد مدافعنا الميدانية نحوهم من بطاريتنا المتقدمة؛ لكن نيران «هورنت» ضاعت بسبب قربها الشديد من الشاطئ، الذي غطى جرفه المرتفع العدو. القبطان هال، الذي أتيحت له أفضل فرصة للتأكد من ذلك، يقدّر وجود خمسة آلاف رجل في الميدان. استمرت المعركة أربع ساعات. على الرغم من الهجوم المتكرر، لم يفقد الباشا شبرًا واحدًا من الأرض. في النهاية تراجع العدو، وتمت ملاحقته حتى ممر الجبل، حيث أجبر الحرص على السلامة الكثير منهم على ترك خيولهم، التي وقعت في أيدي أصدقائنا. هذه المعركة، على الرغم من أنها خيضت بالطريقة البربرية، إلا أنها أديرت بحكمة من جانب الباشا، وكان النصر حاسمًا. عدد قتلاه وجرحاه يتراوح بين خمسين وستين: من بين الأخيرين أربعة من كبار ضباطه. تقول بعض النساء العربيات اللواتي أتين من معسكر العدو هذا الصباح، إن البكوات فقدوا ما بين أربعين وخمسين قتيلاً، وأكثر من سبعين جريحًا. لو استطعنا توفير مائتي حربة فقط للمساعدة في هجوم وقطع ممر الجبل، لما نجا حصان واحد. كان السيد أوبانون impatient لقيادة مشاة البحرية واليونانيين، (حوالي ثمانية وثلاثين رجلاً) إلى ساحة المعركة. لم يكن من الممكن القيام بذلك دون ترك موقعنا ضعيفًا للغاية في حالة حدوث انتكاسة: إلى جانب ذلك، أعترف، كانت لدي شكوك فيما إذا كانت الإجراءات التي اتخذها مفوض السلام لدينا مؤخرًا ستبرر لي التصرف بشكل هجومي لفترة أطول في هذا الجانب. لو وصلت المساعدات في الوقت المناسب التي كنا نأمل في تلقيها هنا، لكننا الآن في رأس مصراتة، وفي غضون خمسة عشر يومًا أخرى في طرابلس. أعاقت الرياح المعاكسة «هورنت»، وأدت عاصفة الليلة الماضية إلى إخراج «أرغوس» إلى البحر: بمجرد عودتها سيتم إرسال القبطان إيفانز إلى المقر الرئيسي.

لقد أبلغت، منذ بضعة أيام، بأجزاء من محتويات رسالتكم بتاريخ

التاسع عشر من الشهر الماضي كما بدا ضروريًا لحامد باشا؛ يقول إنه حتى مع الإمدادات، سيكون من غير المجدي له محاولة متابعة الحرب مع أخيه بعد أن تسحب سربكم من الساحل؛ وأنه بدون إمدادات، سيُترك في وضع بائس للغاية؛ لأنه لا يستطيع السيطرة على أي موارد هنا، ولا يمكنه أن يضع أي ثقة في الأحكام التي قد يتم الاتفاق عليها مع أخيه لصالحه، ما لم تضمنها الولايات المتحدة. يقول بشكل قاطع إن التخلي عنه هنا ليس لوضعه في الموقف الذي وجدناه فيه، بل لأخذ حياته. يرغب في أن نأخذه معنا في حالة السلام. أنا حريص للغاية على معرفة نتيجة المفاوضات في طرابلس، وأنتظر عودة «نوتيلوس».

مع عظيم الاحترام والتقدير،

أنا، سيدي، خادمكم الأكثر طاعة،

وليام إيتون.

12 يونيو: أبلغت الباشا بالأخبار. وخيم الحزن على وجهه. لم ينم طوال الليل.

13 يونيو: الساعة الثالثة بعد الظهر، نزلت أنا والباشا والأمريكيون والمسيحيون والمستشارون من القصر. وكان هناك بكاء بين النساء. وسادت مظاهر الحزن والاكتئاب على وجوه مواطني المدينة. وعندما غادرت، قال لي عدد من رؤساء المواطنين، «لقد خنتنا» آخرون أن «السلام معنا أُجبر». وبعضهم قال: «لمصلحة أسر بكم، قد يتخلى الأمريكيون حتى عن أصدقائهم.»

عند غروب الشمس، صعدنا جميعًا على متن السفن، وأبحرنا.

صامويل بارون، الموقر. القائد العام لقوات الولايات المتحدة في البحر الأبيض المتوسط.

على متن فرقاطة الولايات المتحدة «كونستيتيوشن»، قبالة درنة، 13 يونيو، 1805.

مقتطف: إلى الكومودور رودجرز، قائد السرب آنذاك.

سيدي،

في الساعة السادسة مساءً من الحادي عشر من هذا الشهر، أرسى القبطان كامبل في هذا المرفأ؛ وفي الثامنة، أرسل الملازم ويدرستراندت برسالتكم بتاريخ السادس، ورسالة الكولونيل لير بتاريخ الخامس، معلنين إبرام السلام مع يوسف باشا طرابلس، وبالتالي، مطالبين إياي بإخلاء هذا الموقع؛ وفي صباح اليوم التالي رسالة من يده، يبلغني فيها بأن سفينته ستستقبل حاميتي. حوالي الساعة التاسعة، نزل القبطان إلى الشاطئ، برفقة عدد قليل من ضباطه، الذين رافقتهم إلى المدينة. الآن أبلغت الباشا بأخبار السلام من جانبنا مع أخيه؛ والاتفاق على أن تعاد إليه عائلته بشرط انسحابه بهدوء من المملكة. قال إنه لا أمان له إلا بمغادرة البلاد معنا؛ وحتى هذا سيكون مستحيلاً بالنسبة له ومحفوفًا بالمخاطر بالنسبة لنا إذا تسرب المشروع قبل تنفيذه: اليأس سيدفع أتباعه إلى الانتقام وسنقع ضحية له. وبالتالي، حافظت على فكرة الهجوم على العدو، وهي فكرة نشأت من تقرير يفيد بوصول تعزيزات في الفرقاطة لهذا الغرض؛ وبناءً على ذلك أرسلت ذخيرة وحصصًا إضافية لتوزيعها بين قواتنا المغربية والعربية، وأرسلت جواسيس لتحديد موقع العدو. بنفس النية الظاهرية، فتشت الحامية؛ وأمرتهم بالتخلي عن جميع الأمتعة الثقيلة؛ وأن يكونوا في مواقعهم على أهبة الاستعداد للتقدم عند الأمر. في الساعة الثامنة مساءً، وضعت دوريات من مشاة البحرية لوقف الاتصال بين المدينة وموقعنا؛ كان هذا إجراءً احترازيًا معتادًا في هذه الساعة، مع فارق واحد فقط وهو أنه في المناسبات العادية كان يتم هذا الواجب بشكل روتيني. في هذه الأثناء، تم وضع جميع قوارب «كونستيليشن» بجانب رصيفنا. أمرت قائد المدفعية بإركاب سريته مع المدافع الميدانية ومدافع الهاوتزر عيار عشر بوصات الذي وقع في أيدينا في 27 أبريل؛ وبعدهم السرية اليونانية. تم تنفيذ ذلك بصمت وسرعة؛ ولكن بدهشة. بقي مشاة البحرية في مواقعهم. عندما شوهدت القوارب عائدة، أرسلت رسولاً إلى الباشا أطلب فيه مقابلة. بعد أن فهم مضمون هذه الرسالة، توجه على الفور إلى الحصن مع حاشيته، وترجل، وركب القوارب. تبعه مشاة البحرية مع الضباط الأمريكيين. عندما أصبح الجميع في أمان، صعدت إلى قارب صغير كنت قد احتفظت به لهذا الغرض، وبالكاد كان لدي

وقت لإنقاذ نفسي عندما ازدحم الشاطئ، ومعسكرنا، والبطارية بالجنود الغاضبين والغوغاء؛ بعضهم ينادي الباشا؛ وبعضهم يناديني؛ وبعضهم يطلق الصرخات؛ وبعضهم اللعنات عندما وجدوا أننا بعيدون عن متناولهم، انقضوا على خيامنا وخيولنا، التي تركت واقفة؛ وأخذوها، واستعدوا للفرار. كانت حاميتي، إلى جانب الباشا وحاشيته، جميعهم على متن «كونستيليشن» حوالي الساعة الثانية صباحًا. قبل طلوع الفجر، كان جميع عربنا قد غادروا إلى الجبال، ومعهم من سكان المدينة من لديهم وسائل للفرار، آخذين معهم كل حيوان حي يصلح للعيش أو الحمل كان ينتمي إلى المكان. هذا الصباح، نزل شاويش من طرابلس، جاء في الفرقاطة، إلى الشاطئ تحت علم الهدنة، وحمل رسائل عفو من يوسف باشا إلى أهالي درنة بشرط عودتهم إلى الولاء. وذكر عند عودته أن اليأس فقط هو ما كان يرتسم على وجوه السكان البائسين القلائل الذين بقوا؛ وأنهم رفضوا شروط عفو يوسف باشا، معلنين أنهم يعرفون غدره جيدًا لدرجة لا تسمح لهم بأن يقعوا في فخه؛ وأنهم مصممون على الدفاع عن أنفسهم حتى اللحظة الأخيرة من شرفاتهم وجدران منازلهم ضد قواته. يؤمل أن الموقف الذي اتخذوه قد ينتهي بتسوية وينقذ المأساة التي تهددهم. الساعة الآن الثانية عشرة، ولا نرى أي أعراض لتقدم قوات العدو نحو البلدة. ومع ذلك، يمكن تفسير ذلك بمبادئ أخرى غير الإنسانية أو الترتيب. عند وصول «كونستيليشن»، انطبعت لديهم أيضًا فكرة أنها جلبت قوات وإمدادات؛ ونتيجة لذلك، رحلوا عن معسكرهم بشكل غير منظم وتقاعدوا على عجل إلى موقع على بعد خمسة عشر ميلاً في الخلف باتجاه الصحراء: من الممكن أنهم لم يسمعوا بعد بإخلائنا. في غضون دقائق قليلة أخرى سنفقد رؤية هذه المدينة المنكوبة، التي شهدت تحولًا غريبًا في مثل هذا الوقت القصير لم يسجل مثله قط في كوارث الحرب. قبل ست ساعات كان العدو يبحث عن الأمان منهم بالفرار؛ الآن انعكس المشهد. الآن من أسوار المدينة يضطرون للبحث عن الأمان من عدوهم؛ ونحن، الذين كانوا يتطلعون إلينا للأمان، نبحر بعيدًا عن سواحلهم. لقد وقع للتو ظرف يرسم صورة للباشا الذي اتبعنا حظه حتى الآن. إنه يسقط من أبهى آفاق المملكة إلى هاوية من البؤس اليائس.

الكولونيل لير إلى الجنرال إيتون.

بناءً على عرض قدمه لي الكومودور بارون، بأن الموسم كان لحظة مواتية لنا للدخول في مفاوضات مع باشا طرابلس، وبما أن تعليماتي تركت الأمر لتقدير قائد قواتنا في هذا البحر، لإعطائي الفرصة لمثل هذه المحاولة، توجهت إلى هذا المكان، في السادس والعشرين من الشهر الماضي، على متن فرقاطة الولايات المتحدة «إسكس»، وفتحت على الفور اتصالاً مع الباشا. كانت مطالبه 200,000 دولار للسلام والفدية، وتسليم جميع الطرابلسيين الذين في حوزتنا، دون تقديم أي تعويض عن أسرانا. تم رفض هذه الشروط على الفور جملة وتفصيلاً؛ وبعد بعض المناقشات، اقترحت، كحل نهائي، أن يتم تبادل الأسرى بشكل متبادل، وبما أن لديه رصيدًا يزيد عن مائتي أسير لصالحه، سأعطيه 60,000 دولار مقابلهم؛ ولكن ليس سنتًا واحدًا للسلام، الذي يجب أن يتم بشروط الدولة الأكثر رعاية التي لديه معها معاهدة، وتنظيم يتعلق بالأسرى، إذا نشبت حرب مستقبلية بين بلدينا. ومن أجل منع أي جدال عقيم، أعلنت أنني لن أنزل إلى الشاطئ لإتمام الأمر حتى يتم الموافقة رسميًا على هذه الشروط.

الاتصال بالشاطئ، الذي أدى إلى النتيجة السعيدة، سأفصله في وقت لاحق. عليّ الآن أن أبلغكم بأن مواطنينا البائسين في درنة، والاعتقاد بأن لدينا قوة كبيرة وإمدادات هائلة في ذلك المكان، قد ترك انطباعًا عميقًا لدى الباشا. لقد حافظت على هذه الفكرة. كان من المستحيل بالنسبة لي، في هذه اللحظة، أن أقوم بترتيب لأخيه، الذي، على الرغم من أنه لم يكن الرجل الذي افترضه الكثيرون، كان مع ذلك يستحق بعض الاعتبار منا. لكنني وجدت أن هذا غير عملي، وأنه لو أصررت عليه، لدفعه إلى اتخاذ تدابير كان من شأنها إطالة أمد الحرب، وربما كانت ستكون قاتلة لمواطنينا الذين في قبضته.

لذلك تعهدت، بالطبع، بأنه عند إبرام السلام، سنسحب جميع قواتنا وإمداداتنا من درنة وأجزاء أخرى من مملكته، ويتعهد الباشا، بأنه إذا انسحب أخوه بهدوء من مملكته، فستعاد إليه زوجته وعائلته. هذا كل ما يمكن فعله، وليس لدي شك في أن الولايات المتحدة، إذا وجدته في وضع يتطلب ذلك، ستوفر له بعض الترتيبات الأفضل من تلك التي وجد فيها.

أفترض أنكم، قبل وقت طويل من وصول هذه الرسالة إليكم، ستكونون قد تلقيتم رسائل الكومودور بارون عبر السفينة الشراعية «هورنت»، والتي تنقل آراءه وتعليماته بالكامل حول هذا الموضوع. نتيجة لاستمرار مرضه، استقال من قيادة سربنا في هذا البحر، لصالح جون رودجرز، الموقر، الذي يليه في الأقدمية، والذي يرسل من هذا المكان فرقاطة الولايات المتحدة «كونستيليشن»، القبطان كامبل، بهذه الرسالة وإرسالياته.

لقد طلب الباشا السماح لشاويش بالذهاب في الفرقاطة إلى درنة، والذي لن ينزل إلى البر، بل سيرسل فقط رسائل من الباشا، ويعود في الفرقاطة إلى الميناء الذي قد تكون متجهة إليه.

أرجو أن تتقبلوا أنتم، وتقدموا للسيد أوبانون، ومواطنينا الشجعان معكم، تهانيّ الصادقة على حدث ساهمت شجاعتكم وشجاعتهم البطولية في جعله مشرفًا جدًا لبلدنا.

مع التقدير والاحترام،

لي الشرف أن أكون،

سيدي، خادمكم الأكثر طاعة،

توبياس لير.

مفوض الولايات المتحدة، للتفاوض على السلام مع باشا طرابلس.

مقتطف إلى وزير البحرية.

سيراكيوز، 10 يوليو، 1805.

أتشرف بأن أرفق طيه نسخًا من مراسلاتي إلى الكومودور منذ أن غادرت مصر. في المناسبة القادمة سأقدم المراسلات.

لا يسعني إلا أن أعتقد أن ميولنا السلمية قد تم التعجيل بها أكثر من اللازم. هل كان من المتوقع أن يتم إرسال سربنا الهائل إلى هذه البحار للتفاوض دون أن يظهر نفسه أمام ميناء العدو؟ هذه هي الحقيقة. لو أنه ظهر فقط قبالة المكان، ليس لدي شك في أن النتيجة كانت ستكون سلامًا بدون مال. لو أنه دخل في تعاون قوي، لكان على يوسف باشا أن يستسلم دون قيد أو شرط، أو ينقذ نفسه بالفرار: كان يحسب حسابًا لهذا أكثر من الدفاع. لكن لدينا سلام

إجمالي نفقات حملتي نقدًا يصل إلى 20,405.98 دولارًا، بما في ذلك دفع رواتب القوات. بمجرد أن أتمكن من إنجاز تسوية كاملة، سيتم إرسال حساباتي. سيكون من الضروري التفاوض على كمبيالات على إدارتكم، لتمكيني من القيام بذلك، بمبلغ 11,308.98 دولارًا.

[من أجل إعطاء القارئ أساسًا للاتفاق بين الجنرال إيتون، والكومودور بارون، والسيد لير، يتم تقديم الرسائل والمقتطفات التالية. سينتبه القارئ بشكل خاص إلى التواريخ، والأوامر الشفوية السرية للكابتن هال؛ والتي تم التصديق على أصلها بخط يد الجنرال إيتون.]

أوامر شفوية من الكومودور بارون، إلى الكابتن هال، قائد سفينة الولايات المتحدة الشراعية «أرغوس»، بحضور الموقع أدناه، على متن «بريزيدنت»،

15 سبتمبر، 1804.

سيدي،

إن الأوامر المكتوبة، التي أسلمها لك هنا، بالتوجه إلى ميناء الإسكندرية أو إزمير لغرض مرافقة أي سفن قد تجدها هناك إلى مالطا، تهدف إلى إخفاء الهدف الحقيقي لرحلتك؛ وهو المضي قدمًا مع السيد إيتون إلى الإسكندرية بحثًا عن حامد باشا، الأخ المنافس والسيادي الشرعي للباشا الحاكم في طرابلس؛ ونقله هو وحاشيته إلى درنة أو أي مكان آخر على الساحل قد يتم تحديده على أنه الأنسب للتعاون مع القوة البحرية تحت قيادتي ضد العدو المشترك: أو، إذا كان ذلك أكثر ملاءمة له، إحضاره إليّ أمام طرابلس.

إذا لم يتم العثور على حامد باشا في الإسكندرية، فلديك السلطة التقديرية للتوجه إلى أي مكان آخر من أجله حيث يمكن، في رأيك، الاعتماد على سلامة سفينتك.

يمكن طمأنة الباشا بدعم سربي في بنغازي أو درنة؛ حيث لك الحرية في الدخول، إذا لزم الأمر، وإذا كان يمكن القيام بذلك دون مخاطرة كبيرة. ويمكنك أن تؤكد له أيضًا أنني سأتخذ أكثر التدابير فعالية مع القوات التي تحت قيادتي للتعاون معه ضد المغتصب، أخيه؛ ولإعادة تثبيته في ولاية طرابلس. أنت مخول بقول ذلك له. العشرون ألف دولار مخصصة لهذا

الغرض.

مصدق من إسحاق هال،

بشهادة وليام إيتون.

مقتطف من تعليمات وزارة البحرية إلى الكومودور بارون، تم إبلاغها رسميًا إلى الجنرال إيتون.

«فيما يتعلق بالباشا السابق لطرابلس، ليس لدينا أي اعتراض على استفادتك من تعاونه معك ضد طرابلس، إذا رأيت، بعد نظرة شاملة للموضوع بعد وصولك إلى المحطة، أن تعاونه مناسب. الموضوع متروك بالكامل لتقديرك. في مثل هذه الحالة، ستجد، كما يُعتقد، السيد إيتون مفيدًا للغاية لك.»

(المبلغ المخصص لهذا الهدف هو 20,000 دولار)

(هذا السطر الموجود بين القوسين ليس في تعليمات الكومودور. إنه من إيتون)

مقتطفات من الكومودور بارون إلى الجنرال إيتون.

لا يسعني إلا أن أثني على الطاقة والمثابرة التي ميزت تقدمك عبر سلسلة من الصعوبات المحيرة والمحبطة، وصولاً إلى تحقيق هدف بحثك؛ وهو إنجاز أميل إلى اعتباره بشارة خير لنجاح مستقبلي. عند استلام هذه المراسلات، لم أضيع لحظة في اتخاذ الترتيبات اللازمة لإرسال المساعدات لك، وأنا الآن أرسل السفينة الشراعية «أرغوس»، مع السفينة الشراعية تحت حراستها، تحمل مجموعة متنوعة من المخازن والمؤن وفقًا للقائمة المرفقة. سيتجه القبطان هال مباشرة إلى بومبا حيث يتوقع أن يجدك، مع الباشا وجيشه، وحيث يفترض أنك ستتخذ موقفًا. لقد أمرته بتسليم هذه المخازن لك، لتستخدمها حسب تقديرك. لديه أيضًا تحت عهدته مبلغًا نقديًا يصل إلى سبعة آلاف دولار، والذي سيتم وضعه أيضًا تحت تصرفك.

بحلول الوقت الذي تنشئ فيه هذه السفن اتصالاً معك، ستكون قد تمكنت من تكوين رأي صحيح حول احتمالية النجاح النهائي؛ وبالتالي تقدير المزايا التي من المحتمل أن تعود على شؤوننا من هذا التعاون؛ وفي هذا الرأي يجب أن تسترشد في تطبيق المساعدات. إذا واجهت صعوبات غير متوقعة

تضع فرص النجاح على أساس أكثر من هش، فإن حكمتك الخاصة ستقترح عليك عدم تسليم هذه الإمدادات والمال دون ضوابط لسلطة الباشا. في الواقع، من وجهة النظر التي أنظر بها إلى الإجراءات التي تم اتباعها بالفعل، وكذلك موضوع التعاون بشكل عام، أرى أنه يجب عليك أن تخطو بأقصى درجات الحذر.

لا بد أنك تدرك يا سيدي، أن الحكومة، بمنحها موافقتها على التعاون مع الباشا المنفي، لم تعتبر هذا الإجراء يؤدي بالضرورة وبشكل مطلق إلى إعادة تنصيب ذلك الأمير في حقوقه على ولاية طرابلس: يبدو أنها نظرت إلى التعاون المعني كوسيلة، شريطة وجود طاقة ومبادرة لدى المنفي، وولاء لشخصه من جانب رعاياه السابقين، يمكن استخدامها لتعزيز ودعم مطالبه وقضيتنا بشكل مشترك، ولكن دون أن تقيد نفسها بأي إنجاز محدد أو معين كهدف نهائي، كما يوضح نص تعليماتي (المرفق مقتطف منه) والمبلغ المحدود المخصص لهذا الغرض الخاص. أخشى من خلال الاتفاقية التي كنت على وشك إبرامها مع حامد، ومن طبيعة الإجراءات الأخرى، أنه ربما تم اتخاذ نطاق أوسع مما يتفق مع السلطات الممنوحة لي لهذا الهدف المحدد.

لا يمكن إلا أن تدرك بقوة العواقب المترتبة على مثل هذا الالتزام، ونظرة عامة على وضعنا فيما يتعلق بالباشا الحاكم؛ ومواطنينا البائسين في طرابلس، ستكون كافية لإظهار عدم ملاءمته. سأعتبر من واجبي، وهو بالتأكيد ميلي، أن أقدم لك كل مساعدة ممكنة متوافقة مع السلطة الممنوحة لي، ومتناسبة مع الوسائل المتاحة لي؛ ويمكنك الاعتماد على الدعم الأكثر نشاطًا وقوة من السرب، بمجرد أن يسمح لنا الموسم وترتيباتنا بالظهور بقوة أمام أسوار العدو؛ لكنني أريدك أن تفهم، أنه لا يوجد ضمان أو التزام للأمير المنفي، الذي أكرر، أننا ندعم قضيته فقط كأداة لتحقيق هدف، وليس كهدف في حد ذاته، يجب أن يقف في طريق موافقتنا على أي شروط تسوية شريفة ومفيدة قد يقترحها الباشا الحالي.

من المستحيل بالنسبة لي الامتثال لطلبك بإرسال مائة من مشاة البحرية إلى الساحل. مثل هذه الخطوة في الوضع الحالي للأمور، تتجاوز صلاحياتي بكثير؛ وإلى جانب ذلك، نحن في حاجة إلى الأيدي. لا يمكنني أن أشعر بأنني

مبرر في فصل قوة كبيرة كهذه عن السرب.

سأكون مقصراً في العدل تجاهك يا سيدي، وكذلك تجاه الضباط الذين شاركوك حتى الآن في مشقاتك ومخاطرك، إذا لم أعبر عن ثقتي الكاملة في شجاعتك وطاقتك ومثابرتك، وكذلك رغبتي الشديدة في أن تتحقق أقصى توقعاتك. الملاحظات التي أنقلها إليك هنا ليست تهدف إلى إخماد حماسك، أو تثبيط توقعاتك، ولكنها ما أرى أنه من الضروري قوله.

وإنني أسمح لنفسي بأن أوصي بها لتقديركم الهادئ والصريح، وأطلب منكم أن تجعلوها موضوع حديث مع القبطان هال، الذي هو على اطلاع تام بآرائي. في كل مشروع مماثل لذلك الذي تشاركون فيه، يُترك الكثير للحظ، وكذلك يعتمد الكثير على سير الظروف. ومن هنا عدم ملاءمة إعطائكم تعليمات محددة. لا بد أن تحدث أشياء كثيرة، لا يمكن أن يكون فيها حكمكم وتقديركم إلا دليلاً لكم: وفي الواقع، ستعتمد إجراءاتكم الإضافية بشكل كامل على الأحداث والظروف، التي يستحيل عليّ تقديرها أو التنبؤ بها، لدرجة أنني يجب أن أعتبر نفسي مستشارًا لكم لا موجهًا لكم.

الكومودور بارون إلى الجنرال إيتون

مالطا، 19 مايو 1805.

سيدي،

عبر السفينة الشراعية «هورنت»، التي وصلت إلى هذا الميناء في السادس عشر من هذا الشهر (بعد رحلة طويلة)، كان لي شرف استلام إرسالياتكم بتاريخ 29 من الشهر الماضي و1 من هذا الشهر، والتي تعلن عن الاستيلاء على درنة، بعد معركة. اسمح لي أن ألاحظ فيها أن سلوككم وسلوك رفاقكم في السلاح لن يسيء إلى السمعة التي أسسها مواطنونا بين أمم البربر.

لقد اطلعت بالاهتمام الواجب على الحجج والأسباب التي أوردتموها في رسالتكم بتاريخ 1، حول موضوع متابعة التعاون مع سيدي حامد باشا. وبما أنني ما زلت ضعيفًا جدًا عن بذل جهد في كتابة الرسائل، وسكرتيري يكتب بصعوبة، بسبب التهاب في عينيه، فمن المستحيل بالنسبة لي الدخول في رد مطول؛ ولا يبدو ذلك ضروريًا في الواقع؛ لقد وصلت المسألة الآن إلى النقطة التي إذا كان الباشا السابق، بعد أن تم وضعه في حيازة درنة، التي يقال إنها

الأقوى، لا يملك في نفسه الطاقة والموهبة، وهو محروم جدًا من الوسائل والموارد لدرجة أنه لا يستطيع المضي قدمًا بنجاح، مدعومًا بقوتنا البحرية التي تعمل على الساحل، فلا بد من اعتباره غير جدير بمزيد من الدعم؛ والتعاون كإجراء باهظ التكلفة وقليل الأمل والفائدة لتبرير متابعته؛ لأنه، مهما كانت، يا سيدي، نوايا الحكومة في وقت من الأوقات بشأن هذا الموضوع، ومهما كانت أفكاركم المتعلقة بتلك النوايا، أشعر أنني قد وصلت بالفعل إلى أقصى حدود سلطتي؛ إن تعليماتي من وزارة البحرية بشأن هذه النقطة بالذات، والتي لستم على غير علم بها، أقل بكثير من تلك السلطة التقديرية غير المحدودة والسلطة في التطبيق فيما يتعلق بالأموال التي أصررتم عليها في مراسلاتكم، وهي صامتة تمامًا فيما يتعلق بكمية ونوع المخازن والإمدادات التي ذكرتم أنها كانت في نية الحكومة تقديمها للباشا؛ ومن هنا ستدركون أنه دون اتخاذ نطاق يجب أن يورطني في قدر من المسؤولية، سيكون من أقصى درجات التهور والمجازفة مواجهته، لا يمكنني المضي قدمًا. وبغض النظر عن هذا الاعتبار، قد لا يكون من غير المناسب ذكر أنه ليس لدي تحت تصرفي أموال كافية لتغطية المبالغ الكبيرة التي، وفقًا لحساباتكم، ستكون مطلوبة لمتابعة الخطة بفعالية.

فيما يتعلق بأي التزامات تجاه سيدي حامد، لا يمكنني اعتبارها نهائية أو محددة. بمواردنا، وبمبادرتكم وشجاعتكم، وضعناه في الموقع الذي طُرد منه عندما طلب لأول مرة المساعدة والدعم من أسلحتنا، وفي «أثمن مقاطعة في طرابلس»: وبأدائنا لذلك، أرى أننا قد وفينا بكل تعهد، وأنه لا يستطيع أن يتهمنا بسوء النية في التزاماتنا أو بعدم الوفاء تجاهه. إن الافتقار إلى تلك الصفات الأساسية في شخصية القائد، وخاصة لأمير يناضل من أجل عرشه، هو عقبة خطيرة أمام تقدم قضيته؛ لا يمكن التغلب عليها حتى بوجود وممارسة قوية لها فيمن حول شخصه. لكن من المؤكد أن ما لم يكن لنا الحق في توقعه، وأقل من ذلك أن نفترضه، هو أنه عندما يكون سيد أفضل مقاطعة في مملكته، حيث نفوذه هو الأعظم وأتباعه الأكثر عددًا، «لن يتغير وضعه ماديًا»، وسيكون هو نفسه محرومًا من وسائل مواصلة الصراع كما كان عندما أُحضر من منفاه في مصر. باختصار، يا سيدي، تتلخص

المسألة في هذا: نحن مستعدون وراغبون في دعم الباشا باتحاد عملياتنا على الساحل طالما استمرت الحرب مع طرابلس، ولكن يجب إبلاغ فخامته صراحة بأن إمداداتنا من الأموال والأسلحة والمؤن قد انتهت، وأنه يجب عليه الآن الاعتماد على موارده وجهوده الخاصة. هذا القرار سيقترح عليكم وعلى رفاقكم مسار العمل الأكثر حكمة الذي يجب اعتماده في الوضع الحالي للأمور. لم أضع أي وقت في إرسال «هورنت» بإمدادات من المؤن لطواقم «أرغوس» و«نوتيلوس»، والمسيحيين تحت قيادتكم، وآمل أن تصل في الوقت المناسب لمنعكم من المعاناة من العوز.

عليّ الآن أن أبلغكم بحدث في شؤوننا مثير للاهتمام في حد ذاته ومهم فيما يتعلق بوضعكم. نتيجة لنصائح حديثة من طرابلس، رأيت من واجبي أن أبلغ القنصل العام، الكولونيل لير، (الموجود الآن في هذا المكان) برأيي الصريح بأن اللحظة الحالية مواتية للغاية للتفاوض من أجل السلام، وقد تم تسليمي للتو رسالة من ذلك السيد تعبر عن عزمه على الاستجابة للعروض التي قدمها الباشا الحاكم مؤخرًا، إلى حد تأسيس بداية مفاوضات عليها، والتوجه إلى طرابلس في فرقاطة «إسكس» في غضون الأسبوع. من مجموعة متنوعة من الظروف المتوافقة، تبدو الفترة الحالية مؤاتية لمثل هذه الخطوة؛ ولا يسعني إلا أن آمل آمالاً واثقة بأن وقتًا قصيرًا جدًا سيعيد القبطان باينبريدج ورفاقه البائسين إلى الحرية وبلدهم. ليس من الضروري بالنسبة لي أن أقول أي شيء عن التأثير الذي يجب أن يكون لهذا الإجراء على وضعكم وقراراتكم؛ إنه إجراء تم توقعه في رسالتي إليكم عبر القبطان هال، وعلى هذا النحو، لن تصلكم معلوماته، أفترض، وأنتم غير مستعدين. لن يتم التغاضي عن مصالح سيدي حامد؛ وبموافقة صريحة من الكولونيل لير أذكر نيته في السعي إلى اشتراط بعض الشروط للمنفي البائس، شريطة أن يتم ذلك دون التخلي عن نقاط أساسية، ودون أي تضحية كبيرة بالمزايا الوطنية من جانبنا.

لقد أرسلت عن طريق الملازم إيفانز 3000 دولار إسباني، وقد صدرت له تعليمات بتسليمها لكم أو للقبطان هال؛ هذا المبلغ سيخدم في تسوية أي التزامات صغيرة قد تكون قد تعاقدتم عليها في درنة.

أنا حريص للغاية على المزيد من المعلومات منكم وأبقى، مع الكثير من الاحترام والتقدير،

سيدي، خادمكم المطيع والمخلص،

صامويل بارون.

سفينة الولايات المتحدة الشراعية، أرغوس.

درنة، 4 يونيو، 1805.

سيدي،

أتشرف بأن أرفق لكم نسخة من أوامري عبر «هورنت»، الملازم إيفانز، من صامويل بارون، الموقر، القائد العام لسرب الولايات المتحدة في البحر الأبيض المتوسط، والتي ستعلمون من خلالها أن سفن الولايات المتحدة تحت قيادتي ستغادر هذا الساحل متجهة إلى سيراكيوز بمجرد أن يتم اتخاذ الترتيبات اللازمة لهذا الغرض.

لذلك، عليّ أن أبلغكم بأن «أرغوس» و«هورنت» جاهزتان للإبحار ومستعدتان لاستقبالكم والرجال تحت قيادتكم على متنهما في أي لحظة تبلغونني فيها بنواياكم للتخلي عن موقعكم، وتتوفر فرصة مواتية لأخذكم.

أنا سيدي، كما هو الحال دائمًا،

المخلص لكم،

إسحاق هال.

بهذا النص، نصل إلى ختام هذه الوثائق التاريخية الهامة التي أرخت لرحلة الجنرال ويليام إيتون، من صرخات الاحتجاج على «السلام المشتري» في طرابلس، وصولاً إلى دوره المثير للجدل في كشف مؤامرة آرون بور داخل الولايات المتحدة.

إليك النص الأخير الذي زودتني به، منقولاً بدقة تامة وحرفية:

وهكذا، على الرغم من أنه كان من شأننا، وعلى الرغم من أننا امتلكنا الوسائل الكافية لتفكيك العدو؛ بدلاً من ذلك، قمنا بتثبيته في وضع أكثر أمانًا لإلحاق الأذى بنا وبالبشرية، مما كان يمتلكه قبل الحرب؛ أو مما كان يمكن أن يمتلكه بدون الحرب؛ لأنه، بطردنا لمنافسه، خلصناه من أخطر

خصومه. لقد ربح مملكة ماذا ربحنا من الحرب

ومهما كان استقبال السلام من قبل حكومة وشعب الولايات المتحدة، فهناك ظروف تتورط فيها مصلحتنا وشرفنا بعمق لدرجة أنها لا بد أن تدفع إلى إجراء تحقيق.

لي الشرف أن أكون،

بكل احترام،

سيدي،

خادمكم الأكثر طاعة،

وليام إيتون.

ملاحظة: كان من المفترض أن تكون السفن المدرجة أدناه قد تم توظيفها قبل طرابلس بحلول منتصف مايو، ولكنها كانت في الواقع في نقطة التجمع في سيراكيوز قبل الحادي عشر.

الفرقاطات:

1. بريزيدنت، 44 مدفعًا

2. كونستيتيوشن، 44

3. كونغرس، 38

4. كونستيليشن، 38

5. إسكس، 32

6. جون آدامز، 32

البريكات:

1. أرغوس، 18

2. سايرين، 16

3. فيكسن، 14

4. فرانكلين، 8

السكونرات:

1. إنتربرايز، 14

2. نوتيلوس، 14

السفينة الشراعية:

1. هورنت، 8
تحمل إجمالاً 318 مدفعًا ومدفع هاون.
زوارق مدفعية وسفن قصف من الولايات المتحدة.
رقم 1 لم تبحر.
الأرقام 2، 3، 4، 5، 6.
رقم 7 لم تصل.
الأرقام 8، 9.
زوارق مدفعية من طرابلس، 2
زوارق مدفعية من الأدرياتيكي، 6
العدد الإجمالي للمدافع، بما في ذلك 33 تابعة للزوارق المدفعية، 351.
هاجم الكومودور بريبل طرابلس بنجاح بأقل من ثلث هذه القوة: وبدون ظروف جانبية لصالحه.

[العودة إلى الوطن]

أبحر من هامبتون رودز في تشيسابيك في نوفمبر، وفي طريقه إلى واشنطن أمضى عدة أيام في ريتشموند؛ حيث تم تكريمه بشكل كبير من قبل المواطنين؛ وشارك في حفل عشاء عام فخم، أُقيم لإظهار الاحترام له.

عند وصوله إلى مقر الحكومة، تم تكريمه مرة أخرى بعشاء عام. وقد ذكره الرئيس، في رسالته إلى الكونغرس، بذكرى مشرفة لجدارته وخدماته. وفي جميع أنحاء الولايات المتحدة، ارتفع اسمه عاليًا: ربما لم يرتفع اسم أي فرد من قبل بهذه السرعة وإلى هذا الارتفاع. اعتُبر أنه، بشجاعته ومبادرته، أجبر باشا طرابلس على إبرام السلام: بينما كان الشعور العام السائد هو أنه، لولا أن لير أبرم معاهدة بهذه السرعة، لكان، لو تم دعمه بشكل صحيح من قبل القوة البحرية التي كانت موجودة آنذاك في البحر الأبيض المتوسط، في وقت قصير قد أصبح سيد مملكة طرابلس، وتمكن من وضع شروط سلامه الخاصة، وكذلك تسوية شؤوننا على الساحل البربري، بحيث يمنع في المستقبل ضرورة الحرب.

كونه غير متحفظ في التعبير عن مشاعره فيما يتعلق بلير، الذي، لسبب ما، تمسك به الإدارة بعزم، خلق أعداءً عن غير قصد. في الدوائر الاجتماعية في واشنطن لم يكن حذرًا في جميع الأوقات في نظامه؛ وعندما كان يسخن أحيانًا بتلك التجاوزات التي أصبحت فيما بعد معتادة تقريبًا، أثارت أنانيته وتهوره وأساليبه السلطوية الاشمئزاز في أذهان الكثيرين.

في ديسمبر، قام بزيارة لعائلته في بريمفيلد. وفي طريقه، في فيلادلفيا وأماكن أخرى، تم التعامل معه باهتمام واحترام كبيرين، من خلال دعوات إلى عشاء عام وتعبيرات أخرى عن التقدير. وعاد بعد ذلك بوقت قصير إلى واشنطن.

تم تقديم قرار في مجلس النواب في الولايات المتحدة لتقديم سيفًا للجنرال إيتون، كدليل على شجاعته وخدماته البارزة. نوقش هذا القرار بحرارة لا يستهان بها. وكان المتحدثون الرئيسيون المعارضون لتمريره هم السيد ج. راندولف الشهير والسيد ج. كلاي من بنسلفانيا. وقد صور هؤلاء

السادة جميع إجراءات إيتون، ومغامرته في درنة، على أنها حدث تافه، لا يستحق التعبير العلني عن الشكر من قبل المجلس. كانت هناك أغلبية صغيرة معارضة لتبني القرار؛ والذي تم تأجيله من وقت لآخر، ولكنه لم يمرر أبدًا.

في الهيئة التشريعية في ماساتشوستس، تلقى معاملة مختلفة جدًا عن تلك التي تلقاها في الهيئة التشريعية الوطنية. بسخاء مشرف للغاية لتلك الولاية، أصدرت هيئتها التشريعية القرار التالي:

كومنولث ماساتشوستس.

في مجلس الشيوخ، 28 فبراير، 1806.

حيث أنه، في جمهورية ناشئة، من المهم للغاية تعزيز تلك الوطنية التي تتغلب على حب الراحة، والمتعة، والثروة؛ والتي تدفع الأفراد إلى حب بلدهم، وتحثهم على اغتنام كل فرصة لتعزيز ازدهاره وسعادته، سواء من خلال تحسين مصير هؤلاء المواطنين الذين ألقى بهم حظ الحرب في الأسر، أو من خلال المساهمة بفرح في دعمه والدفاع عنه: وحيث أن حب المغامرة، عندما يسترشد بحس سليم من اللياقة والإحسان، قد يصبح أصلًا للعديد من الفضائل، والدولة تدين أحيانًا بسلامتها، لفضائل وشجاعة رجل واحد لا تهاب.

وحيث أن مجلس الشيوخ ومجلس النواب في هذا الكومنولث، يرغبان في تخليد ذكرى المغامرة البطولية لويليام إيتون، الموقر، أثناء مشاركته في خدمة الولايات المتحدة، ساهمت بسخاء كبير في تحرير عدد كبير من مواطنيه، الذين كانوا أسرى في طرابلس، من قيود العبودية، وإعادتهم إلى الحرية، وبلدهم، وأصدقائهم: لذلك

تم اتخاذ قرار، بأن لجنة بيع الأراضي الشرقية، تكون، وهي بموجب هذا، مخولة وموجهة، بنقل إلى ويليام إيتون، الموقر، وهو مواطن من هذا الكومنولث، وإلى ورثته والمتنازل لهم، قطعة أرض تحتوي على عشرة آلاف فدان، من أي من الأراضي غير المخصصة لهذا الكومنولث، في مقاطعة ماين؛ باستثناء البلدات العشر على كينيبيك.

وليكن مقررًا كذلك، أن يُطلب من فخامة الحاكم، في أقرب وقت ممكن، أن يأمر بإرسال نسخة موثقة من هذا القرار إلى ويليام إيتون المذكور،

الموقر.

أُرسل للموافقة،

هـ ج. أوتيس، الرئيس.

في مجلس النواب، 3 مارس، 1806.

قُرئ وتمت الموافقة عليه،

تيموثي بيغلو، رئيس المجلس.

4 مارس، 1806.

تمت الموافقة عليه، كالب سترونج،

نسخة طبق الأصل، شهد،

جون أفيري، سكرتير.

كانت حساباته، التي تعود لسنوات عديدة، مع الولايات المتحدة، غير مسواة. اعتبرت وزارة الخارجية عدة بنود مهمة غير مناسبة لأي حكم قضائي سوى حكم الكونغرس. كانت هذه الحسابات أمام لجنة المطالبات طوال الجلسة، ولكن لم تتم معالجتها قبل إغلاقها. في الربيع، تقاعد إلى بريمفيلد، حيث أمضى الصيف في عزلة.

في الجلسة التالية للكونغرس، 18067، عاد الجنرال إيتون إلى مقر الحكومة، بشكل أساسي لغرض تسوية حساباته.

أثارت مؤامرة آرون بور اهتمامًا كبيرًا وقلقًا كبيرًا في جميع أنحاء الاتحاد. ويلكينسون، الذي، من أفضل الشهادات، يبدو أنه كان متورطًا في الأصل مع بور، ولكنه وجد أنه من الآمن والحكمة إنكار الاتصال وأصبح وطنيًا متطرفًا، قد اعتقل عدة أشخاص في إقليم أورليانز، وحرمهم من امتياز الأمر بالإحضار، وأمر بنقلهم عن طريق الماء إلى مقاطعة كولومبيا البعيدة. وصل سوارتووت وبولمان، وهما من الأشخاص الذين اعتقلهم ويلكينسون، إلى واشنطن في يناير 1807.

بناءً على تحريض من السلطة التنفيذية للولايات المتحدة، قدم المدعي العام لمقاطعة الولايات المتحدة، في محكمة الدائرة في مقاطعة كولومبيا، طلبًا لإصدار أمر، يوجه مارشال المقاطعة بأخذ السجينين من أيدي الجيش، حتى يتم تسليمهما إلى السلطة المدنية. وبما أنه لم يتم توجيه أي تهمة محددة

في شهادة ويلكينسون، فقد نشأ بعض التردد لدى المحكمة بسبب عدم وجود جريمة محددة لتوجيهها إلى السجينين. للحصول على مثل هذه التهمة، طُلب شهادة الجنرال إيتون؛ والتي قُدمت بالطريقة التالية.

«في أوائل الشتاء الماضي، أبلغني الكولونيل آرون بور، نائب رئيس الولايات المتحدة السابق، في هذا المكان، أنه، بموجب سلطة الحكومة العامة، كان ينظم حملة سرية ضد المقاطعات الإسبانية على حدودنا الجنوبية الغربية؛ والتي كان من المقرر أن يقودها، والتي خُولت له دعوة لي لتولي قيادة فرقة فيها. لم أكن قد تعرفت شخصيًا على الكولونيل بور من قبل؛ ولأنني كنت قد خدمت لسنوات عديدة في الخدمة الخارجية لم أكن على دراية جيدة بالرأي الذي يكنه له مواطنوه وحكومته: الرتبة والثقة التي تميزبها مؤخرًا، لم تترك لي أي حق في الشك في توقعاته. لقد كنت جنديًا. في حالة الحرب مع الأمة الإسبانية، والتي، من فحوى رسالة الرئيس إلى مجلسي الكونغرس، بدت محتملة، كنت سأعتبر دائمًا أنه من واجبي طاعة مثل هذا النداء المشرف من بلدي؛ وتحت هذا الانطباع، تعهدت بالمشاركة في الحملة. أجريت مقابلات متكررة مع الكولونيل بور في هذه المدينة ولفترة طويلة بدا أن هدفه هو إرشادي، بالخرائط ومعلومات أخرى، في الأراضي المجاورة للمكسيك دائمًا ما كان يحمل فكرة أن الإجراء مصرح به من قبل الحكومة. في النهاية، في وقت ما من شهر فبراير، بدأ يكشف عن نفسه تدريجيًا. لقد انتقد الحكومة لافتقارها إلى الشخصية، والامتنان، والعدالة. بدا راغبًا في إثارة الاستياء في صدري من خلال التوسع في بعض الإهانات التي شعر أنني عانيت منها من الرفض في قاعة مجلس النواب، فيما يتعلق بعملياتي في البربر، ومن تأخيرات الحكومة في تسوية مطالباتي بالمدفوعات، على ذلك الساحل أثناء عملي القنصلي في تونس؛ وقال إنه سيدفعني إلى وسيلة شريفة للتعويض. بدأت الآن في الشك في أن السيد بور كان يخطط لحملة عسكرية غيرمصرح بها؛ والتي كانت بالنسبة لي محاطة بالغموض؛ ورغبة مني في الحصول على تفسيرمنه، سمحت له بافتراض أنني مستسلم لمشورته. لقد كشف الآن عن مشروعه لثورة البلاد الغربية، وفصلها عن الاتحاد، وإنشاء نظام ملكي هناك، يكون هو حاكمه، ونيو أورليانز عاصمته؛ وتنظيم

قوة على نهر المسيسيبي، وتوسيع الفتوحات إلى المكسيك. لقد اقترحت عددًا من العوائق أمام خطته مثل العادات الجمهورية لسكان ذلك البلد، و ميلهم نحو الإدارة الحالية للحكومة؛ ونقص الأموال؛ والمقاومة التي سيواجهها من الجيش النظامي للولايات المتحدة على تلك الحدود؛ ومعارضة ميراندا في حال نجح في جمهورية المكسيكيين.

لم يجد السيد بور أي صعوبة في إزالة هذه العقبات قال إنه، في إجراءاته السابقة، قام بجولة في ذلك البلد، وضمن ولاء المواطنين الرئيسيين في كنتاكي، وتينيسي، ولويزيانا لشخصه، وتدابيره أعلن أن لديه موارد لا تنضب من حيث الأموال؛ وأكد لي أن الجيش النظامي سيعمل معه، وسوف يتم تعزيزه بـ 10 أو 12000 رجل من الولايات والمنطقة المذكورة أعلاه، ومن أجزاء أخرى من الاتحاد؛ وقال إنه لديه الآن جواسيس في الأراضي الإسبانية؛ أما بالنسبة لميراندا، قال السيد بور، يجب أن نشنق ميراندا. لقد عرض عليّ بشكل مباشر أن يعطيني القيادة الثانية في جيشه. سألته من سيكون له القيادة الرئيسية؟ قال الجنرال ويلكينسون. لاحظت أنه من الغريب أن يعتمد على الجنرال ويلكينسون؛ الرتبة الرفيعة، والثقة العالية التي يتمتع بها الآن كقائد عام لجيشنا وحاكم لمقاطعة، بالكاد سيعرضها للخطر من أجل أي آمال محفوفة بالمخاطر في التوسع. قال السيد بور، «الجنرال ويلكينسون يفقد ثقة الحكومة، وكان من المشكوك فيه أن يحتفظ لفترة أطول بالاعتبار الذي يتمتع به الآن، وبالتالي كان مستعدًا لتأمين مكانة لنفسه.» سألت السيد بور إذا كان يعرف الجنرال ويلكينسون؟ أجاب بنعم: وردد السؤال. قلت إنني أعرفه جيدًا. «ماذا تعرف عنه؟» قال السيد بور. أعرف، أجبت، أن الجنرال ويلكينسون لن يعمل كملازم لأي رجل في الوجود. «أنت مخطئ،» قال السيد بور. «ويلكينسون سيعمل كملازم لي.» من فحوى المحادثات المتكررة مع السيد بور، استنتجت أن خطة فصل الاتحاد التي كان قد فكر فيها قد تم إبلاغها إلى الجنرال ويلكينسون والموافقة عليها (التي أشك الآن في أنها كانت حجة بارعة للإغواء)؛ وقد عبر بشكل مباشر عن ثقة كاملة في أن نفوذ الجنرال؛ وعرض الأجر المزدوج والحصص المزدوجة؛ واحتمال النهب؛ وطموح الإنجاز، سيجذب الجيش إلى تدابيره؛ تحدث السيد بور عن إنشاء

حكومة مستقلة غرب جبال الأليغني، كمسألة حق دستوري غير قابل للتصرف للشعب؛ وهو تغيير سيحدث في نهاية المطاف، وأن الأزمة الحالية مواتية بشكل خاص لتفعيله. قال، لا توجد طاقة في الحكومة يجب الخوف منها، والانقسامات في الآراء السياسية في جميع أنحاء الاتحاد هي ظرف يجب أن نستفيد منه. كان هناك الكثير من الرجال المغامرين بيننا الذين يطمحون إلى شيء يتجاوز المساعي المملة للحياة المدنية، والذين سيتطوعون في هذه المغامرة؛ والأراضي الشاسعة التابعة للولايات المتحدة التي عُرضت على المغامرين، ومناجم المكسيك، ستجلب القوة لرايته من جميع الجهات.

استمعت إلى عرض آراء الجنرال بور بموافقة ظاهرية. كل مقابلة أقنعتني، أكثر فأكثر، بأنه قد نظم مؤامرة خيانة عميقة في الغرب، كان يشعر بثقة كاملة في إنجازها. حتى، أخيرًا، اكتشفت أن طموحه لم يكن محصورًا بمياه المسيسيبي، والمكسيك، بل أنه كان يخطط للإطاحة بالحكومة الحالية لبلدنا. قال، إذا استطاع كسب فيلق مشاة البحرية، وتأمين قادة البحرية، تروكستون، وبريبل، وديكاتور، وغيرهم، فإنه سيطرد الكونغرس من الأبواب؛ ويغتال الرئيس؛ ويستولي على الخزانة والبحرية؛ ويعلن نفسه حاميًا لحكومة قوية.

الثقة المشرفة بإفساد فيلق مشاة البحرية، واستطلاع رأي الكومودور بهذه الكلمات، نصل إلى المشهد الختامي لقصة حياة «ويليام إيتون»، الرجل الذي كانت حياته مزيجاً معقداً من البطولة العسكرية في شمال أفريقيا، والدراما السياسية في واشنطن، والنهاية الشخصية المحزنة.

إليك النص الأخير المكتمل حرفياً كما ورد في الوثائق التي زودتني بها:

بريبل والقبطان ديكاتور، اقترح الكولونيل بور أن يعهد بها إليّ.

لقد أبقيت سري صامتًا في صدري، وانتظرت لحظة مواتية، عندما تكون قوة وشجاعة المؤامرة قد تضاءلت وعندها أطلقت العنان للرعب الذي كان سيصبغ راياتنا بدماء الأبرياء. أخبرت الكولونيل بور أن الأمريكيين لن يتحدوا في هذا البلد لإقامة مؤامرة استبدادية، تحت أي اسم أو مظهر. أجاب، بأنه، ربما، يعرف أفضل مني. قلت له، الجندي الوحيد الذي سيقف

بجانبه. سأل، من؟ أجبت بوربر سخر من ترددي، واقتبس شيئًا ما بفرنسية. أوضحت له، أنني سافرت مؤخرًا من أحد طرفي الاتحاد إلى الآخر؛ وعلى الرغم من أنني وجدت تنوعًا في الآراء السياسية بين الناس، إلا أنهم أجمعوا عند أدنى احتمال للانقسام الوطني. حذرتُه من أنه، باسم الاتحاد الذي أنتمي إليه، سأتعهد، إذا نجح في الاقتراب الأول، بأن يتم قطع حلقه في غضون ستة أسابيع بعد ذلك من قبل ميليشيا يانكية.

كان هذا، الهدف الأخير البري والمتطرف للسيد بور؛ وعلى الرغم من أنه كان محفوفًا بأفكار مسبقة، إلا أنني شعرت بارتياح كبير بشأن هذا الموضوع، لأنه قد أسقط بذوره في صدري؛ لكنني لم أشعر بنفس الأمان فيما يتعلق بفصل الاتحاد. لكن الوضع المثير للاهتمام والمحرج للغاية الذي وضعتني فيه اتصالاته، تركني، أعترف، في حيرة من أمري لأعرف كيف أتصرف بشكل لائق. لم يرتكب أي عمل عدواني علني ضد القانون. لم أستطع استخلاص أي شيء منه كتابة؛ ولم أعرف أنه قد كشف عن خططه لأي شخص قريب مني يمكن أن يدعم شهادتي به. لم يذكر لي أي أشخاص كانوا مشاركين معه بشكل أساسي وحاسم، باستثناء الجنرال ويلكينسون السيد ألستون، الذي وجدت أنه صهره، والسيد دايتون، من ولاية نيو جيرسي، والذي كان قبطانًا في جيش الجنرال واين؛ لكنني مقتنع بأن السيد بور كان مصممًا على دفع مشروعه للتمرد في غرب الأليغني، وكنت أخشى أنه كان منظمًا جيدًا وواسع النطاق بحيث لا يمكن قمعه بسهولة؛ على الرغم من أنني كنت أخشى ثقل شخصيته عندما توضع في الميزان مقابل تأكيدي المنفرد، إلا أنني عقدت العزم على محاولة إحباطه، عن طريق إبعاده من بيننا، أو تعريض نفسي لجميع العواقب من خلال الكشف عن نواياه.

وفقًا لذلك، زرت رئيس الولايات المتحدة؛ وبعد محادثة متفرقة، هدفت من خلالها إلى لفت نظره إلى الغرب، تجرأت على القول للرئيس إنني أعتقد أنه يجب إرسال السيد بور إلى خارج هذا البلد وأعطيت سببًا لذلك، أنني أعتقد أنه خطير فيه. سأل الرئيس إلى أين يجب إرساله؟ ذكرت لندن وقادس. اعتقد الرئيس أن الثقة مهمة جدًا، وبدا أنه يشك في نزاهة السيد بور. ألمحت إلى أنه، ربما، لا أحد لديه أسباب أقوى للشك في نزاهة السيد بور

الأخلاقية أكثر مني: ومع ذلك، كنت أعتقد أن الطموح يسيطر عليه لدرجة أنه، عندما يوضع على مرتفع ويوضع على شرفه، فإن احترام نفسه سيضمن إخلاصه: كانت مواهبه لا جدال فيها.

أدركت أن الموضوع كان غير سار للرئيس؛ ولإعطائه أقصر طريق إلى النقطة، أعلنت عن قلقي من أنه إذا لم يتم التخلص من السيد بور بطريقة ما، فسيكون لدينا في غضون ثمانية عشر شهرًا، تمرد، إن لم يكن ثورة على مياه المسيسيبي. أجاب الرئيس، بأن لديه ثقة كبيرة في معلومات، ونزاهة، وولاء مواطني ذلك البلد للاتحاد، بحيث لا يسمح بخوف من هذا النوع. يسعدني أن الأحداث تثبت أن هذه الثقة كانت في محلها. وبما أنه لم تتبع تعبيري عن القلق أي استجوابات، فقد اعتقدت أن الصمت بشأن هذا الموضوع، في ذلك الوقت والمكان، يناسبني. لكنني، في نفس الوقت تقريبًا، فصلت، كل مشروع السيد بور لبعض أعضاء الكونغرس. لقد اعتقدوا أن الكولونيل بور قادر على أي شيء واتفقوا على أن الرجل يجب أن يُشنق؛ لكنهم اعتقدوا أن مشاريعه خيالية للغاية، وظروفه يائسة للغاية بحيث لا تستحق الموضوع اهتمامًا جديًا. إن الشعور بالأمان التام لدى أولئك الذين دققت لهم ناقوس الخطر دفعني إلى الشك في أن مخاوفي الخاصة غير معقولة، أو على الأقل مبالغ فيها؛ وبالطبع، أصبحت غير مبالٍ بالموضوع.

أصبحت زيارات السيد بور لي أقل تكرارًا ومحادثاته أقل ألفة. بدا أنه قد تخلى عن فكرة الثورة العامة؛ لكنه بدا مصممًا على ثورة المسيسيبي؛ وعلى الرغم من أنني كنت أستطيع أن أرى أعراض عدم الثقة فيه تجاهي، إلا أنه أظهر قلقًا كبيرًا لإشراكي معه في المشروع. سئمت من إلحاحه، ولإقناعه في الحال بتعلقي الجاد، قدمت النخب التالي للجمهور:

»الولايات المتحدة: شلل للدماغ الذي يخطط لتقسيم، وجذام لليد التي لن تسحب للدفاع عن اتحادنا«

أشك فيما إذا كان هذا الشعور مفهومًا بشكل أفضل من قبل أي من معارفي أكثر من الكولونيل بور. انتهى اتصالنا هنا التقينا نادرًا بعد ذلك. عدت إلى مزرعتي في ماساتشوستس، ولم أفكر أكثر في السيد بور، ولا في إمبراطوريته، حتى وقت ما في أواخر سبتمبر أو بداية أكتوبر، عندما وقعت في

يدي رسالة من موريس بيلكناب، من ماريتا، إلى تيموثي إي. دانيالسون، في بريمفيلد، والتي أقنعتني بأن السيد بور قد بدأ بالفعل عملياته التحضيرية على نهر أوهايو. تحدثت الآن علنًا عن الحقيقة وأرسلت نسخة من رسالة بيلكناب إلى وزارة الخارجية، وفي نفس الوقت تقريبًا، أرسلت عبريدي مدير البريد العام، إلى رئيس الولايات المتحدة، بيانًا جوهريًا، لما هو مفصل أعلاه بشأن مؤامرة المسيسيبي للكولونيل آرون بور المذكور والتي قيل إنها كانت أول معلومات رسمية تلقاها السلطة التنفيذية بشأن موضوع تحرك المتآمر.

لا أعرف ما إذا كانت بلدي ستمنحني فضل صحة السلوك في هذه القضية. حداثة الواجب ربما، تكون قد أربكت عقولاً أقوى من عقلي. آمل ألا يتم التشكيك في نزاهة نواياي.

المقابلات بين الكولونيل بور وبيني، التي نتج عنها البيان السابق، كانت بشكل رئيسي في هذه المدينة في شهري فبراير ومارس من العام الماضي.

وليام إيتون.

مدينة واشنطن، 26 يناير، 1806.

أُقسم عليه في محكمة علنية، في هذا اليوم السادس والعشرين من يناير،

وليام برنت، كاتب.

أثيرت بعض الشكوك من قبل قلة، بأن إيتون استمع إلى بور بميل متردد، أو بمشاعر كانت لبعض الوقت مواتية لمشاريعه. ومع ذلك، كان هذا مجرد شك، ولم يتم تقديم أي دليل لدعم مثل هذا الاتهام.

كان الجنرال إيتون يعتقد اعتقادًا راسخًا بأن ويلكينسون كان مذنبًا بنفس القدر مع بور؛ كما سيظهر من الإجابة على المقتطف التالي من رسالة من ويلكينسون إلى إيتون.

واشنطن، 23 يناير، 1808.

عزيزي إيتون،

إن المؤامرة التي تشكلت لتدميري في نيو أورليانز في الربيع الماضي، والتي كنت على علم تام بها في ريتشموند، في الوقت الذي كنت فيه أستطلع رأي باورز وكلارك بشأن هدفهما في العودة إلى هناك، قد اندلعت نتيجة لكشفي

عن دناءة جون راندولف، ودفع كلارك من قبل زملائه في نيو أورليانز، إلى الوفاء بالتزامه، أرى. هذا الانفجار الخسيس، الذي كنت أخشاه أمام قاضٍ فاسد، مع بور وحزمة محاميه المأجورين، للتعذيب، والتشويه، والتحريف، والتمثيل الخاطئ، ليناسب غرض المؤامرة، قد حدث في ظل ظروف، واتخذ مسارًا، يمنح أعدائي ومتهميّ الحق في شكري: وإذا لم أسحقهم تحت قدمي وأرد كل تهمة بالعار، فلتنكر إيمانك المسيحي وتصبح تركيًا؛ بل وأكثر من ذلك، تنكرني إلى الأبد. المرفق هو مجرد لمحة خاطفة عما يُعتقد كلارك المسكين، بمحاولته الشنيعة على شرفي قد قدم المزيد من الأشرار، مع شهادات لإثبات إدانته بالحنث والفساد، وأنه كان شريكًا في الجمعية المكسيكية، وعمل على تعزيز آراء بور.

ج. ويلكينسون.

إلى ويليام إيتون.

صادف أن يكون جامع هذه المذكرات مع الجنرال إيتون، في بوسطن عندما استُلمت هذه الرسالة. سألته إذا كان لديه أي شكوك في ذنب ويلكينسون: أجاب بأنه ليس لديه أدنى شك: لكن ويلكينسون لديه من البراعة ما يكفي للهروب. على هذه الرسالة، رد بالإجابة التالية.

إلى الجنرال ويلكينسون

سيدي،

إن الرسالة والمرفقات التي تفضلتم بإرسالها في 28 من الشهر الماضي، لم تصل إلا بالأمس. من أجل شرف زيّكم العسكري؛ من أجل شرف الأمة؛ من أجل الاحترام الشخصي الذي أكنه لجنرالي السابق، أتمنى بإخلاص أن تخرج سمعتكم من المحنة مثل الذهب الذي جُرب سبع مرات بالنار. ومع ذلك، لعين تنظر بشكل محايد إلى البيانات كما تصل إلى الجمهور، لا بد أن تنشأ الشكوك.

إذا كان كلارك قد حنث باليمين، فقد تمكن مع ذلك من إضفاء الكثير من الاتساق على قصته، لدرجة أن الرجال، غير المطلعين على شخصيتكم، يعترفون بأن ذلك سيتطلب كل مواهبكم وبراعتكم لتهدئة الشك. هل تتذكرون، سيدي، أنكم أريتموني رسالة سرية من السيد كلارك، تتحدث عن

دوقيات وإمارات؟ سأكون غير منصف للصراحة إذا حجبت الانطباعات التي تركتها على ذهني في تلك المناسبة: والتي كانت أنكم في فترة ما لا بد أنكم فكرتم في إمبراطورية غربية؛ ولكن المداولات الناضجة حددت تمسككم بالواجب والاتحاد: بالطبع أن ترتيباتكم ومراسلاتكم التي أثارت الشكوك، في النهاية، كانت ضرورية ومناسبة. بشأن تهمة الفساد، فإن الطريقة التي شرحتم بها استلام 12000 دولار من ضابط إسباني، كونها مستحقة كرصيد في تجارة تبغ، تم تهريبها بتواطؤه، كانت مُرضية لي: كان السلوك قانونيًا لأي مواطن أمريكي. يقسم السيد كلارك بأنه لم تكن هناك مضاربة بالتبغ في القضية: يجب إبطال هذه الشهادة، أو يجب أن أعلق رأيي. أنتظر حقًا بقلق كبير نتيجة التحقيق المهم، وأبقى، مع عظيم الاحترام،

سيدي، خادمكم الأكثر طاعة،

وليام إيتون.

في خطاب عام بعد فترة، عبر الجنرال إيتون عن نفسه هكذا «لقد عرضت حياتي وسمعتي للخطر للحفاظ على سلامة الاتحاد: و، (آمل أن يُغفر لي)، لهذه اليقظة والإخلاص، بدلاً من التحركات على نهر سابين أو في نيو أورليانز، يدين بطلنا في جبل كارتر بوجوده السياسي إن لم يكن الشخصي: لأنه، لم يكن إلا بعد أن أثار كشفي العلني قلق الجنرال ويلكينسون في معسكره، أنه، على الرغم من أنه كان على علم بالمؤامرة الخيانية لأكثر من عامين، فكر في خيانة زميله الخائن، وأصبح وطنيًا، وتحول إلى شاهد إثبات.»

خلال شهر فبراير، 1807، نجح الجنرال إيتون في الحصول على تسوية لحساباته، بتمرير مشروع قانون يخول وزارة الخارجية بتسويتها وفقًا للعدل: ولكن ليس قبل أن يكون، بالطريقة الروحانية التالية، قد خاطب لجنة المطالبات، وهو خطاب جعله علنيًا.

إلى الرئيس الموقر للجنة المطالبات،

مدينة واشنطن، 15 فبراير، 1807.

سيدي،

عند مراجعة البيان، المرفق بعريضتي بتاريخ 30 فبراير 18045، الموجود الآن أمام هذه اللجنة الموقرة، لا أجد أي ادعاء يحتاج إلى تصحيح أو تعديل.

يستعرض هذا البيان الأرضية الرئيسية وأصل جميع مطالباتي. تفضلوا، سيدي، بالمرور عليه بعناية؛ وبالمضي قدمًا، في الفحص، نظرة على الأحداث التي وقعت منذ ذلك الحين لتثبيت صحة الإجراءات المشار إليها هناك. سيقنعكم ذلك بأن المثابرة على هذه الإجراءات قد منحت السلام لهذا البلد وتحرير ثلاثمائة من مواطنينا؛ وأنه، بينما فعلت شيئًا لترك انطباع جيد على قراصنة البربر، فقد وفرت لخزانتكم أكثر من مليون دولار. مكافأتي، حتى الآن، هي الفقر والجروح لا ينبغي لي، ربما، أن أقول هذا؛ إنه يحمل شيئًا ينطوي على العتاب: هذا ما لا أعنيه. لم أُرفض تعويضًا في أي مكان. على العكس من ذلك، قبل ثلاث سنوات، عندما لم تكن آثار ترتيباتي قد تحققت بعد، عبرت لجنتكم عن رأي مفاده أن لدي مطالبة مستحقة على الحكومة.

لكن التأخير، في القرار اللازم لسداد نفقاتي، قد أزعجني كثيرًا في شؤوني الفردية نفقات تجني بلدي الآن ربحها والتي يبدو أن الغالبية العظمى من مواطنيّ يدركونها جيدًا.

لا أقدم نفسي هنا لأطلب صدقة، ولا لأتوقع مكافأة ولا لأستدر عطفكم: لإيقاظ اعتبار لجميع التضحيات التي قدمتها في الوقوف على واجبات منصبي في بلاط مستبد قرصان، وعلى ساحل عدو متوحش. لا يمكنكم أن تقدموا لي مثل هذا التعويض لا يمكنكم، سيدي، تحت أي شكل يمكنني أن أقدم به المطالبة، أن تمنحوني مكافأة عن تضحيات الممتلكات التي تعرضت لها نتيجة للمضايقات، والفرض، والمصادرة التي مارسها بك تونس عليّ نتيجة لمقاومتي لمطالبه غير المبررة ضد الولايات المتحدة لا يمكنكم أن تعيدوا لي تسع سنوات من الحياة النشطة لا يمكنكم أن تعيدوا لي قوة ذراع.

ولكن بالنسبة للمصروفات الفعلية لصالح بلدنا المشترك، سواء كانت طوعية أو قسرية، لدي الحق. مرة أخرى أن ألجأ إلى عدالتكم، وأن أعتقد أن هذه العدالة لن تتأخر أكثر من ذلك.

من المناسب هنا، إذن، أن أعلن الثقة الكاملة التي أشعر بها، سيدي، في disposição وعدالة هذه اللجنة لإعطاء مطالباتي مراجعة متأنية وفي الوقت المناسب، وحكمًا عادلاً.

مع ذلك، فيما يتعلق بالبند الأخير من تهمتي، يجب ملاحظة لم يكن

القصد في الأصل أن يُرفع هذا ضد الولايات المتحدة. كنت أثق بأن شرف بلاط سردينيا سيفدي ورقة نبيل مكلف بالثقة العالية في مفاوض وطني؛ وفي حالة الفشل هنا، كنت أثق في جهود ابن ذلك النبيل لسداد النقد الذي أُجبرت على دفعه، ككفيل له، من أجل فداء طفل عاطفته، ومن أجل شرف عائلته. كنت، بلا شك، سأحقق هذه الثقة لو لم يصدر مرسوم من حكومة الولايات المتحدة (غير المطلع على أعراف ذلك البلد) بإطلاق سراح الكفيل المحتجز في تونس للدين، وتم تفسيره من قبل الفارس بورسيلي كإعفاء سخي من الدين. يجب أن يأتي السداد من بلاط سردينيا إلى حكومتنا. الأوراق المتعلقة بهذه المعاملة مقدمة مع وثائقي الأخرى.

إن النفقات الباهظة المصاحبة لاستئناف هذه المحكمة لفترة طويلة من الزمن كما كنت أمامكم، وعلى مسافة كبيرة من منزلي؛ إلى جانب ظروف بقاء هذه الأموال المستحقة لفترة طويلة عديمة الفائدة لي، قد وضعتني بالضرورة تحت مسؤولية مالية تجاه أصدقائي. إن تعليق سنة أخرى سيضعني في السجن

إذا وجدتم، سيدي، أنني كنت مستقيمًا تجاه بلدي فلتُمكّنني بلدي، من خلال المعاملة بالمثل، الآن من فداء نفسي.

لي الشرف أن أكون،

بكل احترام،

سيدي، خادمكم الأكثر طاعة،

وليام إيتون.

في مايو، انتخب سكان بريمفيلد الجنرال إيتون ممثلاً في الهيئة التشريعية لولاية ماساتشوستس: بدأت الجلسة الأولى منها في نهاية ذلك الشهر، والتي، مع ذلك، لم يتمكن من حضورها، حيث تم استدعاؤه لحضور المحكمة التي كانت على وشك الانعقاد في ريتشموند، (فرجينيا) لمحاكمة آرون بور وآخرين. كانت المحاكمة طويلة جدًا، وفي ريتشموند أمضى الجزء الأكبر من الصيف. هنا أصبحت عاداته في الإفراط في الشرب أكثر تأكيدًا؛ وتم قضاء نسبة كبيرة جدًا من وقته على طاولة الورق؛ حيث خسر مبالغ كبيرة من المال؛ إلى جانب مبالغ كبيرة في المراهنة على نتيجة محاكمة بور.

بذل بور ومحاميه جهودًا كبيرة لإبطال شهادة إيتون، ولكن دون جدوى. كان يُتوقع الكثير من وجود ورواية الكولونيل غايثر، الذي ورد ذكره في جزء سابق من هذا المجلد، لكن شهادة إيتون ظلت دون مساس.

في بداية الجلسة الثانية للهيئة التشريعية في ماساتشوستس، في ديسمبر، شغل الجنرال إيتون مقعده. كانت المدينة التي أرسلته فيدرالية بشكل حاسم، وكانت تتوقع منه مسارًا سياسيًا يتفق مع رغباتهم. كان يتمتع بسمعة، بشكل عام، بأنه من مدرسة واشنطن؛ لكن إلقاء خطاب أدان فيه سلوك رئيس القضاة مارشال، وشكك في نزاهته؛ والذي أُطلقت فيه العديد من التعبيرات والمشاعر المسيئة لنقاء الفيدرالية؛ أدى إلى سحب الثقة من كلا الحزبين.

بمحاولة عبثية لتأمين الرأي الجيد لكلا الحزبين، فقد التقدير السياسي لكليهما. ولم يكن أقل من ذلك التقدير الشخصي الذي كان يكنه له عمومًا في بداية الجلسة. دُعي إلى موائد بعض الشخصيات المرموقة في بوسطن، حيث كان سلوكه في كثير من الحالات، سرعان ما يجعله ضيفًا غير مرغوب فيه. كان يتحكم في شرابه بقليل من الحذر؛ وفي مثل هذه الأوقات، كما هو معتاد، كان «ذكاؤه خارجًا».

في ربيع عام 1808، استُدعي الجنرال إيتون لحضور محكمة مقاطعة الولايات المتحدة في فيلادلفيا، كشاهد في محاكمة شخص متهم بالتورط مع بور. عند عودته علم، بخيبة أمل وامتعاض، أنه لم يُعد انتخابه للهيئة التشريعية لهذه الولاية؛ الجزء الغامض الذي اتخذه في الجلسة الأخيرة قد أبعد ثقة المدينة في ثباته السياسي.

انتهت الوثيقة.

تظهر هذه السيرة الذاتية التراجيدية كيف أن بطلاً حربياً مثل إيتون، الذي قاد أول مسيرة أمريكية عبر الصحراء، وجد نفسه ضائعاً في دهاليز السياسة الداخلية وصراعات القوى، مما أدى في النهاية إلى تدهور حالته الشخصية والسياسية.

تخون العديد من رسائله إلى بعض الأصدقاء في واشنطن رغباته

وتوقعاته في الحصول على قيادة عسكرية عالية في جيش الولايات المتحدة. إن خيبة أمله في هذا الصدد، ورفض مدينة بريمفيلد إرساله مرة أخرى إلى المحكمة العامة، وارتباك واضطراب شؤونه المنزلية والمالية؛ أثرت جميعها على ذهنه لدرجة أنه بدا منذ ذلك الوقت مستسلمًا لليأس من الترقية، أو إصلاح ثروته، أو استعادة سمعته؛ فأصبحت عاداته في الإفراط في الشرب أكثر ثباتًا ومبالغة، وباستثناء لحظات المرح، بدا أنه ينظر إلى العالم بكآبة أو غضب.

في شهر أغسطس، سقط ابنه إلي إي. دانيالسون، الذي رافقه في حملته إلى درنة وكان مرتبطًا به بشكل خاص، في مبارزة في نيويورك نتيجة شجار مع ضابط زميل في البحرية. تم استلام خبر هذه المحنة في رسالة من السيد بابيت، والتي رد عليها الجنرال إيتون بالإجابة التالية:

«بريمفيلد، 14 أغسطس، 1808.

عزيزي سيدي،

إن التعاطف الذي تظهرونه في الحدث الذي وقع في الثامن من هذا الشهر، والذي كان محزنًا جدًا لنفسي ولعائلتي، يتلقى شكرنا الصادق. كنت أتمنى أن يعيش دانيالسون للفائدة التي كان قادرًا عليها، ولكن من يستطيع صد سهم الموت؟ متى وأين نتلقى الصدمة هو أمر أقل أهمية من كيفية تلقيها. لقد كنت دائمًا أطمئن نفسي بأن صديقكم لا يمكن أن يموت إلا كرجل شجاع، ولكن يؤلمني أن أرض سقوطه لم تكن متميزة بمزيد من الفائدة لبلده. قد يجد الرجال الشجعان والعظماء وذوو الخبرة أحيانًا أنه من الضروري لسمعتهم أن يلتقوا في صراع شخصي، وقد يكون هذا مبررًا حيث يكون مصير أمة على المحك؛ ومثل هذه الأحداث نادرة، لكن الخلافات التافهة التي تثير الشباب المتحمسين ليعرضوا حياتهم للخطر في لعبة حظ، لا يمكن التوفيق بينها وبين مبادئ الأخلاق، أو الوطنية، أو حتى الشخصية. لم يكن دانيالسون بحاجة إلى اختبارات لشجاعته، فصغيرًا كما كان، كانت التجربة قد اختبرت هذا بالفعل. يؤسفني غياب شرف النبل أكثر مما أشعر بالخسارة التي نشعر بها؛ لو أنه سقط في ميدان المجد الشرعي! إن أسلوب موت هاملتون لم يضف شيئًا إلى بريق شهرته، وظرف قتل بور له لم يمنح

أحدًا مزيدًا من الثقة في أمانة بور أو وطنيته؛ كما لم ترضِ الكارثة أحدًا بشأن مزايا القضية التي أنتجتها. يمكن للأفراد أن يذبحوا بعضهم البعض بشرف وفق قوانين الفروسية، وكل ما يمكن للمجتمع أن يصرح به بشأن هذا العرض للشجاعة هو: يا للأسف!

إن غياب الكومودور رودجرز في تلك اللحظة المصيرية أمر مؤسف للغاية؛ فقد كان حضوره سيرهب الموقف المتطرف الذي جلب الحزن للمعنيين بالفقيد، والخسارة لخدمة بلدنا. أتمنى بإخلاص أن يكون هذا الحادث المؤسف بمثابة تحذير للسادة الشباب في مهنتكم ضد نوبات الغضب المفاجئة. أي شيء بالتفصيل يمكنكم ذكره بشأن الوفاة المحزنة لابني وصديقي سيفرض علي التزامًا خاصًا. لم أتلقَّ أي اتصالات من السيد بويد ولا من السيد إيفانز بشأن هذا الموضوع.

أنا سيدي، إلخ.

وليام إيتون.

الملازم فيتزه. بابيت، بحرية الولايات المتحدة.»

إن كون الجنرال إيتون في جميع النواحي تقريبًا، ومن حيث المبدأ، تلميذًا حقيقيًا لمدرسة واشنطن في السياسة هو أمر مؤكد؛ إلا أن تبرئة بور أدت إلى حد ما إلى إفساد مزاجه، وأمل الترقية في الجيش من خلال إرضاء الإدارة الحاكمة أدى في بعض الأحيان إلى انحراف كبير عن قناعاته. وفي خريف هذا العام، ندد بجرأة بالسياسة العامة وتدابير الكونغرس. والخطاب التالي، الذي ألقاه في اجتماع عام في بريمفيلد، جدير بالحفظ كدليل على موهبته الخطابية وكذلك على مبدئه العام وتنبؤاته:

«من بوسطن ريبيرتوري: اجتماع مدينة بريمفيلد.

في الخامس والعشرين من الشهر الماضي، اجتمع سكان بريمفيلد في هذه الولاية بعد إخطارهم رسميًا، للنظر في جدوى تقديم التماس إلى رئيس الولايات المتحدة لإزالة الحظر كليًا أو جزئيًا، أو عقد الكونغرس لهذا الهدف إذا اعتبرت سلطته غير كافية. في هذه المناسبة، خاطب الجنرال إيتون مواطنيه في الخطاب التالي، الذي طُلب نشره بتصويت من المدينة وأُرسل إلينا لهذا الغرض:

ملاحظات الجنرال إيتون:

في خطاب سكان مدينة بوسطن إلى رئيس الولايات المتحدة، والمقدم الآن لهذه المدينة للموافقة عليه، لا نرى شيئًا غير دستوري أو غير محترم. هدفه، إذا كان قابلاً للتحقيق، مهم بشكل أساسي للمصالح التجارية والزراعية لهذا البلد، وليس أقل ضرورة لإيراداتنا. في الواقع، إن الضيق والبؤس اللذين سببهما الحظر بين جميع فئات مواطنينا، وهو إجراء قسري سلبي، كافيان بحد ذاتهما لتبرير هذا النداء للإغاثة.

ليس من الضروري في هذه اللحظة التحقيق الدقيق في أسباب أو دوافع فرض الحظر؛ لنعترف بما لا يمكن إنكاره بأن الحظر المفروض على تجارتنا من قبل المتحاربين، لو أمكن فرضه، كان سيُبعدنا تقريبًا عن المحيط، وأننا تعرضنا للغضب من كلا الطرفين، فنُهبنا وأُهنَّا من قبلهما، وضد كليهما كان لدينا سبب كافٍ للحرب؛ ولا يترتب على ذلك، من أي شيء يبدو لنا، أن الموقف الذي اتخذناه لمواجهة تلك الاعتداءات قد أدى إلى أي تخفيف للقيود المفروضة علينا كدولة محايدة، أو إلى أي تحسين لمعاناتنا.

لقد انقضى موسم فيما يتعلق بالتجارة منذ فرض الحظر، ولم تحقق التجربة لنا شرفًا وطنيًا، أو أمانًا وطنيًا، أو هدوءًا داخليًا؛ على العكس من ذلك، ومن وجهة نظر وطنية وداخلية، نعاني من هذا الإجراء كل كارثة مرتبطة بالحرب، باستثناء الغزو الفعلي، ودون أي من مزايا الحرب المحتملة. لأنه على الرغم من أننا لا نرى في سهولنا ملابس ملطخة بالدماء، نرى سواحلنا تتخلى عن سلالة قوية من مدافعينا الطبيعيين الذين أجبرهم الجوع على البحث عن خدمة أجنبية ليموتوا بشكل غير مجيد وغير مبكي عليه. وعلى الرغم من أننا لا نرى دمار الجيوش الناهبة، نشعر بأن ثروتنا تتضاءل إلى حد الموت بسبب الركود؛ فالتجارة مدمرة، والصناعة محبطة، وقلب المغامرة محطم، ونوع من المتسولين بدأ يزدحم في أروقتنا دون أي مطالب أخرى على صدقاتنا سوى انعدام العمل. وعلى الرغم من أننا لا نبكي بالفعل مصائب علمنا في الأسراب والجيوش المهزومة، إلا أننا نخجل من مجده الساقط كآثار لمضاربة جبانة على أحداث أكثر عارًا من هزيمة رجولية.

يُعتقد أنه لا يوجد أمريكي حقيقي ينكر أن فرنسا وإنجلترا قد قدمتا

لنا استفزازًا كافيًا للحرب. ناهيك عن عمليات الأسر، والاحتجاز، والإدانة، والحرق، وإغراق سفننا وبضائعنا بموجب مراسيم نابليون الأول؛ وناهيك عن غطرسته في بلاطنا، وبيعه الاحتيالي لمشترين نزيهين لولاية لويزيانا غير المحدودة، وتدخله اللاحق نيابة عن مطالبات إسبانيا بالأراضي التي باعها لنا، فقد كان كل ذلك كافيًا لإثارة استياء هذه الأمة بأكملها. تلك الصفقة تذكرني دائمًا بمبتدئ عرض على مخلصنا جميع ممالك الأرض بشرط الولاء له؛ تم توبيخ الشيطان، لكن بونابرت نجح بشكل أفضل مع رعية، وكلاهما كان لهما نفس الحق في المملكة التي اقترحا مقايضتها بالولاء.

لكن جميع انتهاكات حقوقنا من جانب الكورسيكي تُحتمل بصبر وسلبية، وحدّة الاستياء تحت رعايته موجهة فقط إلى إنجلترا. لم يعد من الممكن إخفاء أن الحظر كان مقصودًا للأمة البريطانية ولها وحدها؛ وإلا فلماذا تستمر سفنها الحربية في استبعادها من موانئنا، وتُمنح سفن عدوها تساهلات تُحرم على مواطنينا؟ يُعتقد أن الحظر كان يُنظر إليه كإجراء حربي، وكان القصد منه من قبل بعض الشخصيات البارزة في إدارتنا أن ينتج هذا التأثير. في الواقع، لا أتردد في التأكيد على أن الحرب مع إنجلترا كانت مسألة حسابات مع كبير قضاة الولايات المتحدة، وإلا فلماذا ترك جميع رسله رسائلهم في فرنسا، ولإلهاء ثقتنا ذهبوا فارغين إلى إنجلترا؟ ولماذا نرى الكثير من مناصب الثقة والشرف مملوءة بأعداء معلنين لإنجلترا وأصدقاء مخلصين لمغتصب؟

لكن مثل هذا الحدث، في ظل الظروف القائمة، سيثبت أنه مدمر لبلدنا. إن حليفة مثل إنجلترا الآن، مع إسبانيا والبرتغال، ستجعل خط الحدود الكامل لهذه الولايات المتحدة بحرًا وبرًا، والذي يضم محيطًا يزيد على أربعة آلاف ميل، جبهة عدو. لم تتنازل إسبانيا بعد عن لويزيانا لنا، وإن الرعايا الساخطين في تلك المنطقة، والمكسيكيين الغيورين، والأرواح المختارة على مياه المسيسيبي، وأبناء الغابة المضطربين وغير المروضين، والمقاطعات البريطانية في كندا، سيتعاونون جميعًا ضدنا على تلك الحدود؛ فأي حاجز يمكننا أن نقيمه ضدهم للدفاع عن هذا القسم من الاتحاد؟

لنتطلع إلى ساحلنا الأطلسي؛ ماذا لدينا للدفاع عن بلداتنا ومدننا

التجارية، ومراكز ثروتنا وموارد إيراداتنا، ضد الأساطيل المشتركة لبريطانيا العظمى وحلفائها؟ هل ستفعل زوارقنا المدفعية وبطارياتنا الطينية ذلك؟ الفكرة سخيفة. هل يستطيع بونابرت أن يفعل ذلك؟ يعلم الجميع أنه لا يستطيع أن يطفو فرنسيًا عبر الأطلسي إلا متنكرًا في زي ماندرين. سيوصي رجل دولة وفيلسوف عظيم باللجوء إلى الجبال، لكن مساكن نيو إنجلاند وعاداتها ثابتة جدًا للجوء إلى الجبال، ولا يمكننا التخلي عن مذابحنا ومواقدنا من أجل الكهوف والمغارات. إذا لم تكن سياسة ولا طاقة تدابير الإدارة قادرة على حمايتنا في الداخل، فأين نبحث عن الحماية؟ هل نتنازل عن أنفسنا لفرنسا بالتحالف مع طاغيتها؟ إننا بذلك نرتكب انتحارًا وطنيًا ونموت موتًا سياسيًا مخزيًا. لدينا قصة نصف أوروبا لتنبيهنا ضد مثل هذا الاعتماد. بونابرت مثل يهوذا، يقبل ليخون، والفائدة الوحيدة المحتملة الناتجة عن رضاه ستكون أن نُخرج بهدوء من «البحر العاصف للحرية» ونُرسى بأمان في الحوض الجاف للاستبداد. سيعبر حليفنا الإمبراطوري والملكي لنا بلطف عن قلقه الأبوي على سلامتنا من خلال تنصيب ابن أخيه المحبوب دون جيروم باترسون نابليون ملكًا لهذه الولايات، وجنراله المخلص والموثوق به والمفوض تورو ملازمًا ووصيًا على المملكة أثناء قصر ابن أخيه المذكور؛ وسيتم توفير حكام ولاياتنا من أركان حربه العامة. هل الأمريكيون مستعدون لهذا الفناء السياسي والانتقال الطوعي ليكونوا زواحف؟ ليس بعد. لنفك القيود التي تكتئب الأمة، ولنرتدِ دروعنا، ولنقاوم مثل الإسبان إغراء واحتيال ابن نهب ملطخ بالدماء. لدعم هذا الموقف هل يجب أن نأخذ حذر إنجلترا؟ عندئذ ستكون كارثتنا مؤكدة، على الرغم من أننا قد نطيل وجودًا مخزيًا لفترة أطول. كلا الأمتين لهما مطامع في هذا البلد، وقد تنازعتا عليه منذ اكتشافه حتى عندما كان غابة؛ وأقدم جندي وأصغر تلميذ بيننا يعرفون ذلك. ولكن، إذا كان في فترة كان فيها قاحلاً وغير منتج موضوع نزاع، فكم بالأحرى الآن عندما ينتج لغازٍ أو مغوٍ إيرادًا أو مساهمة قدرها ثلاثون مليونًا في السنة؟ ضد قوانين الفتح وكبرياء الإمبراطورية، هل نتوقع أن يدافع عنا الدين والعدل؟ للأسف، لم يعد هذا المصطلح موجودًا في مكتبات البلاط. هل يمكننا أن نجد الأمان في الحماية؟ متى عرفنا طاغية يرفع قدمه عن عنق عبد طوعي، أو بلدًا

يطلب حماية أجنبية لم يُخضع في النهاية للتبعية؟ لا؛ يجب على هذه الأمة أن تعتمد على ذراع الله واستخدام وسائلها الخاصة لاستعادة حقوقها والحفاظ على استقلالنا. تحت تلك الحماية القديرة يجب أن نقف بقوتنا الخاصة، فالتحالفات تنتهي عمومًا بنفس الطريقة في اللحظة التي يقع فيها رجحان القوة والميزة في أي من الميزانين.

إن الأحداث العظيمة التي تهز الآن القارة الشرقية لا بد أن تشغل المتنافسين المتحاربين في أوروبا لدرجة أن جشعهم سيتحول عن الولايات المتحدة لفترة؛ وستنجم عن ذلك مزايا عظيمة إذا تم استغلالها لمشروعنا التجاري. ارفعوا الحظر؛ اتركوا التجارة وشأنها، وعلى الرغم من المراسيم الإمبراطورية، لدينا مجال واسع لممارسة هذا المشروع. لدينا الموانئ البريطانية في كل مكان، والسويد والنرويج، والساحل الكامل للبرتغال وإسبانيا، وجزر مينورقة ومايورقة، والساحل التركي الكامل للبحر الأبيض المتوسط، باستثناء الجزائر، والساحل الغربي والجنوبي الكامل لأفريقيا، وحدود البحر الأحمر، والهند والصين؛ وماديرا، وتينيريفي، والأزور؛ ومعظم جزر الهند الغربية الغنية، والساحل الإسباني والبرتغالي لأمريكا الجنوبية، والساحل الأمريكي الكامل للمحيط الهادئ. والأهم من ذلك بالنسبة لنا، ساحلنا الخاص ومصايدنا الخاصة، والتي تضم أكثر من أربعة أخماس السواحل التجارية للقارات الأربع وجزر البحار المنتجة. هل نتخلى عن جميع المزايا التي يمكن استخلاصها من هذه المصادر للثروة خوفًا من مراسيم مغامر أصبح قويًا من خلال الحوادث، والذي قد تعيده عدالة السماء قريبًا إلى العجز في جزيرته الأصلية من الصخور والعقم؟ رجل قوي شجاع لا يجرؤ على إرسال قارب قصف إلى البحر خوفًا من عدوه! مثل هذا التواضع مهين جدًا لمشاعر الرجال الشجعان والأمريكيين النزيهين.

ولكن إذا استُغلت هذه الأزمة، كما يخشى الكثيرون ويؤكد البعض، لتجربة خطة مفضلة للانسحاب كليًا من البحار والتخلي تمامًا عن التجارة الخارجية، فلا يتطلب الأمر بصيرة عميقة للتنبؤ بأن التجربة، إذا استمرت، ستؤدي إلى تفكك الاتحاد. «حيث يكون الكنز، هناك يكون القلب أيضًا.» تنتهي الصداقة والاتحاد في اللحظة التي تتصادم فيها المصالح، أو تظهر فيها

ميول استبدادية في قسم من الاتحاد. تجارة نيو إنجلاند هي مجالنا الأكثر إنتاجية؛ احرمونا منها، وقد نصبح حطابين وسقاة لسادة مهام في مناخات أكثر فخامة، ولكن قبل أن يغرقنا هذا الإذلال، ستنزف القلوب وتسقط الرؤوس. لا أقصد اتهام أي قسم من الولايات المتحدة بالعداء لمصالح ونمو الشمال والشرق، لكنني شهدت في بعض الشخصيات البارزة سلوكًا يبرر الشك، وليس ذلك في أي مكان أقوى منه في المعارضة العنيدة للمطالبات العادلة لمواطنينا الذين اشتروا أراضٍ دون شك بموجب منحة رسمية من ولاية، وأقصد هنا يازو. الحظر ليس خاليًا من ملامح تصميم مماثل؛ إنه يدمر ثمار صناعتنا ويحول أعمالنا إلى لا شيء.

«الزراعة هي خادمة التجارة»، كما يقول رجل عظيم. ولكن إذا قُيدت قدرات الحاكمة، فأين تجد الخادمة وسائل لتكون مفيدة لنفسها؟ الأزمنة الحالية تجيب على هذا السؤال؛ ماذا نفعل بفائض إنتاج كدحنا الشاق في مزارعنا الصعبة؟ إنه يهلك في صوامعنا، وخلايانا خاوية. أين الوسيط المتداول في بلدنا؟ إنه محظور؛ في البنوك التي تُغلق كأبواب الموت ولا يفتحها أحد. كيف يسدد المزارع والصياد عقودهما؟ بالإفلاس. كيف تُدفع القائمة المدنية؟ وكيف يُدبر الدين الوطني؟ بالضرائب المباشرة. وكيف نجد وسائل لدفع الضرائب المباشرة؟ إن تقاعدنا الوقور داخل أنفسنا لا يوفرها. هل نتحول جميعًا إلى القرصنة؟ نحن محظورون في وضعنا الحالي، لا نملك شيئًا، ولا يمكننا إنتاج أي شيء يجلب المال. وعلى الرغم من أننا نعطي أجسادنا لتُحرق، فإذا لم يكن لدينا مال، فنحن لا نساوي شيئًا. إن الحرمان والسجن لن يسددا دين شرف، ولا يرضيان تنفيذًا، ولكن إذا استمرت الأمور على ما هي عليه، فإن هذه الحالة من التقاعد الوقور ستصبح عاجلاً أم آجلاً ملاذنا الأخير لجعل أنفسنا محترمين في الخارج وآمنين في الداخل.

إن أبانا الوطني واشنطن، الذي يهتف باسمه جميع الأطراف بحماس، أوصى الولايات دائمًا بالتضحيات المتبادلة والتحمل والمعاناة كرابطة قوية للاتحاد. (أتمنى أن تُقرأ رسالته الوداعية في الاجتماعات الحزبية). كيف تم احترام نصيحته؟ تُركت الولايات الشرقية عارية من الدفاع لتوفير المال لتزيين حصان في غرب حدودنا القديمة (يقصد لويزيانا)، ويُعتقد أن الحظر

قد تم التوصية به لإرضاء البائع الإمبراطوري لذلك الحصان، خشية أن يفرغ غضبه في راكبه. ومهما كان الدافع للإجراء، لم يكن بإمكان المؤلف إلا أن يتنبأ بأنه، إذا استمر، سيعمل بشكل غير متكافئ على الولايات المختلفة. إن الشمال والشرق لا يمتلكان الموارد الطبيعية للجنوب والغرب.

إن بعض ضروريات حياتنا، وكثيرًا من وسائل الراحة، ومعظم كمالياتنا مستمدة من التجارة؛ احرمونا كليًا من هذا المورد، وستهاجمنا الاحتياجات الحقيقية والوهمية، وسينتج ذلك السخط الذي سيجد الرؤساء صعوبة في تهدئته. دعونا نتمتع بممارسة طاقتنا الطبيعية واستخدام مواردنا وكبرياء استقلالنا، ولن نكون عائبين على الفلسفة التي تبحث عن ملجأ في جبل أو حوض. سأصوت لصالح خطاب بوسطن، وآمل أن يمنحه الرئيس اعتباره العالي.

في اجتماع مدينة بريمفيلد، 29 أغسطس، 1808.

تم التصويت على طلب نسخة من ملاحظات الجنرال إيتون حول موضوع الاتصال من بوسطن إلى مختاري البلدة.

نسخة من السجل. شهد س.

حياة لايتنسدورفر:

كان لايتنسدورفر رجلاً غريب الأطوار؛ كان مسيحيًا، ومسلمًا، وكافرًا، وجنديًا، وموسيقيًا، وبائعًا متجولًا، وجزارًا، وصانع ساعات، وكاهنًا، وملازمًا في المارينز. كان نمساويًا بالمولد؛ وكان يُطلق عليه في ألمانيا لودفيغ ليبرشت دورينبرغ، ولكنه بعد أن أصبح من رعايا فرنسا، ونتيجة لأسباب مختلفة، أصبح يُعرف باسم إلياس لايتنسدورفر. وُلد في قرية صغيرة بالقرب من فيينا، وأرسله والداه عندما كان صغيرًا للدراسة في كلية في تلك المدينة؛ هناك بقي لمدة عامين ونصف، درس خلالها اللاهوت والجغرافيا وعلم الفلك والموسيقى. بعد ذلك دخل ديرًا للرهبان مكث فيه عشرين شهرًا، لكنه لم يرغب في أن يصبح كاهنًا، فغادر الدير، وأثناء ترحاله في البلاد عمل كجزار لمدة عامين، ثم انخرط لمدة عام ونصف في مهنة صانع الساعات، وبعد ذلك انضم إلى فرقة من الغجر حيث أظهر الكثير من المهارة في أعمال السحر وخفة اليد. وفي هذا الارتباط الغريب، بقي معهم في مقاطعات أوروبية مختلفة لما

يقرب من أربع سنوات، وأخبرني أنه تلقى درجة من الماسونية وصفها بأنها درجة الرافعة.

بعد أن ترك الغجر ذهب إلى صقلية، وهناك التحق بسلاح الإطفاء، وهو فيلق كان مكلفًا بإدارة المدفعية. بقي في هذا السلاح لأكثر من عام، ثم هرب إلى نابولي وتجنيد في سلاح الفرسان الفرنسي. وبعد الخدمة في سلاح الفرسان لمدة عام هرب وذهب إلى روما وانخرط هناك في فرقة من المهرجين، لكنه بقي في هذا العمل لمدة أسبوع واحد فقط، عندما هرب وعاد إلى نابولي. هناك صار مرتدًا واعتنق الإسلام وذهب إلى مصر والتحق بخدمة أحد بكوات المماليك كمقدم مدفعي. مكث في مصر قرابة ثلاث سنوات، لكنه لم يشارك في أي معركة. هبط الفرنسيون في الإسكندرية، فتم التغلب على المماليك وطردهم من البلاد. أُمر لايتنسدورفر بوضع الألغام في القاهرة لنسفها عند اقتراب الفرنسيين، لكنه أخبرني أنه أمر بعض مرؤوسيه، تحت طائلة الموت، بإخماد فتائل الألغام، وبالتالي أنقذ القاهرة من التدمير. ولم يكن هذا، كما اعترف، مدفوعًا بمشاعر الإنسانية، بل لأن الخوف كان يسيطر على كل فرد في المعسكر. وفي هروب المماليك من القاهرة وجد نفسه منفصلاً عنهم وعن زوجاته الأربع التركيات.

بعد أن وصل الفرنسيون إلى مصر قدم لهم نفسه كجندي محتاج، فكُلف بمهمة سرية من بونابرت للذهاب إلى فلسطين وبلاد الشام؛ وهناك، بصفة بائع متجول، كان يتجول في المدن والقرى الرئيسية للحصول على معلومات عن قوتها ومواردها، ووضع خريطة للبلاد، وإبلاغ الفرنسيين من وقت لآخر بمعلومات عن موقعه ونجاحه. ولكي يتمكن من تنفيذ هذه المهمة بنجاح، كان يسافر كبائع للمجوهرات، وكانت لغته الدارجة (العربية) ومظهره وملبسه تخدم في إخفاء أي اشتباه. كان قد أتم مهمته وكان على وشك العودة عندما اكتشفه الفرنسيون في عكا.

وبعد فترة قصيرة تشاجر مع زوجته التركية التي كان قد اتخذها في فلسطين فهرب وذهب إلى حيفا، وهناك صعد على متن سفينة تجارية ووصل إلى قسطنطينية. ثم ذهب إلى سالونيك حيث تزوج من امرأة يونانية وأنجب منها ولدين، ثم رحل إلى الإسكندرية. عند وصوله إلى تلك المدينة علم بوجود

الجنرال إيتون وسعى للخدمة، فتم توظيفه في الحملة إلى درنة وتمت ترقيته إلى رتبة ملازم في فيلق مشاة البحرية.

لقد ذكر الجنرال إيتون اسمه بالفعل بشرف لمشاركته في تلك المغامرة، ولا سيما في الاشتباك الذي أعقب الاستيلاء على درنة. بعد ذلك بوقت قصير تمكن من الانضمام إلى الأسطول الأمريكي وعمل في مختلف سفن الحرب الأمريكية حتى وصل إلى الولايات المتحدة في عام 1810. ثم ذهب إلى نيو أورليانز بناءً على توصية الجنرال إيتون للحصول على قيادة في جيش الولايات المتحدة.

كان لايتنسدورفر شخصية ضخمة؛ طوله ستة أقدام وبوصتان، وذو عضلات وقوة كبيرة.

في نوفمبر، بعد عودته، وجد نفسه في بريمفيلد. كانت صحة الجنرال إيتون في ذلك الوقت تتدهور بسرعة، واضطراباته المنزلية وارتباك شؤونه المالية وصلا إلى حد حاسم. كان قد ترك استخدام المشروبات الروحية في الغالب، ولكنه استخدم كميات وفيرة من النبيذ القوي والأفيون المخدر ونوعًا من المشروبات المُعدة من الكرز. كانت قدراته العقلية، التي تدهورت كثيرًا بسبب استخدامه المفرط للنبيذ والأفيون، قد انحدرت بسرعة، وأصبح كثيرًا ما يظهر في ذهنه تلك البساطة والعته الطفولي اللذان يسبقان أحيانًا الموت.

في ربيع عام 1811، كان من الواضح أنه لا يستطيع العيش طويلًا. في منتصف شهر مايو بدأت أعراض الانحلال تظهر نفسها بشكل أقوى، مع تورم في البطن والساقين والذراعين والأطراف. أصبح خلال بقية الشهر أضعف جسديًا وعقليًا كل يوم، لكنه مع ذلك كان يتمتع بالقدرة على التجول في جميع أنحاء المنزل وفي الفناء حتى بعد الظهر من يوم وفاته.

في الثلاثين من مايو طلب أن يُحلق بشكل خاص، وبعد أن تم ذلك نظر في المرآة ولاحظ وهو يضحك: «يا لها من صورة هيكل عظمي». في صباح اليوم التالي تجول في جميع أنحاء المنزل وبدا في حالة مزاجية جيدة، وفي فترة ما بعد الظهر أراد الذهاب إلى الفناء، لكنه كان ضعيفًا جدًا بحيث لا يستطيع الوقوف دون مساعدة. وُضع في عربته وأُخذ إلى الفناء حيث جلس حوالي

نصف ساعة. أثناء عودته كان عليه أن يستريح مرتين قبل أن يصل إلى غرفته، وأثناء جلوسه على الأريكة سأل إذا كانت هناك أي أخبار من فرنسا أو إنجلترا؟ فقيل له إن هناك أخبارًا مؤخرًا، فأجاب: «نعم، هذا مؤكد، أعتقد». وفي أوقات أخرى لم يلتفت إلى ما قيل أو فعل، وكانت هذه آخر الكلمات التي نطق بها. كان تنفسه منتظمًا خلال اليوم التالي، لكنه أصبح تدريجيًا أكثر سرعة وصعوبة. وحوالي الساعة التاسعة إلا ثلث مساءً في الأول من يونيو، لفظ أنفاسه الأخيرة دون أنين أو صراع.

في يوم الثلاثاء التالي دُفن تحت السلاح وفقًا لرغبته؛ وكان حاملو نعشه هم الكولونيلات سيميون، ومورغان، ولين، وباتريك. حُمل جثمانه إلى بيت الاجتماعات حيث ألقى القس الدكتور ويلش من مانسفيلد (كونيتيكت) خطبة بليغة ومناسبة ومؤثرة للغاية.

وهكذا سقط قبل الأوان الجنرال ويليام إيتون، رجل حباه الله بمواهب من أرقى الدرجات. كان مساره المهني لامعًا وغريب الأطوار؛ لقد أنجز الكثير، وكان قادرًا على إنجاز أكثر من ذلك بكثير لو واكبت الحكمة طموحه. ومع ذلك، لا ينبغي لكفاءته في القيام بأعمال أعظم أن تقلل من بريق ما أنجزه. إنه لم يحترم نفسه على النحو الواجب ولم يحافظ على السمعة العالية التي ارتقى إليها في وقت من الأوقات من أجل استمرار أو زيادة شهرته الخاصة وخدمة بلاده، وهو موضوع رثاء عادل؛ ولكن على حد تعبير الدكتور جونسون: «عندما يُعترض على أن الكثير قد أُغفل، فلا ننسى أن الكثير أيضًا قد أُنجز».

إن تصرفات الجنرال إيتون المتكررة الطائشة دفعت الكثيرين ممن لم يعرفوه إلا قليلاً إلى تكوين رأي متواضع في قدراته. كان سلوكه في بعض الأحيان يبرر للغرباء تكوين مثل هذه المشاعر، لكن أولئك الذين كانوا يعرفونه عن كثب لا يمكن أن يمتلكوا إلا رأيًا ساميًا في قواه الفكرية. لو اتبع مسارًا أدبيًا بدلاً من المسار العسكري، كشاعر، أو رجل دين، أو رجل دولة، أو خطيب، لكان لديه عدد قليل من المنافسين. سألته ذات مرة ما هي الصدفة، أو ما إذا كان الاختيار المتعمد، هو الذي أثار رغبته في حياة عسكرية، فأخبرني أنها كانت قراءة مجلد غريب من «حيوات بلوتارخ» أو سيرة ذاتية عسكرية أخرى عندما كان صبيًا، وهي التي وجهت طموحه الشاب إلى السعي وراء المجد من خلال

مهنة السلاح. أثناء وجوده في الكلية قرر في وقت من الأوقات دراسة اللاهوت، وبعد مغادرة الجامعة قرر في وقت آخر دراسة القانون، ولهذا الغرض سجل اسمه في مكتب محامٍ في وندسور (فيرمونت)، وكان بلا شك سيثابر لو خاب أمله في طلبه للحصول على رتبة في جيش الولايات المتحدة.

بين مخطوطاته المتناثرة أجد نسخة من رسالة مؤرخة في «أطلال أوتيكا، 22 أغسطس، 1799»، موجهة إلى القس الدكتور ويلش، تتضمن عظة لدعم خلود الروح، والتي اقتُطفت منها هذه المقتطفات:

«القس العزيز،

يخطر ببالي أنني وعدتك قبل سنوات عديدة بأن «أكون قسًا». «ليس في الإنسان الذي يمشي أن يوجه خطواته». إن الأحداث التي ميزت مسار حياتي منذ أن تعهدت بذلك لم يكن بإمكان أي بصيرة بشرية أن تتنبأ بها؛ بالكاد أستطيع القول إنني كان لي إرادة فيها. كنت سأعتقد آنذاك أنه من الجنون في أي شخص أن يتنبأ بأنني في فترة مستقبلية سأؤرخ لك رسالة من أطلال أوتيكا.

بين أولى لحظات بداية تفكيري، أظهرت الديانة المسيحية لعقل يرغب في الحياة الخالدة جمالاً ممتازًا وآمالاً سامية؛ وعلى الرغم من أن تطورات وجودي حتى الآن قد قدمت أدلة أقل على هذا الانطباع مما يجب أن تنتجه سمو الموضوع، إلا أنه مع ذلك موضوعي المتكرر، وإن كان سريًا.»

«بما أنني موضوع حاليًا بين أطلال المشاريع والطموح البشري وآثار عظمة الإنسان، التي تكمن مدفونة تحت نفايات عدة آلاف من السنين، يفرض هذا الموضوع نفسه على ذهني بوقار جديد ومزيد من نفاذ الصبر للإيمان.

بين مخطوطاتي الجامعية أجد شيئًا كنت أقصده كأصل لعظة؛ وعند إعادة النظر فيها، في هذه الفترة المتأخرة، أتعرف على الأفكار؛ وعلى الرغم من عدم ترابطها، أقدمها لكم. لن تجدوا فيها إلا هلوسة الشباب، لكن ليس لدي الوقت ولا الوسائل لأمنحها ملامح الحجة الصحيحة.

ولأن الكهنة في جميع البلدان، باستثناء الولايات المتحدة، قد أسقطوا ديننا ليصبح أداة للقمع، فليس هذا حجة ضد النظام ذاته. أي مؤسسة حكومية جيدة، سواء في العالم الديني، أو الأخلاقي، أو السياسي، لم تتعرض

لنفس الانتهاك في أيدي الرجال الجشعين، أو القساة، أو الطموحين؟

حياة يسوع النقية هي معجزة عظيمة مثل قيامته. من عاش كما عاش؟ عندما حاكمه أعداؤه أمام المحكمة التي كانت ستقرر الحياة والموت، بماذا اتهموه؟ ليس برذيلة أخلاقية واحدة، كما يلاحظ الحاكم الروماني بكل لياقة، إذ لم يجد فيه عيبًا.

وعندما نجد، بين خصومه، رجلًا يستطيع أن يقدم نظامًا أفضل كقاعدة للممارسة، ويعطينا أمثلة على فضيلة أكثر تميزًا، عندئذ سنكون آمنين في التخلي عن الناصري واتباع المصلح. لكن الحقيقة أن الرجل الحكيم، كلما شابه نفسه في المزاج والممارسة بشخصية كائن كامل، كلما شابه رجل الأحزان.

هل نسمع قط رجلًا يحتضر يندم على أنه عاش بتعقل، وعدل، وتقوى في هذا العالم؟

نظامنا يؤسس توازنًا عادلًا بين ملكية العقل وفوضى الأهواء. إنه وحي من الله. كيف لا يكشف الله ما غرسه بعمق في النظام البشري؟

المادي يسميها كبرياء، لكن جهوده ذاتها تثبت أن هذا الكبرياء موجود في صدره. ما الذي يمكن أن يدفعه إلى المهمة الشاقة لمحو أمل الخلود، وإقامة عقيدة عديمة الفائدة تمامًا للبشرية، وقاسية على البائسين، سوى رغبة في أن يُخلد في ذاكرة من يخلفه؟

ما هو الطموح؟ لماذا تُنصب الآثار؟ لماذا نحافظ على صورة أصدقائنا؟ إنه الخلود؛ لماذا ينحت الراعي اسمه في اللحاء الأخضر للكثير من الشجيرات؟ إنه الخلود، على الرغم من أنه لا يعرفه. إنه إله الطبيعة يعمل في صدره.

لم يرغب أي رجل في الموت الأبدي حتى جعله الذنب أولًا يتجنب النور، ومنعه الكبرياء من التوبة. نجد في جميع العصور أن دعاة الخلود كانوا من أنصار الفضيلة الأخلاقية.

إذا لم نتمكن من إيجاد حجة في الفلسفة الطبيعية لدعم عقيدة خلود الروح، فلن نتمكن كذلك من إثبات العكس. إذا كان أولئك الذين وضعوا خيرهم الأسمى في المتع الدنيوية يمكن أن يكتفوا بخير عابر كهذا، وإذا كانوا على استعداد لتملق الأشرار بهذا الملاذ المظلم من الذنب؛ فمن غير اللطف مع

ذلك حرمان الفقراء، والمنفيين، والمؤمنين، الذين تاهوا كغرباء وحجاج عبر محن هذا العالم، من أمل مضياف كحضن المخلص.

هل نجرؤ على اتهام جود الله بأنه لم يعد مكافأة للصالحين؟ هل سيهلك أمل الصالحين؟

سيجعل عبء الحياة سهلًا ووسادة الموت خالية من الرعب. هذه مزايا لا يمكن العثور عليها في الفلسفة التأملية. إنها وصايا لا يستطيع العالم أن يعطيها ولا أن يأخذها.

يجادل الفلاسفة بأن تحلل النظام الحيواني يعيد كل جسيم مادي إلى عنصره الصحيح؛ فلماذا لا تنطبق الحجة أيضًا على المبدأ العقلاني فينا؟ لماذا لا تجادل الفلسفة حتى بأن هذا أيضًا سيعود إلى مصدره الأصلي؟

كان صوت الجنرال إيتون في الخطابة العامة عاليًا وواضحًا، ونطقه بطيئًا ومؤثرًا. كانت عروضه الوحيدة تقريبًا في الخطابة العامة خلال جلسة واحدة للهيئة التشريعية لهذه الولاية؛ ولكن تم اكتشاف ما يكفي آنذاك لتبرير الاعتقاد بأنه لو كرس عقله للمنبر أو المنصة لكان من أفضل الخطباء العاملين.

كان مولعًا بالشعر على الرغم من أنه لم يكتب الكثير، ولم تكن قراءته الشعرية واسعة جدًا. ومع ذلك، تكشف القطع القليلة المنشورة في هذا المجلد عن قوة عقل كبيرة وقوى إبداعية عظيمة، مع ثقافة جزئية فقط. في مجلد من يومياته أجد القصيدة التالية:

قصيدة

عِندما خطَّتْ يَدُ «المُهندسِ الأعظمِ» بارينا
رَسْمَ الوجُودِ، وبَدءَ التكوينِ فينا
مِنْ عتمةِ الفوضى، وليْلٍ لا انتهاءَ لهُ
استنهضَ النُّورَ، والأفلاكِ، والنِّظامَ دِينا

في عُمقِ عقلٍ عَلِيمٍ، صِيغَتِ الرُّؤيا

أنْ يَسكُنَ الأُنسُ والأرواحُ مَسعانا
فانشقَّ منهُ كِيانُ المرءِ، وانتصبتْ
في الأرضِ صورةُ بارينا تُحيِّينا

للحُبِّ صِيغَ، وللأفراحِ مَنهجُهُ
يَسعى لكلِّ جَميلٍ في مَرَاعينا
مرَّتْ عليهِ ثواني السَّعدِ هانئةً
بينَ الصَّفاءِ، وصبحٍ باتَ يُهدينا
صداقةٌ سَمقَتْ، حُبٌّ يُقدِّسُها
في جنَّةِ الخُلدِ، والأقدارُتُرضينا

لكنَّ سُمَّ «الحَسَدِ» الملعونِ حَلَّ بِنا
واستوطنَ الحِقدُ أرواحاً فتُؤذينا
عادتْ طبولُ الرَّدى، والفوضى قدْ رَجعتْ
تُعْمِي العيونَ، وبالآلامِ تَسقينا
اجتاحَ هولُ الرَّدى شرقاً بِمِحنتِهِ
والغربُ يَرجفُ خوفاً مِنْ مآسينا

بكى الأنامُ، وضاعَ الصَّحبُ في زمنٍ
تاهوا بهِ، والأسى غطَّى أمَانينا
كُرهٌ، وشكٌّ، وثاراتٌ، ومَذبحةٌ
مَحَتْ ضياءً منَ الرَّحمنِ فينا!

لمْ تَبقَ في بيدِ «الصحراءِ» فاتنةٌ
خوفٌ بكلِّ غصونِ الرَّوضِ يُشجينا
أشواكُ «غِيرةٍ» مَنْ ضلّوا مَسارَهُمُ
بَذرتْ شُقوقاً بعهدِ الصِّدقِ، تُدنينا

لكنَّ «رَحمةَ» مَنْ في العرشِ قدْ نَظرتْ
لِحالِنا، وبنى لِلسِّلمِ تَمكينا!
على أساسٍ قَويمٍ، صاغَ مَنزِلنا
لِيُشرقَ النُّورُ، يَهدي كلَّ غاوينا
مَدَّ السَّلامَ، وصوتَ الحَقِّ يرفعُهُ
والحُبُّ طافَ بكلِّ الكَوْنِ يُحيينا

فأبصَرَ الناسُ أنواراً كما سَلفتْ
وعادَ بالإيمانِ رُوحُ الطُّهرِ تَكفينا
جاء الضياءُ مِنَ الشَّرقِ السَّعيدِ، ومَضى
نحو البلادِ بغربِ الأرضِ يَهدينا
هناكَ، حيثُ مَداحاتُ «الحريَّةِ» سَكنتْ
وصارَ نَجمُ الهُدى للحقِّ يَهدينا

بِيَدِ العِنايةِ، نالَ «البَنَّاءُ» نَصراً
في أرضِنا، واليَقينُ اليومَ مَرْسانا
ولِيَحفظَ «العِلمَ» مِنْ حِقدِ الغُلاةِ، ومِنْ
سَهمِ الحَسودِ، بَعثَ «الرَّبُّ» مَولانا:
«واشنطنَ» الحُرَّ، نبراساً ومَفخرةً
رَمزاً شبيهاً بِنُورِ الحَقِّ مَزِيانا!

يا مَعشرَ الإخوةِ الأحرارِ، حيُّوهُ
ما دارَ كوكبُ شمسٍ في مَدارِينا
ولِيَبْقَ ميلادُهُ عيداً نُؤرِّخُهُ
في كلِّ عامٍ، بِيُمنٍ باتَ يُغنينا.

مدينة واشنطن، 10 فبراير 1804، أُلفت للاحتفال بذكرى واشنطن في

مونسون، 22 من هذا الشهر، بقلم ويليام إيتون.

هذه العينات القليلة من شعره، ربما كل ما كتبه تقريبًا، على الرغم من أنها غريبة وغير صحيحة في بعض الأحيان، كافية لإثبات أنه لو اتبع ربات الشعر بدلاً من المريخ لكان سعيه قد تُوج بالنجاح.

ملاحظة الساخر الروماني: (لا يغيب أي إله حيث توجد الحكمة)؛ على الرغم من أنها كانت معروفة جيدًا لإيتون، إلا أن تأثيرها كان ضئيلاً على سلوكه. قلة من الرجال كان لديهم سيطرة أقل على أهوائهم؛ فما كان يفكر فيه في اللحظة كان يُنطق به عمومًا في ذات اللحظة، دون اعتبار للظروف أو العواقب. مثل هذا التصريح غير الحكيم أدى في كثير من الأحيان إلى توليد الازدراء أو خلق أعداء.

لقد قيل إن جميع الرجال لديهم حصة متساوية تقريبًا من الغرور، وأن لقب التواضع والغرور يُمنح فقط بما يتناسب مع الحذر أو الإهمال الذي يُخفى به ذلك الغرور أو يُظهر. كقاعدة عامة، ربما يكون هذا الرأي صحيحًا؛ فعندما تُعرض المشاعر الحقيقية للرجل الذي يبدو أكثر تواضعًا على الفحص الشامل، بالكاد سنعرف كيف نميز بينه وبين من نعلن أنه مغرور خارجيًا. في الجزء الأول من حياة إيتون لم يكن ملحوظًا بالغطرسة، وربما استمر ذلك حتى عودته من البحر الأبيض المتوسط عام 1805، عندما تملقه الكثيرون بأكثر أنواع الإطراء إسرافًا بالإضافة إلى الموافقة العادية. عندما وصل إلى ريتشموند (فيرجينيا) في طريقه من هامبتون إلى مقر الحكومة [نوفمبر 1805] نشر محرر إحدى الصحف هناك، وهو رجل ذو مشاعر حماسية ولكن قليل التمييز، مدحًا طويلاً بإسراف طفولي، ابتلعه إيتون بشراهة وبدون إهانة بينما أثار ابتسامة لدى الرجال ذوي البصيرة. كما أن الصحف الأخرى، الراغبة في تمجيد الشخصية العسكرية الأمريكية، لم تتردد في أي إسراف في التعبير قد يمجد سمعته أو سمعة بلاده. سرعان ما انتشرت الحكايات والقصص عن حياته في المنشورات الدورية المختلفة، والتي لم تكن خالية من التأثير على عقله. ومن هنا، كما لوحظ سابقًا، ربما نشأت المعارضة في مجلس النواب في الولايات المتحدة لمنحه ميدالية؛ لأنه من هذا الوقت، أصبح سرد مآثره الخاصة وحكايات عن حياته يميل في جميع المجالس إلى

احتكار حصته من المحادثة؛ ومن عادة القيادة الطويلة، اعتاد على اتخاذ نبرة صوت سلطوية وتقلص في الحاجبين، محسوبة في كثير من الأحيان لإثارة الازدراء بدلاً من الاحترام. ومع ذلك، غالبًا ما كان يتم التخلي عن هذه الأشياء حين تكون أخلاقه مهذبة، ومحادثاته مفيدة، وروح دعابته مسلية، وذكاؤه لامعًا.

بعض حالات الحياة أكثر من غيرها عرضة تدريجيًا لتكوين عادات الإفراط في الشرب، وربما يحدث ذلك في الجيش أكثر من أي مكان آخر: حين لا يكون من الممكن في كثير من الأحيان الحصول على ارتباط الضباط في الثكنات، والكتب، والشركة اللطيفة. ولتجنب ملل المعسكر السلمي، يتم اللجوء إلى تسلية طاولة الورق أو الحث الخادع على المرح المؤقت. هنا، على الرغم من أن التجاوزات قد لا تكون متكررة في البداية، إلا أن العادات تتشكل وتتأكد تدريجيًا، وتصبح بمرور الوقت أقوى من القرارات الضعيفة للضحية، وتسحبه قبل الأوان إلى «مسكنه الضيق». يُعتقد أن إيتون لم يكن عبدًا لكأسه في كثير من الأحيان إلا بعد خيبة أمله في عدم السماح له بالمسير من درنة إلى طرابلس، ومعاناة حساسيته عندما وجد أغلبية الهيئة التشريعية في بلاده غير مستعدة لتقديم دليل تافه على احترامهم لخدماته. كانت شؤونه المالية في هذا الوقت أيضًا مضطربة بسبب تأخير الدفع من قبل الكونغرس للمال الذي أُنفق في الخدمة العامة. كاتب ذو براعة كبيرة وقسوة مفرطة سخر بأقصى درجات الحرية في صحيفة عامة من ادعاءاته لشخصية محارب أو بطل، وكشف للجمهور بكثير من الحقد بعض سمات الغرور والأنانية التي أظهرها إيتون دون حذر في دائرة خاصة.

خلال صيف عام 1807، كان هناك الكثير ممن اعتبروا، دون أساس، أنه استمع في البداية بسرور إلى بور، عازمًا، إذا كان هناك احتمال للنجاح، على الانضمام إلى مشروعه. أثناء محاكمة بور، تعرض لسخريات وقسوة محاميه، وخاصة السيد مارتن الشهير؛ وخسر مبالغ كبيرة من المال بالورق والمراهنة على نتيجة المحاكمات. كان لديه بالتأكيد توقعات بمنصب عسكري رفيع استمرت لمدة عام أو عامين ولكنها فشلت. هذه الاعتبارات التي أثقلت على ذهنه أدت إلى اكتئاب روحه وزادت من تواتر لجوئه إلى الطريقة الخادعة

لاستعادتها من خلال الانغماس المدمر. كان بنيانه من أقوى الأنواع، وبدا لفترة طويلة غير مدرك للضرر الذي كان يلحقه بنفسه. في مايو 1808، عائدًا من فيلادلفيا إلى بريمفيلد، كان رفيق سفره في العربة صديقه القديم السيد بيكرينغ. في صباح وصوله إلى المنزل، وبمجرد دخوله الغرفة مع رفيقه، سأل ابن زوجته عمن تم انتخابه للمحكمة العامة التالية، واثقًا تمامًا من إعادة انتخابه. كانت الإجابة أن هناك اثنين منتخبين، فسأل بلهفة من هما، وعند إبلاغه كشف وجهه عن مشاعره المخيبة للآمال. توقفت العربة لبضع لحظات فقط وغادر السيد بيكرينغ. أعلن إيتون أنه لم يتناول شيئًا أقوى من القهوة والشاي لمدة خمسة أيام، وكان ينوي التخلي إلى الأبد عن «السم البطيء اللعين» كما أسماه. وأثناء غيابه، تم حجز عربته للدين، فبدا مضطربًا ومكتئبًا، وبعد ذلك بوقت قصير سار إلى حانة مجاورة لتخفيف حزنه. يا لضعف الإنسان! ليس من المستبعد أنه لو واجه، عند عودته، حوادث أو معلومات تسبب مشاعر سارة لكان قد التزم بقراره، ولكان في هذه اللحظة شرفًا وبركة لبلده. لكن التخمين لا طائل منه، والأسف لا يجدي. أعلن عدة مرات عزمه على تغيير عاداته، لكن تجربة يوم أو يومين جعلت قراراته عديمة الفائدة.

لا يوجد سبب وجيه للشك في أنه في شبابه كان مؤمنًا جادًا ومتحمسًا بالديانة المسيحية. رسالته إلى الدكتور ويلش عام 1799 تكشف أن ذهنه كان متأثرًا بالتأملات الدينية، على الرغم من أن بعض التعبيرات تشير إلى شكوكه، خاصة عندما يتحدث عن «نفاذ صبره على الإيمان». وفي مكان آخر يلاحظ: «ليس من شأن أتباع يسوع المسيح أن يعلنوا الانتقام من أولئك الرجال الذين يفكرون بتعقل في عدم إيمانهم. المسيحية تحظر ذلك، والسامري الصالح يعطينا مثالاً صارخًا على عكس ذلك. لا يمكننا بالتالي أن نعترف بأن المتعصبين في قضية المسيحية الذين يتعاملون بشكل أساسي بالغموض، والذين يفرضون الإيمان بشكل رئيسي بالإرهاب، هم نسخ حقيقية من سيدهم الخيّر.» ومع ذلك، مهما كانت آراؤه حتى سنوات قليلة قبل وفاته، فمن المؤكد أنه في سنواته الأخيرة لم يغتنم فقط الفرص المتاحة بل سعى إليها كثيرًا لعرض ذكائه أو براعته في محاولات لإضعاف الحجج

التي تُقدم لدعم المسيحية. كان السخرية أحيانًا سلاحه، وفي أوقات أخرى استخدم الحجة الرجولية، محاولًا إبطال المعجزات من خلال تفسيرها على أساس مبادئ فيزيائية أو تحريف الحقائق. أعطته معرفته بعادات وتقاليد فلسطين، ومصر، والجزيرة العربية بعض المزايا في النقاش. سمعته عدة مرات يروي المحادثة التي جرت بينه وبين المفتي المسلم في تونس؛ إذ استمع المفتي إلى روايته لمبادئ الديانة المسيحية وحججه لدعم ألوهيتها وسموها على العقيدة الإسلامية، وبحرارة وحماس كبيرين حاول المفتي محاربة عقيدته، وعند الفراق توسل إليه بانفعال كبير أن يتخلى عن كفره ويلجأ إلى الإيمان الحقيقي ويؤمن بالنبي وينقذ روحه.

كان لذلك تأثيره على ذهنه في قيادته إلى الاعتقاد بأن رحمة الخالق تمتد بالتساوي إلى الأخلاقي والمخلص من كل مناخ وكل عقيدة. كانت الآمال، والمخاوف، والشكوك تثير اضطراب ذهنه فيما يتعلق بحياة مستقبلية. وقبل وفاته بفترة قصيرة، في آخر مرة تمكن فيها من الخروج للركوب، طُرح موضوع الحالة المستقبلية بالصدفة فسألته عن رأيه، فتحدث بلامبالاة عن الخوف من فقدان الحياة المشترك بين معظم الحيوانات؛ وفيما يتعلق بالإنسان قال إن هناك سببًا للأمل في وجود مستقبلي ولكن لا دليل قاطع. في السابق، يبدو أن آماله كانت أقوى بكثير، كما يثبت المقتطف التالي:

«منذ خلق الإنسان وسقوطه، كان حديث المفكرين يدور حول الحصول على بعض الأدلة المنطقية على أمل وجود حياة بعد هذه الحياة القصيرة؛ لأنه بدون مثل هذا الأمل، كل شيء خيالي هنا. من أول لحظة من الإرادة، يوضع العقل في السعي وراء بعض الأهداف البعيدة يتوقع بامتلاكها الراحة والرضا. بمجرد تحقيق هذا الهدف يهلك في التمتع به، ويتبعه آخر بالتتابع حتى يوقف الموت سعيه، ويترك الإنسان كما لو أنه لم يتمتع به قط. كل يوم يجلب اليقين من هذه الكارثة، وينبه الناس إلى حماقة حصر كل ممارسة الروح في أشياء عالم عابر وخيالي. لقد تجرأ الإنسان على التحليق وأمل في وجود مستقبلي، متأملاً الحكمة اللانهائية المعروضة في بناء نفسه؛ قدرته على التمتع، وميله إلى الأمل، وخوفه الفطري من الانحلال، وميوله إلى الحب الاجتماعي؛ يحلق بتواضع ويسأل خالقه العظيم: هل كل هذا خيال؟ هل لا

يوجد مناخ بعيد تهاجر إليه الروح؟ يؤكد العقل ذلك، ولكن متى أو أين؟ كل شيء تخمين حتى يطرد الوحي الشكوك ويأمره بأن يأمل بجرأة.

إذا كان الإنسان فانٍ بالكامل، فلماذا هذا العرض الباهر من العوالم؟ لماذا ذلك النجم اللامع، الشمس؟ هل أُشعلت لتضيء لنا عبر هذا العالم المظلم إلى هاوية من الليل الأبدي؟ إذا كان الخلود خيالًا، فما هو الخلق إلا دراما مأساوية كان فيها الجنس البشري لآلاف السنين ممثلين بائسين والله نفسه هو المؤلف؟ هل نحن إذن نُجلب قسرًا إلى هذا المسرح لنحدق لحظة بدهشة في صرح الكون الهائل ثم نغلق أعيننا في عمى أبدي؟ يجب أن يتطلب الأمر أدلة أقوى لتشجيعنا على اتهام الذكاء الأسمى بهذه المهزلة من تبريرنا في الأمل فيه بشكل أكثر جدارة.»

القس السيد فاي، قس المدينة، زاره كجار، مشيرًا إلى أنه ربما كان مقتنعًا بأن خروجه من الحياة الفانية لا يمكن أن يتأخر طويلاً، وسأله إذا كان مستعدًا لتبادل العوالم. «أوه، نعم،» قال إيتون، «مثل بحار، أنا دائمًا مستعد.» بدا الرد غير لائق لرجل في وضعه لدرجة أن السيد فاي لم يضغط على الموضوع أكثر. وبعد فترة، وهو على وشك المغادرة، طلب منه الجنرال إيتون التوقف وأبلغه بأنه قد يكون من المقبول لدى العائلة أن تسمع صلاة، وسأله السيد فاي إذا كان لديه أي طلبات خاصة، فأجاب بأن السيد فاي يعرف ما هو مناسب في مثل هذه المناسبات.

القس كلارك براون، قس سابق في بريمفيلد، زار الجنرال إيتون؛ وبعد محادثة عابرة أعرب السيد براون عن أمله في أن اعتماده على شفاعة المخلص سيجعل لحظاته الأخيرة هادئة، وبدا أنه يوافق بإيماءة من رأسه، وقبل رحيله طلب منه أن يصلي معه.

ربما يجب أن يُذكر أنه قبل وفاته بحوالي شهرين كان يرغب بشدة في تعميد أطفاله ليُظهر احترامه للدين المسيحي، وقدم طلبًا للسيد فاي لأداء الواجب. وبعد التشاور مع بعض أعضاء الكنيسة، كتب السيد فاي له رسالة يبلغه فيها بأن غيابه الطويل عن التواصل مع الكنيسة وعاداته غير الأخلاقية تجعل من غير المناسب أداء مثل هذه الخدمة. وكان الجنرال إيتون غاضبًا للغاية عند استلام الرسالة.

هذه الملاحظات المتعلقة بمشاعره الدينية واجبة للنزاهة والحقيقة؛ وبينما قد ترضي الفضول، لا يمكنها أن تسيء بحق إلى أي شخص. ومثال السنوات الأخيرة للجنرال إيتون لا يمكن أن يعطي أي انتصار أو عزاء لعدم الإيمان.

كان الكرم من أبرز سمات شخصية إيتون؛ لم يكن بإمكان أي رجل أن يجد متعة أكبر منه في أعمال الخير. عندما أصبح فقيرًا لدرجة أنه كان من الصعب أحيانًا توفير القوت، إذا طلب جار فقير أو مسافر صدقة، كان مستعدًا لتقسيم آخر رغيف خبز معه. وغالبًا ما كان هذا الكرم في أيامه الأفضل يصل إلى حد الإفراط. بعد أن ركب ذات مرة في عربة عامة لبضعة أميال، سأل السائق عن أجره، فأجابه «دولار»، فأعطاه نسرًا ورفض الباقي. هذه الحكاية ليست وحيدة؛ ففي منزله كان دائمًا مضيافًا أو مسرفًا، وكان يسعده إقامة حفلات لمواطنيه وأصدقائه والغرباء.

نادرًا ما كان يتأخر في إعطاء السائلين حكايات عن حياته العسكرية، وروايات عن رحلاته، أو تاريخ عادات وشخصية الشعوب التي تعامل معها.

بين التملق الفج والمجاملات العادلة، كان قاضيًا غير مبالٍ؛ فنادرًا ما كان يشمئز من أكثر أنواع الثناء إسرافًا. كان الإطراء عمومًا جواز مرور مضمونًا إلى صداقته، وكان يتم استغلال هذا الضعف أحيانًا لارتكاب تعديات على ممتلكاته.

لم يكن غنيًا أبدًا؛ كان يحمل رتبة نقيب عندما تزوج، ولم يكن دخله أكثر من كافٍ لإعالته. وأثناء عمله كقنصل في تونس، ومن خلال المشاريع التجارية، اكتسب ممتلكات كبيرة، خصص جزءًا منها لشراء حوالي أربعين فدانًا من الأراضي في بريمفيلد ولبناء منزل كبير بشكل غير ضروري. وفي إدارة شؤونه المالية في الجزء الأخير من حياته كان مهملًا ومسرفًا وغير حكيم. كان يعتمد على الآخرين في إدارة شؤونه الزراعية، وأُهدر الكثير بالإسراف والإهمال. كان سخيًا إلى حد الإفراط، وعاش لفترة طويلة كما لو كان يملك عقارًا أميريًا، لا يستمع إلى نصيحة ولا يكبح جماحه أي توقع للعواقب.

من العشرة آلاف فدان من الأراضي التي منحته إياها الهيئة التشريعية، باع نصفها في شتاء عام 1808 بسعر خمسين سنتًا للفدان. وفي صيف

نفس العام، زاره الشريف عدة مرات؛ وقبل خريف عام 1809 كانت معظم ممتلكاته، حتى أثاث منزله، مثقلة بالرهن أو فُقدت في المزاد. كان مهملًا جدًا لتجنب تكاليف الدعاوى القضائية، وبما يتناسب مع زيادة اضطراباته بدا عدم اكتراثه بالعالم.

ومع ذلك، كانت هناك لحظات شعر فيها بالثقة في قدرته على التغلب على صعوباته. في شتاء عام 1809 تحدثت معه ذات مساء حتى ساعة متأخرة من الليل، وكان وضعه الخاص وآفاقه موضوع المحادثة. بعد أطروحة كاملة عن إنجازاته وخيبات أمله عازيًا لجوءه إلى الإفراط إلى المعاملة السيئة التي تلقاها من الإدارة، أسهبت في الحديث عن اليقين من الخراب السريع دون إصلاح، وعن الوسائل السهلة لاستعادة الائتمان والشرف. ضغط على يدي متأثرًا حتى البكاء، وأثنى على صراحتي، وكرر عزمه «أن يكون رجلاً؛ أن يكون إيتون مرة أخرى». وعند دخولي غرفته في صباح اليوم التالي خاطبني قائلاً: «صباح الخير؛ قل ما شئت، ولكن لا مزيد من المحاضرات؛ تعال، تناول معي كأسًا من الروح والماء».

كان عدم اكتراثه بشؤونه المالية لدرجة أنه مات معسرًا، على الرغم من أنه لم يكن مدينًا كثيرًا.

من فحص الوثائق، يبدو واضحًا أن إيتون عومل بازدواجية من قبل الإدارة فيما يتعلق بصلاته مع أحمد الباشا. تكشف رسالته إلى الكولونيل دوايت عن حقائق تشهد على حذر جيفرسون لتمكينه من إلقاء اللوم على إيتون إذا لم ينجح، أو للمطالبة بالفضل إذا نجح. لماذا كان لير حريصًا على إبرام معاهدة في اللحظة التي كانت فيها قواتنا تمتلك أفضل فرصة للاستيلاء على طرابلس وفرض شروطها؟ للقارئ أن يخمن. يقول لير في رسالته إنه كان دائمًا معارضًا للحملة المصرية ودرنة، ولكن ما الذي يمكن أن يكون أوضح من أن نجاح إيتون في درنة وتوقعه لغزو طرابلس كانت الأسباب الرئيسية للمعاهدة واستعادة الأسرى؟

لم يكن إيتون محبطًا فقط من مصير قرار منحه ميدالية، بل أكثر من ذلك لعدم تلقي دليل جوهري على امتنان بلاده. كان يتوقع مكافأة مالية أو أخرى تتجاوز ما تلقاه، فهل كان ذلك غير معقول؟ إن المكافآت الممنوحة

للقادة تثير روح التنافس، ولكن كم كانت معاملة إيتون مختلفة؛ لم يكن هناك حتى تصويت شكر، بل تأخير وصعوبة في الحصول على مستحقاته العادلة.

لم يكن الجنرال إيتون عالمًا عميقًا، ومع ذلك قرأ وفكر كثيرًا. كان بإمكانه قراءة اللغتين الفرنسية والإيطالية بسهولة والتحدث بهما بطلاقة. وكانت التاريخ والجغرافيا والتكتيكات دراساته الرئيسية، وكان ملمًا تمامًا بالأخيرة، وكانت العروض العسكرية تسعده وتحفزه.

كان خطيبًا بطبيعته، ولغته كانت متناغمة وقوية وصحيحة كما تشهد مراسلاته الرسمية. وكان لديه نصيب كبير من الروح العامة، وغالبًا ما كان يبالغ فيها بنفقات تتجاوز دخله، وكان تحسين المدينة التي عاش فيها يشغل وقته وماله.

في سلوكه تجاه عائلته في الجزء الأخير من حياته كان غير منتظم ومتقلب، يعاملهم أحيانًا بلطف وأحيانًا بقسوة وشدة، غاضبًا في وقت ما دون دافع وسعيدًا في وقت آخر دون سبب، ومن هنا كانت أوامره في كثير من الأحيان حمقاء أو سخيفة.

وبالطبع كانت أوامره مهملة، أو تُطاع بدافع الخوف بدلاً من الاحترام والمودة. ولم يُحجم عن أي شيء يمكن أن يؤثر به صبر وتقدير وحس سليم وقوة إرادة فريدة لزوجته، في سبيل تصحيح مخالفاته وتعزيز راحته.

أما في شؤونه المالية، فيبدو أنه كان محكوماً بمبادئ العدل والشرف والكرم؛ فلا شك في أنه كان بإمكانه جمع ثروة كبيرة أثناء عمله قنصلاً في تونس لو استغل الفرص الكثيرة التي أتيحت له هناك لسرقة حكومته، دون إمكانية اكتشاف ذلك تقريباً. ويمكن معرفة مدى سهولة إثراء نفسه بالرجوع إلى الصفحة 330 من هذا المجلد؛ إذ قلّة في الواقع من كانوا سيهملون فرصة عادلة أتيحت له لتأمين ثمانية أو عشرة آلاف دولار بشراء ست سفن دنماركية بثلث قيمتها، لكنه أعادها بتكلفتها الأصلية. وإن الأسباب التي قدمها لذلك في رسالته إلى السيدة إيتون تشرف مشاعره، حيث قال: «تسألين لماذا؟ لأن هناك متعة أكبر في أن تكون كريماً من أن تكون غنياً. الإنسان يحتاج إلى القليل، وليس ذلك القليل لفترة طويلة. لقد نلت متعة رؤية ستة وثمانين

أسيراً بائساً يركبون هذه السفن، ويوجهون مسارهم إلى بلدهم الأصلي».

كان الجنرال إيتون يبلغ من الطول حوالي خمسة أقدام وثماني بوصات؛ ذو بشرة فاتحة تميل إلى الاحمرار، وعينين كبيرتين وزرقاوين تعبران عن الطاقة والبصيرة والسلطة ونفاد الصبر والقلق. أنفه بالحجم والشكل العاديين، وفمه كبير، وشفتاه ممتلئتان ولكن غير متورمتين؛ وعظام حاجبيه كبيرة بشكل غير عادي، وجبهته فوقهما مباشرة تتراجع بشكل ملحوظ ثم ترتفع إلى الارتفاع العادي. وقد أعلن وجهه بالكامل عن القوة والكرامة والقيادة، ولكن -خاصة في سنواته الأخيرة- كان ذلك افتراضاً أكثر منه امتلاكاً حقيقياً.

ترك خمسة أطفال؛ ثلاث بنات جميلات يبلغن من العمر عند وفاته حوالي ستة عشر وأربعة عشر واثني عشر عاماً، وصبيين مرحين يبلغان من العمر حوالي ست وأربع سنوات.

من أعمال الراحل روبرت تريت باين:

قصيدة: روبرت تريت باين

كتبت وغُنيت في ذكرى جمعية الجنرال إيتون للإطفاء، 14 يناير 1808.

اللحن: «حفظ الله الملك»

مباركةٌ هي تلك النارُ المقدسة،
التي تُلهم أشعتها الإنسان،
الساعي خلف المجد والثناء؛
فالشهرة ترفع إكليلها،
ليس بدموع أمةٍ منكسرة،
بل في ضياء الشمس الذي يُبهج
أكاليل بطلها المظفر.

في زنازين أفريقيا المظلمة،
كان أبناء «كولومبيا» يئنون،
وسط ظلامٍ يائس؛

منسيين من وطنهم الأم،
وغائبين عن ذكر أصدقائهم،
حفروا قبورهم في أماكن أسرهم،
واستسلموا لمصيرهم المحتوم.

من أجل هؤلاء الشجعان، من كان يستشعر الألم؟
من ذا الذي يبعثُ النخوة الوطنية،
في عروق بلادهم؟
إيتون.. ذاك الاسم المجيد
قدح من صوان المجد
شرارةً، لهيبها السحري
حطم قيود أغلالهم.

فوق رمال الصحراء الليبية،
قاد كتائبه الباسلة،
محلقاً لإنقاذ الأسرى؛
حيث لم يسبق للشهرة أن بسطت أجنحتها
فوق رأس الإسكندر،
وحيث انحنى «كاتو» وفارق الحياة
فوق ضريح المجد.

وعلى الرغم من جفاف الأرض وبخل الينابيع،
وتجريد العرب لنصال خناجرهم،
وتربص الجوع المروع؛
فإن إيتون يواجه كل خطر،
ببأسٍ شديدٍ حين يشتعل وطيس المعركة،
وعلم «كولومبيا» يخفق عالياً
على جدار «درنة» الشامخ.

فليُمنح الشجاعُ طويلاً
أسمى آيات الجزاء من السماء،
على الأرض تحت؛
روح بلاده النقية،
نحو شهرةٍ نزيهةٍ مخلدة،
حيث لا غدرَ سيتسللُ يوماً
تحت إكليل غاره.

مباركةٌ هي تلك النارُ المقدسة،
التي تُلهم أشعتها الإنسان،
الساعي خلف المجد والثناء؛
فالشهرة ترفع إكليلها،
ليس بدموع أمة،
بل في ضياء الشمس الذي يُبهج
أكاليل أبطالها.

مقتطف من قصيدة ألقيت أمام جمعية واشنطن الخيرية في نيوبوريبورت، 30 أكتوبر 1813، بقلم جون بيربونت:

قصيدة: جون بيربونت

ثم، بل منذ ذلك الحين، وبينما لا يزال شفقٌ رمادي
يمنح أعيننا بقايا ضياء النهار المغادر،
لأنه عندما غابت شمسنا، وتوارى مجدنا،
رصّعت خيوط الذهب سحب الغرب،
وسكبت بريقاً على العالم خلفها،
تلاشى مع انحدار الجرم الغارب؛
عُقابنا (النسر)، المحلق في طيرانٍ لا يكل

وسط الغيوم ليقتنص آخروميضٍ خافتٍ للضوء،
بعينٍ ثاقبةٍ ألقى نظرةً على عُرض البحر
ورأى علَمَه يُهانُ من قبل المعتدين؛
سمع أنين أبنائه في بوادي «نوميديا»،
يتحسرون على ديارهم، ويجرّون أغلال العبودية؛
الطائر النبيل عند ذاك المشهد المهين،
التقط الرعد من بين الغيوم وهو يطير،
بصرخةٍ رهيبةٍ أنذر الساحل الآثم،
وأطلق الصاعقة على جيش «القره مانلي»:
فغاصت الأهلة والعمائم في ذعرٍ جامح؛
والروح التركية، ساخطةً، فارقت أجسادها الفانية،
على الرغم من أنه للشجعان تُمنح مكافأةٌ جزيلة،
في أحضان الحوريات، وأروقة السماء؛
وسار إيتون منتصراً فوق هامة عدوه،
حيث تقاتل ذات يوم «حنبعل» و«سكيبيو».

واشنطن.

النهاية

كشاف عام

أولاً: الأفراد (الأعلام)

ثانياً: الأماكن

ثالثاً: السفن

رابعًا: مصطلحات وعادات وعتاد

تم بحمد اللّٰه تعالى

تناول الكتاب سيرة الجنرال الأمريكي ويليام إيتون، وتستعرض مسيرته العسكرية والدبلوماسية الحافلة في أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر. يسلط النص الضوء على نشاطه في ولايات شمال إفريقيا، وتحديداً في تونس وطرابلس، حيث واجه تعقيدات القرصنة والمفاوضات السياسية الشاقة مع الحكام المحليين. وتكشف المراسلات الشخصية والرسمية المضمنة عن طبيعة الحياة الاجتماعية والسياسية في تلك الحقبة، واصفةً العادات المحلية والتحديات التي واجهت البعثات الأجنبية. كما تتطرق الوثائق إلى النزاعات الداخلية والمحاكمات العسكرية التي خاضها إيتون، موضحةً صراعاته مع الإدارة الأمريكية حول المستحقات والتقدير. وتنتهي المصادر باستعراض سنواته الأخيرة وتحولاته الشخصية، مقدمةً صورة شاملة لرجل عاش بين طموح الخدمة الوطنية ومرارة الخيبات الشخصية.

LIBYAN
WORD
BRIDGE
Translation

الجمعية
الليبية
للدراسات
الأمازيغية